الميزان العلمي

دراسة موضوعية تحليلية
لفكر الدكتور محمد شحرور ومنهجيته

أ.د. محمد رفعت أحمد زنجير
أستاذ جامعي وباحث أكاديمي

الميزان العلمي

دراسة موضوعية تحليلية
لفكر الدكتور محمد شحرور ومنهجيته

أ.د. محمد رفعت أحمد زنجير

ISBN 978-605-81918-4-6

إتقان للنشر والتوزيع

اسطنبول - تركيا

الطبعة الأولى 2019

جميع الحقوق محفوظة
يمنع نسخ أو طباعة أو تخزين أو إعادة إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والوسائط الالكترونية والميكانيكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أساتذتي في العلم والفكر والبحث العلمي الذين تعلمت على أيديهم، ولا أنساهم، وأخص منهم:

الأستاذ الشيخ السيد سابق

الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبد النبي خليف

الأستاذ الدكتور علي محمد حسن العماري

الأستاذ الدكتور محمود الطناحي

الأستاذ الدكتور حسن محمد باجودة

الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة

الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى

الأستاذ الدكتور عبد الحكيم حسان

الأستاذ الدكتور إبراهيم الحاردلو

الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدسوقي

الأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعني

الأستاذ الشاعر أخي الكبير سليم

أسأل الله تعالى أن يرحم من قضى نحبه منهم، ويمد في عمر من بقي منهم، وأن يجزيهم عن العلم وطلابه وباحثيه خير الجزاء، وأن يجمعنا جميعاً في (مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر).

محمد رفعت

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، وعلى التابعين له بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

1

التجديد يا لها من كلمة رائعة! لها أثرها في العقول والقلوب والخيال معاً، حيث يعتبر التجديد روح الحياة، وسر بقائها، ودليلا بارزا على قدرة الخالق المتصرف بهذا الكون وحده بما يحقق مصالح الخلق!

والتجديد مطلوب في كل شيء: في الحياة، وفي النفس، وفي الآفاق، حتى الوطن، حيث إن طول الألفة يورث السآمة والملل، ومغادرة الوطن لفترة ما تشعل الحب له من جديد!

وكذلك الشأن بالنسبة للمبادئ والأفكار، فهي تتجدد أيضا، ولا سيما أننا نعيش في عصر العولمة Globalization.

2

لقد كان من حكمة الله أن جعل الدين حياة، وسماه شريعة، وهي في اللغة مورد الماء الذي يتدفق بالحياة، وجعل من آمن كمن وُلد وبدأ الحياة، فكأن الدين هو بداية جديدة للإنسان، لكي يغسل نفسه من رجس الجاهلية، وينطلق حراً متجدداً نظيفاً مع شريعة الله المنزلة من السماء.

وقد جدد الله في الرسالات والأنبياء مراعاة لحال البشرية التي كانت تنمو وتتطور، فيجدد لها الشرائع بما يقتضي نموها وتطورها، فالتجديد مطلوب في الشرائع، طالما كانت البشرية تنمو، فلما بلغت رشدها

وكمالها في عهد محمد عليه الصلاة والسلام، جاءت الرسالة الخاتمة بشريعة بيضاء كالشمس، لا تبدل ولا تلغى، ولا تحرف، ولا تنسخ، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ولما كان الأنبياء عليهم السلام يقومون فيما مضى.بدور الدعوة إلى شرائع الرسل التي لم تنسخ في أزمانهم، كانت مهمة العلماء في هذه الأمة الدعوة إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، لذا فدورهم كدور الأنبياء فيما مضى، ولذلك كان العلماء ورثة الأنبياء.

3

وإذا كان التجديد قد توقف في الشرائع والأحكام ببعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فإنه لم يتوقف من حيث وجود الرجال المخلصين، الذين يقودون الناس إلى منهج النبوة، ويردونهم إلى الصواب، ويصلحون ما أفسد الناس، لذا اقتضت حكمة الله أن يرسل كل مئة عام من يجدد دين هذه الأمة. فوظيفة المجدد هي التذكير بالعهد الأول، وإزاحة البدع والتراكمات التاريخية عن منهج النبوة، وتحبيب هذا المنهج للناس، وتقريبه إليهم وتقريبهم له، حتى يصبح هنالك اتحاد بين الدعوة والمؤمنين بها، ولا تبقى مجرد حبر على ورق لا صلة لها بواقع الناس ومجرى حياتهم.

4

وفي العصر الحديث برزت مدارس فكرية مختلفة في الدعوة إلى دين الله تعالى، كل مدرسة تحاول إحياء مجد الأمة وحضارة الإسلام، فمنها مدارس تربوية هي امتداد لتيارات تاريخية كانت موجودة في التاريخ، ومنها مدارس جديدة مستحدثة، فيها المعتدل وفيها المتطرف، وفيها العقلاني والروحاني والانفعالي المتهور، وكان حصاد هذا كله: نجاحات في أمور محددة، وإخفاقات في أمور أخرى، وفي المحصلة لم يتحقق الإصلاح المنشود نتيجة أسباب داخلية وخارجية.

في هذا المضمار بدأنا نجد من يلقي أسباب الفشل في سعينا للحضارة على الإسلام ذاته، وهذا ما فعله الملاحدة واللادينيون.

وهناك من ألقى أسباب الفشل على طريقة فهمنا للإسلام، فبدأت تظهر طروحات وأفكار جديدة لفهم الدين بطريقة ثورية، فهي لا تؤمن بالمناهج التقليدية المتبعة عند علماء الدين ودعاته من التيارات والمذاهب المختلفة، وقد رأى بعض الناس . من ضعاف الفكر والعلم . في هؤلاء مظلة تحميهم من الانجرار للإلحاد، وتقيهم شر أصحاب التكفير والتطرف والعنف، فصفقوا ورحبوا بهؤلاء، باعتبارهم دعاة التجديد والتنوير والانفتاح الحضاري!

5

ولكن هؤلاء التنويريين التجديديين وقعوا في مشاكل عدة:

أولها: أن طروحاتهم وتأطيرهم الثقافي لم يكن قائماً على مناهج علمية سوية يقبلها المنطق، ويقر بها أهل الاختصاص، فكل علم له أربابه، والتطفل على علم ما دون دراسته بشكل منهجي صحيح لا يعطيك الحق لتفتي في هذا العلم وتكون مرجعاً فيه، ولذلك نعى أبو الحسن المؤدب (ت 448هـ) في عصره كثرة المدعين للعلم، حيث قال: [1]

تصدر للتدريـــس كلُّ مهوسٍ ... بليدٍ تســـــمى بالفقيه المدرسِ
فحق لأهلِ العلمِ أن يتمثلـــوا ... ببيتٍ قديمٍ شــــاعَ في كل مجلسِ
لقد هزلتْ حتى بدا من هُزالها ... كلاها وحتى ســامَها كل مفلسِ[2]

وفي هذا الصدد أيضاً قال أبو العلاء المعري: [3]

ولما رأيت الجهلَ في الناس فاشياً ... تجاهلــت حتى ظـن أنيَ جاهلُ
فواعجباً كـم يدعي الفضلَ ناقصٌ ... وواأسفا كم يظهرُ النقصَ فاضلُ

(1) – البداية والنهاية، (12/74-75)، دار الكتب العلمية.

(2) – كلاها: من الكلأ وهو العشب. سامها: فاصل عليها.

(3) – مختارات البارودي، (2/336).

ثانيها: لكل فعل ردة فعل، فانتشار أفكار تحررية ثورية باسم التجديد والدين، سيكون له ردة فعل أكبر في إيجاد المتشددين والمتكلسين والعاكفين في محراب التراث. ولا تعالج المشكلات الفكرية والحضارية إلا بالبحث العلمي، والتحليل الدقيق، والحوار الحضاري، لا بأسلوب فرض الفكر بواسطة العصا والجزرة، فالأفكار لا تزرع في العقول ولا تقبلها النفوس إلا بالرضا والاختيار.

ثالثها: إن عدم احترام التخصص والمرجعيات العلمية لتقول كلمتها فيما هو صواب أو خطأ سيخلط الأوراق وينشئ فوضى علمية لا نهاية لها، تعقبها فوضى اجتماعية وأخلاقية وتفكك الدول والمجتمعات، لأن الثقافة أساس بناء المجتمع، والتمزق الثقافي يفكك لحمة المجتمع، وليس كل من يتكلم العربية يصلح لأن يكون باحثا في دقائقها وعلومها، وإعجاز كتابها الخالد، كما أنه ليس كل من يعرف اللغة الإنجليزية مثلاً هو مُخَوَّل في شرح آداب وأشعار شكسبير وجون ميلتون وجون درايدن وجورج بايرون... وإلا لم يكن هنالك حاجة لكليات اللغات والآداب!

رابعها: إن أصحاب الأفكار الجديدة أوجدوا مشكلات أكثر مما أوجدوا حلولا، مشكلات مع التراث والنصوص، ومع الماضي والحاضر، فنحن أمام تطرف جديد في فهم النصوص سيدمر كل شيء، ولن يقبل أحد برأي غيره، إذ سيعتبر نفسه حجة في فهم اللغة والدين، وبالتالي إن هذا الفكر الحداثي المتلبس بالدين سيضعنا أمام تفسيرات وشروحات وغرائب لا نهاية لها، فإذا كنا نرجو أن ننجو بهؤلاء من تكلس المدارس التقليدية وجمودها، فإننا سنكون كالمستجير من الرمضاء بالنار!

خامسها: إن التطرف الجديد باسم التجديد هو أخطر بكثير من التكلس والتقوقع في سجن الماضي، وقد أنتج المحدثون تطرفا وتكفيرا لا يقل خطره عن تأطير مدرسة العنف والتكفير! وسنعرض لهذا الأمر نموذجاً في هذا البحث.

سادسها: إن في هذه الأمة من العقلاء والعلماء والأدباء عدداً كبيراً، وإذا كنا جادين في البحث عن حلول لأزماتنا الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية فهذا يكون بالعودة إلى هؤلاء واستشارتهم، فلن

تعدم أمة (اقرأ) أن تجد رجالاً أولي رأي وخبرة ينتشلونها من وهدة الضياع! ولله درُّ الأفوه الأودي حين قال:[4]

فينا معاشر لم يبنوا لقــومهم
وإن بنى قومهم ما أفسـدوا عادوا
والبيتُ لا يُبتنى إلا لــه عَـمَدٌ
ولا عمــادَ إذا لم تُرس أوتـادُ
فإنْ تجمعَ أوتـادٌ وأعمـــدةٌ
وساكنٌ بلغوا الأمـرَ الـذي كادوا
وإنْ تجمعَ أقوامٌ ذوو حســبٍ
اصطادَ أمرَهـمُ بالرشــدِ مُصطاد
لا يصلحُ الناسُ فوضى لا سَراةَ لهم
ولا سراةَ إذا جهالُهم ســادوا
تَبْقَى الأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَـحَتْ
فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالْأَشرارِ تَنْقَـادُ

6

وكان من فضل الله وتوفيقه أن يسر لي تتبع ما يسمى بالتجديد والرؤى المعاصرة في تطوير الدين، فتتبعت مواقف بعض دعاة التجديد هؤلاء في كتابٍ سميته: (اتجاهات تجديدية متطرفة **في الفكر الإسلامي المعاصر)** صدرت الطبعة الأولى منه عن دار: منار للنشر والتوزيع بدمشق ومؤسسة علوم القرآن ببيروت 1421هـ/ 2001م. وكان من بين الكتب التي عرضت لها بالدراسة كتاب "**الكتاب والقرآن**" للدكتور محمد شحرور.

(4) – كتاب الأمالي، للقالي، (2/224-225).

إن الدكتور محمد شحرور هو فرد ضمن مجموعة من الكتاب المعاصرين الذين يحملون مشروع التجديد والتطوير والرؤية المعاصرة، وهم متفقون في الإطار العام ومختلفون في التفاصيل، فمن أراد معرفة مشروعهم، وحقيقة طروحاتهم، وكيفية الرد عليهم بشكل منهجي صحيح؛ فعليه بالدراسات المتخصصة في هذا الموضوع، ومنها كتابنا الأول الآنف ذكره، ففيه تفصيلات كثيرة وفوائد جمة بعونه تعالى.

7

واليوم وقد مر ما يقارب عشرين عاماً على نشري تلك الدراسة عن التجديديين، وها قد انتشر فكر هؤلاء، كما توقعتُ، وأحدث زوبعة وبلبلة عند العامة وبعض المثقفين، وبخاصة فكر الدكتور محمد شحرور الذي انتشر بفعل أسباب عدة، منها الجمود الفكري والحضاري في حياتنا المعاصرة، وإخفاق دعوات الإصلاح والنهضة، وتأثير وسائل الإعلام التي تبحث عن الإثارة والجديد، وتتنافس فيما بينها في هذا الصدد ... لذا رأيت أن أعود لكتابي فأجمع وألخص ما أوردته حول (الكتاب والقرآن قراءة معاصرة) للدكتور شحرور، وذلك تسهيلاً لمن أراد البحث والاطلاع حول الموضوع، ثم ألحق به بعض الدراسات والملاحظات حول بعض كتب الدكتور شحرور ومنهجه، وبخاصة أن الدكتور شحرور اتخذ موقعا على الشبكة العنكبوتية نستطيع من خلاله الوصول إلى بعض تلك الكتب، وليس كلها، ومتابعة كثير مما يكتبه بسهولة.

8

إشكالية البحث وأسئلته

نشطت الدراسات والبحوث الصادرة حول القرآن الكريم في العصر الحديث، وقد شملت لغته وأساليبه وإعجازه، والتجديد في علومه، ومنها دراسات الدكتور محمد شحرور، التي أصدرها ضمن سلسلة عنوانها "دراسات إسلامية معاصرة"، وضمت "الكتاب والقرآن الذي تلته مجموعة من الكتب هي: "الدولة والمجتمع"، "الإسلام والإيمان"، "فقه المرأة"، "تجفيف منابع الإرهاب"، "القصص القرآني"

بجزأيه الأول والثاني، "السنَّة الرسولية والسنَّة النبوية"، "الدين والسلطة"، وأخيراً وليس آخراً "أمُّ الكتاب وتفصيلها")[5].

وهنا توجد ثمة أسئلة:

- ما هي المنهجية الصحيحة في التعامل مع كتاب الله عز وجل؟
- هل تلتزم هذه الدراسات بالمنهج العلمي الموضوعي في التأليف؟
- هل تقوم بتوثيق المادة العلمية في مظانها الأصلية؟
- هل أضافت شيئاً جديداً؟ وما هي قيمته العلمية؟
- كيف نحكم على المنتج العلمي حكماً موضوعيا؟

9

حدود البحث

سيكون هذا البحث مقتصراً على عرض آراء الدكتور محمد شحرور ودراستها من بعض كتبه، وكذلك من خلال موقعه على الشبكة الإلكترونية (النت)، وسنجيب على أسئلة البحث من خلال هذه الدراسة.

10

أهداف البحث

1- معرفة ضوابط البحث العلمي ومدى التزام الدكتور محمد شحرور بها.

2- تقويم المعلومات والأفكار الجديدة في التأليف حول القرآن الكريم عند الدكتور شحرور.

3- تبيان خطر الخوض في القرآن الكريم دون امتلاك المعرفة الأصيلة بالتراث واللغة العربية.

4- تمييز الإضافات والرؤى الإبداعية من الزيف والجهل عندما يتستر بالتجديد والتحديث.

(5) - انظر الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور، على الرابط:

https://shahrour.org/?page_id=3

11

دواعي البحث

1- أهمية الكشف عن مدى أصالة التأليف في الدراسات القرآنية.

2- التنبيه إلى ضرورة الالتزام بضوابط البحث العلمي في التأليف.

3- التقويم الموضوعي لعملية التأليف في موضوع الدراسات القرآنية.

4- السعي للكشف عن الإضافة والتجديد في الدراسات القرآنية.

12

الدراسات السابقة

هنالك عدد من الدراسات العلمية التي تناولت كتب الدكتور شحرور وأفكاره، منها:

- بيضة الديك - نقد لغوي لكتاب "الكتاب والقرآن"، يوسف الصيداوي.
- القرآن وأوهام القراءة المعاصرة - رد علمي شامل على كتاب "الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة"، المهندس جواد عفانة.
- قراءة علمية للقراءات المعاصرة، الدكتور شوقي أبو خليل
- الإشكالية المنهجية في الكتاب والقرآن - دراسة نقدية، ماهر المنجد
- تهافت القراءة المعاصرة، د. محامي منير محمد طاهر الشواف
- تقويم علمي لكتاب "الكتاب والقرآن"، الدكتور محمد فريز منفيخي

ولم يسعفنا الحظ بأن نطلع على أي واحدٍ منها، وهذه الكتب تدور في معظمها حول الكتاب والقرآن، ودراستنا قد تكون أكثر شمولاً، لأنها تتناول مصطلحاته، ومنهجه، وفقاً لما ذكر في موقعه، كما تتناول أيضاً عدداً من كتبه ومقالاته، والله تعالى أعلم.

منهج البحث

1. **ركزنا في دراستنا على مقدمة الدكتور محمد شحرور في كتابه (الكتاب والقرآن) التي ذكر فيها كيفية تأليفه للكتاب، ومنهجه، ومصادره. وعلى ما** ذكره الدكتور شحرور في موقعه على الشبكة يوضح منهجه تحت عنوان: (المنهج المتبع في التعامل مع التنزيل الحكيم وفق القراءة المعاصرة. لمحة وجيزة عن قراءتنا المعاصرة للتنزيل الحكيم) [6]، وعلى ما ذكره **أيضاً يوضح مصطلحاته تحت عنوان: (دليل المصطلحات الواردة في التنزيل الحكيم)[7]، دون إهمال بقية كتبه وأقواله الأخرى.**

2. **منهجنا يقوم على التحليل الموضوعي،** لذا سنختار موضوعات وعينات من كتبه، نقوم بدراستها وتحليلها، وذلك وفق ضوابط البحث العلمي الموضوعي.

3. غرضنا الإنصاف، وإسداء الملاحظات لمن أراد أن يؤلف في ميدان الدراسات الإنسانية بعامة، والقرآنية على وجه الخصوص، لتكون الدراسات على قدر يليق بجمال كتاب الله العظيم وجلاله، ولتسهم في نهضة الأمة، لا تشتيتها وتراجعها الفكري والحضاري.

4. ربما ذكرنا الآية بتمامها، أو الحديث النبوي كاملاً، ولم نقتصر على موضع الشاهد منهما؛ لئلا يُقتطع الكلام من السياق، إذا كان ذلك يساعد في فهم المراد.

5. وثقنا المادة العلمية التي نستشهد بها من حديث نبوي شريف، أو شعر، أو أقوال للعلماء في مظانها الأصلية أو نحوها.

6. تتبعنا في دراستنا المدارس الأدبية والنقدية المختلفة بغية الوصول إلى الحقيقة.

7. وضعنا بعض الشروح والتعليقات في الحواشي لأهميتها، ولم نسهب في ذلك.

---

(6) – الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور، على الرابط:

https://shahrour.org/?page_id=3

(7) – الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور، على الرابط:

https://shahrour.org/?page_id=12

خطة البحث

وعلى هذا سيكون كتابنا الجديد هذا الموسوم بـ: (الميزان العلمي: دراسة موضوعية تحليلية لفكر الدكتور محمد شحرور ومنهجيته) مكوناً من تمهيد، وثلاثة فصول مقسمة إلى مباحث، يعقبها الخاتمة، وفهرس المصادر والمراجع، كالآتي:

تمهيـــــد

ونتناول فيه ثمانية أمور حول المنهجية العلمية وقواعد البحث العلمي.

الفصل الأول: دراسة منهج الدكتور شحرور

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منهج الدكتور شحرور الذي ذكره في: (الكتاب والقرآن قراءة معاصرة).

المبحث الثاني: منهج الدكتور شحرور الذي ذكره واعتمده في موقعه الشخصي على شبكة الإنترنت

الفصل الثاني: مصطلحات الدكتور شحرور كما ذكرها في موقعه على شبكة الإنترنت

وليس في هذا الفصل مباحث، ولكن نذكر المصطلحات التي ذكرها، ونتبع كل مصطلح ببعض الملاحظات أو التنبيهات.

الفصل الثالث: دراسة محتوى فكر الدكتور شحرور

وفيه تسعة مباحث:

المبحث الأول: الموقف من القرآن الكريم وعلومه

المبحث الثاني: الموقف من السنة النبوية وعلومها

المبحث الثالث: الموقف من الإجماع

المبحث الرابع: الموقف من القياس

المبحث الخامس: الموقف من التراث العلمي والفقه

المبحث السادس: الموقف من السلفية والفرق الإسلامية

المبحث السابع: من اجتهادات الدكتور شحرور

المبحث الثامن: من فقه الدكتور شحرور

المبحث التاسع: ملاحظات علمية مختلفة

الخاتمة: ونوجز فيها البحث ونتائجه وأهم التوصيات

فهرس المصادر والمراجع

وعليه فمن أراد معرفة طروحات الدكتور شحرور، والرد عليها بشكل موضوعي ومشذب ومختصر فلعل هذا الكتاب يساعده في غرضه!.

15

ونؤكد هنا أننا قد نتفق مع الدكتور محمد شحرور في بعض الأمور، ولكن ما نختلف به معه من حيث الفهم للنصوص، والمنهج العلمي، هو أكثر مما نتفق معه بكثير!.

وكذلك نؤكد هنا أيضاً على حق كل إنسان في التفكير، وحريته فيما يقول، ونتذكر هنا قول فولتير: **(إني أخالفك الرأي، لكني مستعد للدفاعِ حتى الموت عن حقك في إبدائه)** [8].

(8) – معجم روائع الحكمة والأقوال الخالدة، بإشراف د. روحي البعلبكي، ص (110). دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 2001م.

ونؤكد أيضاً حق وسائل الإعلام في نشر ما تريد، ومراعاة مسئولية الكلمة، ونتذكر هنا ما جاء في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 24].

وجاء في الإنجيل: (في البدء كان الكلمة) .

ونتذكر أيضاً قول إلدوس هكسلي: "الكلمات كأشعة إكس: أحسنْ استخدامَها تخترق كلَّ شيْ"[9].

وبالمقابل نؤكد على حق الآخرين في الرد على أية طروحات وآراء لا تقبلها عقولهم، فلا حجر على أحد في ساحة البحث والعلم والحوار، شريطة الالتزام بقواعد البحث العلمي، والموضوعية التامة، والتوثيق في المظان الأصلية لكل ما يتم الاستشهاد به، ورحم الله الشاعر الأرجاني الذي قال[10]:

اقْرنْ برأيِكَ رأيَ غيرِكَ واستشر

فالحقُّ لا يخفى على إثنـــين

نسأل الله أن يلهمنا الرشد والصواب، وأن يهدينا الصراط المستقيم.

المؤلف

---

(9) – المرجع السابق، ص (199).

(10) – المرجع السابق، ص (110).

تمهيـــــــد

حول المنهجية العلمية وقواعد البحث العلمي

من مسلمات البحث والكتابة والتأليف معرفة الآتي:

أولاً: الإلمام بقواعد العلوم واحترام أهل الاختصاص

العلوم هي فنون أو صناعات لها أربابها، فمن أراد أن يكون من أهلها فليتعلمها أولاً، وليفهم رموزها واصطلاحاتها، وليقرأ عن تاريخها وكتبها ورجالها، ولماذا وضعت وما الغاية منها، وكيفية تحصيلها، وطبيعة مناهجها، وطرق تحصيلها.

وعليه فلا يمكن لأي واحد من الناس مثلا أن يدلي برأيه في الطب أو الهندسة إذا لم يتعلم فن الطب وممارساته، أو فن الهندسة وتطبيقاته، وتعرفه الجامعات ومعاهد البحث، وتشهد له بتحصيل الخبرة النظرية، كما تشهد له المؤسسات بالخبرة العملية والممارسة العملية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى العلوم الإنسانية ومنها علوم الدين واللغات والآداب والفنون!

وقد تنبه القدماء إلى هذا، فنعى ابن سلام مثلا على أولئك الذين يتدخلون في النقد الأدبي من دون أن يجيدوا فن النقد، كما نعى على أولئك الذين يأخذون علومهم من الدفاتر والصحف، وليس بمجالسة العلماء، يقول الدكتور إحسان عباس: (كان ابن سلام أول من نص على استقلال النقد الأدبي، فأفرد الناقد بدور خاص، حين جعل للشعر .أي لنقده والحكم عليه .صناعة يتقنها أهل العلم بها، مثلما أن ناقد الدرهم والدينار يعرف صحيحهما من زائفهما بالمعاينة والنظر، ولعله كان يرد بهذا على من يتطاولون إلى الحديث في نقد الشعر من معاصريه وهم لا يملكون ما يسعفهم على ذلك، ولكنه بدلا من أن يصرح بالهجوم عليهم وجه نقده إلى ابن إسحاق، كاتب السيرة، [الذي أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه] وشمل بحملته جميع الصحفيين الذين يأخذون علمهم من الدفاتر [ولو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحاق، ومثل ما رواه الصحفيون، ما كانت إليه حاجة، ولا فيه دليل على علم] وفي هذا نقل ابن سلام ميدان الخصومة بين الشعر القديم والمحدث، وجعلها حول الناقد البصير وغير البصير)[11].

---

(11) – تاريخ النقد الأدبي، ص (78).

ثانيا: احترام قواعد البحث العلمي

وذلك من حيث اختيار الموضوع، وتحديد مشكلة البحث، والدراسات السابقة، وهدف الدراسة، وفرضيات الدراسة، وأهمية الدراسة، وحدود الدراسة، والخطة المتبعة في تقسيم الدراسة وتبويبها، وتجميع البيانات، والمنهج العلمي المتبع: المنهج الوصفي، التاريخي، التجريبي، الفلسفي، التنبؤي، الأنثروبولوجي، الإحصائي، الاجتماعي، المقارن، وغير ذلك.

وكذلك لا بد من بيان المصادر والمراجع، والنتائج التي تم التوصل إليها، وتوصيات الدراسة...إلخ (12).

***

ثالثاً: الموضوعية

تقتضي الموضوعية معالجة الأمور والمسائل العلمية بحيادية تامة، وأن لا يغمط الناس حقهم، وذلك بذكر المحاسن والمساوئ، والإيجابيات والسلبيات لكل موضوع أو بحث أو دراسة، وقد تنبه علماؤنا السابقون إلى أهمية ذلك، ومنهم الناقد الكبير أبو القاسم الآمدي في موازنته بين الشاعرين الكبيرين: أبي تمام والبحتري، حيث قال: (وأنا أبتدئ بذكر مساوئ هذين الشاعرين لأختم بذكر محاسنهما)(13)، فبين. رحمه الله .أن النقد يقتضي ذكر المساوئ والمحاسن، وليس كما يظنه البعض هو ذكر المساوئ فقط!.

***

رابعاً: نتائج طبيعية وليست نتائج مسبقة للبحث

ينبغي أن يقود البحث بشكل موضوعي وسلس إلى النتائج، لا أن تُقرر النتائج بشكل مسبق في البدء، أو في نفس الباحث، ثم يُلوى البحث ليقررها ويثبتها. يقول الدكتور أحمد شلبي: "وتتوقف قيمة هذا

(12) – انظر: كتاب: (كيف تكتب بحثاً أو رسالة) للدكتور أحمد شلبي. ص (5-127). مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة السادسة، 1968م. و أصول البحث العلمي ومناهجه، د. أحمد بدر، ص (64-67، 227-316)، المكتبة الأكاديمية.

(13) – الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد أحمد صقر، (57/1) دار المعارف، الطبعة الرابعة.

التقرير (الرسالة) على عوامل متعددة، ولكن أهم هذه العوامل هو أن يكون هدفُ الطالب خلال عمله البحثَ عن الحقيقة، فإذا ظفر بها أعلنها، اتفقت مع ميوله أو لم تتفق''[14].

كذلك ينبغي عدم تكوين:

''نتائج مبتسرة غير ناضجة Premature Conclusions

وتجاهل الأدلة المضادة أو غير المتفقة مع النتائج التي توصل إليها الباحث''[15].

***

خامساً: إطار محدد للتجديد

ينبغي لكل بحث علمي أن يضيف شيئاً جديداً، ''فالباحث يبدأ من حيث انتهى غيره من الباحثين، ليسير بالعلم خطوة أخرى، وليسهم بالنهضات العلمية بنصيب''[16].

***

سادساً: احترام النصوص المقدسة

ينبغي الاحتراز في التعامل مع النصوص المقدسة من كتاب وسنة، فيراعى الضبط بالشكل، والدقة، والتوثيق، والاحتراز من الخطأ، وأن يهتدي بعلوم الكتاب والسنة، فلا يقول رأياً مالم يكن عالماً بهذه العلوم.

ولأن بحثنا هذا يتعلق أساساً بتفسير القرآن الكريم، فيحسن التفصيل قليلاً في العلوم لا بد لمفسر القرآن من أن يتعاطاها. وقد حددها الطوفي بالآتي:

1ـ علم الغريب، 2ـ علم التصريف، 3-علم الإعراب، 4- علم القراءات، علم الموجودات أو علم الحكمة، 4- علم أصول الدين، 5- علم التاريخ، 6- علم الوعظ، 7- علم الناسخ والمنسوخ، 8- علم أصول الفقه. 9- علم الفقه، 10- علم المعاني، 11- علم البيان[17].

---

(14) - كيف تكتب بحثاً أو رسالة، ص (5).

(15) - أصول البحث العلمي ومناهجه، د. أحمد بدر، ص (68).

(16) - كيف تكتب بحثاً أو رسالة، ص (8).

(17) الإكسير في علم التفسير، تحقيق د. عبد القادر حسين، ص (17-22).

والسمين الحلبي يرى أن أوثق العلوم بكتاب الله بعد تجويد ألفاظه بالتلاوة خمسة علوم، وهي: علم الإعراب، علم التصريف، علم اللغة، علم المعاني، علم البيان[18].

وقد ذكر السيوطي خمسة عشر علماً للتفسير، منها العلوم التي سبق ذكرها، وأضاف عليها: 1ـ علم البديع، 2. أسباب النزول. 3. الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، 4. علم الموهبة[19].

***

سابعاً: الغرض من التأليف

ذكر ابن خلدون أنّ الناس حصروا مقاصد التأليف فعدّوها سبعة:

أوّلها: استنباط العلم بموضوعه، وتقسيم أبوابه وفصوله، وتتبّع مسائله، أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقّق ويحرص على إيصالها لغيره.

وثانيها: أن يقف على كلام الأوّلين وتآليفهم فيجدها مستغلقة على الأفهام، ويفتح الله له في فهمها فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممّن عساه يستغلق عليه.

وثالثها: أن يعثر المتأخر على غلط أو خطأ في كلام المتقدّمين، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده.

ورابعها: أن يكون الفنُّ الواحد قد نقصت منه مسائل فيقصد المطَّلع على ذلك أن يتمِّم ما نقص من تلك المسائل.

وخامسها: أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتّبة في أبوابها، ولا منتظمة، فيقصد المطّلع على ذلك أن يرتّبها ويهذّبها.

وسادسها: أن تكون مسائل العلم مفرّقة في أبوابها من علوم أخرى، فيتنبّه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفنّ وجميع مسائله، فيفعل ذلك.

وسابعها: أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمَّهات للفنون مطوَّلا مسهبا، فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك، بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرِّر. وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه[20].

***

(18) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق د. أحمد الخراط، (4/1) دار القلم، دمشق، ط 1، 1406هـ / 1986م.

(19) انظر: المصدر السابق (174/2، 180-181).

(20) - انظر: مقدمة ابن خلدون، ص (549-551). دار الفكر، بيروت، 1424هـ/ 2004م.

ثامناً: ملاحظات وأخطاء منهجية شائعة في البحث العلمي

سنشير إلى أهمها في هذا الجدول:[21]

.1	عدم معرفة الفرق بين الخطة والمنهج، فالخطة هي الفهرس مشروحاً ومفصلاً، وأما المنهج فهو طريقة سرد المادة العلمية وتحليلها ومناقشتها، وبعض الباحثين لا يفرقون بينهما!
.2	الخلط بين المصادر القديمة والحديثة، ومتى يجب أن نعتمد على كل منها، وهذا يعود إلى طبيعة الموضوع الذي نتناوله.
.3	النقل عن مؤلف من غير كتابه، وإنما من كتاب نقل عنه، مع وجود كتابه، وعدم التوثيق منه مباشرة.
.4	في الاقتباس: أخذ المتن مع الحواشي دون الإشارة إلى ذلك!
.5	العزو إلى مواقع في الشبكة العنكبوتية (الانترنت) ومشكلات ذلك، فمواقع الشبكة (النت) مفيدة، ولكنها غير دقيقة أحياناً، ولابد من العودة للكتب إذا كانت متوفرة.
.6	مشكلة بعض البرامج الإلكترونية التي تدرج آيات القرآن الكريم وهي غير مضبوطة بشكل صحيح، لذلك ينبغي ضبط الآيات من القرآن الكريم زيادة في الدقة، وعدم الاكتفاء بضبط البرامج التجارية.
.7	عدم احترام المعايير الدقيقة في البحوث العلمية من حيث الشكل والمضمون
.8	البحث العلمي شكل وموضوع، ولا ينبغي رده إذا لم يتفق مع هوى المحكم، أو مذهبه الديني أو الأدبي أو السياسي، أو نزعته العلمية.
.9	النقل بتصرف أو باختصار يتبعه كثير من المشكلات.

(21) – انظر كتابنا: سراج البرية في معرفة بعض الأخطاء الشائعة في اللغة والأساليب والبحوث والتحقيقات العلمية، ص(105-111)، نشر المنتدى الإسلامي بالشارقة، الطبعة الأولى، 1435هـ/ 2014م.

.10	هنالك نُقول طويلة وكأنها تضمن كتاباً في كتاب!.
.11	هنالك نُقول متشابهة أو مأخوذة من بعضها البعض من دون إشارة إلى ذلك، فحين يقوم أكثر من محقق بتحقيق كتاب لمؤلف ما، ويأتي الآخر ويحذو حذو صاحبه القذة بالقذة والنعل بالنعل دون أن يشير إليه، وبخاصة في مقدمة التحقيق ودراسة عصر المؤلف وحياته فهذه مشكلة!.
.12	تخريج الحديث النبوي من غير مظانه الأصلية.
.13	تخريج الشعر من غير مظانه الأصلية.
.14	بتر النصوص أحياناً مما يشوه الفكرة كلها.
.15	متى نستخدم كلمة انظر: تستخدم عندما نحيل إلى مرجع ننقل منه بالمعنى وليس نصاً.
.16	إثقال الحواشي بتكرار بيانات النشر، ويكفي ذكرها كاملة أول مرة في البحث، وفي فهرس المصادر والمراجع. وبعد ذلك يكتب أمامها »مرجع سابق«
.17	العزو إلى القواميس يكون إلى المادة، أو إلى الجزء والصفحة، وليس إلى الاثنين معاً.
.18	الطباعة من دون شكل، علماً بأن الضبط مطلوب وبخاصة لكتب التراث التي تباعد عهدها.
.19	استعمال كلمات غير فصيحة، وإدراج تعابير عامية.
.20	تعريف البلدان بالاعتماد على المعاجم القديمة فقط، مثل: معجم البلدان من دون المعاجم المعاصرة، مثال: مدينة الري واليمامة وبحر القلزم والروم، هي على التوالي: طهران، والرياض، والبحر الأحمر، والبحر الأبيض المتوسط.
.21	وينطبق على المقاييس والمكاييل ما ينطبق على البلدان من ضرورة ذكر ما يعادلها في عصرنا.
.22	وجود الأخطاء الإملائية.
.23	عدم استعمال علامات الترقيم.
.24	الكتابة بغير أسلوب العصر الحديث، كاستعمال السجع والمحسنات البديعية بكثرة، كما هو الحال في العصر المملوكي!

.25	السطو على جهود الآخرين الذين قاموا بإخراج كتب التراث المحققة بشكل جيد، فيعمد بعض الكتاب إلى إعادة التحقيق بصورة شكلية وإعادة طباعة المتن معه، من دون الحواشي الأصلية للكتاب المحقق.
.26	النسخة الأم في التحقيق وأولويتها على غيرها من النسخ، ونشيد هنا بكتاب العلامة المحقق عبد السلام هارون : (تحقيق النصوص ونشرها) إذ ينبغي الاسترشاد به في هذا المجال.
.27	ينبغي عدم إصلاح أخطاء المؤلفين في المتن، وإنما تثبت كما هي ويشار إلى الخطأ في الحاشية، ونشيد هنا بكتاب: (تحقيق النصوص بين أخطاء المؤلفين وإصلاح الرواة والنساخ والمحققين) للدكتور بشار عواد معروف.
.28	أحادية اللغة قد تكون مشكلة في بعض الأبحاث التي تتطلب معرفة الباحث بأكثر من لغة!
.29	عدم الجمع أحياناً بين الأصالة والمعاصرة.
.30	الإيجاز المخل أحياناً: مثل ما فعله أحد الباحثين المعاصرين بأغراض التشبيه مثلاً، حيث عرضها بخمسة أسطر، بينما كان يشرح بعض الأبيات بصفحة وأكثر!
.31	ينبغي شرح الغريب من المفردات القرآنية أو الحديثية أو الشعرية.
.32	عدم التفريق بين كلمة مرجع ومصدر، هل هو تصنيف للكتب من حيث القديم والجديد، أو لتضمنه كتبا أخرى، أو لأنها أصل في هذا العلم.
.33	نقد العلماء القدامى بإسفافٍ أحياناً، والتطاول عليهم إذا وقعت منهم بعض الأخطاء العلمية.
.34	التعالي على الناس غير محمود، كأن يسمي المجتمع بالقطيع، والعوام بالأنعام، فهذا لا ينبغي من كاتب منصف!
.35	تجنب الموضوعية والنزاهة والشفافية والعدل، علما أن هذه الأمور هي القسطاس المستقيم للباحث الجيد المنصف الموضوعي.
.36	الخلو من الإبداع والتجديد، وأكثر ما يُقال ويُكتب تكرار في تكرار...

.37	عدم التفريق بين المؤلف الأصلي للكتاب وبين من قام باختصاره، فقد نسب أحدهم كتاب مختار الصحاح للجوهري!!
.38	عدم التحقق من أسماء الكتب وموضوعاتها، فقد ذكر أحدهم أن كتاب مشكاة المصابيح هو كتاب في البلاغة!!
.39	عدم وجود خاتمة أو نتائج أو توصيات علمية.
.40	انتزاع بحث من رسالة علمية ونشره مستقلاً دون الإشارة إلى ذلك، وهذا لا ينبغي أبداً.
.41	عدم التوازن بين الأبواب والفصول.
.42	التعميم في الأحكام من خلال شواهد جزئية.
.43	غياب الفهارس العلمية.
.44	ألا يطلع الباحث على الدراسات السابقة التي تناولت موضوع بحثه.
.45	أن يخوض الباحث في غير اختصاصه كبعض من يكتبون في الإعجاز العلمي القرآني الآن!
.46	تناقض الباحث في أحكامه.
.47	الانتقائية، وهي ذكر رأيٍ دون آخر، أو ترجيحه على بقية الآراء دون مبرر.
.48	وقوع التصحيف والتحريف، وعدم التفريق بينهما.
.49	استخدام طبعات غير محققة مع وجود المحققة.
.50	الاكتفاء ببعض المصادر دون سواها، والحق أنه لا يغني مصدر عن مصدر كما قال شيخنا الطناحي رحمه الله تعالى.

الفصل الأول

دراسة منهج الدكتور شحرور

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منهج الدكتور شحرور الذي ذكره في: "الكتاب والقرآن قراءة معاصرة".

وفيه مسألتان سنتناولهما بالتفصيل:

المسألة الأولى: الموقف من المنهجيات العربية والإسلامية التاريخية والسائدة

يرمي الدكتور شحرور المنهجية العربية والإسلامية بالقصور والضعف، يقول: "تبين لي بعد ربع قرن من البحث الدؤوب والتفكر الطويل والتأمل الواعي أننا نحن المسلمين مأسورون لمسلمات قد يكون بعضها معكوساً تماماً، وسأمثل لها في الصفحات القريبة الآتية، بيد أني أستميح القارئ الكريم عذراً لأني سأطلب إليه التريث في الحكم علي، قبل أن يمضي معي في رحلة هذا الكتاب، وألا يتسرع .بحكم بعض مسلماته الموروثة، التي سأثبت له بالبرهان أنها معكوسة .إلى نبذ كتابي، قبل الصبر على صحبته" [22].

ويكرر نحو هذا الكلام في خاتمة كتابه، يقول: "أتوقع أن يصدم القارئ بمحتويات هذا الكتاب، وما حواه من أفكار، لذا فإني أرجو من القارئ ألا يتسرع في الحكم علي، وعلى الكتاب، وأطلب منه راجياً إعادة قراءة هذا الكتاب" [23].

ويطرح بعد اعتذاره للقارئ رؤيته للخلل في الفكر الإسلامي، يقول: "إن الفكر العربي المعاصر ومن ضمنه الفكر الإسلامي يعاني من المشاكل الأساسية التالية: 1- عدم التقيد بمنهج البحث العلمي الموضوعي في كثير من الأحيان، وعدم تطبيق الكتاب المسلمين لهذا المنهج على النص القدسي الديني المتمثل بآيات الكتاب الموحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم، حيث إن أول شرط من شروط البحث العلمي الموضوعي هو دراسة النص بلا عواطف جياشة، من شأنها أن توقع الدارس في الوهم، وخصوصاً إذا كان موضوع الدراسة نصاً

---

(22) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (29).

(23) - المرجع السابق، ص (730).

دينياً أو نحو ذلك. 2- إصدار حكم مسبق على مشكلة ما قبل البحث في هذه المشكلة... 3-عدم الاستفادة من الفلسفات الإنسانية، وعدم التفاعل الأصيل المبدع معها، حيث لا يمكن أن نضع كل ما أنتجه الفكر الإنساني منذ اليونان إلى يومنا هذا في هامش الخطأ أو الباطل... 4- عدم وجود نظرية إسلامية في المعرفة الإنسانية، مصاغة صياغة حديثة معاصرة، ومستنبطة حصراً من القرآن الكريم، لتعطينا ما يسمى (إسلامية المعرفة)، بحيث تعطي هذه النظرية منهجا في التفكير العلمي لكل مسلم... 5- إن المسلمين في العصر الحاضر يعيشون أزمة فقهية حادة، وهناك صيحات صادقة تقول إننا بحاجة إلى فقه جديد معاصر وبحاجة إلى فهم معاصر للسنة النبوية، وقد تم تشخيص هذه المشكلة ولكن دون وضع حل لها"[24].

تعقيب ومناقشة

أولاً: هذه الأحكام التي أطلقها الدكتور شحرور تحتاج إلى دراسة منهجية تثبتها وتؤكدها، ولكن إطلاقها وكأنها حقائق ليس من المنهجية العلمية Scientific Method في شيء، لقد قال في الفقرة الثانية: (إصدار حكم مسبق على مشكلة ما قبل البحث في هذه المشكلة). وقد وقع هو فيما قال، فقد أصدر أحكاما على الفكر العربي والإسلامي، قبل أن يدرس هذا الفكر ويبين مواضع الخلل فيه، وهو في الشرط الأول طلب دراسة النص من دون عاطفة جياشة، ونسي أن القرآن نص أدبي بلاغي معجز، ومن شروط دراسة الأدب: التفاعل مع النص الأدبي، والتأمل فيه، وتمثله، والعيش في ظلاله بعيدا عن كل المؤثرات الأخرى، والتفاعل مع النص يتطلب ذوقاً وإحساساً ومشاعراً وعاطفة، وإن من الأحاسيس ما تعجز الكلمة أن تعبر عنه، فكيف نستطيع دراسة نص أدبي بمعزل عن العاطفة sentiment علماً بأن العاطفة هي الخصيصة الأولى للأدب؟ إننا نستطيع أن ندرس الفيزياء والرياضيات بلا عاطفة، ولكن الأدب لا نستطيع أن ندرسه بنفس الطريقة التي ندرس بها الفيزياء والرياضيات وغيرهما من العلوم، فإذا كان الأدب نصاً دينياً فمن الطبيعي أن تزداد العاطفة وتتوهج أكثر، لأنه يجتمع في النص الديني الحق والخير والجمال، فمن ذا يستطيع أن يقرأ مثلا سورة يوسف ولا تدمع عيناه؟ والعاطفة لا تقلل من فهم النص بل تزيد من عمق إحساسنا بهذا

(24) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (30-32).

النص، وهي تتكامل مع العقل في إدراك المحتوى، فلا ينبغي استبعادها عند دراسة النص القرآني، أو أي نص أدبي.

ثانياً: وأما قوله عن عدم التفاعل مع التراث الإنساني، والاستفادة من الفلسفات الإنسانية، فهو غير صحيح أيضا، لقد أنشأ المأمون بيت الحكمة للترجمة قديماً، وتم احتواء كل الثقافات الإنسانية تحت مظلة الثقافة العربية الإسلامية، وانتفع العرب بما هو صالح من تلك الثقافات، وكذلك الحال في العصر. الحديث، لم تنقطع الصلة بين العرب والعالم، فالترجمة مستمرة، والبعثات متواصلة، والتواصل عبر وسائل الإعلام جعل العالم كالقرية، فلا يمكن للثقافة العربية أن تنعزل عن التأثير والتأثر بما حولها، ولو أرادت العزلة لما استطاعت. ونحن نجد في تفسير المنار، والجواهر، والظلال، والشعراوي، والتفسير المنير للزحيلي، وغير ذلك من كتب التفسير المعاصرة، نجد نصوصاً طويلة منقولة عن فلاسفة الغرب، مما يدحض ما قاله الدكتور شحرور.

ثالثاً: وبخصوص نظرية إسلامية المعرفة، نقول إن هذه النظرية موجودة من قديم، وإلا كيف أنتج المسلمون هذا التراث العلمي الهائل بدون تصور معرفي؟ وخلاصة هذه النظرية ما ذكره الإمام ابن تيمية حول اتفاق صحيح المعقول وصحيح المنقول، لأن مصدر المعرفة الدينية الوحي، ومصدر المعرفة الكونية العلم، والوحي والعلم من الله، قال تعالى:﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: 10]، وقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1]، وقال أيضا: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: 255]، وقال: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]، بل الوحي بحد ذاته نوع من العلم بشكل مباشر، قال تعالى:﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]، وعليه فالمؤمن إذا نظر في كتاب ربه الناطق: القرآن، ازداد إيمانا، وإذا نظر في كتاب ربه الصامت: الكون، ازداد إيماناً، والمعرفة بشتى ألوانها تقود في النهاية إلى واهبها الكبير وهو الله سبحانه وتعالى.

رابعاً: وأما بخصوص الأزمة الفقهية، فنحن نرى أن المسلمين يعيشون أزمات اقتصادية وسياسية واجتماعية، وليست أزمتهم فقهية، فلديهم ثروة فقهية والحمد لله، ويؤكد ما ذهبنا إليه مثلاً أنه حين اجتاح التتار بغداد كانت مليئة بالفقهاء والعباد وأهل الورع الذين لاقوا حتفهم جميعاً بقدر الله عز وجل، لأن الأمة الواعية ليست تلك التي تعكف على كتب الفقه وحدها ليل نهار، وتترك علوم الحياة وفي مقدمتها: علوم

الأمن، والقتال، والحرب مهملة، وهو أمر كان الإمام الغزالي قد تنبه إليه، واستهجن كثرة الفقهاء الذين دفعهم حب الجاه إلى اكتساب الفقه، بينما لا تجد في المدينة الواحدة طبيبا مسلما، فقال بهذا الصدد: (فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة! ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه، ولا سيما الخلافيات والجدليات، والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى، والجواب عن الوقائع)[25].

خامساً: واليوم وقد اجتاحت جحافل الاستعمار بلدان المسلمين، وكبلتهم التبعية للغرب والشرق، هم بحاجة إلى الآلة، وإلى لقمة العيش، والأمن بكافة أشكاله: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، وليس إلى تجديد أصول الفقه، أو نبذ الفقه القديم وإحلال فقه جديد! وخوض جدل حول الفقهاء، كما هو دأب دعاة التجديد الذين نذروا أنفسهم لمحاربة الفقه القديم، وتجديده بأي ثمن كان! ثم يدَّعون الواقعية وهم أبعد الناس عن دراية الواقع، وفهم أحوال الأمة، فقد تركوا الأمة جريحة بدون إسعافها، وانطلقوا إلى تهديم التراث والتشكيك بعلوم المسلمين، ألم يكن الإمام الغزالي الذي توفي (505هـ) أوعى من هؤلاء بفقه الواقع، حين رأى الخلل في تكدس الفقهاء، وقلة العلماء بالعلوم التجريبية، فدعا إلى إصلاحه منذ أكثر من تسعة قرون؟ ثم يأتي هؤلاء الكتاب في زماننا ويرون أن أزمتنا في الفقه وأصوله، فأي تخلفٍ أكبر من هذا الذي يقدم للأمة تحت دعاوى إصلاح المنهجية، وإطلاق العقل المسلم، والتجديد في الفكر الإسلامي!؟.

سادساً: وأختم هنا بما قاله أستاذنا الدكتور محمود الطناحي طيب الله ثراه: (لقد تعرض أبناء هذا الجيل لسيل طاغ وموجات متلاحقة، من التشكيك في تراثهم وأيامهم، فالشعر الجاهلي غموض وانتحال، وتفسير القرآن مشحون بالإسرائيليات، والحديث مليء بالوضع والضعف، والنحو تعقيد وتأويلات، والصرف فروض ومتاهات، والبلاغة تكلف وأصباغ، والعروض قيود ودوائر تدير الرأس، والتاريخ صنع للحكام والملوك، ولم يرصد نبض الشعوب وأشواقها... يسمع أبناؤنا هذا كله مدويا عاليا، وتتجاوب أصداؤه المترنحة من أحلاس المقاهي، إلى قاعات الدرس الجامعي، ولا يستطيع الشباب لذلك دفعاً ولا رداً، لغرارتهم وجهلهم وقلة حيلتهم، ولأن كل هذه السموم إنما تساق في ثياب مزركشة، من المنهجية،

---

(25) – إحياء علوم الدين، علق عليه جمال محمود، ومحمد سيد، (32/1، 37)، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1420هـ/ 1999م.

والموضوعية، والتفكير العلمي، وحركة التاريخ، والموقف الحضاري، والشمولية، ولا يعرف أثر هذه الألفاظ الغامضة إلا من ابتلي بشرها، وصلي جمرتها، ووجد مسها، وكل ذلك عرفت)[26].

المسألة الثانية: منهج جديد للتعامل مع القرآن:

سنطرح فيما يأتي رؤية الدكتور شحرور لفهم الدين الحنيف وسبل تجديده.

يقول: ''إن الإسلام في شكله المعاصر المطروح في هذا الكتاب، يختلف تماما عن إسلام القرن السابع الميلادي، أقول نعم في المظهر لا في المحتوى''[27].

تعقيب ومناقشة

هنا يبرز سؤال هل يمكن فصل الشكل form عن المحتوى content ، أم كلاهما وحدة واحدة لا تتجزأ؟!

بمعنى آخر: هل يوجد محتوى له مظهرين مختلفين؟ وأي مظهر له هو المظهر الحقيقي الموافق لمكنون محتواه، والذي يكون لصيقاً به، ويعبر عنه التعبير الصحيح؟ وكيف يمكن التمييز بين المظهرين؟!

******

ويضيف زميل الدكتور شحرور ومرشده الدكتور جعفر دك الباب[28]، في مقدمته لكتاب الدكتور شحرور، قائلا: ''تبنى الدكتور شحرور المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية، الذي طرحته لدى دراستي الخصائص البنيوية للعربية، في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة، لقد استنبطت أسس ذلك المنهج من اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية. فما هي الملامح العامة لهذا الاتجاه؟ الملامح العامة لمدرسة أبي علي

(26) – الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، ص (8-9).

(27) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (730).

(28) – زميل المؤلف في الدراسة بالاتحاد السوفيتي في الفترة بين[1958-1964]. انظر: المرجع السابق، ص (47).

الفارسي اللغوية: بلور ابن جني في الخصائص، والإمام الجرجاني في دلائل الإعجاز، اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية في نظريتين متتامتين"[29].

تعقيب ومناقشة

أولاً: يحسن هنا ذكر نبذة مختصرة عن مناهج البحث في علم اللغة linguistics قبل مناقشة الدكتور شحرور في منهجه، حيث (تبرز في الدراسة اللغوية ثلاثة مناهج أساسية للقيام بأنواع ثلاثة من الدراسة، هي: المنهج الوصفي، والمنهج التاريخي، والمنهج المقارن للدراسة الوصفية والدراسة التاريخية. والدراسة المقارنة، والدراسة الوصفية هي أساس الدراستين التاريخية والمقارنة)[30].

ثانياً: وفيما يلي تفصيل لاستعمالات تلك المناهج:

الأول: المنهج الوصفي

إذا أقبل باحث على لسان ما، فدرس عناصره الثلاثة: أصواته ومفرداته وتراكيبه، دراسة وصفية هدفها مجرد الكشف عن الحقائق اللغوية في هذا اللسان، وبيان خصائصه في فترة محدودة من الزمان، وفي مكان محدود استعمل فيه هذا اللسان، فإنه يستخدم المنهج الوصفي[31].

الثاني: المنهج التاريخي

إذا أقبل باحث على لسان ما، فدرس عناصره الثلاثة: أصواته ومفرداته وتراكيبه، متتبعا إياها خلال فترة طويلة من الزمان، للكشف عما طرأ على هذه العناصر من التبدل والتغيير، فإنه يستخدم المنهج التاريخي، والدراسة اللغوية التاريخية لا تقوم إلا بعد الفراغ من دراسة المراحل المختلفة التي مر بها تاريخ اللغة دراسة

---

(29) – المرجع السابق، ص (20).

(30) – علم اللغة، د. محمود السعران، ص (241).

(31) – انظر: علم اللغة، د. محمود السعران، ص (241)، والوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، ص (19)

وصفية، ومن النظر في هذه الدراسات الوصفية للمراحل المتعاقبة يأتي تدوين هذه اللغة صوتيا وفونولوجيا ونحويا وقاموسيا[32].

الثالث: المنهج المقارن

إن (التطور اللغوي يظهرنا على أن هذه اللغة أو تلك تتشعب إلى لهجات متعددة، ثم ترتقي إحدى هذه اللهجات أو بعضها إلى مستوى اللغة الأدبية الفصحى، وقد تلحق هذه اللهجات واللغات تطورات وتغيرات كثيرة، تبعدها من أصلها أو أصولها... إن الذي يستخدمه اللغوي في هذه الحال: المنهج المقارن)[33].

ثالثاً: ومن أهم النتائج التي توصل إليها هذا العلم: الكشف عن وحدة الأصل للألسن السامية[34].

رابعاً: ولدراسة القرآن ينبغي اعتماد المنهج الوصفي، وهو الذي يدرس النص القرآني في البيئة environment التي نزل فيها، والفترة التي نزل فيها، وأما المنهج التاريخي الذي اعتمده الدكتور شحرور فيكون لدراسة اللغة بشكل عام، وليس لدراسة نص محدد لا تتغير مدلولاته الأساسية عبر العصور.

خامساً: ويعد دي سوسير مؤسس المدرسة الاجتماعية في الدراسات اللغوية[35]، وقد استمد نظريته من نظرية دوركيم الاجتماعية، وهو (صاحب فكرة تمييز الدراسة الوصفية للغة من الدراسة التاريخية لها، وقد طبق هذا التمييز عند نظره في المعنى، فحرص على وجوب التفريق بين دراسة المعنى دراسة وصفية ثابتة، أي في مرحلة معينة، أو حالة معينة، تجرد من تاريخ لغة من اللغات، وتدرس بغض النظر عما قبلها، وعما بعدها من مراحل أو حالات، وبين دراسة المعنى دراسة تطورية)[36].

---

(32) – انظر المرجعين السابقين: علم اللغة، ص (243). والوجيز في فقه اللغة، ص (19).

(33) – علم اللغة، د. محمود السعران، ص (245).

(34) – الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، ص (20).

(35) – انظر ما كتبه الدكتور علي عبد الواحد الوافي من نقد لنظرية دي سويسير في كتابه (علم اللغة)، ص (267-268). دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة التاسعة، 2004م.

(36) – علم اللغة، د. محمود السعران، ص (304).

سادساً: فدراسة المعنى دراسة تطورية يمكن أن تتم في الظواهر والموضوعات العامة التي يتناولها الشعراء مثلا، ويختلف تناولهم لها من جيل لآخر، وأما النص القرآني المقدس فهو ثابت الشكل formوالمحتوى، لأن تطور المحتوى content وحركته تستلزم تغيير الشكل form والأسلوب style، فالتعبير عن الكرم بكثير الرماد لا يصلح في عصرنا، فلا بد من إيجاد تعبير أو صيغة متداولة من بيئة الناس، لكي يفهمها الناس، فالمحتوى أو المضمون content مرتبط بالشكل form لا ينفك عنه، وبالبيئة environment وظروفها أيضا.

سابعاً: وتطوير المعاني في الشعر غيره في القرآن، ففي الأدب هنالك السرقات الشعرية، والتأثير والتأثر بين الأدباء، مما يجعل المعاني تتطور سلباً أو إيجاباً على مر العصور، وأما في القرآن فالأمر مختلف، فهو منزه عن المحاكاة mimesis والتقليد، ولذلك تبقى دلالاته المركزية ثابتة لا تتطور[37]، وهذا معنى حفظه، **فلا فائدة بأن يحفظ الله اللفظ ولا يحفظ المعنى،** ولا يعقل أن تتغير معاني القرآن من بيئة إلى أخرى، ومن عصر لآخر، لأن هذا في النهاية يفقدها دلالاتها المركزية، وقيمتها التعبيرية، ويصبح القرآن خاضعا للأهواء، ومصدرا للفرقة، وليس مصدرا للتوحيد، لأن الأصل في اللغة المعاني قبل الألفاظ، ولذلك لا معنى لحفظ اللفظ بدون المعنى، لأن هذا حفظ ناقص، تنزه الله عنه، ونزه كتابه الكريم عنه.

ثامناً: وأما البنيوية structuralism فنود تعريف القارئ بها في إيجاز، فهي (نظرية قائمة على تحديد وظائف العناصر الداخلة في تركيب اللغة، ومبينة أن هذه الوظائف المحددة بمجموعة من الموازنات والمقابلات، هي مندرجة في منظومات واضحة)[38].

تاسعاً: والبنيوية لم تقد إلى نتائج صحيحة، يقول الأستاذ جبور عبد النور: (لئن سارت البنيوية في خط متصاعد منذ عهد غرول إلى أيام ألتوسر، وبذل العلماء جهدا كبيرا لاعتمادها أسلوبا في كل قضايا اللغة،

(37) – التطور في معاني القرآن قاصر في مجمله على دلالاته الهامشية فقط، فقد يستشف الذين يعيشون في ظلاله من المعاني الهامشية ما لا يستشفه غيرهم، ولكن يبقى هذا ضمن الإطار المركزي للمعنى، وأما سلخ المعاني الظاهرة للقرآن إلى معاني أخرى لا صلة لها بالمعنى اللغوي يوم نزول القرآن، فهو سلب لجمال القرآن، وتفريغ لمحتواه الديني والقيمي من كل فاعليته ومقوماته.

(38) – المعجم الأدبي، جبور عبد النور، ص (52).

والعلوم الإنسانية، والفنون، فإنهم ما اطمأنوا إلى أنهم توصلوا من خلالها إلى المنهج الصحيح المؤدي إلى حقائق ثابتة وعالمية التصديق)[39].

عاشراً: ويقول د. أحمد كمال زكي في السياق ذاته: (.. وبعيدا عن تعقيدات البنائية حتى في مجالات القرابة وتقنيات النظم اللغوية داخلياً وخارجياً، ظهر أن النقد الحديث يحاول دائما ألا يخضع لمقولات تبدو قاصرة في زمن دون زمن، أو عند فئة دون فئة، وما قد يبدو بناء شامخاً عند الشكليين المتقدمين تفتت عند المتأخرين من دعاة البنائية، بل يبدأ هذا التفتت عند الرواد أنفسهم، وبخاصة العالم اللغوي دي سوسير سنة 1913م تقريبا، فقد أفضى تحليله للرموز اللغوية التي تعيش حياتنا الاجتماعية إلى ظهور السيمولوجيا، أي علم العلامات، حوالي الستينيات من هذا القرن، ومن ناحية أخرى حاول ليفي شتراوس منذ سنة 1945م في إطار البنائية أن يفيد من علم اللغة، في الدراسات الإنثولوجية أو الأنثروبولوجية الثقافية، وكان هذا يعني تشابك كثير من العلوم الإنسانية ومنها اللغة تشابكاً لم يهيئ لتطور البنائية على نحو متماسك يمثل مذهبا محددا، وهو الذي أودى بها من بعض الوجوه، وإن بقي منها شيء يستعين به نقاد اليوم في تحليلاتهم الفنية)[40].

أحد عشر: وعن منهج البنيوية ، يقول كاتب معاصر: البنيوية والحداثة (انتشرتا بين أهل الأهواء والشهوات والملاحدة والفساق داخل الشعوب الإسلامية، مستظلة بما يسمى بعلم الألسن والألسنيات، على الرغم من سقوط البنيوية والحداثة في مواطن نشأتهما في العالم الغربي، وقد انكشف للباحثين أن غاية البنيوية والحداثة فك الارتباط بين الكلام وبين مراد قائله منه، ضمن الأوضاع والأساليب اللغوية في حقائقها ومجازاتها، وإطلاق العنان لكل إنسان أن يفسر النص بما يشتهي، من تحليلات توهمية تخيلية، يفتريها من عنده للنص، حتى يكون للنص الواحد من المعاني بعدد قرائه)[41].

---

(39) – المرجع السابق، ص (52).

(40) – النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، ص (48).

(41) – التحريف المعاصر في الدين، للميداني، ص (20).

اثنا عشر: و**أما الحداثة فلا تصلح منهجا علميا للأدب فضلا عن التفسير،** وقد استهجن الشاعر الراحل نزار قباني منهج الحداثيين في الأدب، فقال متسائلا: (إذا كانت الحداثة لديكم تعني تكنيس رأس الإنسان من كل معرفة سابقة، وكل لغة سابقة، وكل تجربة سابقة، فبأي لغة تقترحون علينا أن نكتب؟)[42].

ومن باب أولى استهجان منهج الحداثة في تفسير الدين، فهو لا يصلح له البتة، وكذلك منهج البنيوية القاصر التي فتن بها من لا يعرف مناهج النقد الأدبي ومدارسه الكثيرة في هذا العصر.

***

ويضيف زميل الكاتب ومرشده الدكتور جعفر دك الباب في مقدمته لكتاب الكاتب قائلا: "يعتبر الباب الأول: الذكر، الأرضية النظرية الجديدة التي استند الباحث فيها إلى إنكار ظاهرة الترادف في العربية، متابعا في ذلك عددا من كبار علماء العربية، ومنهم ثعلب وابن فارس وأبو علي الفارسي، لذا رفض الباحث المقولة السائدة التي ترى أن لفظتي الكتاب والقرآن مترادفتان، وأكد تباينهما وعدم ترادفهما، قال المؤلف هذا انطلاقا من فهمه أسرار اللسان العربي، حيث إن القرآن عربي، وأنزل بلسان عربي مبين، لقد وصل الباحث إلى ذلك انطلاقا من فهم جديد قدمه لمعنى ترتيل القرآن"[43].

تعقيب ومناقشة

أولاً: إن الترادف موجود في اللغات كلها ومنها العربية، ولولاه لما كانت صناعة المعاجم قائمة، إذ يعتمد اللغويون على شرح معنى كلمة بأخرى لها نفس المعنى أو معنى قريب منه.

وسبب الترادف أن الناس تتكلم بفطرتها، والجزيرة العربية بيداء مترامية الأرجاء، والتنقل فيها صعب، فكان الاحتكاك بين أفرادها وقبائلها محدوداً ومقصوراً على المواسم الدينية، والأسواق التجارية مثل سوق عكاظ، أو حين شن الغارات والحروب، ولم تكن ثمة مجامع لغوية في قديم الزمن توحد الاستعمال أو المصطلحات.

---

(42) – الأعمال النثرية الكاملة (8/394).

(43) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (25).

وإنكار الترادف مسألة مختلف فيها بين العلماء، وأكثر اللغويين القدامى والمعاصرين يثبتونه، ولم يأت الدكتور شحرور بأدلة جديدة تنقض فكرة الترادف.

ثانياً: ونؤكد بأن الكتاب والقرآن غير مترادفين، وإنما هما اسمان لمسمى واحد، فلا علاقة لهذا بمبحث إنكار الترادف.

ثالثاً: لقد اضطر الدكتور شحرور إلى إثبات الترادف بشكل عملي بعد أن نفاه نظرياً، وهذا كثير في كتبه، فمثلاً هو يعتبر الشورى هي الديمقراطية، يقول: "قد ورد في التنزيل الحكيم مصطلح خاص بالديمقراطية هو "الشورى". والشورى هي ممارسة مجموعة إنسانية للحرية ضمن مرجعية ما، وعلينا كعرب ومسلمين أن ننظر إليها بهذا المنظار المعاصر، انطلاقاً من جدل الإنسان الذي لا مناص منه كقانون يعمل، أردنا أم لم نرد"[44].

وما قاله غير صحيح، فالديمقراطية عملية سياسية تتقاطع مع الشورى ولكن ليست هي الشورى، فالمستبدون لهم مستشارون يؤدون لهم المشورة، فهل يعني هذا أنهم صاروا ديمقراطيين! الكلمتان: الشورى والديمقراطية ليستا مترادفتين وقد اعتبرهما مترادفتين! فأقر بالترادف وإن لم يُصرح به!.

***

وعبر البناء على مقدمة مشكوك في صحتها وهي إنكار الترادف، إضافة إلى سوء فهم للترادف من أساسه، توصل الدكتور شحرور إلى نتيجة خطيرة، وهي التفريق بين لفظ الكتاب والقرآن، وقد عبر عنها زميل الكاتب الدكتور جعفر دك الباب في قوله: (قد يصاب القارئ بصدمة عند وصوله إلى النتيجة المعروضة في باب الذكر، والتي تقول بعدم ترادف القرآن والكتاب، ووجود فرق بينهما، لأن هذه النتيجة تهدم التصور السائد في فهم الإسلام القائم على ترادف القرآن والكتاب. وبعد قبول النتيجة قد يصاب القارئ بحيرة، لأن قبول هذه النتيجة يستوجب بالضرورة تقديم تصور جديد في فهم الإسلام قائم على تباين القرآن والكتاب. وقد أدرك الدكتور شحرور ذلك، فلم يترك القارئ في حيرته بعد الصدمة، بل قدم له التصور الجديد الذي يقترحه في فهم الإسلام)[45].

---

(44) – انظر : في الدولة والمجتمع ص(142).

(45) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، من مقدمة د. جعفر دك الباب، ص (26).

تعقيب ومناقشة

أولاً: لقد أوجد الدكتور شحرور المشكلة، ثم تكرم على المسلمين بالحل لها!

ثانياً: ابتداء يمكن التأكيد بأنه لم يقل أحد من العلماء بأن دلالة لفظ (الكتاب المشتق من كتب) و(القرآن المشتق من قري) واحدة، وبالتالي فإن دلالة لفظي: الكتاب والقرآن ليست واحدة، فالكتاب تدل على أنه قراطيس مكتوب فيها، ولفظ القرآن يدل على الجمع والقراءة، فهو مشتق من (قري) أو من (قرأ) كما سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني، وقد يقرأ الإنسان من دون أن يكون أمامه كتاب، مثل قراءة القرآن الكريم في الصلاة، وقد يكتب دون أن يقرأ ما يكتبه، وإنما معتمدا على ما يسمعه مما يُملى عليه، فإذاً دلالة اللفظين ليست واحدة من حيث اللغة.

ثالثاً: ولكنهما قد يدلان على شيء واحد إذا سمي بهما هذا الشيء، فما أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من الوحي هو كتاب بمعنى أنه مكتوب "والكتاب في الأصل مصدر، ثم سمي المكتوب فيه كتاباً، والكتاب في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه"[46].

رابعاً: وما أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من الوحي هو قرآن بمعنى أنه مجموع ومقروء، فيجوز أن يطلق عليه أي واحد من الاسمين: الكتاب أو القرآن، وكلاهما تعبير عن مسمى واحد وهو ما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم بين دفتي المصحف.

خامساً: وقد خُص القرآنُ "بالكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، فصار له كالعَلَم، كما أن التوراة لِمَا أنزل على موسى، والإنجيل على عيسى صلى الله عليهما وسلم. قال بعض العلماء: (تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً لثمرة كتبه). بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: 111]"[47].

---

(46) – المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (كتب).

(47) – المصدر السابق، مادة (قرأ).

سادساً: وليس معنى هذا أن الله أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم شيئا اسمه الكتاب، وشيئا آخر اسمه القرآن، فهذا غير صحيح، ولتتضح الصورة نضرب مثلا بقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: 110]، فإن لفظ الله غير مرادف من حيث دلالته اللغوية للفظ الرحمن، وإلا كان تكرارا لا طائل من ورائه، ولكن اللفظين هما لمسمى واحد وهو الذات الإلهية العظمى. ولو فهمنا أن هناك ذاتا إلهية تدعى بالرحمن غير الذات الإلهية التي تدعى بالله، لكان هذا مطابقا لفهم المشركين، الذين أنكروا معرفة الرحمن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: 60].

سابعاً: ولذلك عندما يقال عن الأسماء الحسنى بأنها مترادفة، فالمراد من حيث دلالتها على مسمى واحد، لا من حيث معانيها اللغوية. وكذلك الأمر بالنسبة للفظي: الكتاب والقرآن فهما مترادفان من حيث دلالتهما على ما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم، وليس من حيث المدلول اللغوي، يقول أحمد بن فارس: تحت (باب الأسماء كيف تقع على المسميات) : (يُسمَّى الشيئان المختلفان بالاسمين المختلفين، وذلك أكثر الكلام كرَجُل وفرس. وتسمى الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد، نحو : عين الماء وعين المال وعين السحاب. **ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو: السيف والمهنّد والحسام.** والذي نقوله فِي هَذَا :إن الاسم واحد وهو "السيف" وَمَا بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى) [48].

ثامناً: وأكثر العلماء قد أقروا بالترادف، وأنكر الفخر الرازي على منكري الترادف، وقال: (وتعسفات الاشتقاقيين لا يشهد لها شبهة فضلا عن حجة)[49]. وقد وفق الشيخ عز الدين بين رأي المنكرين والمقرين بالترادف في نحو: السيف والمهند والصارم، فقال: (من جعلها مترادفة ينظر إلى اتحاد دلالتها على الذات، ومن يمنع ينظر إلى اختصاص بعضها بمزيد معنى، فهي تشبه المترادفة في الذات والمتباينة في الصفات)[50].

---

(48) – الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، علق عليه أحمد حسن بسج، ص(59)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ/ 1997م.

(49) – المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، (1/403).

(50) – المصدر السابق، (1/405).

ويتحدث الدكتور شحرور عن منهجه بالتفصيل فيقول:

"المنهج المتبع في الكتاب: من حق القارئ أن يسأل ما هو المنهج المتبع في هذا الكتاب، وكيف تم التوصل إلى هذه النتائج التي لا توجد في كتب السلف؟ إن المنهج المتبع هو ما يلي: 1- العلاقة بين الوعي والوجود المادي هي المسألة الأساسية في الفلسفة، وقد انطلقنا في تحديد تلك العلاقة من أن مصدر المعرفة الإنسانية هو العالم المادي خارج الذات الإنسانية... 2- انطلاقاً من هذه الآية التي تقول: إن المعرفة تأتي من خارج الذات الإنسانية، فإننا ندعو إلى فلسفة إسلامية معاصرة تعتمد المعرفة العقلية التي تنطلق من المحسوسات عن طريق الحواس وعلى رأسها السمع والبصر... 3- الكون مادي، والعقل الإنساني قادر على إدراكه ومعرفته، ولا توجد حدود يتوقف العقل عندها، وتتصف المعرفة الإنسانية بالتواصل، وترتبط بدرجة التطور التي بلغتها العلوم في عصر من العصور، وكل ما في الكون مادي... 4- بدأت المعرفة الإنسانية بالتفكير المشخص المحدد بحاستي السمع والبصر، وارتقت ببلوغها التفكير المجرد العام. لذا كان عالم الشهادة يعني في البداية العالم المادي الذي تعرف عليه الإنسان بحواسه، ثم توسع ليشمل ما أدركه بعقله لا بحواسه، وعليه فإن عالم الشهادة وعالم الغيب ماديان... 5- لا يوجد تناقض بين ما جاء في القرآن الكريم وبين الفلسفة التي هي أم العلوم، وتنحصر بفئة الراسخين في العلم مهمة تأويل القرآن طبقاً لما أدى إليه البرهان العلمي... 6- إننا نتبنى النظرية العلمية القائلة: إن ظهور الكون المادي كان نتيجة انفجار هائل أدى إلى تغير طبيعة المادة... ويعني ذلك أن الكون لم ينشأ من عدم (مع التأكيد بأنه لا قديم إلا الله)، بل من مادة ذات طبيعة أخرى"(51).

تعقيب ومناقشة

أولاً: ما ذهب إليه الدكتور شحرور من أن أساس المعرفة هو الكون الخارجي هو قصور، لأن المعرفة يمكن تحصيلها من مصادر أخرى غير الكون، كالنفس الإنسانية ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21]، والعقل، والفكر، والقلب، ألم يتحسس يعقوب رائحة يوسف من قميصه؟، ألا تدرك القلوب أحيانا ما لا تدركه العقول؟.

(51) - انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (42-43).

ثانياً: ثمة مصادر متعددة للمعرفة، يقول الدكتور أحمد بدر: "لم يحاول الناس منذ القدم شرح الظواهر الإنسانية بالعلم وحده، فقد حصل الناس على المعرفة بطرق أخرى عديدة، فهم قد يرون الحقائق بعيون السلطة أو بعيون ما يمكن أن يطلق عليهم أهل الثقة .. وقد تأتي المعرفة أيضاً عن طريق أولئك الذين لهم قدرات تفوق القدرات الطبيعية للبشر كالأنبياء والرسل.. وقد تأتي المعرفة كذلك باتباع الطريقة المنطقية في شرح الظواهر واستنباط النتائج من المقدمات الصحيحة، وأخيراً فهناك المعرفة العلمية التي يحصل عليها الإنسان بالملاحظة المقصودة والتجربة والتحقق العلمي"(52).

ثالثاً: يلاحظ على هذه العناصر التي ذكرها الدكتور شحرور في منهجه: التركيز على المادة والمعرفة المحسوسة، حتى إنه جعل عالم الغيب ماديا أيضا، وإذا كان ماديا فلماذا لا نحس به ونراه؟ ثم وصف الكون بأنه لم ينشأ من عدم، فهل هذا ترويج لآراء الدهرية والفلاسفة الذين يؤمنون بقدم العالم؟. وهل المادة التي نشأ منها الكون أزلية أم محدثة؟ وإذا كانت محدثة فهذا يعني أن أصل الكون والأشياء كلها هو العدم، وإذا لم تكن محدثة فهي أزلية، ومعناها أن الله لم يخلق الكون، تعالى الله عن ذلك.

رابعاً: أما مسألة أن الفلسفة أم العلوم فقد ناقشها أحد الكتاب المعاصرين فقال: (ولئن كانت الفلسفة في تاريخ العلم البشري أم العلوم الإنسانية التي تعتمد على آراء البشر، فهي منبع المتناقضات والمتضادات والمختلفات من الآراء والمذاهب، فقبل تقسيم العلوم إلى تخصصاتها المختلفة، كان العلم الإنساني الذي قدمه التفكير الإنساني علما واحدا، يجمع كل آراء وأفكار الناس، ويسمى الفلسفة، ومن هنا ذكروا أن الفلسفة أم العلوم، وليس المراد أن النظريات والآراء الفلسفية حقائق ثابتة، بل معظم بحوث الفلسفة المتعلقة بالغيبيات وما وراء المدركات الحسية تكهنات وحدسيات وتخمينات، صح بعضها بعد تقدم العلوم التجريبية، وسقط الكثير منها، إذ ظهر أنها أوهام وتخيلات، ومنها مقولتهم في العقول العشرة)(53).

خامساً: وهنالك كثير من التناقض بين الدين والفلسفة، كقول أكثر الفلاسفة بقدم العالم، ووحدة الوجود Pantheism ، والإباحية الجنسية، مما يتناقض مع القيم الدينية تناقضا مطلقا.

---

(52) - أصول البحث العلمي ومناهجه، ص(43).

(53) - التحريف المعاصر في الدين، للميداني، ص (61).

إن الفلسفة لا تعدو أن تكون نتاج عقل بشري، فمنه الصواب ومنه الخطأ، وليس صحيحا أن كل اجتهادات العقل البشري مقبولة وموافقة للحق باطراد.

سادساً: إن العناصر الستة السابقة التي ذكرها الدكتور شحرور ليست هي المنهج كما ذكر، ولكن هي المفاهيم التي قام عليها منهجه، وأما منهجه فسيأتي في الفقرة الآتية.

إذاً فهذه العناصر التي ينطلق منها الدكتور شحرور لصياغة منهجه غير كافية، وغير متلائمة مع الحقيقة والواقع والذكر الحكيم.

***

ويضيف الدكتور شحرور: "وانطلاقا مما سلف قمنا بقراءة جديدة للذكر الذي تعهد الله بحفظه... معتمدين على الأسس التالية: 1- مسح عام لخصائص اللسان العربي، معتمدين على المنهج اللغوي لأبي علي الفارسي، والمتمثل بالإمامين ابن جني وعبد القاهر الجرجاني، ومستندين إلى الشعر الجاهلي(54). 2- الاطلاع على آخر ما توصلت إليه علوم اللسانيات الحديثة من نتائج، وعلى رأسها أن كل الألسن الإنسانية لا تحوي خاصة الترادف(55)، بل العكس هو الصحيح، وهو أن الكلمة الواحدة ضمن التطور التاريخي إما أن تهلك، أو تحمل معنى جديدا بالإضافة إلى المعنى الأول، وقد وجدنا هذه الخاصية واضحة كل الوضوح في اللسان العربي. لقد استعرضنا معاجم اللغة فوجدنا أن أنسبها هو معجم مقاييس اللغة لابن فارس تلميذ ثعلب، الذي ينفي وجود الترادف في اللغة، فقد تم الاعتماد عليه بشكل أساسي دون إغفال لبقية المعاجم. 3- إذا كان الإسلام صالحا لكل زمان ومكان، فيجب الانطلاق من فرضية أن الكتاب تنزل علينا، وأنه جاء لجيلنا في النصف الثاني من القرن العشرين، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم توفي حديثا وبلغنا هذا الكتاب، لذا فإن القارئ

---

(54) - لم يذكر الدكتور شحرور في كتابه كله بيتا واحدا لشاعر من شعراء العصر الجاهلي! كما لم أجد أي نص للكاتب منقول عن الشيخ عبد القاهر!.

(55) - كلام غير صحيح، انظر ما قاله الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه: (في اللهجات العربية)، ص(178)، [مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، 1992م.] من اتفاق علماء اللغات المحدثين على وجود الترادف.

يلاحظ بشكل واضح أننا في فهمنا للكتاب نقف على أرضية القرن العشرين دون إغفال التطور التاريخي لتفاعل الأجيال المتعاقبة مع الكتاب: (التفاسير والمذاهب الفقهية)، حيث كانت نظرتنا لهذه الأدبيات على أنها تفاعل تاريخي مع الكتاب، ولذا فإنها تدخل ضمن التراث العربي الإسلامي... 4- إن الله تعالى ليس بحاجة أن يهدي نفسه، أو يعلم نفسه، ولذا فقد أرسل للناس هدى وليس لنفسه، لذا فإن كل ما جاء في الكتاب قابل للفهم بالضرورة، ويفهم على نحو يقتضيه العقل... 5- إن الله سبحانه وتعالى رفع من مكانة العقل الإنساني في معرض خطابه له، لذا فإننا ننطلق مما يلي: أ. لا يوجد تناقض بين الوحي والعقل. ب .لا يوجد تناقض بين الوحي والحقيقة. (صدق الخبر ومعقولية التشريع). 6- بما أن الله سبحانه وتعالى رفع من مكانة العقل الإنساني، فالأجدر بنا أن نرفع من هذه المكانة ونحترمها، وعليه فإننا حاولنا جاهدين في كتابنا احترام عقل القارئ أكثر من احترامنا لعواطفه"(56).

تعقيب ومناقشة

أولاً: قال الدكتور شحرور: إنه سيعتمد " على المنهج اللغوي لأبي علي الفارسي، والمتمثل بالإمامين ابن جني وعبد القاهر الجرجاني، ويستند إلى الشعر الجاهلي".

هنا نناقش أمرين:

الأمر الأول: ادعاءه أن عبد القاهر الجرجاني هو ممثل للمنهج اللغوي لأبي علي الفارسي، وهذا قد يكون صحيحاً في اللغة، فقد لزم عبد القاهر "نزيل بلدته أبا الحسين محمد بن الحسن الفارسي، ابن أخت أبي علي الفارسي، وكان يُعد إمام النحاة بعده، فعكف عنه وأخذ عنه كل علمه، ولعل هذا هو الذي جعله يؤلف في النحو كتابه (العوامل المائة) غير أن شهرته إنما دوَّت بكتابته البلاغية"(57).

وإنما في البلاغة فقد كان عبد القاهر إماماً مستقلاً بنفسه، فهو في كتابه (دلائل الإعجاز) مبتكر نظرية النظم وواضع علم المعاني "وحقاً تناثرت في كتابات من سبقوه بعض ملاحظات، وبعض مصطلحات، غير أن هذا ينبغي أن لا يُضللنا فنغمطه حقه، ونزعم أنه إنما جمع ملاحظات سابقيه، فالحق أنه ابتكر هذه النظرية"(58).

---

(56) – انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (44-45).

(57) – البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، ص (160)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة.

(58) – المرجع السابق، ص (189).

كما أن عبد القاهر في كتابه (أسرار البلاغة) "استطاع أن يضع نظرية البيان العربي"[59].

وإن أهم مصادر الشيخ عبد القاهر في بلاغته: كتب الجاحظ والقاضي الجرجاني والآمدي، وسيبويه، "والجدير بالذكر هنا أن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني كانت دراساته خير عون لعبد القاهر"[60].

الأمر الثاني: ما أورده الدكتور شحرور من الشعر في الكتاب الذي يتجاوز (800) صفحة، لا يزيد عن عشرة أبيات من الشعر، **ولم أجد في الكتاب كله بيتا واحدا لشاعر من شعراء العصر الجاهلي،** فجميع الأبيات التي وردت هي لشعراء العصر الأموي والعباسي، **كما لم أجد أي نص للكاتب منقول عن الشيخ عبد القاهر،** اللهم إلا ما أورده زميله ومرشده الدكتور جعفر دك الباب في ملحقه بعد خاتمة الكتاب من أسطر قليلة منقولة عن الشيخ عبد القاهر، فهل يعي الدكتور شحرور ما يقوله عن منهجه؟.

ثانياً: اعتمد الدكتور شحرور في فهمه للغة العربية ومنهجه على ما يسميه كتاباً بعنوان: (أسرار اللسان العربي) للدكتور جعفر دك الباب، ألحقه الدكتور شحرور بكتابه[61]، وكان قد قال في مقدمته: "وقد طلبت من الدكتور جعفر دك الباب أن يقدم للقارئ المنهج اللغوي في كتابي هذا، ورجوته أن يكتب كتاباً مختصراً يعرف فيه بأسرار اللسان العربي لنشره مع كتابي في مجلد واحد"[62].

بينما سمى الدكتور جعفر دك الكتاب هذا الكتاب مختصراً، حيث قال: "أحرر هذا المختصر المكثف في حدود سبعين صفحة تقريباً بناء على طلب الصديق الدكتور المهندس شحرور، وأعطيه عنوان (أسرار اللسان العربي) يتضمن المختصر نتائج أبحاثي اللغوية خلال أكثر من عشرين عاماً كرستها للدرس والعمل من أجل خدمة اللغة العربية الشريفة"[63].

ومع تقديرنا للدكتور جعفر دك الباب الذي استرشد به الدكتور شحرور، ولكن ثمة سؤال: أين بقية علماء اللغة المعاصرين؟، لماذا لم يتكئ على دراسة واحد منهم؟ أو يشر إليها حتى لو إشارة إليه؟ هل تبنى

(59) – المرجع السابق، ص (218).

(60) – مصادر الإمام عبد القاهر في بلاغته (رسالة ماجستير في جامعة أم القرى 1407هـ)، هند جميل نايته، ص(442). الرسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة وموجودة على الرابط: https://bit.ly/2T4Uf5f

(61) – انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (735-819).

(62) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (48).

(63) – المرجع السابق، ص (741).

الدراسة على فهم باحث واحد في موضوع يتعلق باللغة والقرآن؟ مع كثرة من تكلم في هذا الموضوع من القدماء والمعاصرين!. وهل تقف العلوم عند فهم واحد أو باحث واحد، ولا تتقدم بعده؟! هل انتهى التاريخ هنا.

ثالثاً: أما قضية إنكار الترادف الذي هو حقيقة لغوية وفق جمهور اللغويين القدامى والمعاصرين، فقد سبقت مناقشتها فيما تقدم، **ونضيف هنا قول الدكتور إبراهيم أنيس في هذا الصدد: "يجمع المحدثون من علماء اللغات على إمكان وقوع الترادف في أي لغة من لغات البشر،** بل إن الواقع المشاهد أن كل لغة تشمل على بعض تلك الكلمات المترادفة. ولكنهم يشترطون شروطاً معينة لا بد من تحققها حتى يمكن أن يقال إن بين الكلمتين ترادفاً"[64].

ويذكر الدكتور أنيس هذه الشروط وهي: 1- الاتفاق في المعنى بين الكلمتين اتفاقاً تاماً. 2- الاتحاد في البيئة اللغوية، أي أن تكون الكلمتان تنتميان إلى لهجة واحدة، أو مجموعة منسجمة من اللهجات. 3- الاتحاد في العصر. 4- أن لا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي للفظ آخر[65].

ويضيف بعد ذلك: "فإذا طبقت هذه الشروط على اللغة العربية، اتضح لنا أن الترادف لا يكاد يوجد في اللهجات العربية القديمة، وإنما يمكن أن يلتمس في اللغة النموذجية الأدبية. ففي القرآن الكريم الذي نزل بهذه اللغة، والذي نطق به الرسول للمرة الأولى، نرى الترادف في بعض ألفاظه. ولا معنى لمغالاة بعض المفسرين حين يلتمسون في كل لفظٍ من ألفاظه شيئاً لا يرونه في نظرائه من الألفاظ الأخرى"[66].

وبعد أن يسوق أمثلة من الآيات الكريمة والكلمات المترادفة فيها، يبين سبب نفي الترادف، وأن ابن دريد في كتابه الاشتقاق هو المسئول عن هذه المدرسة، ويليه ابن فارس في معجم مقاييس اللغة، وكذلك هنالك بعض "الأدباء النقاد الذين يستشفون في الكلمات أموراً سحرية، ويتخيلون في معانيها أشياء لا يراها غيرهم... وفي كل هذا من المبالغة والمغالاة ما يأباه اللغوي الحديث في بحث الترادف"[67].

---

(64) - في اللهجات العربية، ص(178).

(65) - انظر: في اللهجات العربية، ص(178-180).

(66) - المرجع السابق، ص(178).

(67) - المرجع السابق، ص(182).

رابعاً: وأما قضية وفاة النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في القرن العشرين، فإنه لا يمكن نزع القرآن من وضعه التاريخي، وتجريده من ظروف ملابسات نزوله الأولى، والقرآن بوصفه جاء تشريعا للإنسانية في عصورها الأخيرة، لا بد أن يحتوي على أسس عامة تشترك فيها الإنسانية عامة، ولا بد أن يحتوي أيضا على خصوصيات تميز كل مجتمع عن الآخر، وقد وجدنا فيه من الناحية الاجتماعية والإنسانية حديثا عما يأتي:

أ ـ عن نماذج بشرية متعددة المسالك والأفكار، منها العدواني ومنها القويم، ومنها المؤمن ومنها الكافر، ومنها الحر ومنها العبد، ومنها الذكر ومنها الأنثى، ومنها الخاصة ومنها العامة، ومنها القيادية ومنها العادية.. إلخ.

ب ـ عن الأمم والشعوب السالفة ومشكلاتها، وعوامل فنائها، وتجارب الأنبياء عليهم السلام معها، وما انتهت إليه تلك التجارب من نتائج.

ج ـ عن المجتمع العربي وما حوله من مجتمعات، وعن مشكلاته الدينية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية.

د ـ عن المجتمع المسلم الوليد، وما أحاط بظروف نشأته الأولى من هموم ومشكلات، في العهدين المكي والمدني.

هـ ـ عن مستقبل الأمة، وعوامل ضعفها وقوتها، وكيفية تطبيقها لشريعة الله، وتعاملها مع الآخرين.

و ـ عن أحوال الكون والناس قبل يوم القيامة، ومصير الكون يوم تقوم الساعة.

ولا يمكن تجاهل هذه الأمور كلها، واعتبار القرآن قد نزل علينا الآن. لقد صورت آيات القرآن معارك الإسلام الكبرى، فأين بدر الآن؟ وأين أحد؟ والخندق؟ وصورتْ مشكلات الناس مثل المرأة التي تجادل في زوجها، وزواج الرقيق،.. إلخ. إننا إذا فسرناها بالأحداث التي تواجهها الأمة اليوم، يكون هذا خلطاً لا أساس له من الصحة، فالعلم هو حقائق ثابتة، وليس أهواء، أو نصوصا علمية تفسر حسب الأهواء، فلا يمكن تجريد القرآن من ظروف وملابسات نزوله الأولى. وصلاحيته لكل زمان ومكان ليست مبنية على أنه يفسر حسب الأهواء، وإنما مبنية على أن التشريع الذي احتواه من لدن الله الذي خلق الإنسان، وهو أعلم بما يصلح هذا

الإنسان، وقد اختار له هذه الشريعة الخاتمة لكي ينال بتطبيقها السعادة في حياته، لأنها موافقة لفطرته، كما أنها موافقة لنواميس هذا الكون، وبهذا صار صالحا لكل العصور[68].

خامساً: وقد يقال إن الكتب السابقة من عند الله فما ميزة القرآن عما سواه؟ والجواب بأن الكتب السابقة حرفت، والقرآن على عهده الأول لم يتغير، هذا من جهة، والكتب السابقة كانت مخصوصة لأمم معينة، فلكل أمة كتابها ونبيها، وأما القرآن فهو خطاب إلى الأمم جميعاً، فهو عالمي الاتجاه، لذا فهو يخاطب أتباعه بـ: (يا أيها الذين آمنوا) ليشمل جميع الأمم والشعوب ممن آمن به.

سادساً: وأما قضية أن كل ما جاء في الكتاب قابل للفهم بالضرورة، فهي تعني محدودية الإعجاز، فالقرآن يفهمه الناس على قدر طاقاتهم وعلومهم ومعارفهم، وما لم يفهموه اليوم قد يفهموه غدا، وما لا يفهموه أبدا فهو من أسرار الله في كتابه، فلا يشترط أن يفقه الناس منه كل شيء ولا سيما في المتشابهات.

سابعاً: قول الدكتور شحرور: "لا تناقض بين الوحي والعقل وبين الوحي والحقيقة". هذا كلام صحيح، ولم يأت فيه بجديد، فهذا ما عليه علماء المسلمين جميعهم، وللإمام ابن تيمية كتاب عظيم بعنوان: (درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول).

ثامناً: قوله: "حاولنا جاهدين في كتابنا احترام عقل القارئ أكثر من احترامنا لعواطفه"[69].

فيه ملاحظات:

أ. لم يحترم عقول المسلمين ولا عواطفهم حين وصفهم بأنهم حولوا رسول الله إلى خرافة[70].

ب- قام بجمع الشبه القديمة حول الصحابة رضي الله عنهم وترديدها من جديد كطعنه بأبي هريرة[71].

ج. يُلَبِّس الدكتور شحرور على الناس بأنه لا ترادف في اللغة، خلافاً لما عليه جمهور اللغويين.

د . يخلط الأمور كثيراً، ولا يفرق بين الترادف وبين تعدد الأسماء لمسمى واحد، فالترادف مثل: ولد وغلام، وانفجرت وانبجست، وتعدد الأسماء لمسمى واحد، مثل: الكتاب والقرآن، لما بين دفتي المصحف..

---

(68) – انظر: بحثنا: (مراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم إحدى وجوه إعجازه)، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد 59 شهر كانون الأول، 2004م، ص(17- 86)، فقد طرحنا فيه رؤية علمية جديدة حول صلاحية القرآن لكل زمان ومان.

(69) – انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (44-45).

(70) – انظر: المرجع السابق، ص (572).

(71) – انظر: المرجع السابق، ص (569).

فقد ذكر بأن الكتاب والقرآن ليسا مترادفين، ولم يقل أحد من العلماء قبله بأنهما مترادفان، أي لهما المعنى نفسه، ولكنهما اسمان مختلفان لمسمى واحد!.

ولتتضح المسألة أكثر، لنأخذ هذا المثال: إذا قلنا: من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم: محمد وأحمد، فليس معنى اسم محمد هو أحمد بالتأكيد، ولكنهما اسمان مختلفان لمسمى واحد، فالمسمى ذات واحدة، وليس ذاتين اثنتين مختلفتين، ولا علاقة لهذا بباب الترادف البتة، ومن قال إنهما مترادفان فهو مجاز يقصد به أن دلالاتهما على مسمى واحد، لا أن معناهما اللفظي المعجمي واحد!.

وعليه فالقرآن غير الكتاب في المعنى المعجمي، ولكن في دلالته على المسمى الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الكتاب نفسه، والكتاب في دلالته على المسمى الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن نفسه، وكلاهما يدل على ما هو موجود بين دفتي المصحف، وتفريقه بينهما في الدلالة على مسمى واحد باطل، ولا وجه له من الصحة أبداً.

هـ. ذكر بأنه سيعتمد على الشعر الجاهلي، وليس لديه بيت شعر واحد لأي شاعر جاهلي في كتابه!.

و. يتهجم الدكتور شحرور على علماء المسلمين وفرقهم المختلفة، ولا يقيم وزناً لمن يخالفه[72].

تاسعاً: مما يؤخذ على الدكتور شحرور الآتي:

أ. عدم ذكره للدراسات السابقة في موضوعه.

ب. لم يذكر من علوم البلاغة غير علم المعاني، مع أن البلاغة هي ثلاثة علوم: (المعاني، والبيان، والبديع).

ج. لم يذكر حاشية واحدة في كتابه ليضبط كلمة أو يوثق نصاً، أو يضيف شيئاً، أو يعلق على أمر ذي بال.

د. عدم وجود فهرس للمصادر والمراجع.

هـ. لا يوثق كلامه من المعاجم العربية، ويكتفي بقوله في اللسان العربي كذا... وذلك كقوله: "الكتاب من (كتب) والكتاب في اللسان العربي تعني جمع أشياء بعضها مع بعض لإخراج معنى مفيد..."[73]. ومعلوم أن التوثيق ضروري لنطمئن إلى صحة الكلام من جهة، ولمراجعة المعاجم الأخرى من جهة ثانية، وذلك إذا اقتضى معنى الكلمة التحري والاستقصاء.

---

(72) - انظر: المرجع السابق، ص (563-572).

(73) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص(51).

و. إذا نقل الدكتور شحرور من كتاب ذكره في المتن من دون ذكر الصفحة وبيانات النشر[74]، أو ربما ذكرها في المتن ناقصة[75]، متبعاً طريقة العصور الوسطى في التأليف، ضارباً بعرض الحائط كل القواعد المنهجية المتعارف عليها في عملية الإحالات والتوثيق في البحث العلمي.

ز .التناقض في أحكامه، فهو يقرر شيئاً في مكان، ثم ينقضه في مكان آخر، وذلك مثل قوله: ‘‘مفردات قاموس الثورة النبوية (الأصالة الثورية): الطرح الإيديولوجي والفلسفي والشمولي للكون والحياة والإنسان ... حيث غطى هذا الطرح الوجود كله: الله، الكون، الإنسان، ونظرية المعرفة الإنسانية، أصل الإنسان، الحياة، الموت، الساعة، البعث، اليوم الآخر، قوانين جدل الطبيعة، وجدل الإنسان، قوانين التاريخ، حرية الإنسان (القضاء والقدر)، ونظرية الدولة والشعب والأمة والأخلاق’’[76].

فهو هنا يقر بأن الإسلام تنظيم للدين والدنيا والدولة والحياة، ولكنه يعدل عن هذا في نتائج بحثه، ويقرر عكس ما قاله سابقاً، حيث يقول: ‘‘أنوه هنا بالخطأين الشائعين جداً من قبل المسلمين وهما: أ. المناداة بأن دستور الدولة هو القرآن، وهذا خطأ لأن القرآن لا يحتوي على أي تشريع. ب .خطأ المناداة بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، لأن الشريعة الإسلامية لا تحتوي على أحكام، بل على حدود، ولا يوجد حكم حدي في الإسلام إلا في حالة الفاحشة العلنية’’[77].

---

(74) – انظر مثلاً استشهاده بفصوص ابن عربي في الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (133).

(75) – انظر مثلاً: استشهاده بالجامع الصغير للسيوطي، دون ذكر بيانات النشر. الكتاب والقرآن ص(520).

(76) – انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (588).

(77) – انظر: المرجع السابق، ص (724).

المبحث الثاني

منهج الدكتور شحرور الذي ذكره واعتمده في موقعه الشخصي على شبكة الإنترنت

ذكر الدكتور شحرور منهجه تحت عنوان: (المنهج المتبع في التعامل مع التنزيل الحكيم وفق القراءة المعاصرة. لمحة وجيزة عن قراءتنا المعاصرة للتنزيل الحكيم)(78).

ومنهجه هنا قائم على ما ذكره أولاً في كتابه الأول: (الكتاب والقرآن قراءة معاصرة)، بيد أنه هنا أكثر إحاطة وتفصيلاً، وكان قد ذكر بعضه في كتابه (الدولة والمجتمع)(79)، وسرده كاملاً في كتابه (تجفيف منابع الإرهاب)(80)، وهو يسوقه هنا بعد تعديلات طفيفة.

وسوف نسرد كلامه أولا، ثم نتبعه بالتعقيب والمناقشة.

قال الدكتور شحرور:

"أردنا من خلال هذه اللمحة تقديم صورة وجيزة عن قراءتنا المعاصرة التي تمكّنا من الوصول إليها بالاعتماد على اللسانيات الحديثة والأرضية المعرفية المعاصرة. وقد حوت هذه اللمحة الأسس التي تقوم عليها قراءتنا المعاصرة والتي قمنا بتطبيقها في كتبنا العشرة التي نشرناها حتى الآن، ابتداءً من عام 1990، بدءا بكتاب "الكتاب والقرآن" الذي تلته مجموعة من الكتب هي: "الدولة والمجتمع"، "الإسلام والإيمان"، "فقه المرأة"، "تجفيف منابع الإرهاب"، "القصص القرآني" بجزأيه الأول والثاني، "السنّة الرسولية والسنّة النبوية"، "الدين والسلطة"، وأخيراً وليس آخراً "أمّ الكتاب وتفصيلها". فهذه الكتب تقدّم فكراً جديداً مؤسَّساً على منهج معرفي معاصر، وبالتالي فإنّ فهم ما جاء فيها من أفكار فهماً معمّقاً يحتاج إلى الاطلاع على المنهج الذي اعتمدناه فيها وعلى قائمة المصطلحات التي توصّلنا إليها من خلال قراءتنا المعاصرة".

---

(78) - الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور، انظر الرابط:

https://shahrour.org/?page_id=3

(79) - انظر : في الدولة والمجتمع ص (35-41).

(80) - انظر: تجفيف منابع الإرهاب، ص (25-44). الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 2008م.

تعقيب ومناقشة

أولاً: إن الدكتور شحرور يقر هنا بأنه اعتمد منهجاً معاصراً يعتمد على علم اللسانيات، ولكنه لم يشرح أي شيء عن هذا العلم، ولا عن سبب استخدامه مع القرآن بالذات!

ثانياً: وقد سبق الحديث عن علوم اللغة وعن دي سويسير وعلم اللسانيات في المبحث الأول، فلا نكرره هنا.

ثالثاً: ولكننا نؤكد أن هذه العلوم في تطور دائم، وثمة مدارس كثيرة في الأدب والنقد منها: الكلاسيكية، الرومانسية، الواقعية، الرمزية، السريالية، الوجودية، الشكلانية، الشكلية الروسية والتشيكية، الواقعية والواقعية الجديدة: الأسلوبية والبنيوية والتفكيكية، نظرية التلقي المنهج النفسي، المنهج الاجتماعي، المنهج التكاملي، الفن للفن، الفن للحياة، وليس بالضرورة أن نطبق كل ما ينتجه الآخرون على لغتنا، فلكل لغة خصائصها وأساليبها ومقوماتها التي تميزها عن اللغات الأخرى، كما نؤكد أن منهج التفكيك هو منهج لفهم النصوص وهو أقرب للنقد منه إلى علم اللغة، وقد اقترب منه بل اتبعه الدكتور شحرور في دراساته كلها، وهو منهج باطل وعلم لا ينفع. فليس يصح في الأذهان شيء إذا فهم كل واحد النصوص بطريقته ولم يكن هنالك فهم عام مشترك، فهنا تموت وظيفة اللغة الاجتماعية في إيجاد التواصل والتفاهم بين الناس. ثم ليس هو المنهج الوحيد الذي يمكن تفسير النصوص الأدبية من خلاله، فما أكثر المدارس والمذاهب الأدبية، وإذا وجد الدكتور شحرور نفسه مع هذا المذهب فلا يظن أنه أتى بما لم يأت به الأوائل من سبق وإبداعات، فما من أحد إلا رد ورُدَّ عليه، وليس للعلم حد ينتهي إليه، وفوق كل ذي علم عليم.

رابعاً: إن المعرفة وحدة واحدة لا تتجزأ، وما يسمى اكتشافا جديدا للنص القرآني إنما هو لعب أطفال، يراد منه نسف المفاهيم الأساسية للقرآن تحت ذريعة التطور والتجديد والمنهجية العلمية Method Scientific. ونحن نأبى أن يكون قرآننا لعبة بين أيدي بعض النقاد أو أصحاب النظريات اللغوية التي تتبدل بين زمان وآخر، وتتعارض فيما بينها وتتناقض، (فكل أولئك نتاج حضارة ذات فلسفات معقدة)[81]، وقد وضعت أصلا لتفسير الأعمال الأدبية الإنسانية في اللغات الأخرى: (قصيدة، أو قصة، أو مسرحية، إلخ)، وليست لتفسير كتاب مقدس نزل باللغة العربية، فالقرآن وإن كان ذو أسلوب أدبي معجز، بيد أن مادته تتنوع بين تشريع وقصص وعقائد، فهي تختلف عن مضمون أي عمل أدبي آخر، والبنيوية

---

(81) – النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، د. أحمد كمال زكي، ص (49-50).

Structuralism هي لتفسير الأعمال الأدبية البشرية ذات المضمون الأدبي، لذا يجب أن نبعد القرآن وننزهه عن المناهج الفلسفية النقدية قديمة كانت أم معاصرة، وحين حاول بعض فلاسفة الصوفية مثل ابن عربي تطبيق فلسفة أفلاطون Platonism على القرآن قادهم هذا إلى القول بوحدة الوجود Pantheism التي يعتقد بها كثير من الفلاسفة، فهل نأخذ في تفسير كتاب الله تعالى بآراء القدماء مثل: أفلاطون وأرسطو وهوراس، ولونجينوس، ودانتي وبوكاسو؟، أم بآراء نقاد عصر النهضة مثل: ميلتون، ووليام دافينانت، وتوماس هوبز، وبوالو، ودرايدن، وبوب، وصموئيل جونسون، وردزورث، وكوليردج، وهوجو، وجوته، ووالت وايتمان، وسانت بيف، وتين، وأرنولد، وهولز، وإميل وزلا، وأناتول فرانس، وفرديناند برونتير؟، أم بنقاد الداروينية مثل تولستوي؟، أم الماركسية مثل بيرجسون وكراتشة؟، أم الفرويدية مثل: ريتشاردز وإليوت؟، أم غيرهم؟[82].

خامساً: إن الناقد الحديث ينبغي عليه أن يستفيد من كل المدارس والاتجاهات من أجل تقريب النص للقارئ، لا أن يلزم نفسه بمدرسة محددة، ثم يفسر كل النصوص الأدبية وفق تلك المدرسة، يقول فيرنون هول: (ولا يميل الناقد الحديث الذي يعايش مثل هذا التاريخ الممتد والمتنوع للنقد الأدبي أن يضع نفسه في النهاية في مدرسة معينة، فبينما يرفض النسبية غير المصقولة التي لا تقبل كل المعايير، فإنه يميل إلى خلق تركيب مستخلص من أفضل الدراسات العميقة لكافة المدارس، ولسوف يتحقق من أن تلك المعايير التي تساعد على تفهم الدراما الكلاسيكية، على سبيل المثال ليست بالضرورة هي أفضل المعايير لتفهم قصيدة رومانتيكية غنائية، ولسوف يتحقق في النهاية من أن نشاطه على ما هو عليه من أهمية إنما يساعد القارئ أو المشاهد على الاقتراب بدرجة أكبر من الأعمال الأدبية العظيمة، ولن يخدع نفسه أبدا بحيث يظن أن جهوده تستوي مع العمل الأدبي ذاته، إن غايته هي أن يزيل الأعشاب حتى يتمكن الآخرون من السير بسهولة عبر الغابة)[83].

فإذا كان الناقد الحديث لا ينبغي أن يحصر نفسه بمدرسة محددة، ولا أن يستخدم مقاييس واحدة مع كل النصوص التي يتناولها، فمن باب أولى ينبغي أن لا نحصر تفسير القرآن بأي مدرسة أدبية أو لغوية معاصرة.
إذا أصر بعض الباحثين على الاستفادة منها . لأن القرآن أعظم من أن تحتويه مدرسة واحدة، لما فيه من

(82) – انظر آراء هؤلاء في موجز تاريخ النقد الأدبي، تأليف فيرنون هول، وترجمة د. محمود شكري مصطفى، وعبد الرحيم جبر.
(83) – موجز تاريخ النقد الأدبي، ص (189).

الأساليب المختلفة من مكية ومدنية، وتشريعية وقصصية، وعقائد وأخلاق، وأوامر ونواهي، وكل هذا من العسف إخضاعه لمنهج البنيويةStructuralism أو غيرها من المدارس.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

"انطلاقاً من ذلك ارتأينا أن نقدّم في هذا الدليل النقاط الرئيسية للنظام المعرفي المتّبع في قراءتنا المعاصرة، وهي عبارة عن نقاط تتألف من المنهج اللغوي والمنهج الفكري المتبع في التعامل مع التنزيل الحكيم. وقد جرى اختصار المنهج وتكثيفه في بنود مرقمة لجعلها سهلة على القارئ، بحيث بدأنا بالبنود اللغوية، ثمّ الفكرية ثمّ الفقهية، حتّى يتسنّى للقارئ أن يستوعب كيف توصّلنا إلى الاستنتاجات التي أوردناها في الجزء الثاني من هذا الدليل والخاصّ بالمصطلحات التي تمّ التوصّل إليها وشرحها بالتفصيل في كتبنا".

تعقيب ومناقشة

هذا التنظيم جيد، وسنتبعها بالدراسة والتحليل والتقويم بنداً بنداً.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

"سيكتشف القارئ من خلال هذا الدليل معنى ومحتوى القراءة المعاصرة، التي تمّ التوصّل إليها بفضل اختراق الكثير ممّا يسمّى الثوابت في المنظومة التراثية، وخاصّة ما يسمّى الفقه وأصوله التي وضعها أناس عاشوا في القرون الهجرية الأولى وهي – برأينا – لا تحمل أيّ قدسية لأنها تمثل المنظومة القانونية للدولة التي نشأت في ظلها، وبذلك فهي متجاوزة زمانياً ومعرفياً. لهذا نحن مقتنعون بأنّنا لن نتمكّن من تجديد الفقه والفكر الديني عامّة إذا لم يتم اختراق هذه الثوابت المتجاوزة معرفياً، ونورد في نفس السياق مقولة آينشتاين الشهيرة: "إنّ لمن الحماقة أن تعتقد أنك ستحصل على نتائج جديدة وأنت تكرّر الشيء نفسه". وقد كان سبب اختراقنا لهذه الثوابت أننا رأينا أنّ الكثير من أطروحات التجديد الموجودة في

الساحة الفكرية لا معنى لها ولا تؤتي ثمارها، لأنّها تكرار للذات وللسلف وهي مجموعة من الخطابات والكلمات الرنّانة بدون أيّ معانٍ أو أفكار مفيدة، أي إنّ الثقافة الإسلامية تعيد إنتاج نفسها إلى اليوم حتى في وسائل الاتّصال المعاصرة، لأنّ أيّ تجديد لا يُسمّى تجديداً إلّا إذا تم فيه اختراق الأصول".

تعقيب ومناقشة

أولاً: يريد الدكتور شحرور اختراق الثوابت، ومن المعلوم أن الثوابت هي القواعد التي يقوم عليها البناء كله، فإذا كان لدينا بناء قديم أردنا تجديده بالكامل، هدمناه حتى قواعده التي قام عليها البناء وثبت، وأقمنا قواعد جديدة وبناء جديداً، ولذلك يعتبر اختراق الأسس والقواعد ليس تجديداً revaluation وإنما هو إزالة وإقامة بناء آخر من جديد، فما يقيمه الدكتور شحرور هو إسلام جديد، ليس له من الإسلام إلا اسمه، وهو في قطيعة تامة مع إسلام الرسول محمد بن عبد الله العربي القرشي. عليه السلام. الذي دعا إليه وأتمه في القرن السادس للميلاد.

حين أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام ببناء بيته، بناه فوق القواعد التي وضعها آدم عليه السلام، ولم يتخذ قواعد جديدة، لأنه لو اتخذ قواعد جديدة لكان قد استحدث بيتا جديدا، والكعبة هي البيت العتيق الذي أول من بناه هو آدم عليه السلام.

ثانياً: وآيات القرآن ترفض رفضا قاطعا التغيير والتبديل في أصول الدين، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: 23] وهذه آية صريحة في مدح الاتباع ورفض التبديل.

وقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75]. وهذه آية صريحة في رفض التغيير والتحريف.

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشركُونَ﴾ [التوبة: 31]. وهذه الآية تنكر طاعة رجال الدين إذا غيروا وبدلوا في الدين، فيأخذون دور الربوبية.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 37]. وهذه آية صريحة في رفض التلاعب بالزمن.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115]. وهذه آية صريحة بأن من رفض اتباع الرسول أو رفض سنته، وانشق عنه، وعن جمهور المسلمين فمصيره إلى جهنم.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

"كذلك علينا أن ندرك حقيقة تاريخية هامة جداً تتمثّل في أنّ التاريخ الإنساني حسب التنزيل الحكيم يمكن تقسيمه إلى مرحلتين: المرحلة الأولى مرحلة الرسالات التي انتهت برسالة محمّد (ص)، وهي الرسالة التي نُسخت فيها الرسالات السابقة لها، والمرحلة الثانية مرحلة ما بعد الرسالات التي نعيشها نحن. وقد ختمت الرسالة المحمّدية التشريع الإلهي والنسخ الإلهي وبدأت بالتشريع الإنساني والنسخ الإنساني، علماً بأنّ النبيّ (ص) مارس الحالتين معاً إذ كان عليه البلاغ في الرسالة، وفي الحالة الإنسانية شرع لمجتمعه في تفصيل المحكم وتنظيم الحلال :(..وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا..) (الحشر 7)، ولم يشرح أيّ شيء من رسالته سوى الشعائر. وهذا هو القانون المدني الإنساني القابل للنسخ والتغيّر باختلاف الزمان والمكان. هذا التغيّر في التشريعات هو ما ينطوي تحت ظلّ ميزة الحنيفية التي تتّصف بها الرسالة الإلهية، وهي تتماشى مع درجة تطوّر كلّ مجتمع، أي إنّ الإنسانية اليوم لا تحتاج إلى أيّ رسالة أو نبوّة، بل هي قادرة على اكتشاف الوجود بنفسها بدون نبوّات، وقادرة على التشريع لنفسها بدون رسالات. والإنسانية اليوم أفضل بكثير ممّا كانت عليه في عصور الرسالات، لأن البشرية كانت قديماً بحاجة إلى الرسالات لترتقي من المملكة الحيوانية إلى الإنسانية، أمّا الآن فقد تطوّرت ووصلت إلى مستوى بعيد جداً عن مستوى المملكة الحيوانية، لأنّ المستوى الإنساني والأخلاقي في تعامل الناس بعضهم مع بعض الآن هو أفضل بكثير عن ذي قبل وحتى عن عهد الرسالات، وبالتالي يصبح البكاء على عصر الرسالات لا جدوى منه، لأنّ مستوى الإنسانية الآن أرقى معرفياً وتشريعياً من ذي

قبل. فأمّا معرفياً فتشهد عليه التطوّرات العلمية التي حصلت في مختلف مجالات العلوم والتكنولوجيا، وأمّا في التشريع فإننا نجد الإنسانية تعيش مرحلة التشريع الإنساني بعد انتهاء مرحلة التشريع الإلهي مع الرسالة الخاتمة التي جاءت للرسول (ص) بالحنيفية، بحيث أصبحت التشريعات الإنسانية ينسخ بعضها بعضاً تماشياً مع تطوّر المجتمعات من كلّ النواحي، بينما من الناحية الأخلاقية يكفينا دليلاً على ذلك أنّ ضمان حقوق الإنسان في العالم أصبح كابوساً على رأس كلّ متسلط، بالإضافة إلى أنّ المؤسّسات المدنية المحلية والعالمية التي تقوم على أساس تطوّعي، تتنامى يوماً بعد يوم، إذ تمّ إلغاء الرق عالمياً إلغاءً كاملاً، وهي مهمّة دشّنت بدايتها الرسالة المحمّدية على عهد النبي (ص) بتحويل العملية من رقّ إلى عقد عمل بين أحرار، وهي ظاهرة لم تعرفها البشرية قبل البعثة المحمّدية، ولم تُطبّق إلا بعد مرور ألف سنة على نزول الرسالة المحمّدية".

"إنّ قراءتنا المعاصرة للرسالة المحمّدية التي وردت بين دفّتي المصحف جاءت من منطلق كونها خاتم الرسالات، فتمعنّا فيها بعيون وعقل عصر ما بعد الرسالات على أساس أن الخطاب الإلهي الذي جاء فيها يستوعب كلّ المستويات الإنسانية، بحيث جاء مستوعباً لمستوى الأوّلين الذين قرؤوه بعيونهم وبمستوى معارفهم، وجاء مستوعباً لمستوانا، وبالتالي علينا أن نقرأه بعيوننا وبمستوى معارفنا، كما جاء مستوعباً لمستويات مَن بعدنا من الأجيال الذين يجب عليهم أن يقرؤوه بعيونهم وبمختلف مستوياتهم المعرفية، وهذا يؤكّد مصداقية الرسالة المحمّدية على أنّها رسالة إلهية وأنّها الخاتم وصالحة لكلّ زمان ومكان، إذ لا يمكن أن تكون صلاحيتها إلى يوم الدين إلّا بهذه الصورة".

تعقيب ومناقشة

أولاً: ذكر الدكتور شحرور تعريفاً غريباً عجيباً لصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، وهذا يعني أن الشريعة مطاطة stretch يفهمها أهل كل عصر بمستوى علومهم، وبهذا أصبحت الكلمات الموجودة في المصحف معزولة عن دلالاتها ومعانيها اللغوية وقت نزول القرآن، فهي مجرد ألفاظ تلبس أي معنى، وهنا تحولنا من اللغة التي هي ذات دلالات معجمية محددة إلى فن الرسم، أو التماثيل، فما هذه الكلمات إلا مجرد رسوم أو تماثيل توحي لكل من رآها بمعنى مغاير لما توحيه لآخر! واأسفاه على هذا التلاعب بآيات الله عز وجل.

ثانياً: الدكتور شحرور هنا ينحو منحى التفكيكية[84]، وذلك حين قال: (علينا أن نقرأه بعيوننا وبمستوى معارفنا، كما جاء مستوعباً لمستويات مَن بعدنا من الأجيال الذين يجب عليهم أن يقرؤوه بعيونهم وبمختلف مستوياتهم المعرفية).

ثالثاً: **ويحسن هنا أن نقتبس شيئا مما قاله الدكتور وليد قصاب حول منهج التفكيك، في مقالة بعنوان:** (التفكيك .. منهج خطير في التفسير) حيث قال: (لا منهجَ اليوم أخطر مما يسمَّى بالمنهج التفكيكي في مقاربة النصوص وقراءتها وتأويلها، إنه منهج غربي طبَّقه بعضُ الباحثين والدارسين العرب المُنبهرين - شأن الكثيرين في هذه الأيام - بكلِّ ما يأتي من الغرب، وكأنَّ هذا الغرب المخالف لنا في العقيدة والحضارة والتصوُّرات الفكرية والفنيَّة، كذلك قد أصبَح - للأسف الشديد - هو الشاهد علينا، بعد أن كنَّا نحن الشهود على الناس جميعًا بتفويض ربِّ العالمين لنا؛ ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143]).

(ولكن ما التفكيك أو التقويض كما يسمَّى كذلك؟

إنه منهجٌ في قراءة النصوص وتفسيرها، هدَّامٌ خطيرٌ، قائمٌ على التشكيك في الثوابت واليقينيَّات، وعلى زَعزعة الثقة في أيِّ خطابٍ أو نصٍّ؛ سواء أكان هذا النص سماويًّا، أم بشريًّا، وحيًا من ربِّ العالمين، وكلامًا له، أم كلامًا للناس).

(ومن أبرز ما نادَى به التفكيك من آراءٍ تتعلَّق بقراءة النصوص:

1- يزعم أصحاب التفكيك "أنَّ جميع النصوص لا تَنزع إلى التناسُق والانسجام والانضباط، بل هي مُفككة متنافرة، وهي تحتوي على عناصر تمزيقٍ، أو نقاط قطْعٍ، أو فجوات تَسمح - حين تُفحص وتُدرك بدقَّة - بقراءات أخرى هامشيَّة، قراءات تضع المعنى الواضح ظاهريًّا، أو الحتْمي، أو المألوف - موضع التساؤل"

(84) - التفكيك: منهج في القراءة أبدعه جاك دريدا، وقد جاء في الغرب في مرحلة ما بعد الحداثة، أو ما بعد البنيوية، منذ منتصف القرن العشرين تقريباً. انظر: مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، د. وليد قصاب، ص(181-213)، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 2009م.

وهذا كلام خطيرٌ، وتعميم في الحُكم لا يَقبله منطقٌ ولا عقلٌ، وإذا صحَّ أنَّ بعض النصوص مُفككة غير منسجمة ولا مترابطة، فهل يصحُّ أن يُعمَّم هذا الحكم؛ حتى تدخلَ فيه النصوص المقدَّسة والنصوص البشرية على حدٍّ سواء؟ وأين من هذا الحكم الضال نصوصُ القرآن الكريم المُعجزة المُحكمة الباهرة؟

وأين منه كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الفصيح البليغ المُحكم؟ بل أين ذلك من كلام الفُصحاء والبُلغاء المُتقن السَّديد؟!

2- ويمضي "التفكيك" في الضلال أكثر، فيَزعم أنَّ العلاقة بين "الدالّ"؛ أي: اللفظ أو الكلمة، و"مدلوله"؛ أي: معناه، والمفهوم منه – علاقة غير ثابتة ولا يقينيَّة، فالمفهوم من لفظ "شجرة" مثلاً عندما يُلفظ، ليس موجودًا فيه، وإنما هو مُعتمد على ما يَفهمه المتلقي من هذا اللفظ، عندما يُقارنه بألفاظٍ أخرى؛ مثل: "بقرة"، أو "ثمرة"، أو ما شاكَل ذلك من الألفاظ.

ولا شكَّ في ضلال هذا الكلام؛ إذ هو يمثِّل أقصى درجات الشكِّ؛ الشك في اللغة نفسها، وفي قُدرتها على التواصُل والتفاهم.

وإنَّ المعنى عندئذ لا يَحضر في أي دالٍّ حضورًا مؤكَّدًا أو قطعيًّا، إنه "ليس حاضرًا أبدًا – بكامل حضوره – في أي دليلٍ وحيد، وإنما هو في حالة من الترجرُج والغياب، وعندما أقرأ جملةً، فإن معناه يظل مُرتقبًا نوعًا ما على الدوام، مؤجَّلاً ومنتظرًا، دال يُسلمني إلى آخر، وذلك لآخر"

وهكذا تُصبح اللغة نفسها – عند هؤلاء التفكيكيين- في موضع الشكِّ، غير متماسكة، وعاجزة عن التعبير عن أي شيءٍ تعبيرًا ذا دَلالة واضحة؛ أي: ينتفي ما يُسميه علماء الأصول عندنا "قطعيَّة الدَّلالة"، ويُصبح كلُّ شيءٍ عند هؤلاء القوم "ظنيَّ الدَّلالة"، قابلاً للأخْذ والرد، والمراجعة والشك، واختلاف الآراء بلا حدٍّ.

3- وقاد الضلال السابق التفكيكيين إلى ضلالٍ أخطرَ، وهو قولهم بما سمَّوه "لا نهائيَّة القراءة"؛ أي: إنَّ النص يحتمل عددًا غير نهائي من التفسيرات والتأويلات، على عدد قرَّائه ومُفسِّريه الذين يتناولونه.

كأن يُتَحدَّث عند قومٍ عن تعدُّد القراءات؛ أي: عن إمكانيَّة أن يكون للنص أحيانًا أكثر من تأويلٍ، ما دامَت طبيعة صياغته تَحتمل ذلك؛ إذ إنَّ العبرة في أن يكون النص ذاته – بلغته وتركيبه – يدل على هذا التفسير الذي ارتآه "المُؤَوِّل"، ولكنَّ هذه البدعة الجديدة لا تكتفي بذلك؛ إذ هي بعد أن شكَّكت في العلاقة بين اللفظ وما يدلُّ عليه في المعجم أو في الاصطلاح – قادها ذلك إلى شكٍّ آخرَ خطير، وهو عدم الإيمان

بصحة أي قراءة، واعتبار أي قراءة – مهما كان مصدرها – ناقصة، وقابلة للنقض، أو الهدْم، أو "الفك" – بتعبيرهم – إلى قراءة أخرى وأخرى، في سلسلة لا تَنتهي من التأويل والتفسير المشكوك به جميعًا.

وهكذا فتَح ما سمَّاه "التفكيكيون": "تعدُّدَ القراءات"، أو "لا نهائيَّة القراءات" – الباب على مِصراعيه للتلاعُب بالنصوص – مقدَّسة وغير مقدسة – والتجرُّؤ على العبث بالكلام واستنطاقه – إن حقًّا أو باطلاً – ما يريد المفسِّر أن يُقوِّلَه.

4- ولو أنَّ أهل "التفكيك" جعَلوا – في هذه التفسيرات الكثيرة المتعدِّدة – النصَّ مرجعَهم، كما يفعل أصحاب المنهج البنيوي مثلاً، لهانَ الخطب؛ إذ ما دامت لغة النص المُفسَّر وطبيعة صياغته وأسلوبه، تُساعد على هذا التفسير أو ذلك، فلا ضَيْرَ من ذلك.

ولكنَّ أصحاب التفكيك يمضون في الغُلو والتطرُّف شوطًا أبعدَ، فيجعلون القارئ وحْده صاحب السلطان في التفسير، فهو الذي يُؤَوِّل النص كما يشاء، وهو الذي يُحدِّد دَلالاته ومَراميه)[85].

رابعاً: ويقول روبرت مارتان: "إن الأشياء اللسانية أشياء قابلة لتغيير صورة معناها، وتسمح طرق كثيرة التنوع من توسيع وكناية وحصر وقياس بتكييف محتواها تكييفاً لا متناهياً"[86].

وعليه فلا بد في دراسة النصوص المقدسة أن تكون ضمن وسياقها التاريخي، واللغة التي كانت في عصرها قبل أن تتطور[87]، ولا بد من اعتماد المنهج الوصفي.

***

(85) – موقع الألوكة، انظر الرابط:

https://bit.ly/2GHMVr9

(86) – انظر: مدخل لفهم اللسانيات، ترجمة د. عبد القادر مهيري، ص (155)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م.

(87) – انظر: المرجع السابق، ص (141).

ويضيف الدكتور شحرور:

"النّظام المعرفي

النّظام المعرفي المتبع أو المنهج المتّبع الذي انطلقنا منه في محاولة فهم التنزيل الحكيم وتقديم قراءة معاصرة له، سواء في موضوع النبوّة أو الرسالة، هدفه العمل على إعادة تأسيس فكر ديني معاصر، لا يتناطح مع ما توصّلت إليه المعارف الإنسانية، باستعمال أرضية معرفية متطوّرة لفهم نصوص التنزيل الحكيم، وإعادة تأسيس فقه إسلامي معاصر يقدّم رؤية مغايرة لعملية التشريع التي يجب أن تتماشى مع التطوّر المعرفي لأيّ مجتمع. على ألّا ننسى أنّ قراءتنا المعاصرة للتنزيل الحكيم ليست القراءة الأخيرة له، لأنّ القول بأنّها الأخيرة يوقعنا في ما وقع فيه السلف والسلفيون والآباء والآبائيون، لأنّ من يدّعي فهم كتاب الله ككلّ من أوّله إلى آخره فهماً مطلقاً، إنّما يدّعي شراكة الله في المعرفة في ضوء قوله تعالى:(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (الرعد 43)، وبالتالي فإنّ كتب التفسير التي تفسّر التنزيل الحكيم من أوّله إلى آخره لا تعني شيئاً بالنسبة إلينا من الناحية العلمية وليس لها أيّ مصداقية لأنّها ترتكز في عمومها على التفاسير التوراتية وعلى أسباب النزول وأقوال السلف".

تعقيب ومناقشة

يعود الدكتور شحرور إلى محاكاة منهج التفكيكية، ويحسن هنا أن نضيف شيئا مما قاله الدكتور وليد قصاب حول منهج التفكيك، في مقالة بعنوان: (التفكيك .. منهج خطير في التفسير) المشار إليها آنفاً، وفيها يدحض حجج التفكيكيين حيث قال:

(إن قراءة أي نصٍّ وتفسيرَه أو تأويله، تَخضع – في مختصرٍ من القول – لعاملين اثنين، هما:

1– احتمالية لغته؛ أي :ما يُرسله الدالُّ إلينا؛ أي: ما تؤدِّيه الألفاظ من المعاني، وما تُعبِّر عنه الكلمات من المفاهيم المتَّفق عليها عند مَن يتخاطبون بهذه "اللغة"، وكما هو متعارَف عليه في معاجمها وقواعدها وصرْفها، وليس على سلطان القارئ "السائب" لا المُنضبط؛ كما يريد أصحاب التفكيك.

2– جوُّ النص والملابسات الداخلية والخارجية التي كانت وراء ولادته.

إنَّ النصوص لا تَنشأ من الفراغ، وعند تفسيرها وتأويلها، لا يُكتفى فقط بدَلالات ألفاظها، ومعاني كلماتها، أو بمعرفة قواعد اللغة، وأعرافها، بل لا بدَّ من معرفة الجو النفسي والاجتماعي، والسياسي والفكري، الذي خرَج النصُّ من رحمه، وكان نتاجًا من نتاجاته.

إن من جوِّ النص مثلاً عند تفسير نصٍّ قرآني، معرفة مناسبته، وزمان نزوله، ومكان نزوله؛ مكي أم مدني، والناسخ والمنسوخ فيه، وغير ذلك من المعارِف التي لا بدَّ للمفسِّر - زيادةً على معرفته باللغة والصرف والبلاغة - من معرفتها، وإتقان أصولها وفروعها.

ولكنَّ التفكيك الذي نتحدَّث عنه، وتَشركه في هذا الجانب مناهجُ تفسيريَّة أخرى لا مجال للحديث عنها الآن - يُهمل هذه الملابسات جميعها، ولا يُعوِّل عليها.

يُعوِّل التفكيك على القارئ وحْده، لا على النص، ولا على المؤلِّف، ولا على مصدر النص، ولا على مناسبته، وجوِّه، وملابسات تأليفه.

القارئ وحْده هو السلطان، يفعل بالنص ما يشاء، يُؤَوِّله كما يرى، يستطيع أن يُقوِّله ما لَم يقل، وسيقول له التفكيك - عن أي تأويل يراه -: إن تأويلك هذا مقبول، ولكنَّه غير نهائي ولا قطعي، أفْسِح المجال لقارئ آخرَ أن يقول ما يريد، أصْغِ إليه كما أصغَينا إليك، واقْبَل تأويله كما قَبِلنا تأويلك.

وهكذا تضيع حقيقة النصوص في هذه البدعة الخطيرة المُسمَّاة بنظرية القراءة، أو بـ"نظرية استجابة القارئ"، كما يَحلو لبعضهم أن يدعوها.

إن جوهر المنهج التفكيكي - كما يقول الفيلسوف التفكيكي الفرنسي مؤسس هذا "جاك دريدا" - هو ما سمَّاه "غياب المركز" الثابت للنص؛ أي: غياب المعنى اليقيني، أو الحقيقي، الذي يُمكن أن يقال عن نصٍّ من النصوص: إنه يَحمله.

وإذا كان ذلك كذلك، فإن النصوص لا تقول أبدًا شيئًا محددًا قاطعًا، ومِن ثَمَّ يُصبح من حقِّ القارئ أن يَستخرج منها ما يشاء، أن يَبحث باستمرار عن هذا المخبأ المُبهم الكامن في أعماق النص، ولكنَّه - مهما اجتهَد في هذا البحث، ومهما حاول وجَدَّ - فلن يستطيع الوصول إلى اليقين.

إن التفكيك الذي رَكِب موجته اليوم بعض الباحثين والدارسين العرب، وراحوا يُطبِّقونه أحيانًا على تفسير النصوص المقدَّسة - هو اتجاه خطير، قائمٌ على الشك والعدميَّة في ظلِّ غياب رُوح الإيمان واليقين عن الفكر الغربي الحديث.

يقول ميلر – الناقد الغربي – واصفًا التفكيك بـ"العدمية": "العدمية، لقد أصبَحت هذه الكلمة لقبًا للتفكيك الحاضر؛ سرًّا وعلانية، كاسم لطرازٍ جديدٍ من النقد، يُخشى منه ومن قُدرته على التشكيك بقيمة كلِّ القِيم."..

ويصفه باحث عربي بأنه: "كالثور الهائج في حانوت عاديات، انطَلق يُدمِّر كلَّ شيءٍ من غير ضوابطَ")(88).

ويضيف الدكتور شحرور:

"أمّا مبادئ منهجنا المعاصر في فهم نصوص التنزيل الحكيم فهي مبادئ ذات أرضية علمية ولها مصداقيتها في التطبيق وترتكز على ما يلي:

أولاً: الإيمانيات

1- إن آيات التنزيل الحكيم عبارة عن نصّ إيماني وليست دليلاً علمياً، بحيث يمكن إقامة الحجّة بواسطتها على أتباع المؤمنين بها فقط، أمّا على غيرهم فلا يمكن. وعلى أتباع الرسالة المحمّدية المؤمنين بالتنزيل الحكيم أن يوردوا الدليل العلمي والمنطقي على مصداقيتها، وفي ذلك تتمثّل مهمّتهم الأساسية. علما أنّ كلّ الإنسانية تعمل على ذلك أعلمت بذلك أم لم تعلم :(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الروم 30)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "أمّا مبادئ منهجنا المعاصر في فهم نصوص التنزيل الحكيم فهي مبادئ ذات أرضية علمية ولها مصداقيتها في التطبيق" فهذا يعتبر تزكية لعمله، واستباقاً للنتائج، وأهل البحث العلمي والمتخصصون من العلماء هم الذين يحكمون على عمله إذا كان ذا "أرضية علمية ولها مصداقيتها في التطبيق". وهذا الكلام فيه رائحة الغرور العلمي، وهو يتناقض مع أخلاق أهل القرآن، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: 49].

---

(88) – موقع الألوكة، انظر الرابط: https://bit.ly/2GHMVr9

ثانياً: لقد ذكرَ الدكتور شحرور عند النقطة السابعة من المنهج الفكري [وسترد بعد قليل] ما ينقض كلامه هنا، فقد ذكر أن التنزيل الحكيم يحمل الخاصّيتين التاليتين:

أ- الوحي لا يناقض العقل.

ب- الوحي لا يناقض الواقع .

فإذا كان الوحي لا يناقض العقل، ولا يناقض الواقع، فقد صار قانوناً، وصار علماً وحجة على الجميع، المؤمنين به وغير المؤمنين به، لأن ما لا يناقض العقل والواقع هو صحيح لا يتطرق إليه الشك، شأنه شأن قوانين الفيزياء والرياضيات والطبيعة.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

2- إن التاريخ الإنساني ككل في مسيرته العلمية والتشريعية والاجتماعية، هو صاحب الحق في الكشف عن مصداقية التنزيل الحكيم، وهذه المصداقية ليس من الضروري أن ترد على لسان صحابي أو تابعي أو فقيه بل قد ترد على لسان كل من يقرأ نصوص التنزيل الحكيم قراءة واعية وممنهجة".

تعقيب ومناقشة

كلام عام، وفيه أغلوطة، إذ كيف يكون التاريخ "هو صاحب الحق في الكشف عن مصداقية التنزيل الحكيم"! فقد حصر المصداقية في التاريخ، فهل الصحابة الأوائل الذي اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في فجر الدعوة كانوا متبعين لرجل لم يكشف التاريخ عن صدقه بعد؟، أم كانوا متيقنين بصدقه دون ريب، بغض النظر عن التاريخ وما سواه؟

صحيح أن للتاريخ دوراً في تأكيد صدق الرسالة، ولكنه ليس صاحب الحق الحصري في بيان صدقها.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

3- إن الوجود المادّي وقوانينه هما كلمات الله، وأبجدية هذه الكلمات هي علوم الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا والفضاء... إلخ، وإنَّ الكمَّ المنفصل Digital والكمَّ المتَّصل Equations هما آليّة هذه العلوم، وهذا الوجود مكتفٍ ذاتياً ولا يحتاج إلى شيء من خارجه لفهمه، وهو لا يكذب على أحد ولا يغشّ أحداً، وفي نفس الوقت لا يساير أحداً وهو عادل في ذاته :(وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً)(الأنعام 115)".

تعقيب ومناقشة

إن تفسير كلمات الله بالكون وقوانينه تفسير ناقص، فكلمات الله تشمل الكون بما فيه كما تشمل أيضاً ما أنزله الله في كتبه، وما أوحاه إلى أنبيائه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 71]

فكلمات الله منها الإنشائية التكونية، ومنها الإرشادية التعليمية، ومنها الوحي إلى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

4- بما أن التنزيل الحكيم هو كلام الله :(وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ) (التوبة 6)، فوجب بالضرورة أن يكون مكتفياً ذاتياً، وهو كالوجود لا يحتاج إلى أيّ شيء من خارجه

لفهمه، هذا لإيماننا واعتقادنا بأنّ خالق الكون بكلماته هو نفسه موحي التنزيل الحكيم بكلامه، وهو الله سبحانه وتعالى. لذا فإن مفاتيح فهم التنزيل الحكيم ليست من خارجه بل هي بالضرورة داخله (تفصيل الكتاب) وما علينا إلّا البحث عنها فيه. وانطلاقاً من أنّ أبجدية كلام الله هي فهم المصطلحات – بحيث أوردنا جزءاً خاصّاً بها في آخر الكتيب – فإنّ فهم هذه المصطلحات يعتمد على تطبيق منهج معرفي في مهمّة التعامل مع نصوص التنزيل الحكيم. وما دامت المعرفة أسيرة أدواتها – وهذا ما سنشرحه في المنهج – فإن التنزيل الحكيم مطلق في ذاته، لكنه نسبي لقارئه لأنّ نسبيته تتبع تطوّر نظم المعرفة وأدواتها لدى الإنسان، وهذا ما نطلق عليه ثبات النص في ذاته وحركة المحتوى لقارئه في فهمه، ومن هنا نفهم لماذا كان النبي (ص) ممتنعاً عن شرح الكتاب كله إلا في الشعائر فقط".

تعقيب ومناقشة

هذا كلام يدور حول منهج التفكيك الذي سبق شرحه، وهو أن يفهم النص كما يريد من دون ضوابط ولا مؤثرات، وهذا غلط كبير، فكما أنه لا يمكن لأي إنسان أن يكتشف قوانين الكون كلها من تلقاء نفسه، وإنما يحتاج مؤثرات خارجي، مثل: الوالدين والمدرسة والجامعة والخبرة في الحياة، فهو كذلك لا يمكن أن يكتشف كنوز القرآن وبدائعه ودقائقه من تلقاء نفسه، بل لا بد له من معلمين يساعدونه، ولا بد له من علوم تساعده على اكتشاف فحوى النص ودلالاته، وقد أكد القرآن هذه الأمور قال تعالى يحث على سؤال العلماء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]. وقال تعالى يدلل على صدق القرآن بشهادة العلماء: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: 197]. وقال تعالى مؤكداً أهمية الوحي وأخذ النبأ من المصدر الصادق:﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 14]. وقال تعالى يحث على معرفة مصائر المجرمين من خلال البحث في الأرض: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: 69].

وعليه لا بد من البحث في مصادر المعرفة، وطالما أن الكون والقرآن كلاهما كلام الله، وكلام الله يصدق بعضه بعضاً، فما المانع من الاستعانة بأحدهما لفهم الآخر؟! نحن نستعين بكل ما في الكون من علوم ورجال علم ومعلومات وحقائق لفهم كلمات الله تعالى، ولا نكتفي بالنص لفهم النص، إلا إذا

أردنا ألا نفهم النص، والسؤال هنا: لماذا يهرب الدكتور شحرور من علوم القرآن وأقوال العلماء؟ والجواب: لأنه لو أقر به لبطل كل ما يصنعه من تنظير وتأطير لشرح القرآن الكريم وفق منهج الأهواء والتحلل من القيود والضوابط العلمية الصارمة.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

5-الأساس في الحياة هو الإباحة، لذا فإن الوحيد صاحب الحق في التحريم هو الله فقط، ولكنّه أيضاً يأمر وينهى، والنبي كان يأمر وينهى، والناس كانوا وما زالوا يأمرون وينهَون، لأنّ هناك فرقاً شاسعاً بين التحريم والنهي. ويتّضح ذلك على أساس أنّ المحرّمات قد أُغلقت في كتاب الله وحُصرت فيه بـ14 محرّماً لا أكثر ولا أقل، وبالتالي تصبح كل إفتاءات التحريم لا قيمة لها. وهكذا فإنّ كل ما عدا الله، ابتداءً من الرسل وانتهاءً بالهيئات التشريعية، تنحصر مهمّته في الأمر والنهي فقط :(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) (الحشر 7)، حيث إنّ كلاً من الأمر والنهي ظرفي زماني مكاني، والتحريم شمولي أبدي. لذا فإن الرسول (ص) لا يحرم ولا يحلل، وإنما يأمر وينهى، وكلّ نواهيه ظرفية لأنها عبارة عن اجتهادات في تفصيل المحكم كما جاء في الرسالة المحمّدية، وهي قابلة للنسخ لأنها اجتهادات إنسانية ظرفية وليست وحياً، وكانت بمثابة القانون المدني الذي سنّه لمجتمعه بناءً على اجتهاده الإنساني كقائد أعلى للمجتمع، لذا فإن اجتهاداته ليست وحيا، وجاءت طاعته فيه طاعة منفصلة أي واجبة لمن عاصره من أفراد مجتمعه فقط. علماً بأنّ الدين كما جاء في الرسالة المحمّدية يأمر وينهى ويحرّم لكنّه لا يمنع لأنه لا يملك أداة الإكراه :(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...) (البقرة 256)، أمّا السلطة في أيّ دولة فإنها تأمر وتنهى وتمنع عن طريق السلطة التشريعية فيها وذلك لأن الدولة تملك سلطة الإكراه (السلطة التنفيذية) لكنّها لا تحرّم لأنّ الله فقط هو صاحب الحق في التحريم".

تعقيب ومناقشة

كلام في منتهى الفساد والبهتان، فقد ميز الدكتور شحرور بين التحريم والأمر والنهي، وجعل التحريم حقا لله، وكل نواهي النبي ظرفية اجتهادية، وليست وحياً، وطاعة الرسول حسب رأيه: "واجبة لمن عاصره من أفراد مجتمعه فقط". وهذا الكلام باطل من ستة وجوه، هي:

أولاً: آيات القرآن

ترفض آيات الذكر الحكيم ما قرره الدكتور شحرور، قال تعالى مادحاً اتباع نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]. وفي هذه الآية نص صريح على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحلل ويحرم، قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾. فقد نسب التحليل والتحريم لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فالرسول فاعل الفعل يُحِلُّ، كما نسب ـ سبحانه ـ التحليل والتحريم لنفسه حين قال عز وجل: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: 160].

وليس التحليل والتحريم الوارد في الآية الكريم منسوباً للنبي صلى الله عليه وسلم خاصاً بما ذُكر في القرآن، إذ ليس في الآية ما يفيد هذا التخصيص، بل له أن ينقل لهم ما أحله الله تعالى أو حرمه عليهم، كما أن له حق التحليل والتحريم بما أوحى الله إليه من السنة المباركة، كما سيأتي الاستدلال على ذلك بما قاله صلى الله عليه وسلم في هذا الخصوص في الوجه الثاني الذي سنذكره بعد قليل.

وقال تعالى آمراً باتباع نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7].

وقال تعالى مقرناً طاعة نبيه صلى الله عليه وسلم بطاعته: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: 80].

وقال تعالى مبيناً أن اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم هو سبب لمحبته ومغفرته: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

ثانياً: الأحاديث النبوية

وردت أحاديث كثيرة في حجية السنة، فعن أبي رافع – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه) . رواه أحمد وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، والبيهقي في (دلائل النبوة)(89).

وعن المقدام بن معد يكرب –رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، وإن ما حرم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كما حرم الله، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم ، فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه**)**.

رواه أبو داود ، وروى الدارمي نحوه ، وكذا ابن ماجه إلى قوله : (كما حرم الله)(90).

ثالثا: إجماع الأمة

الأمة بأسرها متفقة على حجية السنة ما عدا الخوارج، فقد أنكروا بعضها، قال ابن تيمية: (وأصل مذهبهم تعظيم القرآن، وطلب اتباعه، ولكن خرجوا عن السنة والجماعة، فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن، كالرجم، ونصاب السرقة، وغير ذلك، فضلوا)(91).

وجاء من تابعهم مثل الدكتور شحرور فخطا خطوة تجديدية هائلة منكراً جميع السنة! وهو ما لم يفعله أحد قبله، فقد كان لبعض الفرق كالخوارج والمعتزلة والشيعة إنكار لبعض أحاديث السنة، وأما الدكتور شحرور فقد خطا خطوة ثورية جداً حين أنكر السنة بالجملة! فياله من تجديد يؤدي للمهالك!.

(89) – قال العلامة الألباني: إسناده صحيح. انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، تحقيق الألباني، (59/1).

(90) – قال العلامة الألباني: إسناده صحيح. انظر: المصدر السابق، (1/59-60).

(91) – مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم النجدي، (208/13).

رابعاً: العقل

يوجب العقل اتباع صاحب الرسالة، فإما أن تصدقه في كل ما جاء به فتتبعه، وإما أن تكذبه، فترفض ما جاء به، أما أن تصدقه فيما جاء به من القرآن، وتكذبه فيما جاء به من السنة بحجة أنها اجتهاد منه، وأنها ليست وحياً، ونحو ذلك من الكلام الغث البارد الذي يراد به تبرير رفض السنة، حتى لا ينتسب منكروها إلى المكذبين بالرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة، فيتسترون وراء عبارات موهمة ملتبسة يختبئون وراءها بقصد تبرير إنكار السنة الشريفة، وهذا تناقض في المنهج، فأنت تصدقه وتجحده، وتقبله وترفضه في آنٍ واحد، تصدقه بالقرآن وتجحده وترفضه بالسنة، ولا يمكن للرجل أن يكون مصدِّقاً ومكذِّباً لشخص واحد، فإما أن يكون صاحبُ الخبر صادقاً فيُصدَّق في ما يقول، أو كاذباً فيُكَذَّب فيما يقول، ولا يمكن أن يُصدَّقَ ويُجحدَ في وقتٍ واحد!.

خامساً: التاريخ

يشهد التاريخ بصدق السنة وحجيتها، فالمسلمون من عهد الرسالة إلى الآن يتبعون الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يأت من علمائهم من أنكر السنة كلها بالجملة، وكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وبشاراته لأصحابه بالفتوح والنصر، وحديثه عن علامات الساعة وقع كما أخبر عنه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، ولا ينكر هذا باحثٌ سويُّ الرأي وصحيح المنهج.

سادساً: اللغة العربية

أ. فرق الدكتور شحرور بين (حرم، نهى)، مدعياً أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحرم شيئاً، ومعنى حرمه: منعه، والحق أن النهي أوسع من التحريم، فهو يفيد التحريم أصالة، والكراهة إذا وجدت قرينة، يقول الراغب: (النهي: الزجر عن الشيء، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: 9-10] ... والنهية: العقل الناهي عن القبائح كلها، جمعه نُهى، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه: 54]"[92].

(92) - المفردات في غريب القرآن، مادة (نهى).

أما الحرام فهو: "الممنوع منه إما بتسخير إلهي، وإما بمنع قهري، وإما بمنع من جهة العقل، أو من جهة الشرع، أو من جهة من يرتسِمُ أمرَهُ"[93].

وأصل النهي كما يقول الدكتور وهبة الزحيلي رحمه الله "خاص في التحريم، كالأمر فإنه خاص في الإيجاب... فلا يدل عند إطلاقه إلا على التحريم، ولا يدل على غيره إلا بقرينة".[94]

ب . ليس لدينا في مباحث البلاغة أسلوب التحريم، وإنما لدينا أسلوب النهي ضمن مباحث الإنشاء الطلبي وهي خمسة: (الأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء). وأسلوب النهي يضم التحريم والمنع، والصيغة الوحيدة للنهي هي (لا تفعل)[95].

والدكتور شحرور يقول إنه يتبع المنهج اللغوي، فهل غاب عنه أن النهي معناه: "طلب الكف عن الفعل أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام"[96].

وبهذا ينكشف زيف ما ذهب إليه الدكتور شحرور من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحرم شيئاً، فكلامه باطل من حيث اللغة والبلاغة، إذ النهي يشتمل على التحريم، ويزيد عليه، وباطل عند الأصوليين من أهل الفقه الإسلامي.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

6- إنّ محمّداً (ص) قد جاء نبيّاً مجتهداً غير معصوم في مقام النبوة :(لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ) (التوبة 117)، وجاء رسولاً مبلّغاً ومعصوماً في مقام الرسالة :(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) (المائدة 67)، وبناءً على ذلك فهناك نوعان من السنّة: سنّة رسولية وسنّة نبوية، بحيث يوجد المحرّمات الإلهية الـ14 في السنة

---

(93) - المصدر السابق، مادة (حرم).

(94) - أصول الفقه الإسلامي، (1/232-235)، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1406هـ/ 1986م.

(95) - انظر: التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، شرحه عبد الرحمن البرقوقي، ص (151-174)، دار الفكر العربي.

(96) - علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، ص(90)، دار النهضة العربية، بيروت، 1404هـ/ 1984م..

الرسولية لأنّ مهمّة الرسول (ص) فيها تمثّلت في تبليغ ما أوحي إليه من ربّه فقط، أمّا السنة الثانية فكانت مناط اجتهاده من مقام النبوّة كقائد أعلى للمجتمع، وبالتالي ليس فيها محرّمات إطلاقاً وإنما جاءت على شكل أوامر ونواهٍ ظرفية لزمانه. وعلى هذا الأساس فإنّ طاعته في حالتيه كرسول مُبلِّغ وكنبي مجتهد جاءت لمقام الرسالة لأنّ الطاعة تكون للقانون لا للقوّة. فأمّا طاعته في السنّة الرسولية فطاعة متّصلة أي لمن عاصره من أفراد مجتمعه ولمن بعدهم بطاعته في ما أوحي إليه من ربّه من نصوص تشريعية، وأمّا طاعته في السنة النبوية فطاعة منفصلة أي كانت لازمة لمن عاصره من أفراد مجتمعه فقط وليست واجبة على من بعدهم بطاعته في تشريعاته التي سنّها لهم كقائد أعلى للمجتمع".

تعقيب ومناقشة

أولاً: هذا الكلام لا يستقيم في ميزان العلم، فقد قسم السنة إلى نبوية ورسولية، والسنة النبوية غير معصومة وخاصة بأهل عصره وغير ملزمة لمن بعدهم، وأما السنة الرسولية فهي السنة الملزمة، وهذا كلام لم يسبقه أحد إليه، وقد اعتمد فيه على الآية (لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ) وهذا استنتاج غلط، يقوم على فهم سطحي ساذج، لأنه افترض أن لسيدنا محمد شخصيتين: الأولى هو نبي، والثانية هو رسول، مع أنه لا يكون رسولاً إلا إذا كان نبياً، ولا يصح العكس، فليس كل نبي رسولا، فحين يخاطبه ربه بالنبوة فهذا باعتبار أن يُنبأُ أي يوحى إليه، وحين يخاطبه بالرسول باعتبار أنه يُبلغ ما يُوحى إليه، وعدد الأنبياء أكثر من أعداد الرسل، وعليه فالرسل هم قطب النبوة كما هو موضح بالشكل:

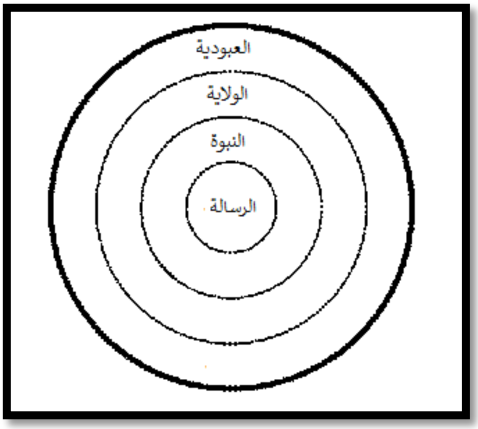

ثانياً: وقد وصف الله تعالى نبيه بالرسالة والنبوة معاً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 157-158].

كما جمع سبحانه بين وصف النبي ووصف الرسول في آيات كثيرة: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا، وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: 30-31]. ولو كان ما قاله الدكتور شحرور صحيحا لجاء في القرآن لفظ رسول بدلا من نبي في قوله تعالى: (لكل نبي عدواً) لأن المقام مقام التبليغ والرسالة والصراع مع قومه!

ثالثاً: وقد خاطبه الله تعالى بمقام النبوة طالبا منه تبليغ الرسالة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشرا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَبَشر الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا، وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: 45-48]. وعليه فمقام النبوة ومقام الرسالة ومقام العبودية لا يناقض بعضها بعضاً، بل يكمل بعضها بعضاً، وهو معصوم في مقاماته كلها، مبلغ عن ربه عز وجل، **فلا يوجد سنة رسولية وسنة نبوية عند أهل العلم،** ولا يستقيم هذا الكلام الذي يقوله الدكتور شحرور في ميزان الحقيقة أبداً.

رابعاً: ثم هل للدكتور شحرور أن يخبرنا عن قول الله تعالى: (﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: 1-3]. وعن قوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: 55]. وقوله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: 19]. هل كان هنا خطاب الله لسيدنا محمد بوصفه نبياً أم رسولاً وما قرينة ذلك؟.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

7- تذكرة الدخول إلى الإسلام هي الإيمان بالله واليوم الآخر تسليماً، والإسلام يقوم على هذه المُسَلَّمة، والعمل الصالح هو السلوك العامّ للمسلم، وكلّ مؤمن بالله واليوم الآخر تسليماً ويعمل صالحاً فهو مسلم مهما كانت ملّته الدينية، فيما التنزيل الحكيم سمّى أتباع ملّة محمّد (ص) "مؤمنون" لأنهم بالإضافة إلى إيمانهم بالله واليوم الآخر كغيرهم من المسلمين فإنهم يقتدون بالنبي (ص) في الشعائر، لأنّ اختلاف الملل الدينية يقوم على اختلاف الشعائر في ما بينها، وكلّ عمل هو وقفٌ على أتباع الملّة المحمّدية ولا يقوم به غيرهم هو من الإيمان بنبوّة محمّد (ص)، مثل الصلوات الخمس وصوم رمضان ونصاب الزكاة وصلاة الجنازة، حيث إنّ هذه الشعائر هي من أركان الإيمان وليست من أركان الإسلام ويكون الإبداع فيها بدعة ومرفوضاً. وبما أنّ القيم الإنسانية من العمل الصالح فهي من الإسلام وليست وقفاً على أتباع الرسالة المحمّدية فقط، مثل برّ الوالدين والصدق وعدم قتل النفس وعدم الغشّ والأمانة... إلخ. وما دام العمل الصالح من الإسلام، فأبدع ما شئت، ولك الأجر أنت ومن اتّبعك. ورأس الإسلام هو شهادة أنْ "لا إله إلّا الله" شهادة شاهد :(قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) (الأنبياء 108)، أمّا شهادة أنّ "محمّداً رسول الله" فهي رأس الإيمان، والإيمان بها تصديقاً. وبناءً على ذلك فإنّ أتباعه (ص) هم "المسلمون المؤمنون" لأنّهم يشهدون شهادة الإسلام وشهادة الإيمان. إنّ الإسلام دين عالمي إنساني، وهو الدين الوحيد الذي ارتضاه الله لعباده، لأنّه دين الفطرة، وقد تراكم من نوح حتى محمّد (ص). أمّا أركان الإيمان فهي ضدّ الفطرة تماماً كصوم رمضان والصلوات الخمس، ولا يمكن للإنسان أن يقوم بها إلاّ إذا أمره أحد بها وهداه إليها ثمّ قبِلَ هو بها، لذا قال تعالى عن الإسلام والإيمان :(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (الحجرات 17). وبناءً عليه، يصبح أهمّ إصلاح ثقافي نحن بحاجة إليه هو تصحيح أركان الإسلام وأركان الإيمان بالتمييز بينهما[97]، لأنّ أركان الإيمان وُضعت على أنها أركان الإسلام في منظومتنا التراثية، ما أوقعنا في أزمة ثقافية وأخلاقية كبيرة جداً وعزلنا عن بقيّة العالم. لأننا نلاحظ في الأركان التي وضعوها للإسلام غياباً تامّاً للأخلاق والقيم العليا بحيث جعلوا الإسلام دين تكليف مع أنّه دين يتماشى مع الفطرة على عكس الإيمان القائم على التكليف".

(97) – للمزيد راجع كتاب الدكتور شحرور: الإسلام والإيمان. منظومة القيم، القسم الأول: الإسلام والإيمان.

تعقيب ومناقشة

أولاً: في الكلام السابق هناك خلط عجيب غريب بين أركان الإسلام وأركان الإيمان، والسبب أن الدكتور شحرور قد يستنبط أحكامه من آية واحدة، وليس من مجموع الآيات الكريمة، ويقف عند ظاهر الآية دون أن يفقه معناها، ولا يرجع إلى كتب التفسير في شرحها، ناسياً أو متناسياً أن القرآن الكريم كتاب قائم على الإيجاز والبلاغة، فما يوجزه في موضع يفصله في موضع آخر، أو تبينه السنة النبوية التي هي بمجملها شرح للقرآن الكريم وبيان له.

ثانياً: قد يقتضي المقام ذكر بعض الأركان دون غيرها، ولا يمكن أن تسرد كل آية تتحدث عن الإسلام أو الإيمان أركانهما بالتفصيل في كل مرة يرد ذكر أي واحد منهما، فهذا مخالف لمقتضى الحال في البلاغة، وتطويل لا فائدة فيه.

ثالثاً: لم يذكر دليلاً من الآيات القرآنية على كلامه بأن الإسلام يشمل الإيمان باليوم الآخر.

رابعاً: أنكر الدكتور شحرور كل الأحاديث والآثار وأقوال العلماء في موضوع التفريق بين الإسلام والإيمان وبيان أركان كل منهما، وهذا يدل على غاية الجهل والغرور، **وإن أولى الناس بالتفريق بينهما صاحب الرسالة العصماء صلى الله عليه وسلم،** ففي الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال: بينما نحن عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –، فأسند ركبته إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام. قال: (الإسلام :أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا). قال : صدقت. فعجبنا له يسأله، ويصدقه! قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره). قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). قال: فأخبرني عن الساعة. قال: (ما المسئول عنها بأعلم من السائل). قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: (أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان). قال: ثم انطلق، فلبثت مليا، ثم قال لي: (يا عمر أتدري من السائل؟). قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[98].

---

(98) – رواه مسلم، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، تحقيق الألباني، (9/1).

فهل هنالك أصدق من جبريل في تعليم الدين وبيان أركان الإسلام والإيمان؟!

خامساً: استخدم الدكتور شحرور أسلوباً سوقياً ابتدأه بقوله: " تذكرة الدخول إلى الإسلام هي الإيمان بالله...". وكأننا أمام دور سينما أو مسرح نريد الدخول إليه!

سادساً: للإسلام معنى لغوي ومعنى اصطلاحي ولم يميز بينهما، وحسب المعنى اللغوي فكل من في السماوات والأرض هم مسلمون، أي منقادون لأمر الله ومشيئته، محكومون بقبضته، قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 83].

سابعاً: زعم الدكتور شحرور أن أركان الإيمان بعزلة عن الأخلاق، وكأنه لم يسمع بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: **(الإيمان بضعٌ وسبعون شُعْبة، فأفضلُها: قولُ لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعْبة من الإيمان)**[99]. يُلاحظ كيف جعل النبي صلى الله عليه وسلم الخدمة الاجتماعية كإماطة الأذى، والشخصية المتحضرة التي تتميز بالأدب والحياء من شعب الإيمان.

---

(99) – متفق عليه عن أبي هريرة، انظر: المصدر السابق، (10/1).

وقد ذكر الإمام ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في فتح الباري، [اعتنى به أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، (1/105-106) دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، 1426هـ/ 2005م] عند شرح هذا الحديث تلخيصا لما أورده بعض أهل العلم في بيان هذه الشعب، فقال: "فائدة قال القاضي عياض: تكلف جماعة حصر هذه الشعب بطريق الاجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة، ولا يقدح عدم معرفة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان، اهـ، ولم يتفق من عدَّ الشُّعب على نمط واحد وأقربها إلى الصواب طريقة ابن حبان، لكن لم نقف على بيانها من كلامه، وقد لخصت مما أوردوه ما أذكره وهو أن هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن. فأعمال القلب: فيه المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان بالله: ويدخل فيه الإيمان بذاته وصفاته وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره، والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه المسألة في القبر والبعث والنشور والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، ومحبة الله والحب والبغض فيه، ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه: الصلاة عليه، واتباع سنته. والإخلاص: ويدخل فيه: ترك الرياء والنفاق والتوبة والخوف والرجاء والشكر والوفاء والصبر والرضا بالقضاء والتوكل والرحمة والتواضع، ويدخل فيه توقير الكبير ورحمة الصغير وترك الكبر والعجب وترك الحسد وترك الحقد وترك الغضب وأعمال اللسان وتشتمل على سبع خصال: التلفظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن وتعلم العلم وتعليمه، والدعاء والذكر، ويدخل فيه الاستغفار واجتناب اللغو وأعمال البدن، وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة، منها ما يختص بالأعيان، وهي خمس عشرة خصلة: التطهير حسا وحكما، ويدخل فيه اجتناب النجاسات وستر العورة والصلاة فرضا ونفلا، والزكاة كذلك، وفك الرقاب، والجود، ويدخل فيه إطعام الطعام وإكرام الضيف والصيام فرضا ونفلا، والحج والعمرة كذلك، والطواف والاعتكاف، والتماس ليلة القدر، والفرار بالدين، ويدخل فيه الهجرة من دار الشرك، والوفاء بالنذر، والتحري في الإيمان، وأداء الكفارات، ومنها ما يتعلق بالاتباع، وهي ست خصال: التعفف

ثامناً: زعم الدكتور شحرور أن "أركان الإيمان فهي ضدّ الفطرة" وهذا كلام غلط، لا يستقيم في ميزان البحث والعلم، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30]. فهذا الدين بجميع عقائده وأحكامه وتشريعاته وأقسامه هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، أي خلقهم مسلمين مؤمنين، فمن أين لك أن أركان الإيمان ضد الفطرة؟ رحم الله المتنبي حين قال:

وكم من عائب قولاً صحيحاً

وآفتُهُ من الفهم السـقيم

تاسعاً: قال الدكتور شحرور: "أهمّ إصلاح ثقافي نحن بحاجة إليه هو تصحيح أركان الإسلام وأركان الإيمان بالتمييز بينهما، لأنّ أركان الإيمان وُضعت على أنها أركان الإسلام في منظومتنا التراثية، ما أوقعنا في أزمة ثقافية وأخلاقية كبيرة جداً وعزلنا عن بقيّة العالم".

والصواب أن العلماء ميزوا بين أركان الإيمان وأركان الإسلام بناء على قول صاحب الرسالة، فإذا كان الدكتور شحرور يُكذب بالسنة ورواتها ويصدق بالقرآن فهذا تناقض، لأن من حملوا إلينا السنة هم من حملوا القرآن فكيف يكذبهم ويصدقهم بآنٍ واحد! وأما عزلتنا عن العالم فلا صلة لها بأركان الإسلام والإيمان وإنما سببها استشراء الفساد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والأخلاقي، وكما قال شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق مـا بقيتْ

فإن همُ ذهبتْ أخلاقُهم ذهبوا

بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وفيه اجتناب العقوق وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة أو الرفق بالعبيد، ومنها ما يتعلق بالعامة، وهي سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة، والمعاونة على البر، ويدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود والجهاد، ومنه المرابطة وأداء الأمانة، ومنه أداء الخمس والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه جمع المال من حله، وإنفاق المال في حقه، ومنه ترك التبذير والإسراف، ورد السلام وتشميت العاطس، وكف الأذى عن الناس، واجتناب اللهو، وإماطة الأذى عن الطريق، فهذه تسع وستون خصلة، ويمكن عدها تسعا وسبعين خصلة باعتبار إفراد ما ضم بعضه إلى بعض مما ذكر والله أعلم. والله أعلم".

ويضيف الدكتور شحرور:

"ثانياً: الأوّليّات

عند دراسة أيّ نص لغوي، مهما كان نوعه، نجده يتأسّس على الأركان التالية: المؤلّف – النصّ – القارئ أو السامع. فالقارئ يتعرّف إلى المؤلف من خلال النصّ وقراءاته له، وليس ضرورياً أن يذهب القارئ إلى المؤلف ويجلس معه ليفهم منه ماذا يريد بكتابه. فإذا فهم القارئ النصّ مئة بالمئة كما أراد المؤلف، فهذا يعني أنّه دخل إلى عقل المؤلف وصار مثله في المعارف الواردة في النص. وعندما يقرأ القارئ النصّ فإنّه يوظف معلوماته المكتسبة تلقائياً ليفهمه، فإذا لم يفعل ذلك فإنّه يعطّل فكره ولا يفهم شيئاً، وهذا ما يحصل مع شديد الأسف عند الكثير من الناس حين يقرؤون آيات الذكر الحكيم. ففي التنزيل الحكيم، ولله المثل الأعلى، المؤلِّف هو الله المطلق المعرفة، والنصّ هو التنزيل الموحى، والسامع هو الناس المحدودو المعرفة من زمن التنزيل إلى أن تقوم الساعة، بمختلف مداركهم ومعارفهم المتطوّرة والمتقدّمة دائماً. لذا لا يمكن لإنسان واحد أو لمجموعة من البشر في جيل واحد، فهم معاني نصوص التنزيل الحكيم فهماً كاملاً ومطلقاً كما أراده صائغه، وإلّا أصبح شريكاً لله في المعرفة، بدلالة قوله تعالى :(لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (الأنعام 67). وما دام الأمر كذلك، وإذ لن يأتي وحي ولا تنزيل بعد محمّد (ص) الخاتم، كي يضع الأنباء في مستقرِّها، وما دام الله يعلم بعلمه الكليّ اختلاف القارئ – إلى أن تقوم الساعة – حسب اختلاف الأرضية المعرفية والمدركات لكلّ زمن، جاء تنزيله عزّ وجلّ يحمل ظاهرة التشابه، أي ثبات النصّ وحركيّة المحتوى في النبوّة، وجاءت الأحكام في هذا التنزيل حنيفيّة، تحمل مرونة التطابق مع المتغيّرات الزمانية والمكانية، في تحرّكها بين حدود الله الدنيا والعليا في الرسالة، تاركة للمجتمع فهم معاني النصوص وفق الأرضية المعرفية لكلّ مجتمع، واختيار النقطة الملائمة ضمن هذه الحدود حصراً لتقف عليها وتأخذ بها، مقلدة التشريع الإلهي في مؤسّساتها التشريعية بإصدار شرائع حدودية ظرفية بالاجتهاد في تفصيل المحكم الذي يتضمّن الحدود الدنيا والعليا التي جاءت في الرسالة الإلهية، علماً بأنّ الثابت في التشريع هو الآيات المحكمات وفيها كلّ المحرمات، أمّا حنيفية التشريع فتتجلّى في تفصيل المحكم".

تعقيب ومناقشة

أولاً: وصف الدكتور شحرور اللهَ تعالى بأنه مؤلف، والصواب أن لا يوصف الله بشيء من صفات البشر، ولو قال إن الله تعالى مصدر القرآن أو منزله لكان أولى، فعملية التأليف عملية بشرية تستغرق وقتاً وجهداً، ومراجعة وتفكير، وبحث وتحليل واستنتاج، والله عليم خبير منزه عن ذلك، وقد قال القاضي الفاضل أستاذ البلغاء عبد الرحيم البيساني إلى العماد الأصفهاني معتذراً عن كلام استدركه عليه: "(إنه قد وقع لي شيء وما أدري أوقع لك أم لا؟ وها أنا أخبرك به، وذلك إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومِهِ إلا قال في غَدِهِ: لوُ غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يُستحَسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر)[100].

ثانياً: أشار الدكتور شحرور إلى "ثبات النصّ وحركيّة المحتوى" وهذا صحيح وفق ضوابط محددة، فالمحتوى يتحرك ولكن لا يبتعد عن دلالته الأساسية وقت نزوله، أو لا يناقضها ويكون في قطيعة معها، بمعنى أنه لا يمكن أن يتحرك (180) درجة ليكون نقيضا لمعناه وقت نزوله، وإلا لكانت الألفاظ كالطلاسم والألغاز التي يفسرها كل شخص بما يحلو له، والقرآن بيان للناس، ومن صفة البيان أن يصل معناه إلى القلب قبل وصول لفظه إلى الأذن.

ثالثاً: ولأن القرآن باق إلى قيام الساعة، فلا بد أن يكون أسلوبه مناسبا كل العصور، وقد أشار إلى ذلك الرافعي حين قال: (نرى أسلوب القرآن من اللين والمطاوعة على التقليب، والمرونة في التأويل، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يفسر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه، واختلاف وتمحيص، وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيرا من حقائقه التي كانت مغيبة، وفي علم الله ما يكون من بعد، وإن ما عهد من كلام الناس لا يحتمل كل ذلك ولا بعضه، بل هو كلما كان أدنى إلى البلاغة كان نصا في معناه، ثابتا في حيزه، تجمد الكلمة أو الجملة على معنى بعينه قد يستقيم وقد ينتقص، وكيفما قلبته رأيته وجهاً واحداً وصفة واحدة، لأن الفصاحة لا تكون في الكلام إلا إبانة، وهذه لا تفصح إلا بالمعنى المتعين، وهذا المعنى محصور في غرضه الباعث عليه، وأكبر السبب في ذلك أن هذا القرآن الكريم ليس عن طبع إنساني محدود بأحوال نفسية لا

(100) – كشف الظنون، لحاجي خليفة، (18/1) دار إحياء التراث العربي، بيروت.

يجاوزها، فهو يداور المعاني، ويريغ الأساليب، ويخاطب الروح بمنطقها من ألوان الكلام لا من حروفه، وهو يتألف الناس بهذه الخصوصية فيه، حتى ينتهي بهم مما يفهمون إلى ما يجب أن يفهموا، وحتى يقف بهم على نص اليقين ومقطع الحق، وتراه في أوضاعه من أجل ذلك يستجمع درجات الفهم، كأن فيه غاية لكل عقل صحيح، ولكنه في نفسه وأسرار تركيبه آخر ما يسمو إليه فهم الطبيعة نفسها، بحيث هو لو علا عن ذلك لخفي على الناس، ولو نزل عن ذلك لما ظهر في الناس، لأن علوه يفوت ذرعهم، ونزوله يوجدهم السبيل إلى معارضته ونقضه، وكلا هذين يجعل أمره عليهم غمة، فلا يتجهون على صواب، وإنما هو في نفسه وفي أفهام النفس كما وصفه الله: الحق، والميزان، كل الناس يعملون لفهمه، ويدأبون عليه، ولكل درجات مما عملوا)[101].

رابعاً: قوله: "الثابت في التشريع هو الآيات المحكمات وفيها كلّ المحرمات، أمّا حنيفية التشريع فتتجلّى في تفصيل المحكم". هذا كلام غير صحيح، فتعريفه للمحكم والحنيفي غير صحيح ولا يُسلم له به[102]، والثابت في التشريع ليس المحكمات فقط، فكل ما فيه من كتاب وسنة ثابت إلى يوم القيامة، لا يزيغ عنه إلا هالك، ولا يوجد في التشريع الإلهي ثابت ومتحرك، إلا في عقوبة التعزير التي ترك الإسلام للحاكم أمر تقديرها، وذلك بما يلائم المصلحة العامة في كل بيئة.

ويضيف الدكتور شحرور:

"ثالثاً: اللغويّات

1-الألفاظ خدم للمعاني، فالمعاني هي المالكة لسياستها والمتحكّمة فيها. ووظيفة اللغة هي آليّة التفكير ونقل ما يريده متكلم إلى سامع".

---

(101) - تاريخ آداب العرب، (2/206-208) دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1394هـ/ 1974م.

(102) - انظر تعريف المحكم عند النقطة الأولى من حديثه عند الفقرة: (خامساً: من أسس التشريع المعاصر) وستأتي. وانظر: تعريف الحنيفية في الفصل الثاني: مصطلحات الدكتور شحرور كما ذكرها في موقعه على شبكة الإنترنت.

تعقيب ومناقشة

أولاً: قضية اللفظ والمعنى من أكثر القضايا التي شغلت النقد العربي، وكان أول من طرحها الجاحظ في كتاب الحيوان، وكان من أنصار اللفظ، حيث قال: "وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"(103).

ثانياً: بينما ذهب ابن قتيبة إلى التسوية بين اللفظ والمعنى(104)، فإن أكثر الأدباء والنقاد انحازوا للجاحظ في تقديم اللفظ على المعنى(105)، يقول ابن رشيق القيرواني: "وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى"(106).

ثالثاً: والراجح ـ والله أعلم ـ أن اللفظ والمعنى لا ينفصلان، فبينهما اتحاد تام، لذا فالحُسْن لا يرجع إلى أي منهما منفصلاً عن صاحبه، وإنما إلى نظم الكلام، وحسن تأليفه، وملاءمته لمقتضى حال المخاطبين، وإلى هذا ذهب شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني رحمه الله تعالى!

***

ويضيف الدكتور شحرور:

2- حين يخاطب المتكلم سامعاً، فهو لا يقصد إفهامه معاني الكلمات المفردة، لذا فالثقافة المعجمية غير كافية لفهم أيّ نصّ لغوي، فما بالك إن كان النصّ هو التنزيل الحكيم. فالمعاني موجودة في النظم، لا

(103)- كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (3/131-132). المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1388هـ/1969م.

(104) - تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، ص (108)، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1406هـ/1986م.

(105) - انظر تفاصيل الموضوع في كتاب: قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد زكي العشماوي، ص (241-276)، دار النهضة العربية، بيروت، 1404هـ/ 1984م.

(106) - المرجع السابق، ص (269).

في الألفاظ كلّ على حدة، وحين نقول إنّ الولد أكل تفاحة حمراء، فنحن نعني ضمناً وبالضرورة أنّ هناك تفّاحاً بألوان أخرى. وعندما نقرأ قوله تعالى :(وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (الأعراف 33)، فنحن نفهم ضمناً وبالضرورة أنّ هناك إثماً وبغياً بحقّ، ولو لم نقل ذلك لفظاً بالنص، وهذا ما يسمىّ المسكوت عنه".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: " فالثقافة المعجمية غير كافية لفهم أيّ نصّ لغوي، فما بالك إن كان النصّ هو التنزيل الحكيم. فالمعاني موجودة في النظم". هذا صحيح، ولكن الثقافة المعجمية تساعد على فهم المعنى، ولو لم يكن لها فائدة لما استخدم الناس المعاجم.

ثانياً: وقوله: " نقرأ قوله تعالى :(وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (الأعراف 33)، فنحن نفهم ضمناً وبالضرورة أنّ هناك إثماً وبغياً بحقّ". هذا فهم سقيم، فلا يوجد إثم بحق، وإنما هذا القيد (بغير الحق) هو خاص بالبغي، والبغي في اللغة (طلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتحرى، تجاوزه أم لم يتجاوزه)(107)، وهو هنا بمعنى الاستطالة على الناس، وهذه تكون بحق في حالة رد الاعتداء، قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194]. وتسمية رد العدوان في الآية بالاعتداء والتعبير عنه بقوله (فاعتدوا) هو من باب المشاكلة.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

3- اللغة حاملة للفكر، وتتطوّر معه. وهناك تلازم لا ينفصم بين اللغة ووظيفة التفكير عند الإنسان، حتى الأحلام التي يراها النائم، يراها ضمن حامل لغوي".

---

(107) - المفردات في غريب القرآن، مادة (بغى).

تعقيب ومناقشة

أولاً: اللغة هي حاملة للفكر الإنساني هذا صحيح، وذلك لأن "اللغة تميز الإنسان عن الحيوان، بحكم أنها بنت الفكر، الإنسان يعي ما يقول، بعكس الحيوانات ولو امتلكت أعضاء النطق، بالإضافة إلى أن اللغة والفكر يمكن اعتبارهما مرتبطان كوجهي القطعة النقدية، لا يجوز فصلهما"(108).

ولكن اللغة هي أيضاً حاملة أيضاً للعواطف والمشاعر والأخيلة الإنسانية، وسجل الحضارة الخالد، ووعاء العلم والمعرفة، وإلى هذا أشار الجرجاني حين قال: "ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان، ويجعله على ذُكْرٍ: أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفرادًا ومجردة من معاني النحو، فلا يقوم في وهْمٍ، ولا يصح في عقلٍ، أن يتفكرَ متفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا أن يتفكر في معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه، وجعله فاعلاً له أو مفعولًا، أو يريد منه حكمًا سوى ذلك من الأحكام، مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبرًا أو صفة أو حالًا أو ما شاكل ذلك" (109).

ثانياً: إن حصر اللغة بالفكر فقط يذكرنا بما "كتب ماركس: (اللغة هي الواقع المباشر للفكر) فهي تعكس العمل على جميع مستوياته من التعقيد"(110).

ثالثاً: واللغة هي من أهم ما يميز الإنسان، والبيان من أعظم نعم الله تعالى على عباده، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 1-4]. واختلاف اللغات الإنسانية آية من آيات القدرة الإلهية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: 22].

رابعاً: ولكن ينبغي أن لا ننسى وسائل الدلالة الأخرى التي أشار إليها الجاحظ حيث قال: (وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ، وغير لفظ، خمسةُ أشياء، لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصبة، والنِصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحدة من هذه الخمسة صورة بائنة عن صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها

(108) – المعجم الفلسفي، د. مصطفى حسيبة، ص (438)، دار أسامة، عمان، الطبعة الأولى، 2009م.

(109) – كتاب دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ص (410)، مكتبة الخانجي، القاهرة،

(110) – النظرية المادية في المعرفة، لروجيه غارودي، تعريب إبراهيم قريط، ص(227)، دار دمشق، دمشق.

وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السارّ والضارّ، وعما يكون منها لغواً بهرجاً، وساقطا مُطَّرَحاً)(111).

***

ويضيف الدكتور شحرور:

4- جاء التنزيل الحكيم على أعلى مستوى من البلاغة التي لا يمكن تجاوزها أو الإتيان بمثلها في أداء المعنى وتوصيله إلى السامع. فهو الكتاب الوحيد الذي يمثّل في جميع آياته الخيط الفاصل بين الإطالة المملّة والإيجاز المخلّ. لهذا علينا أن نقرأ المسكوت عنه الذي اقتضته البلاغة، كما في آية المواريث حيث سكت عن الذكر في قوله تعالى :(وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ) (النساء 11)، وفي قوله تعالى :(فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ) (النساء 11)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: لا شك بأن القرآن في أعلى مستوى من البلاغة والفصاحة، وهذا من إعجازه وتفرده، والمسكوت عنه يُعرف بواسطة القرائن أو السياق أو دلالة المفهوم، وما من شيء إلا وتحدث عنه العلماء، بل لقد فسروا القرآن كلمة كلمة، وعربوه كذلك، وكان هذا منذ عهد الكسائي (ت 189هـ) واستمر حتى عصرنا الحاضر.

ثانياً: وممن عربه في عصرنا ثلاثة من علماء حمص وهم:

- محيي الدين درويش في كتابه: إعراب القرآن الكريم وبيانه.
- محمود صافي في كتابه: الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة.
- محمد علي الدرة في كتابه: تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه.
- وللدكتور فخر الدين قباوة من حلب كتاب: الإعراب المنهجي للقرآن الكريم.

(111) - البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، (1/ 76) مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الرابعة، 1395هـ/ 1975م.

ثالثاً: هنالك دراسات منهجية تتبعت كتب إعراب القرآن، كدراسة د. مي فاضل الجبوري بعنوان: إعراب القرآن الكريم . دراسة في منهجية التأليف حتى نهاية القرن السادس الهجري، نشر دار الشئون الثقافية العامة، وزارة الثقافة، بغداد 2001م.

رابعاً: لا نحتاج إلى تكهنات في فهم القرآن بعد أن أفنى عشرات العلماء أعمارهم في خدمة الكتاب العزيز نحواً وصرفاً وبياناً وبلاغة وإعجازاً، وهنالك دراسات لغوية ونحوية وبلاغية كثيرة جداً حول الكتاب العزيز لم نسردها خشية الإطالة.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

5- جاء التنزيل الحكيم ليطوّر اللغة العربية، بحيث ألغى الترادف في الألفاظ وفي التركيب، وانتقل باللغة العربية إلى مستوى التجريد الكامل بحيث تستوعب أكبر المكتشفات. فاللوح المحفوظ غير الإمام المبين، والكتاب غير القرآن، و"للذكر مثل حظّ الأنثيين" لا تعني "للذكر مِثلا حظّ الأنثى". ومن يقُلْ بالترادف في المفردات والتراكيب فكأنما يقول إنّ التنزيل الحكيم نزل على مبدأ "ما أعذب هذا الكلام لا أكثر من ذلك" مقارنة بالشعر الذي لا يعيبه الترادف والكذب والخيال. وبالتالي فإنّ القول بأنّ الناقة لها خمسون اسماً من باب الترادف يمثّل مرحلة ما قبل التجريد النهائي في اللغة العربية الذي جاء به التنزيل الحكيم، ويمثّل بدائية اللغة، لذا لا نأخذ به الآن لأنّ التنزيل الحكيم تجاوزه تماما".

تعقيب ومناقشة

أولاً: ما هو الترادف؟

- في اللغة: (الرِّدْف بالكسر: الراكبُ خلف الراكبِ، كالمُرتدِفِ والرَّديفِ والرُّدافى... وترادفا: تعاونا، وتناكحا، وتَتَابعا. والمترادف من القوافي: ما اجتمعَ فيها سكنانِ، وأن تكونَ أسماءٌ لشيء واحدٍ، وهي مولدة) (112).

(112) - القاموس المحيط: مادة (ردف) .

– وفي الاصطلاح: قال الإمام فخرُ الدين الرازي: (هو الألفاظ المفردةُ الدالة على شيء واحد باعتبارٍ واحد. قال: واحترزنا بالإفراد عن الاسم والحدِّ، فليسا مُترادفين، وبوَحْدة الاعتبار عن المتباينين كالسيف والصارم، فإنهما دَلاَّ على شيءٍ واحد، لكنْ باعتبارين: أحدُهما على الذَّات والآخر على الصفة؛ والفرقُ بينه وبين التوكيد أنَّ أحد المترادفين يُفيدُ ما أفاده الآخر، كالإنسان والبشر، وفي التوكيد يفيد الثاني تقوية الأول. والفرق بينه وبين التابع أن التابع وحدَه لا يفيد شيئا كقولنا: عَطْشان نطْشان. قال: ومن الناس من أنْكره، وزعم أن كلَّ ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات؛ إما لأن أحدَهما اسمُ الذات، والآخر اسمُ الصفة أو صفةُ الصفة. قال: والكلامُ معهم إما في الجواز، ولا شك فيه؛ أو في الوقوع إما من لغتين، وهو أيضا معلوم بالضرورة، أو من لغةٍ واحدة؛ كالحنطة والبر والقمح؛ وتعسفات الاشتقاقيين لا يشهد لها شُبْهةٌ فضلا عن حُجَّة)(113).

ثانياً: مسألة أن القرآن ألغى ظاهرة لغوية كانت موجودة في لغة العرب كالترادف في اللغة العربية كلام غير مقبول، فالترادف كظاهرة لغوية موجود في كل اللغات ومنها العربية، يقول الدكتور إبراهيم أنيس: "يجمع المحدثون من علماء اللغات على إمكان وقوع الترادف في أي لغة من لغات البشر، بل إن الواقع المشاهد أن كل لغة تشتمل على بعض تلك الكلمات المترادفة"(114).

ولا أدري كيف يعارض الدكتور شحرور علماء اللغة! مع أنه كان قد ذكر للقارئ بأنه سيتبع منهجاً معاصراً يعتمد على علم اللسانيات.

ثالثاً: لم يأت القرآن الكريم ليلفت العرب عن لغتهم، بل خاطبهم بلغتهم التي يفهمونها رجاء أن يستوعبوه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].

رابعاً: قال ابن جني يحدد أسباب الترادف في (**باب في الفصيح يجتمع في كلامه لغتان فصاعدا**): (وما اجتمعت فيه لغتان أو ثلاث أكثر من أن يحاط به. فإذا ورد شيء من ذلك – كأن يجتمع في لغة رجل واحد لغتان فصيحتان – فينبغي أن تتأمل حال كلامه فإن كانت اللفظتان في كلامه متساويتين في الاستعمال، كثرتهما واحدة فإن أخلق الأمر به أن تكون قبيلته تواضعت في ذلك المعنى على "ذينك اللفظين" **لأن العرب قد**

(113) – المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، (1/402-403)، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1992م.

(114) – في اللهجات العربية، ص(178)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، 1992م.

تفعل ذلك للحاجة إليه في أوزان أشعارها وسعة تصرف أقوالها. وقد يجوز أن تكون لغته في الأصل إحداهما، ثم إنه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى وطال بها عهده وكثر استعماله لها، فلحقت – لطول المدة واتصال استعمالها – بلغته الأولى. وإن كانت إحدى اللفظتين أكثر في كلامه من صاحبتها فأخلق الحالين به في ذلك أن تكون القليلة في الاستعمال هي المفادة والكثيرة هي الأولى الأصلية. نعم وقد يمكن في هذا أيضاً أن تكون القلي منهما إنما قلت في استعماله لضعفها في نفسه وشذوذها عن قياسه وإن كانتا جميعاً لغتين له ولقبيلته. **وذلك أن من مذهبهم أن يستعملوا من اللغة ما غيره أقوى في القياس منه؛** ألا ترى إلى حكاية أبي العباس عن عمارة قراءته (وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ) بنصب النهار وأن أبا العباس قال له: ما أردت؟ فقال: أردت " سابقٌ النهار". قال أبو العباس: فقلت له: فهلا قلته. فقال: لو قلته لكان أوزن، أي أقوى. فهذا يدلك على أنهم قد يتكلمون بما غيره عندهم أقوى منه، وذلك لاستخفافهم الأضعف، إذ لولا ذلك لكان الأقوى أحق وأحرى، **كما أنهم لا يستعملون المجاز إلا لضرب من المبالغة، إذ لولا ذلك لكانت الحقيقة أولى من المسامحة. وإذا كثر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة فسمعت في لغة إنسان واحد، فإن أخرى ذلك أن يكون قد أفاد أكثرها أو طرفاً منها من حيث كانت القبيلة الواحدة لا تتواطأ في المعنى الواحد على ذلك كله. هذا غالب الأمر وإن كان الآخر في وجه من القياس جائزاً.** وذلك كما جاء عنهم في أسماء الأسد والسيف والخمر وغير ذلك، وكما تنحرف الصيغة واللفظ واحد نحو قولهم: هي رَغوة اللبن، ورُغوته، ورِغوته، ورُغاوته، ورِغاوته، ورُغايته. وكقولهم: الذَرُوح[115]، والذُرُّوح، والذُرِّيح، والذُرَّاح، والذُرَّح، والذُرنوح والذُرحرح، والذُرَّحرح، روينا ذلك كله. وكقولهم: جئته من علُ، ومن عِلِ، ومن علا، ومن عَلوُ، ومن عَلوَ، ومن عَلو، ومن عُلُوّ، ومن عال، ومن معال. فإذا أرادوا النكرة قالوا: من علٍ. وههنا من هذا ونحوه أشباه له كثيرة. وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد، كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هَنَّا ومن هَنَّا. ورويت عن الأصمعي قال: اختلف رجلان في الصقر، فقال أحدهما: الصقر "بالصاد" وقال الآخر: السقر "بالسين"؛ فتراضيا بأول وارد عليهما، فحكيا له ما هما فيه. فقال: لا أقول كما قلتما؛ إنما هو الزقر. أفلا ترى إلى كل واحد من الثلاثة كيف أفاد في هذه الحال إلى لغته لغتين أخريين معها. **وهكذا**

(115) – هو دويبة أعظم من الذباب شيئاً.

تتداخل اللغات. وسنفرد لذلك باباً بإذن الله عز وجل. فقد وضح ما أوردنا بيانه من حال اجتماع اللغتين أو اللغات في كلام الواحد من العرب)[116].

خامساً: أول من أشار إلى فكرة الترادف سيبويه، فقد قال: (هذا باب اللفظ للمعاني: اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين. وسترى ذلك إن شاء الله تعالى. فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين نحو: جلس وذهب. واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو: ذهب وانطلق. واتفاق اللفظين والمعنى مختلف نحو قولك: وجدتُ عليه من الموجدة، ووجدتُ إذا أردتَ وجدانَ الضَّالة. وأشباه هذا كثير)[117].

سادساً: والترادف مسألة متفق عليها بين أكثر علماء العربية، فقد ألف الأصمعي كتاباً سماه: (ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه)، وتحدث أبو عبيد القاسم بن سلام تحدث في كتابه الغريب المصنف عن (الأسماء المختلفة للشيء الواحد)، واعتمد المبرد تقسيم سيبويه وذلك في كتابه: (ما اتفق لفظه واختلف معناه من الكتاب المجيد). وبعض العلماء لا يأخذون به، مثل ثعلب وأبي علي الفارسي وابن فارس، فهم يرون فروقاً فيما يُسمى بالمترادفات، **ولكنهم يقرون بأن المسمى الذي له عدة أسماء هو شيء واحد وإن اختلفت معاني تلك الأسماء، وقد سبق ذكر قول ابن فارس: (ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة .نحو: السيف والمهنّد والحسام. والذي نقوله فِي هَذَا :إن الاسم واحد وهو "السيف" وَمَا بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى)**[118].

سابعاً: قال الدكتور إبراهيم أنيس في هذا الصدد: "شهد القرن الرابع الهجري خلافاً بين علماء اللغة في فكرة الترادف، منهم من ينكرون الترادف في ألفاظ اللغة، ويلتمسون فروقاً دقيقة في معاني الكلمات لا تخلو في بعض الأحيان من التكلف والتعسف، ومنهم من ينادون بالترادف أو يعترفون بوقوعه في الألفاظ، وبعض هؤلاء المؤيدين لفكرة الترادف، يغالون في رأيهم إلى حد أن سمحوا بمئات الكلمات للمعنى الواحد في بعض الأحيان. وقد لخص السيوطي في كتابه المزهر رأي هؤلاء وهؤلاء، ويبدو من

---

(116) – الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، (1/371– 375)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الرابعة.

(117) – الكتاب، تحقيق: عبدالسلام هارون، (1/24)، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة 1408هـ/ 1988م.

(118) – الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، علق عليه أحمد حسن بسج، ص(59).

كلام السيوطي أن رواة اللغة وجامعيها في القرن الثاني الهجري يسلمون بقضية الترادف ولا يرونها محلاً لنزاع أو جدال"[119].

ثامناً: من عجائب اللغة العربية ما يسمونه بالاشتقاق الكبير، فإذا نظرنا إلى ابن فارس وكتابه (مقاييس اللغة) نجده كما يقول الأستاذ عبد السلام هارون: "يعني بكلمة المقاييس ما يسميه بعض اللغويين (الاشتقاق الكبير) الذي يرجع مفردات كل مادة إلى معنى أو معانٍ تشترك فيها هذه المفردات، قال في الصاحبي ص(33): (أجمع أهل اللغة إلا من شذ منهم، أن للغة العرب قياساً، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان)"[120].

وابن فارس يحاول أن يجد أصلا عاما يرد إليه جميع كلمات المادة، وإلا فإنه يجعله معنيين أو أكثر. يقول: "إِنَّ لِلُغَةِ الْعَرَبِ مَقَايِيسَ صَحِيحَةً، وَأُصُولًا تَتَفَرَّعُ مِنْهَا فُرُوعٌ. وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِي جَوَامِعِ اللُّغَةِ مَا أَلَّفُوا، وَلَمْ يُعْرِبُوا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَنْ مِقْيَاسٍ مِنْ تِلْكَ الْمَقَايِيسِ، وَلَا أَصْلٍ مِنَ الْأُصُولِ. وَالَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ جَلِيلٌ، وَلَهُ خَطَرٌ عَظِيمٌ. وَقَدْ صَدَّرْنَا كُلَّ فَصْلٍ بِأَصْلِهِ الَّذِي يَتَفَرَّعُ مِنْهُ مَسَائِلُهُ، حَتَّى تَكُونَ الْجُمْلَةُ الْمُوجَزَةُ شَامِلَةً لِلتَّفْصِيلِ، وَيَكُونَ الْمُجِيبُ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مُجِيبًا عَنِ الْبَابِ الْمَبْسُوطِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَقْرَبِهِ. وَبِنَاءُ الْأَمْرِ فِي سَائِرِ مَا ذَكَرْنَاهُ عَلَى كُتُبٍ مُشْتَهِرَةٍ عَالِيَةٍ، تَحْوِي أَكْثَرَ اللُّغَةِ. فَأَعْلَاهَا وَأَشْرَفُهَا كِتَابُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ، الْمُسَمَّى (كِتَابُ الْعَيْنِ)"[121].

أما صنيع ابن جني في مقدمة الخصائص فرائع، فقد أطال النفس في بيان أن بعض الكلم في العربية يرجع إلى معنى واحد مهما قلبت الحروف وغيرت في الترتيب! والمثال الذي ضربه هو (ق و ل) وتقليباتها ستة، يقول: "هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول: "ولنقدم أمام القول على فرق بينهما طرفًا من ذكر أحوال تصاريفهما واشتقاقهما مع تقلب حروفهما، فإن هذا وضع يتجاوز قدر الاشتقاق ويعلوه إلى ما فوقه. وستراه فتجده طريقًا غريبًا، ومسلكًا من هذه اللغة الشريفة عجيبًا، فأقول: إن معنى " ق ول " أين وجدت وكيف وقعت، من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه، إنما هو للخفوف والحركة، وجهات تراكيبها

(119) – في اللهجات العربية، ص(174)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، 1992م.

(120) – معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، (مقدمة الناشر)، (1/39)، دار الفكر، 1399هـ/ 1979م.

(121) – المصدر السابق، (1/3).

الست مستعملة كلها لم يهمل شيء منها، وهي: ق و ل / ق ل و / و ق ل / و ل ق / ل ق و / ل و ق"[122].

وراح يتكلم على كل منها ضاربا الأمثلة وشارحا الاشتقاق، وراجعا كلا منها إلى المعنى الذي يريد أن يثبته.

فإذا علمنا أن ابن فارس وابن جني وأمثالهما من اللغويين الاشتقاقيين، حاولوا إيجاد علاقات بين الألفاظ المتباعدة في معانيها، وردها إلى أصل واحد من أجل فهم كيف نشأت اللغة، وولدت المفردات، وتطورت معاني الكلمات[123]... فكذلك قد فعل اللغويون ذلك كله أيضاً، من أجل فهم العلاقات المتشابكة والمعقدة بين الألفاظ فيما بينها من جهة، وبين الألفاظ ومعانيها من جهة أخرى...

بعد كل هذه الجهود العلمية الكبيرة للتقريب بين المفردات والمعاني المختلفة، يأتي الدكتور شحرور ليقيم فصاماً نكداً بين المفردات المتوائمة المتآلفة كالكتاب والقرآن، زاعماً أنه يتبع منهج أبي علي الفارسي وابن جني والجرجاني! وشتان شتان بين من قرب البعيد، وألف المتنافر، وجمع المتناثر، وبين من بَعَّدَ القريب، ونفرَّ الأليف، ونثر المتآلف، وجعله أشتاتاً !... منهجان مختلفان تماماً في طريقة التعاطي مع اللغة العربية وعلومها وكتاب الله الخالد.

تاسعاً: في القضايا العلمية الخلافية لا يحسم الخلاف إلا دراسات جادة شاملة وتحليلية، والدكتور شحرور انتصر للرأي الذي يقول بعدم الترادف، دون أن يفقه أن القرآن والكتاب ليسا مترادفين أصلاً، ولكنهما اسمان لمسمى واحد، هو هذا النور الذي جاء من السماء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 174-175].

ولم يفرق الدكتور شحرور بين الاسم وصفاته المتعددة كما فرق ابن فارس، ولم يأبه بآراء معظم علماء اللغة ورواتها، ولم يتعب نفسه في إنكار وجود الترادف، فأقام بحوثه على فرضية إنكار الترادف دون أن يقدم دليلاً واحداً يثبت ما يدعيه!.

***

(122) - الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، (5/1).

(123) - مع أن بعضهم. كابن فارس مثلاً. كان قد أنكر الترادف في الأسماء، ولكنه أثبت للمسمى صفات كثيرة مختلفة فيما بينها، ومن لم يتمرس العلم يظن هذه الصفات أسماء، ويشرع في التنظير القائم على الأوهام.

ويضيف الدكتور شحرور:

6- التنزيل الحكيم كتاب دقيق في تراكيبه ومعانيه، انطلاقاً من أنّ الدقة فيه لا تقلّ عن مثيلتها في الكيمياء والفيزياء والطبّ والرياضيات. وهذا الأمر طبيعي، انطلاقاً من اقتناعنا بأنّ صانع هذا الكون من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة، وخالق هذا الإنسان بأعصابه وأوردته وشرايينه وعظامه ولحمه وجلده وشعره وأجهزة السمع والبصر والإدراك، هو ذاته صاحب التنزيل، الذي لا بد من أن تتجلّى فيه دقة الصانع ووحدة الناموس. فلكلّ حرف فيه وظيفة، ولكلّ كلمة فيه مهمّة، وقوله تعالى :(وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ...) (النساء 11)، لا تعني أبداً "ولوالديه لكلّ واحد منهما السدس". لذا فإنّ تطوّر مستوى الدقة عندنا أعلى بكثير من ذاك الذي كان عند السلف، فالكون هو الكون، ولكنّ مستوى الدقة عندنا الآن في دراسة الكون أعلى بكثير ممّا كان عليه في القرن الماضي. واستعمال دقة العصر في العلوم والتشريع هو من أساسيّات القراءة المعاصرة".

تعقيب ومناقشة

أولاً: إشارة الدكتور شحرور إلى دقة كلام القرآن وتراكيبه شيء جميل، وإذا كانت "الدقة فيه لا تقلّ عن مثيلتها في الكيمياء والفيزياء والطبّ والرياضيات" فهذا يعني أنه صار قانوناً، يبرهن على صدقه بنفسه.

ثانياً: قوله: " مستوى الدقة عندنا أعلى بكثير من ذاك الذي كان عند السلف".

هذا صحيح في العلوم الكونية، ولكن في علوم اللغة العربية والعلوم الشرعية والإنسانية فإن مستوى الدقة عند السلف أكبر بكثير مما لدينا اليوم، هل لنا بالنحو كسيبويه والكسائي؟ وباللغة كالخليل والأصمعي؟ وفي الشعر كأبي تمام والمتنبي؟ وفي الفقه كالشافعي وأبي حنيفة؟ وفي الأدب كالجاحظ وابن المقفع؟ وفي تاريخ الأدب كأبي الفرج الأصفهاني وياقوت الحموي؟ وفي التاريخ كالطبري وابن الأثير؟ نتمنى لو كان لدينا من يشبه أولئك الأعلام!

ثالثاً: قوله بأن الوالدين غير الأبوين هذا صحيح في الدلالة الهامشية لكل من اللفظين، فالوالد مشتق من (ولد)، قال الراغب: "وتولّد الشيء من الشيء: حصوله عنه بسبب من الأسباب". وكلمة الأبوين

مشتقة من (أبا)، قال الراغب: "الأب: الوالد، ويسمى كل من كان سببا في إيجاد شيءٍ أو صلاحه أو ظهوره أباً"[(124)].

ففي كلمة الأب زيادة معنى الرعاية والتربية عن كلمة والد، وأما الدلالة المركزية للكلمتين فواحدة.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

7- عند تأويل آيات التنزيل الحكيم لا بدّ من الإمساك بالخيط اللغوي الرفيع الذي لا يجوز تركه، والذي يربط ويصل الشكل بالمضمون، لأنّه إذا انقطع هذا الخيط بين البنية والدلالة تصبح احتمالات معاني الآيات لانهائية".

تعقيب ومناقشة

أولاً: حديث الدكتور شحرور عن ضرورة الصلة بين الشكل والمضمون هو كلام علمي صحيح، إذ لا بد أن تكون دلالات النصوص القرآنية محددة وليست مطلقة ولا عائمة، وهذا يعني احترام علوم العربية والتعمق بها، وليس التأويل بمعزل عنها، والاكتفاء بذكرها في المقدمة.

ثانياً: والخيط اللغوي الذي يربط الشكل بالمضمون ينبغي أن يكون حبلاً يُعتصم به، وليس خيطاً رفيعاً. كما ذكر الدكتور شحرور. فهذا يمكن أن ينقطع، فينفصل الشكل عن المضمون!.

ونعني بالحبل هنا: القواعد التي وضعها علماؤنا في اللغة وأصول الدين في التعامل مع النص القرآني، فلا بد من التمسك بها، وإلا زلت الأقدام وتاهت الأحلام وجفت الأقلام!

***

ويضيف الدكتور شحرور:

8- نحن ننطلق في قراءتنا المعاصرة من أنّ إرساء أسس التدوين والتقعيد، جاء لاحقاً للسان العربي ولاحقاً للتنزيل الحكيم لا سابقاً له. فإذا قال سيبويه إنّ الفعل يجب أن يماثل الفاعل في الإفراد والتثنية

(124) - المفردات في غريب القرآن، مادة (ولد)، ومادة (أبا).

والجمع، ثمّ نقرأ قوله تعالى :(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا) (الحج 19)، فهذا لا يعني أنّ الله أخطأ في القواعد التي أرساها سيبويه، بل يعني أنّ سيبويه حين أسّس لقواعده لم يُحْكِم ما أسّسه على ما ينبغي، وهذا يفسّر لنا خلافات مدارس النحو وأهله في المئات من المسائل. إنّ أسس النحو والصرف قُعِّدت بعد أن وُجدت اللغة واللسان لا قبلهما. والمتأمّل في هذه القواعد والأسس، يجد أنّها تتبع النصوص كيفما تحرّكت، وأنّها مصوغة أصلاً استخراجاً ممّا تحرّكت به النصوص، وأنّ الحكم في صحّة القاعدة أو في عدم صحّتها هو لما قاله العرب وسمعوه، ونحن نؤكد أنّ السلطة للنصّ على القاعدة وليس العكس، وخاصّة في التنزيل الحكيم".

تعقيب ومناقشة

أولاً: لا شك أن المنطق يقتضي أن توجد اللغة أولاً، ومرحلة التقعيد وكتابة علومها تأتي بعد ذلك، وهذا ينطبق على اللغات جميعها وليس على اللغة العربية وحدها فقط.

ثانياً: تدوين القواعد يكون بحسب ما تنطق به الأكثرية، ولا يمكن أن يتفق الجميع على صورة موحدة للنطق، ففي منطقة ممتدة كالجزيرة العربية، وضمن بيئة صحراوية قاحلة، ومجتمعات أمية بسيطة، وُلِدَتْ اللغةُ العربية، ومن الطبيعي أن يكون هنالك اختلافات وتباينات بين القبائل الناطقة بها، في اللهجات والقواعد وطرائق التعبير، وقد دون العلماء هذه اللغة وعلومها وقواعدها وفق الشائع، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يتفق الجميع على صورة موحدة للنطق واللهجة لا في الجزيرة العربية ولا في غيرها من البلاد، أياً كانت اللغة التي ينطقها الناس.

ثالثاً: وجود قريش، والكعبة المشرفة، وسوق عكاظ، وموسم الحج في الجاهلية؛ أسهم في جمع العرب وتوحيدهم دينياً وثقافياً وحضارياً، ولما جاء الإسلام بمكة عزز هذا من مكانة قريش وسلطتها، وسيادة لهجتها التي نزل وفقها القرآن الكريم.

رابعاً: تدوين القواعد وعلوم اللغة كان في الأصل لغرض ديني، وهو خدمة القرآن الكريم، فلا يمكن أن تتعارض هذه القواعد مع ما قامت من أجله، وهو القرآن الكريم.

خامساً: قول الدكتور شحرور: " ثمّ نقرأ قوله تعالى :(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا) (الحج 19)، فهذا لا يعني أنّ الله أخطأ في القواعد التي أرساها سيبويه، بل يعني أنّ سيبويه حين أسّس لقواعده لم يُحْكِم ما

أسّسه على ما ينبغي". كان ينبغي عليه أن يتأدب مع الله ولو قليلاً؛ فلا ينسب كلمة الخطأ إليه بهذه الصورة الفجة! وهذا الكلام فيه حدة وإساءة إلى سيبويه، فقد أحكم سيبويه قواعده ليخدم بها القرآن الكريم، والدكتور شحرور لم يفهم الآية، فيجوز أن نقول: هذان الفريقان يلعبان أو يلعبون، على أساس أن الفريقان مثنى لفظاً ولكنهما جمع بالمعنى، وقد أشار علماء النحو إلى أن العرب قد تجعل الجمع مكان المثنى(125)، وكلمة خصم هنا مثنى لفظاً لا معنى، وهي قد تطلق على المفرد والجمع، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: 21]. فكأن معنى الآية: (هذان فوجان أو فريقان مختصمان، وقوله (هذان) للفظ، واختصموا للمعنى)(126).

سادساً: ولم يُخَطِّئ أحد من علماء النحو القرآنَ الكريمَ، حاشا وكلاَّ، والقرآن فوق كل الشبهات ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

***

ويضيف الدكتور شحرور:

9- نرى أنّ التنزيل الحكيم جاء يحمل في ذاته تطويراً لغوياً لم يعرفه الجاهليون في لسانهم قبله بحيث ألغى الترادف، لأنَّ استعمال الترادف كان موجوداً في اللغة العربية وخاصة في الشعر ويمثّل مرحلة ما قبل التجريد الكامل التي جاء بها التنزيل من خلال إلغائه للترادف، إذ يمتاز التنزيل الحكيم بأسلوب متميّز في النّظم يخرجه كليّة من دائرة الشعر أو الخطابة التي عرفها العرب قبله، وفيه مصطلحات مستحدثة انفرد بها، لم تكن موجودة قبله. وهذا وأشباهه كثير كثير، يؤكّد استحالة اعتبار مفردات الجاهلية كافية بذاتها لفهم التنزيل الحكيم، مع الإشارة إلى أنّ معنى الترادف الذي كان مستعمَلاً يومها هو وجود مفردتين أو أكثر بمعنى واحد، وهو ما ألغاه التنزيل الحكيم لإزالة التداخل في معاني المصطلحات، أما أن تكون هناك مفردة أي مصطلح ذي معنيين أو عدّة معانٍ، فهذا وارد ويدلّ على تطوّر اللغة وموجود في كلّ لغات العالم، مثل مفردة "نساء" التي تأتي كجمع لمفردة نَسيء وقد تأتي كجمع لمفردة "امرأة"، وكذلك مصطلح

(125) - انظر: جامع الدروس العربية، للغلاييني، (14/2)..

(126) - الكشاف، للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (149/3).

"عبد" فهو أيضاً يحمل معنى الطاعة ومعنى المعصية، ومفردة "أمر" لها أيضاً خمسة معانٍ؛ وبالتالي يُفهم المعنى المقصود منها حسب المعنى العام لسياق الجملة التي وردت فيها ووفق نظمها".

تعقيب ومناقشة

أولاً: هذه النقطة تشبه النقطة الخامسة في إنكار الترادف، وقد سبق أن ناقشناها هناك، فلا نعيد ما ذكرناه. ولكن نضيف هنا ما قاله الدكتور إبراهيم أنيس: ".. ومهما حاول بعض الاشتقاقيين من علماء اللغة كابن دريد وابن فارس وأمثالهما، أو بعض الأدباء من أصحاب الخيال الخصب الذين يلتمسون من ظلال المعاني فروقاً بين مدلولات الألفاظ، **أقول مهما حاول هؤلاء وهؤلاء إنكار وقوع الترادف في ألفاظ اللغة العربية فليس يغير هذا من الحقيقة الواقعة شيئاً. فالترادف قد اعترف به معظم القدماء، وشهدت له النصوص،** وإن كان بعض الذين قالوا به قد غالوا فيه"[127].

ثانياً: أكد الدكتور شحرور "استحالة اعتبار مفردات الجاهلية كافية بذاتها لفهم التنزيل الحكيم". وكان ينبغي أن يحدد المراد بالفهم، فإذا أراد المعاني الأولية والدلالات المباشرة للنص فلغة الجاهلية كافية، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4]. وإذا أراد الدلالات الهامشية والجديدة فهذه فيها سعة، ويمكن أن تساهم لغة العصور التالية: الإسلامي والأموي والعباسي بنصيب وافر في هذا المجال، ففي الحواضر يمكن أن يُستشهد في اللغة حتى منتصف القرن الثاني الهجري، وتمتد هذه الفترة في البادية، فقد حافظت اللغة على صفائها في البادية حتى منتصف القرن الرابع الهجري.

ثالثاً: والقرآن لم يخترع لغة جديدة للناس، وإنما جاء بأسلوب جديد وطرائق جديدة لم يعرفها العرب من قبل، يقول الدكتور شوقي ضيف: "القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم، إذ لم يُتحْ لأمةٍ من الأمم كتابٌ مثله، لا ديني ولا دنيوي، من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب... وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية هو الذي أقام عمود الأدب العربي عند ظهوره"[128].

---

(127) – دلالة الألفاظ، ص(211)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1980م.

(128) – في الأدب الإسلامي، ص(30-34)، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة.

ولكن إذا أراد الدكتور شحرور الفهم للقرآن على طريقة الأصوليين وعلماء الكلام فلغة الجاهلية غير كافية، ولا بد من أدوات أخرى للمساعدة في تحصيل الفهم بشكل أوسع.

رابعاً: أشار هنا إلى ما يسميه علماء اللغة بالمشترك اللفظي، حيث قال: "أما أن تكون هناك مفردة أي مصطلح ذي معنيين أو عدّة معانٍ، فهذا وارد ويدلّ على تطوّر اللغة وموجود في كلّ لغات العالم".

والمشترك اللفظي هو: اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر، "أما إذا اتضح أن أحد المعنيين هو الأصل، وأن الآخر مجاز له، فلا يصح أن يعد هذا من المشترك اللفظي في حقيقة أمره"[129].

***

ويضيف الدكتور شحرور:

10- لقد وضع الخليل وسيبويه قواعد اللسان العربي على مبدأ الشكل: المرفوعات والمنصوبات والمجرورات، وهو ما يُسمّى علم النحو، **ثمّ جاء علم البلاغة (المعاني) وكأنّه قام بالفصل بين النحو والبلاغة** كلّ على حدة، بحيث نجد أنّ سيبويه والجرجاني وابن جنّي وأبا علي الفارسي وكلّ علماء اللغة ظهروا في القرون الهجرية الأولى. ونحن الآن في بدايات القرن الحادي والعشرين، نعلم أنّ علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطبّ وكلّ العلوم الأخرى تقدّمت تقدّماً هائلاً لا يقاس أصلاً بالماضي، بالإضافة إلى علوم اللسانيات، لكنّ علماء الدين نسوا أنّ علوم اللغات تطوّرت أيضاً تطوّراً هائلاً. فكيف لنا نحن ألّا نأخذ في الاعتبار هذا التطوّر الهائل لعلوم اللسانيات عند دراسة آيات التنزيل الحكيم لفهمها بنحو أفضل ومعاصر؟".

تعقيب ومناقشة

أولاً: علم البلاغة ليس هو فقط علم المعاني كما ذكر الدكتور شحرور، فالبلاغة تقوم على ثلاثة علوم: المعاني والبيان والبديع.

ثانياً: علم المعاني ليس منفصلاً عن النحو كما يظن الدكتور شحرور، بل هو قائم على النحو، وأساسه النحو، يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني شارحاً مصطلح النظم وعلاقته بالنحو: "واعلم أن ليس النظم

(129) - دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، ص(213).

إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تُخِل بشيء منها.

وذلك أنَّا لا نعلم شيئًا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق.

وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرجْ أخرجْ، وإن خرجتَ خرجتُ، وإن تخرُجْ فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجتَ، وأنا إن خرجتَ خارجٌ. وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعًا، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع، أو وهو يسرع، وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع.

فيعرفَ لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له.

وينظرَ في الحروف التي تشترك في معنًى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضعَ كلاًّ من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء ب (ما) في نفي الحال، وب (لا) إذا أراد نفي الاستقبال، وب (إن) فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون، وب (إذا) فيما علم أنه كائن.

وينظرَ في (الجمل) التي تسرد، فيعرفَ موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرفَ فيما حقه الوصل موضع (الواو) من موضع (الفاء)، وموضع (الفاء) من موضع (ثم) وموضع (أو)، وموضع (لكنْ) من موضع (بل).

ويتصرفَ في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويَستعمله على الصحة، وعلى ما ينبغي له.

هذا هو السبيل، فلستَ بواجدٍ شيئًا يرجع صوابه إن كان صوابًا، وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنًى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووُضِع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلامًا قد وصِف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزيةٍ وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"(130).

---

(130) - كتاب دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ص(81-83)، مكتبة الخانجي، القاهرة.

والجدير بالذكر هنا بأن الدكتور شحرور يخالف ما كان قد ذكره سابقاً بأن "النحو والبلاغة علمان متتامان لا ينفصلان عن بعضهما"[131].

ثالثاً: لسنا ضد التطوّر الهائل لعلوم اللسانيات للإفادة منها عند دراسة آيات التنزيل الحكيم لفهمها بنحو أفضل، ولكن ينبغي التمييز بين الغث والسمين في هذه العلوم والنظريات الحديثة، فليس كل ما يلمع ذهباً. ثم ينبغي التوثيق الدقيق لكل ما ينسب إلى اللسانيات، وينبغي التمييز بين نظريات اللغة والنقد والأدب بشكل تام، والتفريق بين ما هو علم ينفع، وبين ما هو مجرد أوهام وأضغاث أحلام!.

ويضيف الدكتور شحرور:

رابعاً: المنهج الفكري

التنزيل الحكيم، كتاب منزل من إله عالم كامل العلم والمعرفة، ذي علم مطلق. لهذا لا يمكن لكتابه أن يحتمل الخطأ أو التناقض. وبالتالي فإنّ فهمه على نحو لامتناقض يحتاج إلى منهج فكري يساعد على التعمّق فيه لإزالة الإشكالات التي قد تبدو لنا فيه قبل ذلك. وقد وضعنا منهجنا الفكري لفهم نصوصه بالارتكاز على ما توصّل إليه كل من علمي اللسانيات والإبستمولوجيا الحديثين. فجاء منهجنا مبنيّاً على المبادئ التالية:

1- لا يمكن فهم أيّ نصّ لغوي إلّا على نحو يقتضيه العقل".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فهم النص اللغوي ينبغي أن يكون وفق العقل والعرف والبيئة، وليس وفق العقل وحده فقط،

فإذا قلنا عن رجل مثلاً: (كثير الرماد) فهذا يعني أنه كريم، لأن كثرة الرماد تقتضي كثرة الطبخ، وكثرة الطبخ تقتضي كثرة الأكلة، وهذا يقتضي كثرة الضيوف، وتقتضي كثرتهم أنه كريم. ولكن هذا لا يمنع أن يكون كثير الرماد أساساً لأنه يعمل حطابا، فيحتطب، ويحول الحطب إلى فحم، ويبيع الفحم بعد ذلك. فحتى نعرف المراد من عبارة (كثير الرماد) يجب أن نعرف شيئاً عن الرجل وبيئته، وهل من عادة كرماء

---

(131) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص(47).

تلك البيئة أن يطبخوا ويوزعوا الطعام، أم أن كرماء تلك البيئة يتبرعون بالأموال والهدايا مثل بيل غيتس مثلاً!

إن العقل لا يمكن لوحده أن يحل لنا كل عبارة غامضة أو غير مألوفة، مالم ندعمه بمعرفة البيئة والعرف والواقع الذي تصاغ به التراكيب اللغوية!

ثانياً: وكذلك لا بد من دراسة الحالة النفسية للمتكلم، فهي تساعدنا في فهم عالمه الداخلي ولغته وتراكيبه التي هي صورة عن مكنونات نفسه، من هنا لا بد أن نشيد بما كتبه بهذا الخصوص الناقد محمد النويهي في كتابه: (ثقافة الناقد الأدبي)، وبما عمله العقاد في كتابه: (ابن الرومي حياته من شعره).

***

ويضيف الدكتور شحرور:

2- اللغة حاملة للفكر الإنساني، لكن الفكر الإنساني يمكن أن يكون صادقاً، ويمكن أن يكون كاذباً، وهذا يعني أن توفر الرباط المنطقي، وصحّة الشكل اللغوي في النصّ، لا يعنيان بالضرورة أنّه حقيقي، وجمال التركيب اللغوي ومتانته في النصّ لا يعنيان بالضرورة أنّه صادق. من هنا لا يمكن الاقتصار على إعجاز التنزيل في القول بأنّه استعمل مختلف أدوات وأساليب البلاغة والبيان التي عرفها العرب، بل يجب – بالإضافة إلى ذلك – الإيمان بأنَّ النبأ القرآني صادق وحقيقي، وأنَّ التشريع في الرسالة واقعي وعالمي، وكلُّ من يعمل في حياته للبرهان على صدقية التنزيل الحكيم في أنبائه وواقعيته في تشريعاته فهو من الصدِّيقين. لقد كان يعنيني كثيراً صدق النبأ في النصّ القرآني، وواقعية التشريع في آيات الأحكام (أمُّ الكتاب وتفصيلها) أكثر ممّا يعنيني جمال التركيب والصياغة فصدق النبأ الإلهي عندي أهمّ من تصديق المراجع كائناً من كان مؤلفها".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قال الدكتور شحرور: "من هنا لا يمكن الاقتصار على إعجاز التنزيل في القول بأنّه استعمل مختلف أدوات وأساليب البلاغة والبيان التي عرفها العرب، بل يجب – بالإضافة إلى ذلك – الإيمان بأنّ النبأ القرآني صادق وحقيقي".

هذا الكلام يعاضد الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ويتممه بصدق الخبر، أو ما يسميه القدماء الإعجاز بالإخبار عن الغيوب... والعرب اشتهروا بالبلاغة والبيان، وتحداهم القرآن فيما اشتهروا به، فعجزوا عن المجيء بمثله، وهذا أمر متفق عليه عند البلاغيين، وعجزهم دفعهم للإيمان به، **فجمال القرآن وبلاغته هو سبب هدايتهم الأول، وإن كان هنالك ثمة وجوهٍ أخرى للإعجاز في الكتاب الكريم والذكر الحكيم...**

ولكن الدكتور شحرور يذهب إلى إلى نقطة جديدة، وهي: "أنَّ التشريع في الرسالة واقعي وعالمي".

ومع أهمية هذه النقطة التي ذهب إليها، يُطرح سؤال: من يستطيع أن يثبت ذلك؟ بلا ريب هم رجال القانون، فهل كان هنالك رجال قانون في عصر البعثة ليثبتوا ذلك ويشرحوه للعالم، وهل لدينا اليوم رجال قانون يستطيعون شرح هذا للعالم بكفاءة؟ وماذا إذا لم يقتنع الناس بذلك؟

ثانياً: لماذا الهرب من ميدان البلاغة إلى ميدان القانون، ألم يزعم الدكتور شحرور أنه سيعتمد على المنهج اللغوي في دراساته، فما باله تحول قانونياً! ولماذا لا يثبت الإعجاز من خلال البلاغة والقانون معاً؟

ثالثاً: قال الدكتور شحرور: "وكلّ من يعمل في حياته للبرهان على صدقية التنزيل الحكيم في أنبائه وواقعيته في تشريعاته فهو من الصدِّيقين".

مَنْ أعطاه الحق ليصنف الناس لصديقين وغير صديقين؟ هل التعميم وإطلاق الأحكام العشوائية بلا أدلة يتفق مع المنهج العلمي؟

رابعاً: الجمال هو أعظم وسيلة للتصديق! فكما يعشق الناس الجمالَ الحسي، فكذلك هم يعشقون الجمال المعنوي، لقد رأوا أحسن الكلام جاء من أحسن الخالقين إلى أحسن الأنبياء فآمنت به أحسن الأمم، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23].

خامساً: الجمال يشتمل على عنصر الدقة، فأي شيء جميل لا يكون جميلاً إلا من خلال عناصر كثيرة ذكرها فلاسفة هذا العلم، منها: النظام، والتناسب، والملاءمة، والدقة، والتناسق، والتناظر، والتكامل، والانسجام، والفائدة، والروعة، والبساطة....

سادساً: ذهب الشيخ عبد القاهر إلى تفضيل الصدق في الشعر، رغم أن الشعر مبناه على التخييل والمبالغة، فالصدق يزيد الكلام جمالاً، حيث قال في موضوع الصدق والكذب في الشعر، مفضلاً الصدق: "وما كان العقل ناصره، والتحقيق شاهده، فهو العزيز جانبه، المنيع مناكبه"(132).

سابعاً: وعند بعض النقاد المحدثين يشمل الجمال الحق والصدق أيضاً، حيث يرى ديدرو "أن الحق والخير والجمال وشائج وثيقة، أضف إلى الأولين بعض الصفات النادرة الوضاءة، فيصير الحق جميلاً"(133).

ويرى إليوت أن "على الناقد أن يجلو غايات الأدب التي تتجلى فيها عظمته ويتوحد معها. ويجب أن يكمل النقد الأدبي بنقد من وجهة نظر دينية وخلفية محددة .. وعظمة الأدب لا يمكن أن تتحد بمعايير أدبية فحسب"(134).

ثامناً: وبهذا يتبين أن سعي الأولين لبحث الجمال القرآني كان سعياً مشكوراً، وأما سعيه لإثبات الصدق بمعزل عن الجمال من خلال الدقة فقط، فهو منهج جزئي لا جديد فيه، يشتغل بالجزء عن الكل، وهو نكوص في الفهم والبحث العلمي معاً، لأن الدقة من عناصر الجمال، فلم يأت بجديد.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

3- بالإضافة إلى أنّ التنزيل الحكيم يحوي المصداقية، أي إنه صادق ومتطابق مع الواقع ومع القوانين الطبيعية والفطرة الإنسانية، فهو أيضاً يحوي الأهمية وهو خالٍ من العبث ومن الأخبار غير المهمّة والمعروفة عند الناس. فالناس لا تحتاج إلى وحي لتعرف، مثلاً، أنّ الجرّة تنكسر إذا وقعت من ارتفاع عالٍ، ولا تحتاج إلى وحي لتعرف أنّ الفيل ذنبه قصير وخرطومه طويل. لكنّنا إذا قرأنا قوله تعالى :(...فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشرةٌ كَامِلَةٌ...) (البقرة 196)، وسلّمنا بما ورد في التفاسير بشأنها، وجدنا أنّ الله في الآية يعلّم الناس أنّ: (3 + 7 = 10)، مع أنّ هذا خبر كان يعرفه كل الناس عند نزول الوحي ولم يكونوا بحاجة إلى وحي لمعرفته، وهذا غير معقول في ضوء خلوّ التنزيل

(132) - كتاب أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتر، ص(251)، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1403هـ/ 1983م.

(133) - النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص(283-284)، دار نهضة مصر، القاهرة.

(134) - المرجع السابق، ص(306).

الحكيم من العبث. وعلى أساس هذا التفسير التراثي للآية، إذا حذفنا كلمة (كاملة) من الآية السابقة، لن يتأثّر المعنى الذي ذهب إليه المفسّرون وهو أنّ الله يعلّم الناس الجمع والحساب، وهذا غير صحيح في ضوء خلوّ التنزيل من الحشو. مما يستدعي إعادة قراءة للآية تحقّق مصداقية كلام الله وتجعله لا يخلو من كلّ الفرضيات دون استثناء، ويغطي: صدق التنزيل، وخلوّه من الحشو، وبُعده عن العبث في سَوق المعارف المألوفة عند الناس. وهي القراءة التي تنتبه إلى وجود أكثر من نظام واحد للعدّ عند الناس، إذ هناك النظام العُشري والنّظام السُباعي والنظام الاثنا عشري والنظام الست عشري، فالعشرة في النظام الاثني عشري مثلاً ناقصة نعبّر عنها بالشكل التالي (12/10)، أمّا العشرة في النظام العُشري فهي عشرة كاملة، وقوله تعالى: (كَامِلَةٌ) في الآية إشارة إلى نوع نظام العدّ الذي جاءت آية الحج على أساسه".

تعقيب ومناقشة

أولاً: العرب أمة أمية، لا تعرف أن "هناك النظام العُشري والنّظام السُباعي والنظام الاثنا عشري والنظام الست عشري، فالعشرة في النظام الاثني عشري مثلاً ناقصة نعبّر عنها بالشكل التالي (12/10)، أمّا العشرة في النظام العُشري فهي عشرة كاملة". وعليه فذكر كلمة (كاملة) لم يكن بقصد إرشادهم إلى النظام العشري الذي تحدث عنه الدكتور شحرور.

ثانياً: هنالك في النحو العربي بحث اسمه النعت، والقرآن يخاطب العرب بلغتهم وعلى طريقتهم. ونحن نقول في استعمالنا: أمضيت شهراً كاملاً بمكة المكرمة... فهذه طريقة الناس في الاستعمال، والنعت هو تابع يعطي مزيداً من الوصف والتحديد للمنعوت.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: 25]. فهنا جاءت كلمة كاملة حالاً، وهي لدفع أي توهم من استثناء حمل بعض أوزارهم دون بعض.

رابعاً: ونشير هنا إلى كثرة التكرار وأساليب التوكيد في لغة العرب، وفي القرآن الكريم أيضاً، وليس التكرار سواء كان لحرف، أو كلمة، أو جملة عبثاً، ولكنه لمزيد من التأكيد، **فلا داعي لاختراع مبررات غير حقيقية لاستعمال التوكيد ما أنزل الله بها من سلطان،** يكفي أن نقول: هذه طريقة العرب في كلامها.

خامساً: ورد عند ابن كثير في قوله تعالى: (تلك عشرة كاملة) أقوال كلها ممكنة:

أحدهما: أن قوله تعالى: (تلك عشرة كاملة) كاملة تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي.

ثانيها: (كاملة): الأمر بإتمامها وإكمالها، واختاره ابن جرير. يعني كأنه قال: تلك عشرة أكملوها.

وثالثها: (كاملة): أي مجزئة من الهدي(135).

وكل هذه الآراء محتملة، وهي أقرب بكثير مما ذهب إليه الدكتور شحرور.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

4- لا يمكن فهم التنزيل الحكيم، من خلال أسلوب فهم الشعر الجاهلي ومفرداته، فالمجتمع الجاهلي له أرضيته المعرفية وعلاقاته الاجتماعية والجمالية والأخلاقية الخاصّة به، بحيث جاءت مفردات شعره عاكسة لذلك كله ومعبّرة عنه ومُقيَّدة به، ونحن لا نجد كلمات أو مفردات عند العرب وقتها تدلّ على الجاذبية الأرضية أو على كرويّتها لأنّهم لم يعرفوها أصلاً. ولو حصرنا فهم التنزيل الحكيم بمعاني مفرداتهم، لما حقّ القول إنّ المكتشفات الحديثة العلمية أكّدت مصداقية القرآن. من هنا نقول إنّ المجتمعات هي التي تشارك في صنع المعاني حسب تطوّر معارفها، لكنّ هذه التطوّرات نفسها محسوبة في التنزيل، بحيث مهما امتدّت واتسعت، فسيجدها الإنسان منسجمة مع النصّ الإلهي، مصدّقة له ودائرة في فلكه".

تعقيب ومناقشة

أولاً: إن الشعر الجاهلي أداة مهمة في فهم القرآن الكريم، فالعرب أمة أمية، والشعر ديوان العرب، وفيه علومها وتاريخها وتراثها.

واللغة مُلْكٌ لمن يتحدث بها وهوية لهم، وحين نزل القرآن كان الشعر الجاهلي يملأ حياة العرب، ويهيمن على عقولهم ومشاعرهم، فخاطبهم القرآن بلغة يفهمونها مطابقة لهذا الشعر الذي يعرفونه

(135) – انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق سامي محمد سلامة، (539/1)، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، 1420هـ/ 1999م.

ويتفاخرون به، **فالحملة على هذا الشعر هي حملة على لغة القرآن**، يقول الشيخ عبد القاهر: "إذا كنا نعلم أن الجهة التي قامت منها الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تَقصر عنه قوى البشر، ومنتهياً إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان مُحالاً أن يعرف كونه كذلك، إلا من عَرَفَ الشعر الذي هو ديوان العرب، وعُنوان الأدب، والذي لا يُشك أنه كان ميدان القوم إذا تَجَارَوْا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قصب الرهان، ثم بحث عن العِلل التي بها كان التباينُ في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض، كانَ الصادُّ عن ذلك صاداً عنْ أنْ تُعرفَ حُجة اللهِ تعالى، وكان مَثَلُه مَثَلَ من يتصدى للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتابَ الله تعالى ويقوموا به، ويتلوه، ويُقرِئوه، ويصنعُ في الجملة صنيعاً يؤدي إلى أنْ يَقلَّ حُفَّاظُهُ والقائمون به، والمقرئون له"(136).

ثانياً: ورغم أهمية الشعر في فهم اللغة والسياقات والأساليب القرآنية، فلا يمكن أنْ يُستغنى عن بعض العلوم الأخرى لفهم القرآن الكريم، وقد ذكرنا أن علوم التفسير المطلوبة للمفسر هي خمسة عشر علماً.

ثالثاً: العلوم كلها متلاحمة متشابكة متداخلة، وبأخذ بعضها برقاب بعض، ووظيفتها الأساسية تنوير العقول وتوسيع المدارك، ونهضة المجتمعات الإنسانية، وتطوير الحضارة وإيجاد حلول لمشكلاتها.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

5- جاء التنزيل الحكيم من عند إله هو كينونة في ذاته (موجود في ذاته)، وبذلك يُعدّ التنزيل الحكيم كينونة في ذاته أيضاً، ويظهر هذا جلياً في ثبات النصّ، وبتعبير آخر ثبات الذكر في صيغته اللغوية المنطوقة. إنّ النصّ اللغويّ المنطوق للتنزيل الحكيم هو الشكل الثابت فيه، الذي لا يخضع للصيرورة ولا للسيرورة. ولا أحد يملك الإدراك الكلّي له في كليّاته وجزئيّاته حتّى لو كان نبيّاً ورسولاً، لأنّه يصبح بذلك شريكاً لله في علمه الكلّي، وشريكاً لله في كينونته في ذاته، تعالى الله عمّا يصفون. لكنّنا نستطيع الإحاطة به تدريجاً من خلال الصيرورة المعرفية النسبية المتحرّكة، وتصبح الإحاطة به كليّة يوم تقوم الساعة، أي عند قيام الساعة والبعث والحساب يتمّ التأويل الكامل والنهائي للقرآن. إنّ الإنسان يقرأ

(136) - كتاب دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ص(8-9)، مكتبة الخانجي، القاهرة.

التنزيل الحكيم ضمن مستوى أدواته المعرفية ومشاكله الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وإشكالياته المعرفية، فيجد فيه أشياء لم يجدها غيره، ويفهم منه أشياء لم يفهمها غيره، وهذا يثبت أنّ التنزيل يحمل صفة الحياة، وأنّه كينونة في ذاته فقط لكنّه سيرورة وصيرورة لغيره، وهذا ما نعنيه دائماً حين نتحدّث عن ثبات النص وحركية المحتوى والجدل بين النص والمحتوى. من هنا نجد التنزيل الحكيم يحمل دائماً صفة القراءة المعاصرة، فأنت حين تقف كقارئ في نقطة معيّنة من التاريخ، منطلقاً من نظام معرفي معيّن، حاملاً إشكاليات اجتماعية ومعرفية معينة، ستفهم من التنزيل ذي النصّ اللغوي الثابت أموراً معيّنة لكنّ غيرك قد يفهم أموراً أخرى مع تغيّر إحداثياته ومنطلقاته، لأنَّ كلَّ واحد منَّا يستعمل المنطق (قوانين العقل) وفق مستواه المعرفي".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قال الدكتور شحرور بأنه "لا أحد يملك الإدراك الكلّي له. يعني القرآن. في كليّاته وجزئيَّاته حتّى لو كان نبيّاً ورسولاً، لأنّه يصبح بذلك شريكاً لله في علمه الكلّي، وشريكاً لله في كينونته في ذاته، تعالى الله عمّا يصفون".

ثم ذكر بعد ذلك ما ينقض كلامه، حيث قال: "وتصبح الإحاطة به كليّة يوم تقوم الساعة، أي عند قيام الساعة والبعث والحساب يتمّ التأويل الكامل والنهائي للقرآن".

<u>فإذا كان البشر سيحيطون بالقرآن عند القيامة سيصبحون وفق فهمه شركاء لله في علمه، والعياذ بالله من ذلك، وهل يُعقل أن يمنعهم الله تعالى من الشرك في الدنيا، ويحله لهم في الآخرة!</u>

أتناقضٌ.. وتهافتٌ مسـعورُ

ويقالُ زوراً إنه تنويــر

أسفي على زمنٍ يضيعُ رجاله

ويغيبُ فيـه العالمُ النحريرُ

ويُزوِّرُ الإسلامُ منْ أبنائـهِ

ويسودُ فيهِ الظلمُ والتقصيرُ

ثانياً: ذكر مصطلح الصيرورة، ولم يعرفه، وتعريفه الفلسفي: "انتقال الشيء من حالة إلى أخرى أو من زمان إلى آخر، وهي مرادفة للحركة والتغير من جهة كونها انتقالاً من حالة إلى أخرى، كالانتقال من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، والشيء المتصف بالصيرورة نقيض الشيء المتصف بالثبوت والسكون"[137].

***

ويضيف الدكتور شحرور:

6- إنّ التنزيل الحكيم هو كلام الله غير المباشر الذي أوحاه عن طريق جبريل للنبي (ص) وفيه بعض الآيات هي كلام الله المباشر والمتمثلة في كلامه عزّ وجلّ المباشر لموسى عندما كلّمه بالواد المقدّس :(... وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (النساء 164)، بحيث نجد هذا الكلام في قوله تعالى :(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) (طه 11-14). أمّا كلمات الله فهي الوجود والقوانين الناظمة له بفرعيه الكوني والإنساني، فمن فهمنا لكلمات الله نفهم كلامه لأنّ مصداقية كلام الله (الرسالات السماوية) لا تظهر إلّا في كلماته (الوجود الموضوعي الكوني والإنساني)، وما علينا كي نفهم كلامه إلّا أن ندرس كلماته في الوجود الكوني والإنساني بسننه وقوانينه وتشريعاته، لكنّ فهمنا لهذه السنن والقوانين يخضع للسيرورة والصيرورة، وبناءً على ذلك نقول إنّ فهمنا لكلام الله هو فهم متطوّر غير ثابت، بينما كلام الله فثابت في كينونته كنصّ إلهي مقدّس".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "فهمنا لكلام الله هو فهم متطوّر غير ثابت".

كلام غير مقبول بهذه الصيغة، **وذلك لأن المعلومات التي في كتاب الله هي ستة أقسام:**

(137) - المعجم الفلسفي، د. مصطفى حسيبة، ص(296).

الأول: المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وهذا نؤمن به كما هو، ولا نبحث عنه استقصاء وبحثاً خشية الزلل.

الثاني: المعروف الذي لا يحتاج تفسيراً، مثل كلمة الفيل في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: 1]. فلا نحتاج تفسيراً لكلمة الفيل.

الثالث: الغريب من ألفاظ القرآن الكريم وتعبيراته، وهذه مرجعها اللغة التي كانت موجودة إبان نزول الكتاب العزيز، وقد دونها علماء التفسير وعلماء غريب القرآن، واستشهدوا عليها بما لديهم من شعر في تلك الفترة، وذلك لأن الشعر محفوظ ومعروف بعكس النثر، فإذا قيل: قالت العرب كذا، ربما لم يصدق السامع، أو ربما ظُنَّ بأن المتكلم ملتبس عليه ما قالته العرب.. ولكن إذا قيل: قال الشاعر كذا.. فقد أُصيب الهدف وتحقق المراد!

ولعمري لم توثق أمة كتاب ربها وشروحه ولغته من مصادرها الأولية وكذلك سيرة نبيها وحديثه وسنته مثلما فعلت هذه الأمة المباركة!، وذلك على الرغم من صعوبة التأليف والتنقل والمناخ في جزيرة العرب، ولكن حب العلماء لهذا الدين جعلهم يستسهلون الصعاب، ويقتحمون العقبات، حتى قال الزمخشري[138]:

سهري لتنقيحِ العلوم أحب لي

من وصل غانيةٍ وطيبِ عناقِ

الرابع: المعلومات الشرعية وتشمل: مسائل الإيمان والعقائد والغيبيات، والتشريعات والأحكام والآداب والفضائل، وهذه شرحها النبي صلى الله عليه وسلم، وصاحب الرسالة هو أعلم بها وبمقاصدها وتفسيراتها، ولا يعقل أن يرسل الله تعالى رسولاً، وينزل عليه كتاباً، فإذا سأله الناس عن بعض معاني كتابه لا يعرف أن يجيبهم، فإلى ماذا يدعو إذاً؟! ولا يعقل أيضاً أن يأتي من هو ند له فيجيبهم إجابة مخالفة لما قاله نبيهم لهم صلى الله عليه وسلم. فهذا تكذيب للرسول والرسالة.

(138) – الكشاف، للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، ترجمة المصنف، (1/ص: ح).

كذلك هناك من الصحابة رضي الله عنهم من لهم بعض الأقوال يؤخذ بها إذا لم نجد غيرها، وذلك لأن الصحابة لهم فهم دقيق للدين، واللغة، وهم الذين عاشوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ولازموه يوماً بيومٍ وساعة بساعة، وهم النائبون عنه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

الخامس: معلومات حول تفاصيل القصص والأخبار الموجودة في القرآن الكريم، وهذه مصادرها إما الرسول صلى الله عليه وسلم، أو أهل الكتاب، أو الآثار المتبقية كمدائن قوم لوط التي كان يشاهدها العرب في رحلة الصيف إلى الشام، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: 137-138].

السادس: معلومات نفسية وكونية حول النفس والآفاق، وهذه يُستفاد فيها مما ورد في العلوم الحديثة من نتائج ومكتشفات.

فحركة المحتوى إنما هي في القسم السادس، ووفق ضوابط وأصول منهجية علمية، فإذا تجاوزته إلى بقية الأقسام فهذا يعني إلغاء الرسالة المحمدية، فسيان لو أن الله تعالى لم يبعث رسولاً ولم ينزل كتاباً، فعاش الناس وفق ما تمليه عليهم عقولهم وأهواؤهم، أو لو أنه بعث رسولاً وأنزل كتاباً، ولكن هذا الكتاب دلالاته متغيرة متأرجحة غير ثابتة، فيفهم منه أهل كل عصر ما تمليه عليهم عقولهم وأهواؤهم، **فالكتاب الذي ليست له دلالات محددة لا يصلح منهاجاً للحياة،** لذا فإن أي تلاعب بدلالات النص القرآني الذي تعارفت عليه الأمة منذ البعثة النبوية حتى اليوم إنما هي محاولات لتمييع الشريعة واللعب بها وتكسير قوانيها وتجاوز حدودها، أو قل بالجملة هي محاولة لإلغاء الشريعة وتعطيلها.

ثانياً: ومحاولات تغيير المحتوى قديمة، ولكنها باءت بالفشل، وستبوء به في عصرنا بفضل الله تعالى!، لأن الله حفظ كتابه لفظاً ومعنى، **وهذه نماذج مما ذكره السيوطي في حديثه عن غرائب التفسير، نذكرها تحذيراً ممن يريدون الإغراب واستنباط العجائب من القرآن الكريم،** قال: "النوع التاسع والسبعون في غرائب التفسير، ألف فيه محمود بن حمزة الكرماني كتابا في مجلدين سماه [العجائب والغرائب] ضمنه أقوالا ذكرت في معاني الآيات منكرة لا يحل الاعتماد عليها، ولا ذكرها إلا للتحذير منها. من ذلك قول من قال في (حمعسق) إن الحاء حرب علي ومعاوية، والميم ولاية المروانية، والعين ولاية العباسية، والسين ولاية السفيانية، والقاف قدوة مهدي، حكاه أبو مسلم. ثم قال: أردت بذلك أن يُعلم أن فيمن يدعي العلم حمقى. ومن ذلك قول من قال في (آلم) معنى ألف: ألف الله محمدا فبعثه نبياً، ومعنى لام: لامه الجاحدون وأنكروه،

ومعنى ميم: ميم الجاحدون المنكرون من الموم وهو البرسام[139]، ومن ذلك قول من قال في (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) إنه قصص القرآن، واستدل بقراءة أبي الجوزاء ولكم (في القصص) وهو بعيد، بل هذه القراءة أفادت معنى غير معنى القراءة المشهورة، وذلك من وجوه إعجاز القرآن كما بينته في أسرار التنزيل. ومن ذلك ما ذكره ابن فورك في تفسيره في قوله: (ولكن ليطمئن قلبي) إن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه، أي: ليسكن هذا الصديق إلى هذه المشاهدة إذا رآها عياناً، قال الكرماني وهذا بعيد جداً. ومن ذلك قول من قال في: (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) إنه الحب والعشق، وقد حكاه الكواشي في تفسيره. ومن ذلك قول من قال في: (ومن شر غاسق إذا وقب) إنه الذكر إذا انتصب. ومن ذلك قول أبي معاذ النحوي في قوله تعالى: (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر) يعني إبراهيم، (ناراً) أي نوراً، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، (فإذا أنتم منه توقدون) تقتبسون الدين"[140].

ثالثاً: كان الغرض من محاولات التلاعب باللفظ وتغيير الكلم عن مواضعه في الماضي هو تحريف النصوص المقدسة، وتلك طريقة غبية، والطريقة الأخبث والأدهى، أن لا يتم التلاعب بالنص، ولكن يُتلاعبُ بالمعنى، والمؤدى من الطريقتين واحد، وهو التحريف والتبديل.

رابعاً: إذا جاز التلاعب بمعاني النصوص بالنسبة للنصوص المقدسة، فهذا سينسحب على بقية النصوص في التراث كله، فالقوانين التي تحكم اللغة واحدة، والآداب العالمية والآداب الخالدة يمكن أن تُقرأ بصور مختلفة، وبالتالي لم يعد لدراسة التاريخ الثقافي وعلومه أية معنى.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

7- بما أنّ التنزيل الحكيم هدى للناس ورحمة للعالمين، فهو يحمل الطابع الإنساني لا العروبي، وبالتالي يجب أن نرى مصداقيته رأيَ العين في كلّ أنحاء العالم لا في المجتمع العربي فقط، وعلى مرّ العصور والدهور لا في عصر النبوّة والصحابة فقط. فمثلاً هناك مفردات: كالعِرض والشرف والمروءة والشهامة

(139) - في الطبعة المصرية: الرسام، والتصحيح من طبعة دار الفكر، ببيروت.

(140) - الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (2/238-239).

غير موجودة أصلاً في التنزيل الحكيم مع أنّها مفردات فصحى عربية وكانت تقوم عليها الثقافة العربية قبل البعثة المحمّدية ودارت حولها أحداث تاريخية كثيرة.

فالتنزيل الحكيم يحمل الخاصّيتين التاليتين:

أ- الوحي لا يناقض العقل.(Revelation doesn't contradict reason)

ب- الوحي لا يناقض الواقع.(Revelation doesn't contradict reality) ".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله إن بعض الكلمات كالعِرض والشرف والمروءة والشهامة غير موجودة في التنزيل، واستدل بذلك على الطابع الإنساني لا العروبي للقرآن هو غلط. لأنه يمكن أن يُستدل أيضاً بالطابع العروبي للقرآن بالآيات التي وصفته بالعربي، وبما ورد من ذكر قريش، ومكة، والمدينة، وهي بلاد عربية، ولفظ قومك، وقومه هم العرب، ولفظ الأعراب، والبدو، ولفظ النخل والسدر والطلح مما ورد في الآيات وهي أشجار تنبت في جزيرة العرب، وكذلك ذكر ما في البيئة العربية من خيل وإبل، وسراب (يحسبه الظمآن ماءً) ..إلخ. وكلها أشياء من صلب البيئة العربية**. إن المنهج العلمي لا يكون بانتزاع بعض الشواهد دون غيرها، ولكن بالاستقراء التام للنصوص،** والصواب أن يقال: إن القرآن كتاب تحدث عن الكون كله ومختلف البيئات، كبيئة العرب، وبيئة فرعون، وسبأ، وسليمان، والروم، وبني إسرائيل ...إلخ، بمعنى أنه كتاب كوني شامل، لغته العربية، وقد راعى خصوصية البيئة التي نزل فيها أولاً.

ثانياً: عدم وجود ألفاظ كالعِرض والشرف والمروءة والشهامة لا علاقة له بالرحمة والإنسانية، فهل هذه الأشياء خاصة بالعرب دون سواهم من الشعوب والأمم؟! ثم لماذا أقحم الرحمة هنا؟!

ثالثاً: سبق للدكتور شحرور أن ذكر عند النقطة الثالثة من اللغويات قوله: "فالمعاني موجودة في النظم، لا في الألفاظ كلّ على حدة". فما باله يخالف منهجه فيترك النظم ويبحث عن الألفاظ!!

رابعاً: عدم وجود ألفاظ كالعِرض والشرف والمروءة والشهامة لا يعني أن القرآن الكريم لا يهتم بها، بل من مقاصد الشريعة حفظ العرض والنسل، ولكنه ذكر معاني هذه الكلمات بمفردات تشابهها، أو عَبْر مواقف إنسانية، فقد أمر بحفظ الفروج، ونهى عن الزنا، وغلظ عقوبته، وسمى القذف كذباً بالإفك،

وندد بموقف قوم لوط المشين من ضيوفه حين أرادوا اغتصابهم... إلخ، أليست هذه أمور تتعلق بصون العرض وحفظه؟!

كذلك تحدث عن سقي موسى لماشية بنات الرجل الصالح في مدين، وهو موقف في منتهى المروءة، وأشاد بعفة يوسف، ولو أردنا تتبع ذلك في القرآن لاحتجنا إلى دراسة مستقلة لتفصيل ذلك.

خامساً: ولو بحثنا في القرآن الكريم لوجدنا في نظمه ما يدل على تناوله لأدق قضايا العرض والجنس، ومثل هذه القضايا الحساسة كان يلمسها القرآن بأسلوب تربوي تتخلله كثير من أساليب الكناية والمجاز، كقوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 223]لاحظ الإيجاز والتلميح في قوله تعالى: (حرث لكم) ثم في قوله: (فأتوا حرثكم أنى شئتم).

وانظر إلى قوله تعالى حكاية عن قوم لوط عليه السلام: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: 79] وكيف جاء التعبير عن غرضهم الدنيء بأسلوب مؤدب غير مباشر، ولم يُذكر صراحة: (إنك لتعلم ما نريد).

وانظر إلى قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: 25]. لاحظ كيف استخدمت كلمة (سوءا) بدلا من التعبيرات المباشرة كأن تقول: يريد انتهاك عرضك، والتلميح قد يغني عن التصريح أحياناً[141].

سادساً: قوله: "فالتنزيل الحكيم يحمل الخاصّيتين التاليتين...". هذا كلام سليم، وهو هنا ينقض ما كان قد ذكره سابقاً، في الحديث عن منهجه عند النقطة الأولى من الإيمانيات، وهو قوله: "إن آيات التنزيل الحكيم عبارة عن نصّ إيماني وليست دليلاً علمياً، بحيث يمكن إقامة الحجّة بواسطتها على أتباع المؤمنين بها فقط، أمّا على غيرهم فلا يمكن. وعلى أتباع الرسالة المحمّدية المؤمنين بالتنزيل الحكيم أن يوردوا الدليل العلمي والمنطقي على مصداقيتها، وفي ذلك تتمثّل مهمّتهم الأساسية".

---

(141) – ذكر المبرد في كتابه: (الكامل)، ج 2، ص (6.5): أن الكناية تأتي على ثلاثة أضرب، وذكر منها: التعبير عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، واعتبر هذا الضرب من أحسنها.

فإذا كان الوحي لا يناقض العقل، ولا يناقض الواقع كما ذكر هنا، فقد صار قانوناً، وصار علماً وحجة على الجميع، المؤمنين به وغير المؤمنين به، لأن ما لا يناقض العقل والواقع هو صحيح لا يتطرق إليه الشك، شأنه شأن قوانين الفيزياء والرياضيات والطبيعة.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

8- يؤكِّد القرآن النظرية المادّية في المعرفة الإنسانية التي يعبّر عنها مبدأ أنَّ: العلم يتبع المعلوم وأنَّ المعلومات تأتي من خارج الإنسان عن طريق الحواس والوحي (الإلهام) وغيرها. أمَّا عندما يتبع المعلوم العلم فذلك من صفات الله فقط ولا يدخل في نطاق المعرفة الإنسانية. ويُعدُّ التجريد الفكري لدى الإنسان هبة من الله وهبه إيّاها بنفخة الروح، ويُعبَّر عنها باللغة والرياضيات المجرَّدة التي تأتي سابقة لعلم الفيزياء. وهذا يؤكد أنَّ الله عزَّ وجلّ خلق الوجود من العدم، والعدم هو وجود الدالّ بدون مدلول وهذا الأمر نجده في الرياضيّات المجرّدة".

تعقيب ومناقشة

أولاً: تعريف المعرفة: "المعرفة هي الوعي وفهم الحقائق أو اكتساب المعلومة عن طريق التجربة، أو من خلال تأمل النفس، المعرفة مرتبطة بالبديهة، واكتشاف المجهول، وتطوير الذات"[142].

ثانياً: هنالك كتاب لروجيه غارودي بعنوان: (النظرية المادية في المعرفة) تعريب إبراهيم قريط، ونشرته دار دمشق، بدمشق، يقع الكتاب بـ: (463) صفحة. ولا يمكن تقرير نظرية بهذا الشكل وإسقاطها على القرآن بدون تبيانها وتحليلها ونقدها.

ثالثاً: تؤكد المادية أن:

"1- حوادث العالم هي الأوجه المختلفة للمادة المتحركة، باعتبار أن المادة هي ما هو موجود خارج روحي، وخارج كل روح، والتي لا تحتاج لأية روح لكي توجد.

(142) - المعجم الفلسفي، د. مصطفى حسيبة، ص(602).

2- إن المادة هي، بالتالي، الواقع الأول، وليست إحساساتنا وفكرنا سوى نتاج هذا الواقع وانعكاسه.

3- يمكن للمعرفة المثبتة بالتجربة والممارسة العملية أن تنفذ نفاذا تاماً إلى العالم وإلى قوانينه"[143]...

وهذا مرفوض في التصور الإسلامي، فنحن نعتقد أن مصدر العلم هو الله سبحانه وتعالى، فهو الذي علم الإنسان الأول، **وعليه مصدر العلم ليس المادة،** قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 31]. والله تعالى هو الذي يعلم الإنسان كل شيء، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5]. وهو الذي علم محمداً صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]. والله تعالى يعلم عباده بشتى الطرق بالوحي والإلهام والفطرة والغرائز والكون المادي، فليست المعرفة مقصورة على المادة، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

رابعاً: المعرفة ليست مادية بالضرورة، فهناك معرفة بالتأمل، وبالقياس، وبالمحاكاة، وبالخبرة، وبالرؤى والأحلام، وبالصدفة، ترى هل تستطيع المعرفة المادية أن تفسر لنا كيف شم يعقوب رائحة يوسف عليهما السلام من بعيد؟

وعليه: فالقرآن يرفض النظرية المادّية في المعرفة الإنسانية.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

9- تقوم المعرفة الإنسانية على مبدأ التقليم وهو تمييز الأشياء بعضها عن بعض(Identification) ، ثمّ يتبعها التسطير وهو ضمّ الأشياء بعضها إلى بعض في نسق واحد وهو ما نسمّيه التصنيف

(143) - النظرية المادية في المعرفة، لروجيه غارودي، تعريب إبراهيم قريط، ص(5-6).

(Classification).والفؤاد هو الإدراك المشخّص بالحواسّ وهو ردّ الفعل الغريزي لدى الإنسان وهو الذي يعطيه المادّة الأوليّة الخام للفكر والعقل.

تعقيب ومناقشة

لا بأس هنا من توضيح بعض الأمور المتصلة بالمعرفة:

أولاً: ما ذكره هو تقسيم واحد من تقسيمات كثيرة، وهو تقسيم عام، ولكن في البحث التربوي أو الاجتماعي أو الطبي وغيره.. نجد خطوات أخرى.. يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي في حديثه عن أنواع المناهج: "ونحن نقول المناهج الثلاثة الرئيسية، والواقع أن عدد المناهج لا يكاد ينحصر. ففي داخل كل علم عدة مناهج، بل إنه لمن المستحسن أحياناً أن نستعمل مناهج خاصة لمسائل جزئية في داخل العلم الواحد. غير أنه من المستحسن أيضاً أن نرد هذه المناهج العديدة إلى مناهج نموذجية قليلة تُفرَّع عليها المناهج الجزئية الأخرى، مناهج نموذجية نستطيع في نهاية الأمر حصرها في ثلاثة أو أربعة"[144].

ثانياً: أنواع المعرفة ثلاث: حسية، وفلسفية (تأملية)، وعلمية مثبتة بالتجربة. ولكل منها طرائقها الخاصة بها.

ثالثاً: من خصائص المعرفة العلمية: الموضوعية ونقيضها الذاتية، والوضعية وهي نقيض الغيبية والميتافيزيقا، والتعليل، والواقعية، والدقة، والتعميم، والنسبية، والتعبير الكمي.

رابعاً: وأما مصادر المعرفة فهي: الاستقراء، والاستنباط، أو كلاهما معاً.

خامساً: العقل هو أداة المعرفة، ويحدد برونشفيك ثلاث وظائف للعقل:

أ. التجريد والتصنيف، ب. التفسير، ج. التنظيم.

أما (كنت) فيستعمل العقل بمعنيين: أحدهما واسع ويشمل الذهن، وهو ملكة المعرفة القبلية، وهو ينبوع القبلي النسبي والقبلي المحض. ويتحكم في وظائف التفكير العقلية، وفي التصورات والأحكام، وخصوصاً في أسس المعرفة. والعقل بالمعنى المحدود، وهو الملكة العليا للمعرفة، "كل معرفتنا تبدأ من

---

(144) - مناهج البحث العلمي، ص(18)، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثالثة، 1977م.

الحواس، ومن ثم تنتقل إلى الذهن، وتنتهي في العقل. وليس فينا ما هو أسمى من العقل لمعالجة مادة العيان وردها إلى الوحدة العليا للفكر"[145].

***

ويضيف الدكتور شحرور:

10- إنّ مبدأ الكمّ والكيف (العدد والإحصاء – القدر والمقدار) هو النافذة التي يطل بها الإنسان على العالم الخارجي، بحيث يبدأ الإنسان بالكيف ثمّ ينتقل إلى الكمّ والعكس".

تعقيب ومناقشة

لا بأس من تعريف بعض المصطلحات هنا:

أولاً: تعريف الكم: "هو ما يقبل لذاته المساواة واللامساواة. ويقسم الاسكلائيون في إثر أرسطو ... الكم إلى: 1- كم متصل، ع- كم مقترن، 3- كم منفصل ... والكم في المنطق: صفة للأحكام من حيث إن الحمل يشمل كل أو بعض أفراد الموضوع"[146].

ثانياً: تعريف الكيف: "هو ما يعين الشيء، وبهذا المعنى الواسع يشمل الفصول النوعية التي تميز الأنواع المختلفة المندرجة تحت جنس واحد، كما يشمل الخواص العرضية التي لا تغير من طبيعة النوع. والكيف لا يهب الشيء وجوده المحض، وإنما يعين وجوده على هذا النحو أو ذاك"[147].

ثالثاً: الكم والكيف يكونان في الأمور المادية المحسوسة، وتعتمد الظواهر الاجتماعية على الكم، وتعتمد الظواهر الفكرية على الكيف، وبالنسبة للوحي وعلومه فهي علوم قادمة من عزيز مقتدر، فهي في ذاتها بمنأى عن هذه الأوصاف ومعزل، ولكن عملية انتشارها وتعليمها وتأثيرها في الوسط الاجتماعي قد تخضع لموضوع الكم والكيف وغير ذلك من المؤثرات.

***

---

(145) - موسوعة الفلسفة، د. عبد الرحمن بدوي، (2/73-74)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1984م.

(146) – المرجع السابق، (2/168).

(147) - المرجع السابق، (2/337).

ويضيف الدكتور شحرور:

11- إن عناصر المعرفة الإنسانية بالعالم الموضوعي هي المادة والبعد والموقع والحركة، ومن هذه العناصر الأربعة تنتج الوظيفة والتطوّر".

تعقيب ومناقشة

أولاً: إن هنالك اختلافاً كبيراً بين الفلاسفة قديماً وحديثاً في موضوع المعرفة، كما أن هنالك أنواعاً مختلفة من المعرفة، فهناك المعرفة الحسية، والمعرفة الميتا فيزيقية، والمعرفة الفلسفية، والمعرفة العلمية(148).

ثانياً: هناك من يرى أن معارفنا تنتج بالحس والعقل والتجربة. وهناك من يرى عناصر المعرفة ثلاثة: وجود ذات عارفة (العقل)، وجود الموضوع (العالم الخارجي)، العلاقة بين العنصرين السابقين وتأثير كل منهما في الآخر.

ثالثاً: وأما الموقف الفلسفي من المعرفة فهو في ثلاثة اتجاهات: الاتجاه الشكي، الاتجاه الوثوقي أو الاعتقادي، والاتجاه النقدي.

رابعاً: وما ذكره الكاتب من عناصر المعرفة الإنسانية بالعالم الموضوعي له صلة بالعلوم الكونية أو البحتة، ولاعلاقة مباشرة له بالعلوم الإنسانية، ومنها الوحي وعلومه، لأنها علوم روحانية لا تقاس بالقوانين المادية.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

12- إن العالم الموضوعي في التنزيل الحكيم يقوم على جدلية أساسية هي الصراع بين البقاء والهلاك، ويكون النصر دائماً للهلاك. من هذه الجدلية نستنتج الجدليات التالية في الطبيعة:

(148) - انظر: البحث العلمي في العلوم السلوكية، جودت شاكر محمود، مكتبة الانجلو- المصرية عام 2007.

أ- جدليّة التناقضات في الشيء الواحد :(مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) (الحج 5). ب- جدليّة الأزواج أي التأثير والتأثر المتبادل بين الأشياء :(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا) (يس 36). ت- جدليّة الأضداد (في ظواهر الأشياء أو في السلوكيات): الليل والنهار – الفجور والتقوى – الهداية والضلال".

تعقيب ومناقشة

أولاً: كلمة (جدلية) مقحمة على الدراسات القرآنية، لأنها ذات دلالات فلسفية مختلفة، وهي مصطلح يعني الديالكتيكا، "مشتقة من الفعل اليونانية dialogein ، الذي يعني تحديداً الكلام عبر المجال الفاصل بين المتحاورين كطريقة استقصاء وضعها زينون الإيلي، قبل أن تستكمل شكلها على يد أفلاطون"(149).

وقد تطورت دلالاتها على يد أرسطو، وغيره، وفي القرن التاسع عشر تطورت على "يد هيجل لتكتسب معنى فلسفياً جديداً وعميقاً، ما زال سائداً حتى الساعة : لأن مؤسس المثالية المطلقة جعل منها قانوناً يحدد مسيرة الفكر والواقع عبر تفاعلات النفي المتتالي للطريحة these والنقيضة antithese، وحل إشكاليات المتناقضات القائمة من خلال الارتقاء إلى الشميلة synthese تلك التي سرعان ما يجري تجاوزها هي الأخرى، ومن نفس المنطلق، وهكذا يتحول الفعل السلبي ليصبح جزءاً من الصيرورة، الأمر الذي يجعله وفق هيجل، محركاً للتاريخ وللطبيعة وللفلسفة"(150).

ثانياً: إذا كان الصراع في العالم الموضوعي بين الموت والحياة، **فإن الصراع في مسرح الحياة هو بين الحق والباطل،** والبقاء دائماً للحق، قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17].

ثالثاً: لا يقوم العالم فقط على نقطة واحدة وهي الصراع بين النقائض، بل هنالك أمور أخرى يقوم عليها، منها:

---

(149) – المعجم الفلسفي، د. مصطفى حسيبة، ص(154).

(150) – المرجع السابق، ص(154).

الزيادة في الخلق، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1].

ومنها: متابعة الله لشئون خلقه في كل آن، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29].

ومنها: قدرة الله وجبروته وسيطرته على المخلوقات، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

ومنها انقياد كل شيء لأمر الله وتسبيحه له، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44]. وقال سبحانه:﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40].

فالكون يخضع لسنن إلهية وقوانين كثيرة، وليس فقط للجدل والصراع بين النقائض.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

13- إنّ الحرّية هي أساس الحياة الإنسانية وهي القيمة العليا المقدّسة وفيها تكمن عبادية الناس لله. وهي الكلمة التي سبقت لأهل الأرض. والعبودية غير مطلوبة أصلاً لا من الله ولا من غيره، وإن طُلبت أو وُجِدت فهي لغير الله حتماً".

تعقيب ومناقشة

أولا: جيد أن يشيد بالحرية، وهي نعمة عظيمة وقيمة عليا، وقد خلق الله الناس والحيوانات كلها أحراراً، والناس هم من اخترعوا نظام العبودية فيما بينهم، وهم من وضعوا الحيوانات بالأقفاص، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: 44].

ثانياً: إن سبب الظلم والتعدي على الآخرين سواء كان إنساناً أو حيواناً أو كائنات في الطبيعة أو الطبيعة ذاتها هو غياب قيمة العدل، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58].

ثالثاً: والعدل يحبه المظلوم ويكرهه الظالم، ولذلك يجب أن نسعى لنلغي الكراهية من نفس الظالم، ونجعله يحب لغيره ما يحب لنفسه، وهذا يحتاج إلى نشر قيم التسامح والتعايش والعدل بين الناس، هذه القيم التي تقوم أساساً على الحب، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6]. فمن شدة حبه الخير لقومه كاد أن يتلف نفسه صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أشار الله تعالى إلى أن علاقته بعباده تقوم على الحب المتبادل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]. وقال السيد المسيح: (أحبوا أعداءكم). وفي الحديث الشريف: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

والحب لا يكون إلا للجمال، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله جميل يحب الجمال).

قال الغزي:[151]

صدغه نابلٌ وحـــاجبهُ قو
سٌ وألحاظُــهُ نصالُ النبالِ
كيف يحظى بالسلم من كل شيء
حسنٍ وهـــو آلةٌ للقتال

ويقول التهامي:[152]

بمقلتِها لَعَمْرُ أبيكَ سـحرٌ
به تصطادُ أفئدةَ الرجـالِ
سـمعنا بالعُجابِ وماسمعنا
بـأن الليثَ من قنصِ الغزالِ

(151) – مختارات البارودي، (4/341).

(152) – المرجع السابق، (4/300).

رابعاً: وعليه يكون ترتيب القيم منطقياً (من الأعلى إلى الأدنى) هكذا: الجمال، الحب، العدل، الحرية، كما في الشكل:

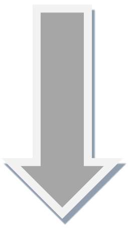	الجمال
	الحب
	العدل
	الحرية

ولكن أن يجعل الدكتور شحرور الحرية أعلى قيمة من الجمال فهذا كلام فيه نظر، ولا يطابق الواقع أبداً، فكم ضحى المحبون بحياتهم وكرمتهم وحرياتهم من أجل من يحبون!! ولم يحبوا من أحبوا إلا لجماله!.

وهذا أمر شائع معروف، وكتب الأدب ودواوين الشعراء مكتظة به، وفي في كتاب الزهرة مثلاً [لمحمد بن داود الأصبهاني، والذي حققه الدكتور إبراهيم السامرائي، ونشرته مكتبة المنار] شعر كثير يؤكد ما ذهبنا إليه.

خامساً: الجمال منه الحسي والمعنوي، والآراء فيه كثيرة، يقول وِلْ دْيورانت: (إن في الجمال آراء بقدر مافي العالم من رؤوس، وكل محبٍّ للجمال يعتبر نفسه حجة في هذا الموضوع لامرد لرأيه)[153].

(153) – قصة الفلسفة، ص (582).

سادساً: **قوله عن الحرية: "وهي الكلمة التي سبقت لأهل الأرض".**

كلام لا دليل عليه، والعلم بالدليل، لا بالادعاء، وقد تبين بطلانه ببيان أن الجهال هو القيمة العليا.

وهو استنتاج يشبه كلام ستالين، يقول روجيه غارودي: "يلاحظ أن مؤلف ستالين الأخير: المشكلات الاقتصادية للاشتراكية في الاتحاد السوفياتي... يلخص منذ صفحاته الأولى تعاليم النظرية المادية الديالكتيكية للمعرفة: موضوعية قوانين تنمية الطبيعة والمجتمع، انعكاسها في أفكار الناس، استخدامها العملي للانتقال، بفعل معرفة الضرورة ذاتها، (من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية). ذلك أن الحرية الملموسة تولد من وعي الضرورة الموضوعية. فهي نتاج كل تطور تاريخي، وكل تقدم جديد للمعرفة الموضوعية هو تقدم للحرية، فبالمعرفة الموضوعية يصير الإنسان سيد العالم، لأن الوعي الإنساني لا يعكس العالم الموضوعي فحسب، بل يحوله. إن نظرية المعرفة إذ تصل إلى غايتها، تنفتح على نظرية الحرية"(154).

ويضيف الدكتور شحرور:

خامساً: أسس التشريع المعاصر

1- يضمّ التنزيل الحكيم بين دفّتيه نبوّة محمّد (ص) كنبي، ورسالته كرسول. وتنقسم آياته من هذه الزاوية قسمين: أولاً آيات النبوّة التي تشرح نواميس الكون وقوانينه وقوانين التاريخ وأحداث الرسالات والنبوّات (القصص)، وقد جاء في هذه الآيات ردود على أسئلة الفلسفة الكونية كالوجود الموضوعي ونظرية المعرفة الإنسانية، وهذه الآيات تحتمل التصديق والتكذيب. وثانياً: آيات الرسالة التي تشرح الأحكام والأوامر والنواهي وتحتمل الطاعة والمعصية. وبناءً على ذلك فإنّ آيات النبوّة هي الآيات المتشابهات التي تخضع كلّها لثبات النصّ وحركيّة المحتوى، ويمكن إعادة قراءتها في ضوء تطوّر الأرضية المعرفية على مرّ العصور والدهور. أمّا آيات الرسالة فهي على قسمين: قسم منها ثابت النصّ والمحتوى وهو الآيات المحكمات (أمّ الكتاب) وهي آيات مغلقة لا اجتهاد فيها (ثبات النصّ والمحتوى)، ومن خلالها تظهر **الحاكميّة الإلهيّة** وقد وجدنا عددها في التنزيل الحكيم (19) آية فقط. بينما آيات تفصيل

---

(154) - النظرية المادية في المعرفة، تعريب إبراهيم قريط، ص(460).

المحكم (تفصيل أمّ الكتاب) فهي آيات تتميّز بثبات النصّ وحركية المحتوى لأنّها تخضع للاجتهاد الإنساني، ومن خلالها تظهر الحاكمية الإنسانية الحنيفية، وهي تشتمل على حدود التشريع. وفي نطاق آيات تفصيل المحكم تجتهد كلّ البرلمانات والسلطات التشريعية في العالم، علمت بذلك أم لم تعلم، لأن الحنيفية فطرة الله التي فطر الناس عليها :(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الروم 30)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: ورد لفظ (أم الكتاب) في ثلاث آيات كريمات: منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. [آل عمران: 7].

وقد اختلف في معناها على أقوال كثيرة وها نحن ننقل عن السيوطي ما ذكره من أقوال أهل العلم في هذه الآية، حيث قال: "حكى ابن حبيب النيسابوري في المسألة ثلاثة أقوال.

أحدها: أن القرآن كله محكم لقوله تعالى: (كتاب أحكمت آياته).

الثاني: كله متشابه لقوله تعالى: (كتاباً متشابهاً مثاني).

الثالث: وهو الصحيح انقسامه إلى محكم ومتشابه للآية المصدر بها.

والجواب عن الآيتين: أن المراد بإحكامه: إتقانه وعدم تطرق النقص والاختلاف إليه، وبتشابهه: كونه يشبه بعضه بعضا في الحق والصدق والإعجاز.

وقال بعضهم: الآية لا تدل على الحصر في شيئين، إذ ليس فيها شيء من طرقه، وقد قال تعالى: (لتبين للناس ما نزل إليهم) والمحكم لا تتوقف معرفته على البيان، والمتشابه لا يرجى بيانه"[155].

وأضاف: "وقد اختلف في تعيين المحكم والمتشابه على أقوال، فقيل: المحكم ما عرف المراد منه، إما بالظهور وإما بالتأويل. والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور.

(155) – الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (3/2).

وقيل المحكم ما وضح معناه، والمتشابه نقيضه.

وقيل المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل أوجهاً.

وقيل: المحكم ما كان معقول المعنى، والمتشابه بخلافه كأعداد الصلوات، واختصاص الصيام برمضان دون شعبان، قاله الماوردي.

وقيل: المحكم ما استقل بنفسه والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره.

وقيل: المحكم ما تأويله تنزيله، والمتشابه ما لا يدرك إلا بالتأويل.

وقيل: المحكم ما لم تتكرر ألفاظه ومقابله المتشابه.

وقيل: المحكم الفرائض والوعد والوعيد، والمتشابه القصص والأمثال"[(156)].

والأقوال المذكورة جلها محتملة، وهذا من سعة آيات الله، ورحمته لعباده، واحترام الاجتهاد وثمرات العقل وحصاد الفكر في الشريعة الإسلامية.

ثانياً: قال الطيبي في معنى الآية السابقة، وهو من علماء التفسير والحديث والبلاغة: "المراد بالمحكم ما اتضح معناه، والمتشابه بخلافه، لأن اللفظ الذي يقبل معنى إما أن يحتمل غيره أو لا، والثاني النص. والأول: إما أن تكون دلالته على ذلك الغير أرجح أو لا، والأول هو الظاهر. والثاني: إما أن يكون مساوية أو لا، والأول هو المجمل، والثاني المؤول، فالمشترك بين النص والظاهر هو المحكم، والمشترك بين المجمل والمؤول هو المتشابه.

ويؤيد هذا التقسيم أنه تعالى أوقع المحكم مقابلا للمتشابه. قالوا: فالواجب أن يفسر المحكم بما يقابله. ويعضد ذلك أسلوب الآية وهو الجمع مع التقسيم، لأنه تعالى فرق ما جمع في معنى الكتاب بأن قال: (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) وأراد أن يضيف إلى كل منهما ما شاء، فقال أولا : (فأما الذين في قلوبهم زيغ) إلى أن قال: (والراسخون في العلم يقولون آمنا به). وكان يمكن أن يقال: وأما الذين في قلوبهم استقامة فيتبعون المحكم، لكنه وضع موضع ذلك: (والراسخون في العلم) لإتيان لفظ الرسوخ، لأنه لا يحصل إلا بعد التثبت العام والاجتهاد البليغ، فإذا استقام القلب على طرق الإرشاد، ورسخ القدم في العلم، أفصح صاحبه النطق بالقول الحق، وكفى بدعاء الراسخين في العلم: (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) إلخ شاهداً على أن (الراسخون في العلم) مقابل لقوله: (والذين في قلوبهم زيغ). وفيه إشارة إلى أن

---

(156) – المصدر السابق، (3/2).

الوقف على قوله: (إلا الله) تام، وإلى أن علم بعض المتشابه مختص بالله تعالى، وأن من حاول معرفته هو الذي أشار إليه في الحديث بقوله: (فاحذروهم)''[157].

ثالثاً: قال تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 4]. أم الكتاب هنا: هو اللوح المحفوظ، أو علم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون.

إن القرآن نص أدبي بياني معجز، وفي اللغة تستعمل الكلمة الواحدة في سياقات شتى فيكون لها معان مختلفة، فلا يمكن حمل الكلمة إذا وردت في سياقات عدة على معنى واحد.

رابعاً: ورد في تفسير (أم الكتاب) أنها سورة الفاتحة، قال السيوطي: ''وهي أم الكتاب وأم القرآن، وقد كره ابن سيرين أن تسمى أم الكتاب، وكره الحسن أن تسمى أم القرآن، ووافقهما تقي بن مخلد، لأن أم الكتاب هو اللوح المحفوظ، قال تعالى: (وعنده أم الكتاب)، (وإنه في أم الكتاب)، وآيات الحلال والحرام قال تعالى: (آيات محكمات هن أم الكتاب).

قال المرسي: وقد روي حديث لا يصح: (لا يقولن أحدكم أم الكتاب وليقل فاتحة الكتاب). قلت: هذا لا أصل له في شيء من كتب الحديث، وإنما أخرجه أبن الضريس بهذا اللفظ عن ابن سيرين، فالتبس على المرسي. وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة تسميتها بذلك، فأخرج الدارقطني وصححه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (إذا قرأتم الحمد، فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني).

واختلف لم سميت بذلك؟ فقيل لأنها يبدأ بكتابتها في المصاحف، وبقراءتها في الصلاة قبل السورة. قاله أبو عبيدة في مجازه، وجزم به البخاري في صحيحه، واستشكل بأن ذلك يناسب تسميتها فاتحة الكتاب لا أم الكتاب. وأجيب: بأن ذلك بالنظر إلى أن الأم مبتدأ الولد. قال الماوردي: سميت بذلك لتقدمها وتأخر ما سواها تبعا لها، لأنها أمته، أي تقدمته. ولهذا يقال لراية الحرب: أم؛ لتقدمها واتباع الجيش لها، ويقال لما مضى من سني إنسان أم؛ لتقدمها، ولمكة أم القرى؛ لتقدمها على سائر القرى. وقيل: أم الشيء أصله، وهي أصل القرآن لانطوائها على جميع أغراض القرآن، وما فيه من العلوم والحكم، كما سيأتي تقريره في النوع الثالث والسبعين. وقيل سميت بذلك: لأنها أفضل السور، كما يقال لرئيس القوم أم القوم. وقيل: لأن حرمتها

(157) – المصدر السابق، (2/5-6).

كحرمة القرآن كله، وقيل: لأن مفزع أهل الإيمان إليها كما يقال للراية أم؛ لأن مفزع العسكر إليها. وقيل: لأنها محكمة والمحكمات أم الكتاب"[158].

خامساً: قول الدكتور شحرور: "وبناءً على ذلك فإنّ آيات النبوّة هي الآيات المتشابهات التي تخضع كلّها لثبات النصّ وحركيّة المحتوى، ويمكن إعادة قراءتها في ضوء تطوّر الأرضية المعرفية على مرّ العصور والدهور. أمّا آيات الرسالة فهي على قسمين: قسم منها ثابت النصّ والمحتوى وهو الآيات المحكمات (أمّ الكتاب) وهي آيات مغلقة لا اجتهاد فيها (ثبات النصّ والمحتوى)، ومن خلالها تظهر **الحاكميّة الإلهيّة** وقد وجدنا عددها في التنزيل الحكيم (19) آية فقط. بينما آيات تفصيل المحكم (تفصيل أمّ الكتاب) فهي آيات تتميّز بثبات النصّ وحركية المحتوى لأنّها تخضع للاجتهاد الإنساني". هذا الكلام كله باطل، وهذا التقسيم الذي ابتدعه لم يقل به أحد من المفسرين، وهو يتناقض مع المأثور، ومع روح هذا الدين، فلا يمكن أن يكون القرآن بعضه تتحرك معانيه، وبعضه تجمد معانيه، واقتصر فيما تثبت معانيه على (19) آية فقط، وجعل باقي الآيات تفصيلاً لها، وهذا التفسير بغية التلاعب بمعاني ودلالات القرآن، ولا يسنده دليل من عقل ولا نقل!.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

2- ليس ثمّة ناسخ ومنسوخ بين آيات الرسالة في التنزيل الحكيم، لأنّ النسخ حصل بين الرسالات الإلهيّة لا في رسالة محمّد (ص). هذه الرسالة هي الخاتمة وتتكوّن من آيات محكمات هي عبارة عن آيات مغلقة لا اجتهاد فيها وعددها (19) كما وجدناه بالبحث والدراسة التي حصلت لأول مرّة في تاريخ الرسالة، وتتكوّن من آيات تفصيل وتمثّل مضمار الاجتهاد الإنساني. وبناءً على ذلك فإنّ مصداقية قوله تعالى :(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة 106) تتجلّى في عملية النسخ بين مختلف الرسالات الإلهية، إذ جاءت بعض المحرّمات في شريعة موسى، ثم حلّل المسيح عيسى بعده بعضها بدلالة قوله تعالى:(وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) (آل عمران 50). بعد ذلك جاءت رسالة محمّد (ص) لتنسخ بعض الأحكام التي جاءت في رسالتي موسى وعيسى،

---

(158) – المصدر السابق، (70/1).

كأحكام الزنا واللواط واستبدالها بأحكام أخرى، كما أضافت أحكاماً لم تنزل من قبل كالسحاق والوصيَّة والإرث... أمّا النسخ بالمعنى والمفهوم الشائع اليوم، الذي يصل بعدد الآيات المنسوخة إلى عدّة مئات، والذي يُحوّلُ الجهاد إلى غزو، ويستبدل الموعظة الحسنة بالسيف، فهو ليس عندنا بشيء. فنحن ننطلق من أنّ صاحب التنزيل هو وحده صاحب الحق في النسخ الإلهي بالحذف والتعديل والإضافة في نصوص كتابه الحكيم، ومقتنعون بأنّ ما وصلنا هو النسخة النهائية لكتابه بتمام نصوصها، وعلى ذلك لا يمكن أن تحتوي بين صفحاتها نصوصاً ينسخ بعضها بعضاً لأنّ ذلك يصبح ضرباً من العبث، بأن يرسل عزّ وجل كتاباً للإنسانية جمعاء وصالحاً ليوم الدين ثمّ يشتمل على نصوص يناقض بعضها بعضاً وينسخ بعضها بعضاً. هذا مرفوض لدينا، فنحن نراه كتاباً كاملاً وخالياً من أيّ تناقض لأنّه الصيغة الخاتمة لكتابه عزّ وجل، وجاءت فيها الرسالة على شكل محكم وتفصيله. وبالتالي يكون الاجتهاد في نطاق التفصيل بمراعاة الظروف الموضوعية والاجتماعية لكلّ مجتمع وفق مستواه المعرفي. وبما أنّ النسخ الإلهي انتهى بين الرسالات مع الرسالة المحمّدية التي جاءت مجرّدة ومُعلِنة بداية عصر ما بعد الرسالات، أي عصر الاجتهاد الإنساني، الذي تبدأ فيه الاجتهادات الإنسانية هي التي ينسخ بعضها بعضاً والتي تدور جلّها في فلك تفصيل محكم الرسالة، وبذلك فقط تظهر مصداقية الرسالة الإلهية الخاتمة".

تعقيب ومناقشة

أولاً: النسخ واقع في الآيات، كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106]. وهذا يعني آيات القرآن ينسخ بعضها بعضاً. والآية هنا لم تتحدث عن نسخ الشرائع كما فسرها الدكتور شحرور.

ثانياً: والكلام حول الناسخ والمنسوخ كثير ، فقد ذكر السيوطي في حديثه عن علوم القرآن: "النوع السابع والأربعون: في ناسخه ومنسوخه، أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون، منهم: أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو داود السجستاني، وأبو جعفر النحاس، وابن الأنباري، ومكي، وابن العربي، وآخرون. قال الأئمة لا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ. وقد قال علي لقاضٍ أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. قال: هلكتَ وأَهْلكتَ"[159].

(159) – الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (27/2).

ثالثاً: الصحيح بأن آية السيف لم تنسخ آيات الصفح والعفو، كما ذكر السيوطي، وعليه مجموع الآيات المنسوخة عشرين آية فقط، قال السيوطي: "إذا عملت ذلك فقد خرج من الآيات التي أوردها المكثرون الجم الغفير مع آيات الصفح والعفو إن قلنا إن آية السيف لم تنسخها، وبقي مما يصلح لذلك عدد يسير، وقد أفردته بأدلته في تأليف لطيف، وها أنا أورده هنا محررا"(160).

وأضاف: "وقد نظمتها في أبيات فقلت: (161)

قد أكثر الناس في المنسوخ من عدد
وأدخلوا فيـــه آياً ليس تنحصر
وهاك تحـــرير آيٍ لا مزيد لها
عشرين حـــررها الحذاق والكبر
آي التوجه حيث المرء كـــان وأن
يوصي لأهليه عند المـــوت محتضر
وحرمة الأكـــل بعد النوم مع رفث
وفـــدية لمطيق الصوم مشتهر
وحق تقواه فيمـــا صح من أثر
وفي الحرام قتال للأُلى كـــفروا
والاعتداد بحول مـــع وصيتها
وأن يدان حديث النفس والفـــكر
والحلف والحبس للزاني وترك أولى
كـفروا شهادتهم والصبر والنـفر
ومنع عـــقد لزان أو لـزانية

(160) - المصدر السابق، (29/2).

(161) - المصدر السابق، (2/30-31).

وما على المصطفى في العقد محتظر

ودفع مهر لمـن جاءت وآية نجـ

ـواه كذاك قيام الليل مسـتطر

وزيد آية الاستئذان من مـلكت

وآية القسـمة الفضلى لمن حضروا

رابعاً: وذهب كثير من المفسرين إلى آية السيف لم تنسخ آيات العفو، وليس هنالك إجماع على أن آية السيف قد نسخت ما سواها، وقد ذكر عدد من العلماء أنها لم تنسخ آيات السلم، وممن ذهب إلى هذا العلامة المحقق ابن كثير، يقول ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 123]: (أي قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، فلم يُمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام، فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله وتوكل على الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله، والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم)(162).

فهو بهذا النص يبين أن تطبيق الآية يكون بحسب الاستطاعة، وذلك لتغير الظروف عما كانت عليه في القرون الثلاثة الأولى.

كما أشار ابن كثير إلى أن آية السيف لم تنسخ ما قبلها من آيات السلم، فقال عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 61]: (وإن جنحوا: أي مالوا، للسلم:

(162) – تفسير القرآن العظيم، (2/441).

أي المسالمة والمصالحة والمهادنة، فاجنح لها: أي: فمل إليها، واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر، وقال عبد الله بن الإمام أحمد، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثني فضيل بن سليمان يعني النميري، حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إياس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إنه سيكون اختلاف، أو أمر، فإن استطعت أن يكون السلم فافعل}. وقال مجاهد: نزلت في بني قريظة. وهذا فيه نظر، لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله، وقال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر} وفيه نظر أيضا، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفا، فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، **فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص**، والله أعلم)(163).

خامساً: وذهب بعض الكتاب المعاصرين إلى إنكار نسخ آية السيف لآيات العفو، ومنهم الأستاذ المفكر الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، يقول: (ويلاحظ الدارس المسلم اليوم، أن مفهوم النسخ بوضعه التقليدي، قد تعرض لعدد من مبادئ أساسية في الوحي والرسالة بالإلغاء، وقصر مجالات الرسالة وأبعادها على آخر ما نزل من النصوص، وما اقتضته ممارسات الرسول صلى الله عليه وسلم وحاجة المسلمين على العهد المدني الثاني، ومن أمثلة الآثار السلبية للنسخ بهذا المفهوم: قضية العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، وما يترتب على ذلك من مفاهيم في الدعوة والعلاقات الدولية الحضارية، وكذلك قضية علاقة المرحلة المدنية بالمرحلة المكية، وما يمكن أن ينشأ بينهما من علاقة التناسخ، وأثر ذلك على عمل الدعوة الإسلامية والتشريع الإسلامي، واستراتيجيات العمل السياسي في هذا العصر. ففي مجال العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين، نجد أن آية السيف: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} التوبة/5، تمثل نموذجا واضحا للآثار السلبية للسائد في منهج النسخ التقليدي، فآية السيف نزلت في نهاية العهد المدني الثاني، والمسلمون يتمتعون بالقوة والغلبة، وذلك في مواجهة مشركي العرب، الذين بالغوا في عداء المسلمين، والاعتداء عليهم ونقض عهودهم، رغم انقضاء ما يزيد على عشرين عاما من الدعوة والمسالمة والبر والصبر من المسلمين ودولتهم،

(163) – تفسير القرآن العظيم، (2/356-357).

فأمر القرآن الكريم بقتال المشركين القساة الكواسر، الذين مازالوا يعيشون بدائية اجتماعية وحضارية، وأخذهم بالقوة والعنف والإذلال، حتى يخضعوا للإسلام ويدخلوا في مجتمع حضاري منظم، فيصلح حالهم وتهذب نفوسهم، وينتهوا عن عدوانهم، ويكفوا أذاهم وقسوتهم وعدوانيتهم الناجمة عن بدائية تكوينهم الاجتماعي عن أنفسهم وعن الإسلام والمسلمين، وهنا نجد مفهوم النسخ في المنهجية التقليدية لا يستخلص الدلالة التنظيرية المطلوبة من مجالها الذي تعلقت به، وهو: الإصلاح والتهذيب، وأخذ الظالم المعتدي بالقوة الرادعة، ولكنه ينتهي إلى مجالات الدعوة كافة، وعلاقات التعامل والحوار مع غير المسلمين جميعا في كل الأحوال... وهذه القضية وما انتهت إليه من نتائج عديدة، تعرضت لمختلف جوانبها بقدر وافر من التفصيل في كتابي: [نظرية الإسلام في العلاقات الدولية: توجهات جديدة في الفكر والمنهجية الإسلامية]، وانتهيت إلى أن مجرد تعارض الأحكام والنصوص الظاهرة لا يعني بالضرورة ولا في الغالب النسخ والإلغاء، ولكن يعني أن الحياة الإنسانية في أوضاعها المختلفة تحتاج إلى مواقف وأحكام مختلفة، وكلما تحققت العلاقات والشروط والظروف الموضوعية لحكم أو توجيه بعينه، كان الحكم والتوجيه المعني هو الحكم والتوجيه الملزم للمسلم)(164).

وما بذله الكاتب الفاضل من جهد كبير لإثبات أن آية السيف لم تنسخ آيات السلم هو جهد طيب للذود عن الإسلام، وللتأصيل للعلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم.

سادساً: يقول الدكتور شحرور عن دراسته: "هذه الرسالة هي الخاتمة وتتكوّن من آيات محكمات هي عبارة عن آيات مغلقة لا اجتهاد فيها وعددها (19) كما وجدناه [الصواب: وجدناها] بالبحث والدراسة التي حصلت لأول مرّة في تاريخ الرسالة".

<u>وليته أعفى الرسالة الإسلامية المباركة من هذا البحث، أو ليت بحثه كان بصورة أفضل تتناسب مع جلال الرسالة!.</u>

***

(164) – أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص (88-90).

ويضيف الدكتور شحرور:

3- علينا أن نميّز بين النصّ التاريخي وتاريخية التفاعل مع النصّ، إذ هناك جزء من القرآن يحتوي آيات القصص القرآني يُعدّ نصوصاً تاريخية. فقد جاء حسب التنزيل الحكيم أنّ هذه النصوص تحمل صفة العبرة فقط ولا تحمل أيّ تشريع فيها، فالأنباء كلّها بما فيها أنباء الرسل، ومن ضمنها القصص المحمّدي وهي الآيات الواردة في سيرة النبي (ص) كآيات موقعة بدر وأُحد والخندق والأحزاب وتبوك وفتح مكة... وسورة التوبة، عبارة عن نصوص تاريخية ولا تؤخذ منها أيّ أحكام شرعية، ولا علاقة لها بالرسالة. فبالنسبة لنصوص القصص المحمّدي، لها مناسبات نزول لا أسباب نزول. أمّا آيات الرسالة (أمّ الكتاب وتفصيلها) كآيات الوصيّة والإرث... فليست نصوصاً تاريخية لأنها آيات تشريع وهي أبدية وتستوجب الطاعة المتّصلة، والاجتهادات في آيات تفصيل الرسالة هي التي تحمل صفة التاريخية لأنها اجتهادات إنسانية ينسخ بعضها بعضاً. وبناءً على ذلك نستنتج أن آيات القصص القرآني بما فيها القصص المحمّدي نصوص تاريخية، أمّا آيات الرسالة فليست نصوصاً تاريخية بل إنّ الفهم الإنساني لها هو التاريخي بمعنى أنّ الاجتهاد فيها هو الذي يحمل صفة التاريخية لأنه إنساني قابل للنسخ".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "فقد جاء حسب التنزيل الحكيم أنّ هذه النصوص تحمل صفة العبرة فقط ولا تحمل أيّ تشريع فيها، فالأنباء كلّها بما فيها أنباء الرسل، ومن ضمنها القصص المحمّدي وهي الآيات الواردة في سيرة النبي (ص) كآيات موقعة بدر وأُحد والخندق والأحزاب وتبوك وفتح مكة... وسورة التوبة، عبارة عن نصوص تاريخية ولا تؤخذ منها أيّ أحكام شرعية، ولا علاقة لها بالرسالة".

هذا كلام باطل، فقصص القرآن مليئة بالأحداث والعبر، صحيح أنه يغلب عليها الجانب التربوي والعقدي، ولكنها لا تخلو من بعض الأحكام، وكثيراً ما استوحى الفقهاء بعض الأحكام من قصص الأنبياء عليهم السلام، وبخاصة في قضايا التربية والإيمان والأخلاق، ففيها الأمر بالحكم بالحق، كما في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26]. وفيها

كيفية الحكم بين الخصمين، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: 22]... وفي تفسير (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي، وكتاب (أحكام القرآن) للجصاص، وغيرهما من كتب التفسير، ذخيرة لمن أراد تتبع هذه الأحكام.

وأما سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فهي مليئة بالأحكام الشرعية، ويكفي في هذا الصدد العودة إلى كتاب فقه السيرة لمحمد الغزالي، أو السيرة النبوية دروس وعبر لمصطفى السباعي، أو فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، أو كتاب دراسة في السيرة لعماد الدين خليل، ليجد المرء نفسه أما مئات الأحكام الشرعية.

وأما قوله: "وسورة التوبة، عبارة عن نصوص تاريخية ولا تؤخذ منها أيّ أحكام شرعية، ولا علاقة لها بالرسالة" فهذا كلام لا يقوله من لديه مثقال ذرة من علم شرعي، فسورة التوبة سورة مدنية مليئة بالأحكام الشرعية، وهي بمثابة تنظيم شئون الأمن والسلم والحرب والدفاع في الدولة الإسلامية، وقد أطلق الدكتور شحرور حكماً عشوائياً لا يستند إلى أي دليل أو دراسة.

ثانياً: قوله: "أمّا آيات الرسالة (أمّ الكتاب وتفصيلها) كآيات الوصيّة والإرث... فليست نصوصاً تاريخية لأنها آيات تشريع وهي أبدية وتستوجب الطاعة المتّصلة، والاجتهادات في آيات تفصيل الرسالة هي التي تحمل صفة التاريخية لأنها اجتهادات إنسانية ينسخ بعضها بعضاً".

هذا كلام باطل، **فقد قسم القرآن إلى ما هو أبدي يستوجب الطاعة، وغير أبدي اعتبره "عبارة عن نصوص تاريخية ولا تؤخذ منها أيّ أحكام شرعية، ولا علاقة لها بالرسالة"**. وهي تقسيمات باطلة لا تستند إلى دليل من عقل ولا نقل اللهم إلا العشوائية والمزاجية والهوى؛ مما ينفي عن دراسته صفة الموضوعية والتحليل والعلم، فما هي إلا مجرد عبث بآيات الله عز وجل!

***

ويضيف الدكتور شحرور:

4- يأتي الاجتهاد في النص المقدّس حصراً بالاجتهاد في آيات تفصيل المحكم فقط. وصحّة نتيجة الاجتهاد تحدّدها المصداقية بين النصّ والواقع دون إيقاع الناس في الحرج وفيه الحدّ الأدنى من تقييد

حرّيتهم. فالاجتهاد صحيح ومقبول بمقدار ما يتجاوب مع الواقع الموضوعي، وبعبارة أخرى، بمقدار فهم قارئ النصّ للواقع الموضوعي في لحظة القراءة التاريخية. ومعيار مصداقية فهم المجتهد للنصّ هو تجاوب اجتهاده مع الواقع، هذا الأمر هو الذي يحدّد صحّة القراءة أو خطأها، ودرجتها من الصواب والخطأ، وهذا أيضاً ما يحدّد نجاح أو فشل أيّ برلمان في تشريعاته، إذ كلّما كانت التشريعات متطابقة ومتجاوبة مع الواقع الموضوعي كان البرلمان ناجحاً في مهمّته لفهمه الصحيح للواقع المعيش. بهذا نفهم أنّ صاحب الحق الوحيد في إظهار مصداقية كلام الله هو الخط الكامل للسيرورة والصيرورة الإنسانية كلها، منذ آدم الى أن تقوم الساعة لقوله تعالى :(قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (آل عمران 137) وقوله تعالى :(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (العنكبوت 20)، وليس على لسان صحابي أو تابعي أو فقيه".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "فالاجتهاد صحيح ومقبول بمقدار ما يتجاوب مع الواقع الموضوعي... هذا الأمر هو الذي يحدّد صحّة القراءة أو خطأها، ودرجتها من الصواب والخطأ".

هذا كلام غير صحيح، فالواقع يتغير في المكان الواحد في أزمنة مختلفة، كما يتغير في الزمن الواحد في أمكنة مختلفة، وعليه يضطر المشرعون الوضعيون أن يكيفوا تشريعاتهم وفق الزمان والمكان، ويغيروها بحسب ما تقتضيه الظروف والأحوال. وأما شريعة الله فلا يمكن أن تتغير وتتبدل بحسب الواقع، لأن أحكامها ستختلف في المكان الواحد خلال زمنين مختلفين، وفي أمكنة متعددة في زمن واحد، وبهذا لا تصبح الشريعة ميزانا للعباد، ولا منهاجاً لهم، ولا يتبعها الناس بل هي تتبعهم، وهذا يناقض قول الله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 49].

ثانياً: قوله: "بهذا نفهم أنّ صاحب الحق الوحيد في إظهار مصداقية كلام الله هو الخط الكامل للسيرورة والصيرورة الإنسانية كلها، منذ آدم الى أن تقوم الساعة ... وليس على لسان صحابي أو تابعي أو فقيه".

هذا كلام غير علمي، نعم موافقة الشريعة لأحوال الناس في كل زمان ومكان هو من أدلة مصداقيتها، ولكن هذا لا ينفي، ولا يلغي، ولا يناقض: أن يظهر الحق على لسان صحابي أو تابعي أيضاً، فنحن لسنا في سوق تجاري تحتكر شركة معينة فيه حق توزيع سلعة ما، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: 10]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: 197]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 199]. فشهادة العلماء من أقوى الأدلة على صدق كلام الله.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

5- الإجماع هو إجماع الناس الأحياء على تشريع ما (أمر، نهي، سماح، منع) ولا علاقة له بالمحرَّمات الـ 14 التي جاءت في التنزيل الحكيم. فالتدخين مثلاً ليس من المحرّمات وبالتالي لا يمكن تحريمه بل يمكن فقط منعه بعد ثبوت أضراره عن طريق الاستفتاء والمجالس التشريعية والبرلمانات. وكذلك الأمر بالنسبة للتعدّدية الزوجية التي أحلّها التنزيل الحكيم ولا يمكن تحريمها ولكن يمكن فقط تقييدها أو منعها قانوناً وذلك عن طريق الاستفتاء أو البرلمان، لأنّ المنع أو النهي يختلف عن التحريم بحيث إنّ الله عزّ وجلّ هو حصراً صاحب الحقّ في التحريم، وتحريمه عينيّ وأبديّ، أمّا النهي والمنع والسماح فتكون بالاجتهاد في تقييد الحلال وتدخل في نطاق الاجتهاد الإنساني وهي ظرفية مرحلية وقابلة للنسخ".

تعقيب ومناقشة

أولاً: الإجماع عند علماء الأصول: (هو اتفاق مجتهدي أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في عصر من العصور على حكم شرعي في واقعة من الوقائع)[165].

ثانياً: والإجماع أحد مصادر الدين، وهو (حق مقطوع به في دين الله عز وجل، وأصل عظيم من أصول الدين، ومصدر من مصادر تشريعنا الخالد، بعد كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولذلك كان على المسلم أن يعرف حتماً مسائله، ليعمل بها، وليس له أن يثني عطفه، ويزعم أنه يستطيع أن يتعداه ويعمل الرأي والفكر. قال عبد الله بن مسعود: إذا سئل أحدكم فلينظر في كتاب الله، فإن لم يجد ففي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يجد فلينظر فيما اجتمع عليه المسلمون، وإلا فليجتهد)[166].

ثالثاً: وقد أنكر الإجماع النظام وبعض الشيعة وبعض المعتزلة[167]، ونقل عن أحمد إنكاره، وقد أجاب حول حجيته الإمام ابن تيمية، حيث قال: (من ادعى الإجماع في الأمور الخفية، بمعنى أنه يعلم عدم التنازع، فقد قفا ما ليس له به علم، وهؤلاء الذين أنكر عليهم أحمد، وأما من احتج بالإجماع بمعنى عدم العلم بالمنازع فقد اتبع سبيل الأئمة، وهذا هو الإجماع الذي كانوا يحتجون به)[168].

رابعاً: ونسف الإجماع هو هدم لركن من أركان الدين الحنيف، فإذا هدمت الدراسات القرآنية، والسنة النبوية، وإجماع الأمة، ماذا يبقى من الإسلام؟ هل يعقل أن المسلمين لم يتفقوا على شيء من أحكام دينهم أو يجمعوا عليه منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وحتى اليوم؟ وإذاً كيف استمر الدين، وتواصل الخلف مع السلف، إذا كانت هذه الأمة لا تجتمع على شيء؟! والأمة التي لا يجتمع فقهاؤها على شيء تستحق الموت، وليس البقاء إلى قيام الساعة!، إن شبهة عدم وجود الإجماع لا دليل عليها.

خامساً: ويمكن أن يتم الإجماع اليوم عن طريق اختيار النخبة من فقهاء المسلمين في العالم ليجتهدوا في أمر ما، ولا يشترط أن يوافقهم كل من لبس عمامة على وجه الأرض، أو حمل إجازة شرعية، فقرار الأكثرية

(165) – موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، سعدي أبو جيب، ص (21).

(166) – المرجع السابق، (19/1).

(167) – المرجع السابق، (28/1).

(168) – المرجع السابق، (29/1).

هو بمثابة الإجماع إذا تعذر جمع الكل، والدول اليوم تتخذ قراراتها التشريعية تحت قبة البرلمان بناء على رأي الأكثرية وليس على الإجماع، وفي الحديث: (اتبعوا السواد العظم)[169]، مما يعني أن الأكثرية غالباً ما تكون على حق.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

6-القياس هو ما يقوم على البراهين المادّية والبيّنات العلمية التي يقدّمها علماء الطبيعيات والاجتماع والإحصاء والاقتصاد... فهؤلاء هم المستشارون الحقيقيون للسلطة التشريعية والسياسية، وليس علماء الدين ومؤسّسات الإفتاء. وبواسطة هذه البيّنات المبنيّة على أسّس علمية يكون الاجتهاد في السماح والمنع لا في التحليل والتحريم".

تعقيب ومناقشة

أولاً: القياس في اصطلاح الأصوليين والفقهاء: (هو إلحاق معلوم بمعلوم في الحق الشرعي إثباتا أو نفيا للاشتراك في العلة)[170].

ثانياً: وقد رفض القياس النظام والقاساني والنهرواني وداود الظاهري وابن حزم، (وأثبته الجمهور وأكثر الفرق الإسلامية)[171]، (وقد استدل المانعون بآيات قرآنية بعيدة كل البعد عن الموضوع، منها قوله تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]. ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: 49]،﴿أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33]،﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: 36]، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: 36]، ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12]. والجواب أن الواقع أيام الصحابة حدثت فيه قضايا لم ينص عليها القرآن ولا السنة، مثل قضية الجد، والأخ، والعول، والمبتوتة، وقول الزوج أنت علي حرام،

---

(169) – ذكره البغوي في الحسان عن ابن عمر، انظر: مصابيح السنة، (40/1).

(170) – المصفى في أصول الفقه، أحمد الوزير، ص (325).

(171) – المرجع السابق، ص (326-327).

وقضى فيها الصحابة بحكم الله، معتمدين على الاستنباط من الكتاب والسنة، ولا تزال الحوادث تتجدد، ونجد لها استنباطا من القرآن والسنة، بطريق القياس والاجتهاد، فالتشريع الإسلامي قابل للتطور، وهذا الجمود على ظواهر الآيات لا يتفق مع جوهر التشريع الإسلامي)[172].

ثالثاً: وموقف الدكتور شحرور من القياس الشرعي لا يسانده أي دليل علمي، وحصره للقياس بما يقوم به "علماء الطبيعيات والاجتماع والإحصاء والاقتصاد" هو كلام إنشائي يعوزه الدليل والبرهان، والقياس في حقيقته محاكاة قضية لأخرى، وإلحاقها بها، والمحاكاة mimesis لا يمكن الاستغناء عنها أبدا، وهو أساس الأدب والدراسات الإنسانية، فالأدب كما عرفه أرسطو: هو محاكاة للواقع والطبيعة. والتربية للأطفال لا تكون إلا من طريق المحاكاة mimesis، والمسرح بحد ذاته محاكاة للواقع، فالمحاكاة mimesis لا غنى عنها إطلاقا، لا في العلوم ولا الفنون، وهي أساس فكرة القياس، مما يعني أن القياس لا يمكن الاستغناء عنه البتة، وهو إحدى أدوات التفكير الهامة، وأسلوب عظيم لاستنباط الأحكام، فالحوادث يشبه بعضها بعضا، ومن هنا قالوا: (لا جديد تحت الشمس).

رابعاً: حين أراد الله أن يعلم ابن آدم المعتدي على أخيه علمه عن طريق المحاكاة والقياس، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: 31].

***

ويضيف الدكتور شحرور:

7- إن توضيح الفرق بين التحريم والنهي والمنع وبين التحليل والأمر والسماح، ومعرفة الدور الإلهي ودور السلطة ودور الناس في كلّ منها، يظهر على ضوء أنّ المحرّمات الـ 14 لا تخضع للاجتهاد ولا للإجماع ولا للقياس، وفيها تتجلى الحاكمية الإلهية، والاستثناء الذي جاء فيها هو حصراً استثناء إلهي عيني، ورد في آية تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، ولا يمكن إسقاطه على بقيّة المحرمات تحت شعار "الضرورات تبيح المحظورات". بهذه الرؤية العقلانية للحلال والحرام وحدها نتمكن من إخراج الخطاب الإسلامي من حيّز المحلية إلى حيّز العالمية لبيان مصداقية الرسالة المحمّدية بأنها جاءت رحمة

(172) - المرجع السابق، ص (325).

للعالمين، ولا يحقّ لأحد (مفتٍ – مجلس إفتاء – برلمان – استفتاء) أن يزيد عدد المحرّمات الـ14 الواردة في التنزيل الحكيم. ومن يقُلْ بذلك يكُن قد تقوّل على الله بغير علم لقوله تعالى :(وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (البقرة 169)، علماً بأنّ التقوّل على الله هو إضافة محرّم إلى محرّماته أو تحليل أحد محرّماته وهو أصلاً من المحرّمات الـ14 الواردة في كتاب الله. ونحن نرى أنّ هذا هو الحلّ الوحيد لخروج الخطاب الإسلامي في مجتمعاتنا من إطار الظرفية الزمانية والمكانية (شبه جزيرة العرب في القرن السابع ميلادي) إلى العالمية والأبدية، أي صلاحيّته كدين إنساني وحيد ارتضاه الله عزّ وجلّ للناس جميعاً في كلّ زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "إن توضيح الفرق بين التحريم والنهي والمنع وبين التحليل والأمر والسماح، ومعرفة الدور الإلهي ودور السلطة ودور الناس في كلّ منها، يظهر على ضوء أنّ المحرّمات الـ 14 لا تخضع للاجتهاد ولا للإجماع ولا للقياس، وفيها تتجلى الحاكمية الإلهية".

إن حصر المحرمات بـ (14) كلام غير صحيح إطلاقاً، ينم عن جهل تام بالدين الحنيف واللغة العربية، فالمحرمات كل ما نهى الله عنه ورسوله، بواسطة أساليب النهي، عبر التحريم المباشر أو غير مباشر، بصيغة (لا تفعل) أو غيرها، مثل (حُرِّمتْ).

ويأتي التحريم بأساليب الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]. وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: 30]. وكقول النبي صلى الله عليه وسلم: (اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، و قذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[173]، فالمذكورات في الحديث كلها محرمات.

(173) – رواه الشيخان وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير، (1/153).

أو أساليب التحذير، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25]. وكقول النبي صلى الله عليه وسلم: (اتق المحارم تكن أعبد الناس)[174].

أو من خلال أساليب الخبر، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: 57]. وكقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لعن الله الخمر، وشاربَها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكلَ ثمنها)[175]. فنحن نعلم من لَعْنِ المذكورين في الحديث حرمة الشرب والسقي والبيع ...إلخ.

ثانياً: ومن ظن أن التحريم لا يكون إلا بصيغة (حُرِّمَتْ) فهو جاهل بلغة العرب، وتعدد أساليبها البيانية، وطرائق التعبير فيها. يقول ابن جني: تحت عنوان: (باب في إيراد المعنى المراد بغير اللفظ المعتاد): (اعلم أن هذا موضع قد استعملته العرب واتبعتها فيه العلماء. والسبب في هذا الاتساع أن المعنى المراد مفاد من الموضعين جميعًا، فلمّا آذنًا به وأديا إليه سامحوا أنفسهم في العبارة عنه؛ إذ المعاني عندهم أشرف من الألفاظ، وسنفرد لذلك بابًا ... وهذا ونحوه - عندنا هو الذي أدّى إلينا أشعارهم وحكاياتهم بألفاظ مختلفة، على معانٍ متفقة. وكان أحدهم إذا أورد المعنى المقصود بغير لفظه المعهود كأنه لم يأت إلا به، "ولا عدل" عنه إلى غيره؛ إذ الغرض فيهما واحد, وكل واحد منهما لصاحبه مرافد. وكان أبو علي - رحمه الله - إذا عبر عن معنى بلفظ ما فلم يفهمه القارئ عليه، وأعاد ذلك المعنى عينه بلفظ غيره ففهمه يقول :هذا إذا رأى ابنه في قميص أحمر عرفه، فإن رآه في قميص كحلي لم يعرف ... إذا جاز أن يكون في أصول هذه اللغة المقررة اختلاف اللفظين والمعنى واحد، كان جميع ما نحن فيه جائزًا سائغًا ومأنوسًا به متقبلاً)[176].

ثالثاً: وقد بلغ مجموع الكبائر المحرمة في الكتاب والسنة (76) كبيرة، وذلك حسب إحصاء الإمام الذهبي لها في كتابه الكبائر[177]، وهذا سرد لها:

---

(174) - من حديث رواه رواه أحمد والترمذي والبيهقي عن أبي هريرة، انظر: المصدر السابق، (1/124-125).

(175) - رواه أبو داود والحاكم عن ابن عمر. انظر: المصدر السابق، (5/267).

(176) - الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، (2/468- 471).

(177) - انظر: كتاب الكبائر، للذهبي، علق عليه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ص(663-669)، مكتبة الفرقان، عجمان، الطبعة الثانية، 1424هـ/ 2003م.

الكبيرة الأولى: الشرك بالله تعالى

الكبيرة الثانية: قتل النفس

الكبيرة الثالثة: السحر

الكبيرة الرابعة: ترك الصلاة

الكبيرة الخامسة: منع الزكاة

الكبيرة السادسة: عقوق الوالدين

الكبيرة السابعة: أكل الربا

الكبيرة الثامنة: أكل مال اليتيم ظلما

الكبيرة التاسعة: الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم

الكبيرة العاشرة: إفطار رمضان بلا عذر ولا رخصة

الكبيرة الحادية عشرة: الفرار من الزحف

الكبيرة الثانية عشرة: الزنا وبعضه أكبر إثما من بعض

الكبيرة الثالثة عشرة: الإمام الغاش لرعيته الظالم الجبار

الكبيرة الرابعة عشرة: شرب الخمر وإن لم يسكر منه

الكبيرة الخامسة عشرة: الكبر والفخر والخيلاء والعجب والتيه

الكبيرة السادسة عشرة: شهادة الزور

الكبيرة السابعة عشرة: اللواط

الكبيرة الثامنة عشرة: قذف المحصنات

الكبيرة التاسعة عشرة: الغلول من الغنيمة ومن بيت المال والزكاة

الكبيرة العشرون: الظلم بأخذ أموال الناس بالباطل

الكبيرة الحادية والعشرون: السرقة

الكبيرة الثانية والعشرون: قطع الطريق

الكبيرة الثالثة والعشرون: اليمين الغموس

الكبيرة الرابعة والعشرون: الكذاب في أغلب أقوله

الكبيرة الخامسة والعشرون: قاتل نفسه وهي من أعظم الكبائر

الكبيرة السادسة والعشرون: القاضي السوء

الكبيرة السابعة والعشرون: القواد المستحسن على أهله

الكبيرة الثامنة والعشرون: الرجلة من النساء والمخنث من الرجال

الكبيرة التاسعة والعشرون: المحلل والمحلل له

الكبيرة الثلاثون: أكل الميتة والدم ولحم الخنزير

الكبيرة الحادية والثلاثون: عدم التنزه من البول وهو شعار النصارى

الكبيرة الثانية والثلاثون: المكاس

الكبيرة الثالثة والثلاثون: الرياء

الكبيرة الرابعة والثلاثون: الخيانة

الكبيرة الخامسة والثلاثون: التعلم للدنيا وكتمان العلم

الكبيرة السادسة والثلاثون: المنان

الكبيرة السابعة والثلاثون: المكذب بالقدر

الكبيرة الثامنة والثلاثون: المتسمع على الناس ما يسرونه

الكبيرة التاسعة والثلاثون: اللعان

الكبيرة الأربعون: الغادر بأميره وغير ذلك

الكبيرة الحادية والأربعون: تصديق الكاهن والمنجم

الكبيرة الثانية والأربعون: نشوز المرأة

الكبيرة الثالثة والأربعون: قاطع الرحم

الكبيرة الرابعة والأربعون: المصور في الثياب والحيطان ونحو ذلك

الكبيرة الخامسة والأربعون: النمام

الكبيرة السادسة والأربعون: النياحة واللطم

الكبيرة السابعة والأربعون: الطعن في الأنساب

الكبيرة الثامنة والأربعون: البغي

الكبيرة التاسعة والأربعون: الخروج بالسيف والتكفير بالكبائر

الكبيرة الخمسون: أذية المسلمين وشتمهم

الكبيرة الحادية والخمسون: أذية أولياء الله ومعاداتهم

الكبيرة الثانية والخمسون: إسبال الإزار تعززا ونحوه

الكبيرة الثالثة والخمسون: لباس الحرير والذهب للرجل

الكبيرة الرابعة والخمسون: العبد الآبق ونحوه

الكبيرة الخامسة والخمسون: من ذبح لغير الله

الكبيرة السادسة والخمسون: من غير منار الأرض

الكبيرة السابعة والخمسون: سب أكابر الصحابة

الكبيرة الثامنة والخمسون: سب الأنصار بالجملة

الكبيرة التاسعة والخمسون: من دعا إلى ضلالة أو سن سنة سيئة

الكبيرة الستون: الواصلة في شعرها والمتفلجة والواشمة

الكبيرة الحادية والستون: من أشار إلى أخيه بحديدة

الكبيرة الثانية والستون: من أدعى إلى غير أبيه

الكبيرة الثالثة والستون: الطيرة

الكبيرة الرابعة والستون: الشرب في الذهب والفضة

الكبيرة الخامسة والستون: الجدال والمراء واللدد ووكلاء القضاء

الكبيرة السادسة والستون: فيمن خصى عبده أو جدعه أو عذبه ظلما أو بغيا

الكبيرة السابعة والستون: المطفف في وزنه وكيله

الكبيرة الثامنة والستون: الأمن من مكر الله

الكبيرة التاسعة والستون: الإياس من روح الله والقنوط

الكبيرة السبعون: كفران نعمة المحسن

الكبيرة الحادية والسبعون: منع فضل الماء

الكبيرة الثانية والسبعون: من وسم دابة في الوجه

الكبيرة الثالثة والسبعون: القمار

الكبيرة الرابعة والسبعون: الإلحاد في الحرم

الكبيرة الخامسة والسبعون: تارك الجمعة ليصلي وحده

الكبيرة السادسة والسبعون: من جس على المسلمين ودل على عوراتهم

فمن اختصر المحرمات بـ (14) وأنكر بأن هنالك محرمات أخرى في الكتاب والسنة غيرها، فإنما يدفع المسلمين دفعاً للوقع في الكبائر واقتحام جهنم والعياذ بالله تعالى!

رابعاً: قوله: "علماً بأنّ التقوّل على الله هو إضافة محرّم إلى محرّماته أو تحليل أحد محرّماته وهو أصلاً من المحرّمات الـ14 الواردة في كتاب الله".

إن حصر المحرمات بـ (14) ناجم عن منهج جزئي، فهو قد أخذ آيتين من القرآن فيهما (14) شيئاً من المحرمات، وترك بقية الآيات التي تدل على تحريم أشياء كثيرة من كبائر الذنوب، ذكرتها آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، **وهذا استقراء ناقص ومنهج باطل.**

كما أنه لا يفهم التحريم إلا بصيغة (حرمت)، وهذا جور في المنهج، وسوء فهم لأساليب النهي والمنع في اللغة العربية، فقد قبل صيغة ورفض بقية الصيغ، وكأنه بهذا يجتزئ من أساليب العربية ما يحلو له فيقبله، ولا يعلم أن اللغة لها قوانينها وأحكامها ونظمها التي ينقاد لها جميع الناطقين بها، فهم يتبعونها حتى يكونون جديرين بالانتساب إليها وليس العكس.

خامساً: قوله: "ونحن نرى أنّ هذا هو الحلّ الوحيد لخروج الخطاب الإسلامي في مجتمعاتنا من إطار الظرفية الزمانية والمكانية (شبه جزيرة العرب في القرن السابع ميلادي) إلى العالمية والأبدية". نقول: إن الشريعة الإسلامية خرجت من جزيرة العرب إلى العالمية من أول يوم بدأت به، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. وقد وصلت إلى الأندلس غرباً، والصين شرقاً، وروسيا شمالاً، وجنوب أفريقيا جنوباً، والمسلمون اليوم موجودون في كل مدينة وقرية في هذا العالم، ولا يحتاج خطابهم الإسلامي الأصيل إلى من يبهرجه ويزيفه، ليخرجه إلى العالم من جديد خطاباً مبتوراً مشوهاً للخطاب الأم الصحيح، الخطاب الذي كان في خير القرون، وسيبقى إلى قيام الساعة. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: 9].

***

ويضيف الدكتور شحرور:

8- ضرورة فهم اجتهادات النبي (ص) في عصره على أنّها اجتهادات إنسانية وليست وحياً، وهي تدور في حقل تقييد الحلال وإطلاقه فقط، لأنّ الأساس في الحياة هو الإباحة، لأنّ كلّ حرام مرفوض لكن ليس كلّ حلال مقبولاً لأنه يخضع للعرف والقانون. فالتشريع الإنساني عبارة عن تنظيم الحلال وتقييده حسب الأعراف والتقاليد، وقد مارس (ص) كلّ اجتهاداته الشخصية كوليّ أمر أي مُشرع لمجتمعه لبناء مجتمع مدني (المدينة المنوّرة) ودولة ضمن ظرف تاريخي معيّن يخضع لمتغيّرات الزمان والمكان (تاريخياً وجغرافياً وفكرياً). هذا الفهم لاجتهادات النبي (ص) هو تطبيق صحيح لما سمّاه علماء الأصول مبدأ "الأحكام تتغيّر بتغيّر الأزمان"، وهو مبدأ ينطبق على كلّ الاجتهادات الإنسانية بما فيها اجتهاداته (ص) في مهمّة تنظيمه لمجتمعه في المدينة، فهي اجتهادات ينطبق عليها قوله تعالى :(...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...) (الحشر 7)، فقوله "ما آتاكم" تعني ما صدر منه من تشريعات إنسانية قابلة للنسخ تلزم فيها طاعة الرسول طاعة منفصلة أي كوليّ أمر بمعنى في حياته فقط من أفراد مجتمعه، **وكون النبي (ص) قائداً أعلى من مقام النبوّة** فلم تأت أيّ آية فيها: "أطيعوا النبيّ"، بل كلّ آيات الطاعة فيها: (أَطِيعُوا الرَّسُولَ) لبيان أنّ الطاعة تكون للقانون لا للأشخاص. وولاة الأمور هم المشرعون في أيّ مجتمع، والطاعة لا تكون لأشخاصهم ولا لمالك السلاح بل تكون للقانون الذي يمثّلون في حياتهم فقط، علماً بأنّ السلطة التشريعية لا تملك أداة الإكراه.

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "ضرورة فهم اجتهادات النبي (ص) في عصره على أنّها اجتهادات إنسانية وليست وحياً، وهي تدور في حقل تقييد الحلال وإطلاقه فقط". هذه مقدمة لإنكار للسنة النبوية الشريفة، كما سيأتي.

ثانياً: قوله: "فقوله "ما آتاكم" تعني ما صدر منه من تشريعات ... لبيان أنّ الطاعة تكون للقانون لا للأشخاص". هذا كلام مرفوض، فالسنة لا تتجزأ، وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم هي طاعة الرسول، وطاعة محمد هي طاعة الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 157-158]. وهذه الآية دليل دامغ على أن الرسالة والنبوة والأمية كلها مندمجة مع بعضها في شخص النبي صلى الله عليه وسلم، لا تنفك عن بعضها ولا تتجزأ، وأن طاعته واجبة على الأمة، وأن هذا التفريق البارد الذي اخترعه الدكتور شحرور من تلقاء نفسه لا مصداقية له، وهو يريد أن يصد الناس عن اتباع نبيهم صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: ومما ينقض كلام الدكتور شحرور برمته أن كثيراً من الآيات خاطبت النبي. صلى الله عليه وسلم. بعبارة (يا أيها النبي) وطلبت منه التبليغ والدعوة، ولو كان في كلامه أدنى مصداقية في التفريق بين لفظ النبي ولفظ الرسول. وفق فهمه لها. لاقتضى الحال وجوب أن يخاطب بـ (يا أيها الرسول) في كل أمر يتصل بالدعوة، وهذه نماذج مما ورد في الذكر الحكيم تؤكد ما نقول:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: 70].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِرا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 12].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: 1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: 9].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58]. والمذكورون هم رسل، فقد يطلق لفظ النبي ويراد به الرسول.

رابعاً: كدأبه في الغض من مقام النبوة قال الدكتور شحرور: "**وكون النبي (ص) قائداً أعلى من مقام النبوّة**".

وهذا كلام باطل، فهو يريد أن يضع مقام الرئاسة فوق النبوة، وهو يشبه كلام ابن عربي الذي رفع مقام الأولياء فوق مقام الرسل والأنبياء حين قال:

مقــام النبوة في برزخ

فويق الرسول ودون الولي

خامساً: قوله: "وولاة الأمور هم المشرعون في أيّ مجتمع، والطاعة لا تكون لأشخاصهم ولا لمالك السلاح بل تكون للقانون الذي يمثّلونه في حياتهم فقط".

معلوم أن الحاكم لا يشرع وإنما هو سلطة تنفيذية، وإنما الذي يشرع هو مجلس الشعب أو البرلمان، ولا يجوز أن يكون الحاكم هو المشرع والمنفذ في آن واحد، لأن هذا ينفي الشفافية، ويقتضي أن يكون تشريعه

في خدمة مصلحته، لا مصلحة الشعب والوطن. وينبغي أن يكون تشريعه في الأمور الدنيوية ولا يمس الأمور الدينية التي شرعها الله لعباده من حلال وحرام، فيبدل فيها بحسب مزاجه.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

9- هناك سنّتان للرسول (ص): سنّة رسولية وسنّة نبوية، وهما مختلفتان تماماً إحداهما عن الأخرى. فأمّا السنّة الرسولية فهي ما ثبت عنه (ص) من رسالة إلهية موحاة إليه وموجودة في المصحف حصراً ونجدها في آيات الرسالة وهي أمّ الكتاب وتفصيلها (الآيات المحكمات وتفصيلها)، وهي من عند الله مباشرة. وقد قام الرسول (ص) بمهمّة تبليغها فقط لقوله تعالى :(مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) (المائدة 99)، وهي التي تجب طاعته فيها طاعة متّصلة من قبل أتباعه من أمّته في حياته (ص) وبعد مماته. أمّا السنة النبوية فتتمثّل فيما ثبت عنه (ص) من أقوال وأفعال جاءت فيها اجتهاداته (ص) لتنظيم مجتمعه سياسيّاً واجتماعيّاً وفق الأعراف التي كانت سائدة يومها، وتمثل هذه الاجتهادات القانون المدني الذي وضعه (ص) لمجتمعه. وهي اجتهادات إنسانية ظرفية ولا تحمل الطابع الأبدي، لهذا جاءت طاعته فيها (ص) طاعة منفصلة أي كوليّ أمر وبالتالي واجبة على من عاصره من أفراد مجتمعه فقط، لأنّ طاعته فيها جاءت مرتبطة بطاعته فيما أتاهم من عنده من تشريعات في قوله تعالى :(... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...) (الحشر 7)، أي في ما سنّ لهم من قوانين باعتباره مشرعاً لمجتمعه، وهي أوّل اجتهاد إنساني في نصوص الرسالة الإلهية الخاتمة، وأوّل اجتهاد واجب نسخه لأنّه متجاوز زمانياً ومعرفياً".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: هناك سنّتان للرسول (ص): سنّة رسولية وسنّة نبوية، ... ونجدها في آيات الرسالة". هذا الكلام من اختراعه، ولا يوجد إلا سنة واحدة يجب اتباعها. وعليه أن يثبت كلامه بالدليل وليس بالادعاء، فكلامه هذا لا يؤيده نص، ولا قول واحد من السلف ولا الخلف، وليس له دليل في اللغة أو التاريخ أو الواقع، ولم ينبع عن استقراء صحيح، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ

رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 40]. فلو كان مقام النبوة غير الرسالة بمفهوم الدكتور شحرور لجاز القول بختم النبوة دون الرسالة، فالآية قالت (وخاتم النبيين) ولم تقل خاتم الرسل، وهذا الكلام مرفوض لأن هنالك إجماع أنه خاتم الأنبياء والرسل، ودائرة الأنبياء تضم دائرة الرسل، فطالما أنه ختم النبيين فقد ختم الرسل، ولا تفريق في سنته بين كونه رسولاً أو نبياً، فينبغي اتباعه في الحالتين، وكثيراً ما كان يخاطب بوصف النبوة ويلقى عليه مهمات الرسالة كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشرا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45]. فهو صلى الله عليه وسلم نبي رسول يجب اتباعه في الحالتين فيما أمر به، أو نهى عنه.

ثانياً: هذا هو تعريف السنة عند المحدثين: "ما أُثِرَ عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من قولٍ، أو فِعْلٍ، أو تقريرٍ، أو صِفةٍ خَلْقِيَّةٍ، أو سِيرةٍ سواء كان قبل البعثة أو بعدها"[178].

وفي اصطلاح الأصوليين: ما نقل عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من قولٍ أو فِعلٍ أو تقريرٍ"[179].

ثالثاً: قوله: "أمّا السنة النبوية فتتمثّل فيما ثبت عنه (ص) من أقوال وأفعال جاءت فيها اجتهاداته (ص) لتنظيم مجتمعه سياسيّاً واجتماعيّاً وفق الأعراف التي كانت سائدة يومها، وتمثل هذه الاجتهادات القانون المدني الذي وضعه (ص) لمجتمعه. وهي اجتهادات إنسانية ظرفية ولا تحمل الطابع الأبدي، لهذا جاءت طاعته فيها (ص) طاعة منفصلة أي كوليّ أمر وبالتالي واجبة على من عاصره من أفراد مجتمعه فقط".

هذا الكلام غير مستقيم علمياً، فالرسول الكريم إنما يبلغ عن ربه كرسول أو نبي لا فرق في الحالتين، وعندما نقول نبي: فهذا يعني استقبال الوحي، وعندما نقول رسول فهذا يعني استقبال الوحي وتبليغه، وقد تحل إحدى الكلمتين مكان الأخرى بحسب ما يقتضيه السياق، وكل وحي نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب اتباعه والاسترشاد به قدر الاستطاعة إلى قيام الساعة، وكل كلام غير هذا لغو لا طائل فيه.

(178) - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص(65)، المكتب الإسلامي.

(179) - المرجع السابق في الموضع نفسه.

رابعاً: ولقد حذرت الآيات الكريمة من الشقاق ومغبة عدم الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 13].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: 92].

وقال تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: 13].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ، إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: 2-3]. فغض الأصوات عند النبي صلى الله عليه وسلم هو علامة الإيمان، ورفع الأصوات عند الرسول صلى الله عليه وسلم محبط للعمل، واستعمال القرآن الكريم لوصف النبي صلى الله عليه وسلم صفة الرسالة والنبوة في مكان واحد يدل على أن محمداً يجب التعمل معه واحترامه وطاعته في الحالتين، وعدم التفريق بين كونه رسولاً أو نبياً، ففي الحالتين هو هو، فغض الصوت مطلوب في الحالتين، والتلقي عنه واجب في الحالتين، إنه محمد النبي الأمي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: 2].

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 29].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا، الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا، مَا

كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: 38-40].

فقد يقتضي الخطاب أن يخاطب بلفظ النبوة أحياناً، وقد يقتضي أن يخاطب بلفظ الرسالة، وقد يجمع له لفظ النبوة والرسالة في كلام واحد، لا فرق في هذا كله، وهو في حالاته كله سيد ونور وسراج ومعصوم، يجب اتباع سنته الشريفة في المنشط والمكره من المهد إلى اللحد صلى الله عليه وسلم، ولا ينبغي اختيار بعضها ونبذ بعضها الآخر، فهذا منهج بائس في التلاعب بالدين الحنيف، والله حافظ دينه مهما بلغ دهاء المخادعين ومكر الماكرين!

خامساً: سبق أن ذكرنا بأن دائرة النبوة تشتمل على دائرة الرسالة، فأي وصف للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنبوة هو يقيناً يعني وصفه بالرسالة، وأي وصف له بالرسالة يعني يقيناً وصفه بالنبوة، وأي وصف له بالعبودية يعني وصفه بالرسالة والنبوة والولاية، ولذلك لا فرق في شأن سنته في تلك الحالات، **فسنته كنبي هي نفسها سنته كرسول، والعكس صحيح،** لا فرق بينهما ألبتة، ومن يرفض ذلك فقد رفض أبسط مبادئ التفكير السوي والعقل السليم، ونعيد صورة الشكل مرة أخرى.

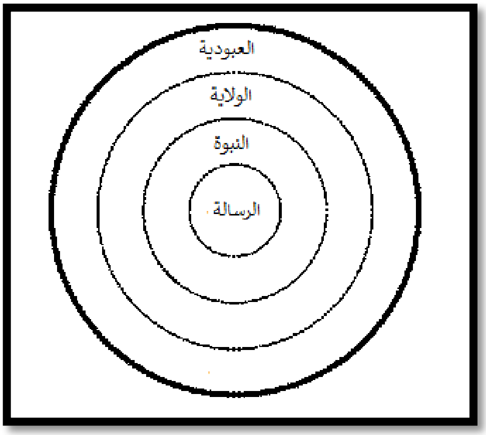

إن أي عنصر يكون في الدائرة التي في المركز (الرسالة) يكون موجوداً في بقية الدوائر تلقائياً، ولا ينعكس. فعندما يخاطب الرسول من ربه ـ سبحانه ـ بالرسالة؛ فقد خوطب بوصفه رسولاً نبياً ولياً عابداً، وإذا خوطب الرسول بالنبوة؛ فقد خوطب بوصفه نبياً رسولاً ولياً عابداً، ولا تنفك هذه الأوصاف عنه أوصافه هذه أبداً، وإنما يستعمل في الخطاب لفظ النبوة مرة، ولفظ الرسالة مرة أخرى، وذلك بما يناسب

السياق ويراعي مقتضى الحال، ولا فرق في سنته في حالاته كلها، ولذلك كان تعريف المحدثين للسنة . والذي ذكرناه آنفاً.هو التعريف الأدق والأشمل من كل تعريف آخر.

وبهذا ندرك سبب جمع الله تعالى وصف النبوة والرسالة لبعض رسله، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 54]. وقال تعالى: .﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 51]. فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، وإذا كان الشخص الواحد نبياً ورسولاً فلا يمكن في هذه الحالة فصل سنته النبوية عن سنته الرسولية أبداً، وذلك لاتحادهما التام وتطابقهما التام.

***

ويضيف الدكتور شحرور:

10- السنّة النبوية هي بمثابة الاجتهاد الإنساني الأول في عملية التفاعل مع الرسالة الإلهية المطلقة، وهو اجتهاد يقتصر على الأمر والنهي فقط ولا يتجاوزهما إلى التحريم إطلاقاً. وقد اجتهد النبي (ص) لتنظيم المجتمع النبوي في المدينة المنوّرة، وهو أول رسول توكل له مهمّة الاجتهاد لأنه أول رسول يقوم بتنظيم مجتمع مدني انطلاقاً من اجتهاداته الإنسانية كقائد أعلى، لذا فإن اجتهاداته ليست وحياً. وكان ذلك إيذاناً ببداية التشريع المدني الإنساني في ظلّ عصر ما بعد الرسالات، لكنّ هذا الاجتهاد ليس الاجتهاد الإنساني الأخير وليس الوحيد في عملية التفاعل مع الرسالة الإلهية، بل هو التنظيم الأول للواقع المعيش في شبه جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي على ضوء ظروف ذلك الزمان ومعطياته. والنبي (ص) تعامل مع التنزيل الحكيم من خلال السيرورة والصيرورة التاريخية البحتة للعرب في شبه جزيرتهم، أي في حدود التاريخ والجغرافيا يومها، ضمن مستواهم الاجتماعي والمعرفي، وضمن الإشكاليات التي كانت مطروحة أمامه، بحيث أسّس دولة مركزية، وحقق بذلك قفزة نوعية وقتها. وكان المرآة الصادقة الأولى لتفاعل التنزيل ككينونة في ذاته مع حقبة تاريخية زمنية معيّنة، ومجتمع معيّن قائم على أرض الواقع الإنساني الموضوعي المباشر. فالنبي (ص) لم يكن فيلسوفاً ولا رجل فكر، بل كان رجل دعوة جاءه الفكر الموحى من المطلق وطبّقه هو في عالم نسبي محدود زمانياً ومكانياً بواسطة الاجتهاد فيه. بحيث كان المجتهد الأول في تعامله مع الفكر المطلق الموحى إليه وصاغ اجتهاده في قالب تطبيقي بوضع قانون مدني لمجتمعه وفق

سيرورة وصيرورة تاريخية تحكم وجوده ووجود مجتمعه. ونحن على اقتناع بأنّ تطبيق النبي (ص) لآيات الأحكام جاء بمراعاة الواقع الذي كان يعيش فيه وهو تطبيق نسبي تاريخي، ما يدفعنا إلى إبطال القياس الذي وضعه الفقهاء في القرن السابع الميلادي، لأنّه لا يمكن قياس شاهد على غائب لاختلاف معطيات وظروف كلّ واحد منهما من الناحية الموضوعية ومن ناحية اختلاف المستوى المعرفي. فالرسالة الإلهية جاءت خاتمة تحمل بين جنباتها المحكم (أمّ الكتاب) وتفصيلها الذي يُجتهَد في حقله لاستيعابه لكل الاجتهادات الإنسانية على مرّ العصور. ولذا فإنّ المبدأ الأهم في ممارسة عملية الاجتهاد هو الاعتماد على العقل باستعمال المنطق الواقعي حتى تظهر مصداقية أيّ اجتهاد إنساني في الواقع الموضوعي، ضمن النظام المعرفي المتّبع والإشكالية الموضوعية التي يواجهها، من خلال تقديم الأدلة والبيّنات على مطابقة (مصداقية) الاجتهاد في النصّ مع الواقع الموضوعي المباشر (الإشكالية) ضمن رابط بينهما هو النظام المعرفي المتبع".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "السنّة النبوية هي بمثابة الاجتهاد الإنساني الأول في عملية التفاعل مع الرسالة الإلهية المطلقة، وهو اجتهاد يقتصر على الأمر والنهي فقط ولا يتجاوزهما إلى التحريم إطلاقا".

هذا الكلام غير سليم، وهو غلط بالمطلق، فالنهي يشمل التحريم والكراهة، وهو مقابل للأمر في البلاغة، في قسم الإنشاء الطلبي، والرسول صلى الله عليه وسلم له أن يحلل أو يحرم، وليس هذا الحق لغيره، قال تعالى: (﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: 116].

ثانياً: وقد أسند الله تعالى إلى رسوله ونبيه محمد. صلى الله عليه وسلم. ست مهمات، هي: 1- الأمر بالمعروف، 2- النهي عن المنكر، 3- ويحل الطيبات، 4- ويحرم الخبائث، 5- ويضع عن الناس الإصر، 6- ويضع الأغلال أيضاً، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]. لا حظ في الآية إسناد هذه الأفعال كلها إلى الرسول النبي

مباشرة، فهو الفاعل لها حقيقة لا مجازاً بأمره تعالى، وتخصيص المحرمات بما ورد في القرآن فقط لا وجه له، لأنه تخصيص بغير مخصص، ولو أنه لا يحرم إلا ما ورد في القرآن فقط، لاقتضى أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحلال الطيبات، ووضع الإصر، ووضع الأغلال أيضاً، لاقتضى أن يكون ذلك كله خاصاً بما ورد في القرآن الكريم فقط، وعليه فكل الآداب والقيم والأخلاق والتشريعات التي في السنة مما لم يرد في القرآن الكريم لا قيمة لها، وهذا يؤدي إلى تقزيم الرسالة وبترها، لأن الرسالة كالجسد الواحد، الرأس هو القرآن، وهو أشرف الأجزاء، والجذع والأطراف هي السنة، وفصل الرأس عن الجذع هو قتل للجسد كله.

ثالثاً: ووظيفة التحليل والتحريم ليست منوطة بالرسول صلى الله عليه وسلم وحده، بل هي وظيفة كل رسول في قومه، قال تعالى على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: 50]. وهذ1ا يعقوب عليه السلام يحرم على نفسه أشياء فتصبح حراماً على ذريته، قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 93].

رابعاً: والمحرمات قسمان: قسم ذكره الله تعالى في كتابه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 151-153].

والقسم الثاني ما حرمه الرسول. صلى الله عليه وسلم. وهو موجود مفصل في كتب السنة، وقد سبق ذكر حديث المقدام بن معد يكرب -رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، وإن ما حرم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما

حرم الله ; ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ، ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم ، فعليهم أن يقروه ، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه).

رواه أبو داود ، وروى الدارمي نحوه ، وكذا ابن ماجه إلى قوله : (كما حرم الله)(180).

خامساً: قوله: "لذا فإن اجتهاداته ليست وحياً. وكان ذلك إيذاناً ببداية التشريع المدني الإنساني في ظلّ عصر ما بعد الرسالات". هذا الكلام خلط عجيب، فالرسول صلى الله عليه وسلم اجتهد في بعض الأمور كموضوع أسرى بدر، وكان الوحي ينزل إما مؤيداً لما قام به، أو مسدداً ومقوماً وموجهاً للصواب والأفضل. وليست سنته كلها أو جلها اجتهاداً منه فهذا بهتان.

سادساً: قوله: "لكنّ هذا الاجتهاد ليس الاجتهاد الإنساني الأخير وليس الوحيد في عملية التفاعل مع الرسالة الإلهية".

هذا كلام خطير، يلغي السنة، وذلك بجعلها اجتهاداً جاء في مرحلة تاريخية لتفسير القرآن، ويمهد لجعل المجتهدين فيما بعد في مرتبة الرسول صلى الله عليه وسلم طالما أنهم يفسرون القرآن وفق عصورهم كما فسر الرسول القرآن وفق عصره، وكأن شريعة الله مجموعة ألغاز وطلاسم وشيفرات سرية تحتاج في كل عصر إلى من يفككها، ويحل لغزها ويبينها للناس، وهذا غلط، ويتناقض مع ما جاء في التنزيل الحكيم من وصف الشريعة بالبيان والوضوح والنور والهدى الذي يراه كل ذي عينين، ولا يحتاج إلى واسطة تحل له طلاسم الكتاب وتفك رموزه، فالقرآن لا طلاسم فيه ولا رموز، وشريعتنا واضحة مستقيمة مشرقة كالشمس، ولا نحتاج إلى طبقة جديدة من الكتاب والباحثين تتسلل إلى القرآن بدراسات متناقضة مع نفسها، ومناقضة للشريعة ذاتها، ولفهم السلف الصالح، بحجة جعل الشريعة ملائمة لزماننا، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: 9]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 257].

سابعاً: قوله: "ونحن على اقتناع بأنّ تطبيق النبي (ص) لآيات الأحكام جاء بمراعاة الواقع الذي كان يعيش فيه وهو تطبيق نسبي تاريخي، ما يدفعنا إلى إبطال القياس الذي وضعه الفقهاء في القرن السابع الميلادي، لأنّه لا يمكن قياس شاهد على غائب".

(180) - قال العلامة الألباني: إسناده صحيح. انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، تحقيق الألباني، (1/59-60).

يُقال له: لك أن تقتنع بما تريد، فحيث لا إكراه في الدين فمن باب أولى لا إكراه في الفكر والاعتقاد، ولا البحث والاجتهاد، كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256].

ولكننا نعتقد أن تطبيق النبي . صلى الله عليه وسلم . لآيات الأحكام هو التطبيق الصحيح الشامل السوي الكامل، وعلى من أراد السلامة اتباعه في كل شيء من أمور دينه ودنياه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

وإبطال للقياس إبطال لوظيفة من أهم وظائف العقل، فالعقل يدرك بالقياس كثيراً من الأحكام الصحيحة والمزيفة، ويدرك سنن التاريخ وواقع الحياة، وخير الخيرين، وشر الشرين، إلخ.

حتى أساليب البيان من التشبيه والاستعارة فيها معنى من القياس، فأنت حين تقول زيد كالأسد، إنما تريد أن تشبهه بالأسد، فهذا يعني أنه بلغ من الشجاعة حداً يفوق شجاعة أقرانه، حتى إنه يمكن أن تقاس شجاعته بشجاعة الأسد وتلحق به.

وعليه فلا يلغي القياس من دراسة الشريعة من كان له معرفة بحقيقة الشريعة، وفلسفة العلوم، وطبيعة الحياة، ومقتضياتها.

ثامناً: قوله: "ولذا فإنّ المبدأ الأهم في ممارسة عملية الاجتهاد هو الاعتماد على العقل باستعمال المنطق الواقعي حتى تظهر مصداقية أيّ اجتهاد إنساني في الواقع الموضوعي".

نقول: لا يوجد واقع واحد، بل في كل قرية ومدينة ودولة وقارة في هذا العالم واقع مختلف ومغاير لغيره، وفي كل زمان واقع مغاير لزمان آخر، فعليه الواقع هو مثل الزئبق، لا يستقر أبداً، ولا يمكن لشريعة الله أن توافق هذا الواقع إلا أن تكون ثابتة وصلبة، وإلا غابت معالمها لو كانت متحركة وسائلة عند اختلاطها بالزئبق الذي هو الواقع!

***

ويضيف الدكتور شحرور:

11- لقد أنزل الله سبحانه وتعالى الذكر بصيغته المنطوقة، ليبلّغ الرسول (ص) للناس ما أنزل إليه من ربّه :(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ

إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (المائدة 67). أمّا البيان الذي جاء في قوله تعالى :(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (إبراهيم 4)، فليس المقصود منه التفصيل كما فهمه البعض واسترسل البعض الآخر فيه حتى وصل إلى القول بحاكمية الخبر النبوي على نصّ التنزيل الحكيم ونسخه له، انتهاءً بأخطر نتيجة قد يصل إليها عقل هؤلاء، تتمثّل في أنَّ القرآن أحوج إلى السنّة من حاجة السنّة إلى القرآن، سبحانه وتعالى عمّا يصفون. وإنّما المقصود بالبيان هو الإعلان وعدم الإخفاء، فالرسول (ص) جاء مبلّغاً للوحي وليست له أي علاقة بالصياغة اللفظية للتنزيل الحكيم كذكر (الإنزال) بل تنزَّل عليه مصوغاً جاهزاً (التنزيل)، كما لا علاقة له بمضمون ما تنزّل عليه من محرّمات وأوامر ونواهٍ. وبالتالي فنحن أمام نصّ إلهي موحى، صاغه الله تعالى بشكله المنطوق، فتنزلت هذه الصياغة على النبي، وتحدّدت مهمته كرسول في إعلانها للناس ببيانها وعدم إخفائها كلياً أو جزئياً وفي تبليغها لهم بلاغاً مبيناً، أي معلناً مذاعاً بشكل واضح وصريح دون زيادة أو نقصان وبيان الشعائر وتبليغ أحكام الرسالة. وقد قام محمّد (ص) بكلّ من مهمّته كنبي، ومهمّته كرسول على أكمل وأتمّ وجه. فقد كان (ص) الناطق لآيات الذكر الحكيم والله هو القائل لقوله تعالى :(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) (النجم 3-5)، وقد أخطأ الشافعي عندما قال بالترادف بين النطق والقول في الآية فزعم أنّ السنّة وحي ثابت انطلاقاً من الترادف، فالوحي الوحيد هو ما جاء في كتابه عزّ وجل وهو الوحيد المقدّس باعتباره نصّاً إلهيّاً. وبما أنَّ دوره (ص) كرسول جاء بإظهار ما أوحي إليه من نصوص التنزيل الحكيم وعدم كتمانها، وفي إعلانها وإذاعتها على الناس، فإن أطروحة أن النبي (ص) شرح في سنّته القرآن هي أطروحة غير صحيحة. لأننا عندما نظرنا إلى السُوَر الطوال في التنزيل الحكيم كسورة الأنعام والأعراف وهود ويوسف ويونس... لنبحث ماذا قال النبي (ص) في شرحها، لم نجد شيئاً بخصوصه اللهم إلّا بعض جمل إن صحّت عنه. وعدم شرحه (ص) للقرآن، يؤكد لنا أنّه نبي، ويؤكد لنا أنّه الخاتم، وأنّه ليس مؤلّف التنزيل الحكيم".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قول الدكتور شحرور: "أمّا البيان الذي جاء في قوله تعالى :(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (إبراهيم 4)، فليس المقصود

منه التفصيل كما فهمه البعض واسترسل البعض الآخر فيه حتى وصل إلى القول بحاكمية الخبر النبوي على نصّ التنزيل الحكيم ونسخه له، انتهاءً بأخطر نتيجة قد يصل إليها عقل هؤلاء، تتمثّل في أنّ القرآن أحوج إلى السنّة من حاجة السنّة إلى القرآن، سبحانه وتعالى عمّا يصفون".

هذا أسلوب لضرب القرآن بالسنة، وضرب السنة بالقرآن، ويريد من خلاله الانتصار للقرآن ضد السنة، ونحن نحب أن نجيبه بالآتي:

أ. لا توجد معركة بين القرآن والسنة، فكلاهما جاءنا بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم.

ب. القرآن والسنة يعملان لهدف واحد، وهو إصلاح البشرية، وهدايتها لما هو خير لها في دينها ودنياها، ودفع الأذى والضرر عنها.

ج. السنة تستمد مشروعيتها من القرآن الكريم أولاً، فهو الذي أمر باتباع النبي، والاقتداء به صلى الله عليه وسلم.

د. القرآن هو المصدر الأول، وهو مقدم على السنة بفضله وقدره وجلالته.

هـ. السنة هي المصدر الثاني بعد القرآن الكريم، وتليه بالفضل والقدر والجلالة.

و. القرآن معجزة متحدى بها، والسنة ليست معجزة بيانياً، ولكنها أرقى أسلوب بشري عرفته اللغة العربية، لأنها كلام سيد الفصحاء صلى الله عليه وسلم.

ز. تضمن كل من القرآن والسنة كثيراً من المعجزات المتعلقة بالغيب والتشريع والعلوم وغير ذلك.

هـ. السنة في عمومها مصدقة للقرآن ومبينة له.

ز. هنالك علاقة تلازمية بين القرآن والسنة، وحاجة القرآن للسنة من حيث ما ورد فيها من تفصيل وشرح لما ورد في مجمله، كما أن السنة بحاجة للقرآن لتأكيد مشروعيتها.

ح. قول من قال بأنّ "القرآن أحوج إلى السنّة من حاجة السنّة إلى القرآن". إنما يقصد أن السنة تشرح القرآن، والقرآن كتاب موجز معجز يحتاج شرحاً، والسنة شرحه، وأما القرآن فليس شرحاً للسنة، ولكنه مصدر لشرعيتها، وهي عبارة ملتبسة كان ينبغي أن تُصاغ بشكل أقوم.

ط. وكل محاولة لدق إسفين بين القرآن والسنة، إنما هي محاولة لهدم الشريعة الإسلامية، فلا تقوم شريعة ما بغير فهمها ومعرفة ما تقتضيه نصوصها من دلالات ومعاني.

ثانياً: قول الدكتور شحرور: "فنحن أمام نصّ إلهي موحى، صاغه الله تعالى بشكله المنطوق، فتنزلت هذه الصياغة على النبي، وتحدّدت مهمته كرسول في إعلانها للناس ببيانها وعدم إخفائها كلياً أو جزئياً وفي تبليغها لهم بلاغاً مبيناً، أي معلناً مذاعاً بشكل واضح وصريح دون زيادة أو نقصان وبيان الشعائر وتبليغ أحكام الرسالة. وقد قام محمّد (ص) بكلّ من مهمّته كنبي، ومهمّته كرسول على أكمل وأتمّ وجه".

نقول في جوابه: لا يمكن اعتبار وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم تبليغ القرآن فقط، نعم هذه مهمته الأساسية، ولكن بث القرآن ونشره يحتاج إلى السنة، ويحتاج إلى القدوة، ويحتاج إلى التربية، وعليه فوظائف النبي صلى الله عليه وسلم هي أربع: تلاوة الآيات، تزكية النفوس، تعليم الكتاب، تعليم الحكمة ومنها سنته الشريفة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

ثالثاً: قوله: "وقد أخطأ الشافعي عندما قال بالترادف بين النطق والقول في الآية فزعم أنّ السنّة وحي ثابت انطلاقاً من الترادف، فالوحي الوحيد هو ما جاء في كتابه عزّ وجل وهو الوحيد المقدّس باعتباره نصّاً إلهيّاً".

ويرد عليه بأن الشافعي عربي قرشي فقيه وشاعر وأديب (150-204هـ)، وهو أفقه بلغة العرب ودلالاتها ممن جاء يخطئه في آخر الزمان، وإنكار الترادف لا يمكن البناء عليه، لأنه أمر لم يتفق عليه اللغويون، بل أكثرهم يثبتونه ويقرون به.

رابعاً: قوله: وبما أنّ دوره (ص) كرسول جاء بإظهار ما أوحي إليه من نصوص التنزيل الحكيم وعدم كتمانها، وفي إعلانها وإذاعتها على الناس، فإن أطروحة أن النبي (ص) شرح في سنّته القرآن هي أطروحة غير صحيحة. لأننا عندما نظرنا إلى السُوَر الطوال في التنزيل الحكيم كسورة الأنعام والأعراف وهود ويوسف ويونس... لنبحث ماذا قال النبي (ص) في شرحها، لم نجد شيئاً بخصوصه اللهم إلّا بعض جمل إن صحّت عنه. وعدم شرحه (ص) للقرآن، يؤكد لنا أنّه نبي، ويؤكد لنا أنّه الخاتم، وأنّه ليس مؤلّف التنزيل الحكيم".

نقول:

أ. هذا كلام فاسد، ينقضه عدم معرفته بالتفسير المأثور، ولو رجع إلى كتاب (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) للإمام السيوطي، لوجد شيئاً كثيرا قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الخصوص.

ب . إن كثيراً مما ورد موقوفاً في التفسير المأثور عن الصحابة قد يكون سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم، ونقلوه إلى الناس دون رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كما لو سمع أحدنا قصة أو خبراً من أستاذه، فذكره دون أن يقول قال أستاذنا فلان.

ج . شرح الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن ليس على طريقة المفسرين آية آية، وسورة سورة، وإنما هو شرح عام لمقاصده ومصطلحاته، وبخاصة ما يتعلق منها بشعائر الدين، مثل: الإيمان، وشعبه الكثيرة، والصلاة كيفيتها وأحكامها، وكذلك الزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذكر الله، والكبائر وهي ست وسبعون كبيرة كما عدها الإمام الذهبي في كتابه الكبائر، ونحو ذلك، أما الشرح اللغوي فكان الصحابة بغنى عنه، فقد نزل القرآن بلسانهم، ولم يكونوا بحاجة إلى شرح كل كلمة وجملة وردت فيه.

خامساً: أول من بدأ بإنكار السنة هم الخوارج، قال الإمام ابن تيمية: (وأصل مذهبهم تعظيم القرآن، وطلب اتباعه، ولكن خرجوا عن السنة والجماعة، فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن، كالرجم، ونصاب السرقة، وغير ذلك، فضلوا)[181].

سادساً: وقد تبعتهم بعض الفرق بعد ذلك، قال الحافظ ابن عبد البر: (أهل البدع أجمع أضربوا عن السنن، وتأولوا الكتاب على غير ما بينت السنة، فضلوا وأضلوا، نعوذ بالله من الخذلان)[182].

سابعاً: فالكتاب بحاجة إلى السنة التي فصلت أحكامه وشرحت آياته، وقد روي عن مكحول قال: (الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب)[183]، وهذه العبارة .قد تقدمت .وكان يمكن أن تُؤدى بطريقة أفضل تمنع اللبس، كأن يقال: السنة تشرح الكتاب والكتاب لا يشرح السنة. ومعنى العبارة أن السنة مفصل فيها كل شيء أكثر من الكتاب، وليس معناها أنها مستغنية عن الكتاب، أو هي أهم منه، فهذا لا يقوله من لديه مسكة من دين أو عقل، فالسنة لا تستمد حجيتها قبل كل شيء إلا من كتاب الله تعالى.

(181) - مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم النجدي، (208/13).

(182) - جامع بيان العلم وفضله، (193/2).

(183) - المصدر السابق، (191/2).

ثامناً: هناك غرض مشبوه من التشكيك بالسنة، وهو هدم الدين الإسلامي، حيث (إن التشكيك في السنة النبوية الصحيحة التي تذعن لها جماهير المسلمين، والتي أقامت صرح الفقه الإسلامي العظيم، الذي لا تملك أمة من أمم الأرض عشر معشاره، هو مثل بارز لمحاولات أعداء الإسلام في القديم والحديث، فقد أخذت هذه المؤامرة طريقها إلى عقول بعض الفرق الإسلامية في الماضي، كما أخذت طريقها إلى عقول بعض الكتاب الإسلاميين أمثال أحمد أمين في الحاضر، إنها مؤامرة لا ريب فيها، فالمستشرقون اليهود، واللاهوتيون المتعصبون يلحون عليها إلحاحا شديدا في كل ما يكتبون، وأقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية توجه أنظار طلابها المسلمين إلى هذا الموضوع توجيها دقيقا، وتأبى لأي طالب منهم أن يكون موضوع رسالته الجامعية دحض الافتراءات التي يملؤون بها كتبهم على السنة ورواتها)(184).

تاسعاً: وقد عقدت مؤتمرات من أجل الطعن بالسنة، وإزاحتها عن موقعها في الفكر والعقيدة، (ومنذ بضع سنوات عقد مؤتمر للدراسات الإسلامية في لاهور بباكستان، حضره علماء مسلمون من مختلف البلدان الإسلامية، من بينهم علماء من سورية ومصر، كما حضره عدد من المستشرقين، وقد ظهر للعلماء المسلمين أن هؤلاء المستشرقين هم الذين أوصوا بفكرة عقد هذا المؤتمر، ودعوا إليه عددا من تلاميذهم الفكريين في الهند وباكستان، وكان أشدهم تعصباً وأكثرهم جهلاً باعترافه هو بعد أن ألقى بحثه المستشرق الكندي سميث، ولعله يهودي، وكان مما ألح عليه المستشرقون يومئذ بحث السنة والوحي النبوي، ومحاولة إخضاعها لقواعد العلم كما يزعمون، وقد انتهى بعض تلامذتهم إلى إنكار الوحي كمصدر للإسلام، واعتبار الإسلام أفكاراً إصلاحية من محمد صلى الله عليه وسلم)(185).

***

ويضيف الدكتور شحرور:

12- بالنظر إلى كلّ من آيات التشريع ذات الكينونة المطلقة (أمّ الكتاب وتفصيلها) والفقه الذي يمثّل تفاعل الناس وفهمهم للتشريع في فترة زمانية تاريخية معينة، نجد الفرق بينهما واضحاً جداً وبشكل لا يقبل الشك، انطلاقاً من كون الرسالة الخاتمة (أمّ الكتاب وتفصيلها) أبدية لأنها إلهية، بينما الفقه الذي

---

(184) - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، ص (459-460).

(185) - المرجع السابق، ص (460).

هو عبارة عن اجتهادات إنسانية ظرفية إنساني تاريخي بحت. ونحن نؤكد أنه دون إدراك هذا الفرق الشاسع بينهما وأخذه في الاعتبار، لا أمل لشعوب أمّة محمّد (ص) في الخروج من المأزق الذي تتخبّط فيه منظومتها الفكرية، لأنّ الفرق بينهما سيجعل هذه الشعوب تدرك أنّ الفقه الإسلامي الذي بين أيدينا اليوم يمثّل القراءة الأولى والفهم التطبيقي الأول (التشخيص الأول) لنصوص الرسالة الإلهية (أمّ الكتاب وتفصيلها)، وهذا التطبيق جاء وفق ظروف معيّنة لتلك الفترة الزمنية وهو بذلك ظرفي ومتجاوز ولا يمكن أن يطلق عليه اسم "الشريعة" لأنّ هذه التسمية تُعدّ وهماً لا يمكن الاقتناع به، ما يستدعي ضرورة القيام بقراءة ثانية للنصوص الإلهية، خاصة ونحن في بدايات القرن الحادي والعشرين، على ضوء النظم المعرفية المعاصرة، وذلك باختراق أصول الفقه التي لا يمكن أن يتمّ التطوّر والتقدّم إلّا باختراقها. لأنّ النصوص الإلهية بحاجة في كلّ مرّة لإعادة قراءة ثالثة ورابعة... حسب تغيّر الأزمان وتقدّم المعارف إلى أن تقوم الساعة، ولكلّ جيل أن يعيد قراءتها للاجتهاد لنفسه ضمن ظروفه ومعطياته ومتطلباته، وهي رسالة تستوعب كل الاجتهادات الإنسانية إلى قيام الساعة".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "بالنظر إلى كلّ من آيات التشريع ذات الكينونة المطلقة (أمّ الكتاب وتفصيلها) والفقه الذي يمثّل تفاعل الناس وفهمهم للتشريع في فترة زمانية تاريخية معينة، نجد الفرق بينهما واضحاً جداً وبشكل لا يقبل الشك، انطلاقاً من كون الرسالة الخاتمة (أمّ الكتاب وتفصيلها) أبدية لأنها إلهية، بينما الفقه الذي هو عبارة عن اجتهادات إنسانية ظرفية إنساني تاريخي بحت".

هذا كلام تعوزه الدقة، فالرسالة الخاتمة ليست فقط (أم الكتاب وتفصيلها) بل كل ما هو بين دفتي المصحف، إضافة إلى كل الأحاديث والآثار الصحيحة، هذا أولاً، ثم التركيز على أبدية الرسالة وظرفية الفقه يراد منه اختراع فقه جديد لا صلة له بالماضي، ومتحرر من قيود وضوابط الفقهاء القدامى.

ثانياً: قوله: "ونحن نؤكد أنه دون إدراك هذا الفرق الشاسع بينهما وأخذه في الاعتبار، لا أمل لشعوب أمّة محمّد (ص) في الخروج من المأزق الذي تتخبّط فيه منظومتها الفكرية ... ما يستدعي ضرورة القيام بقراءة ثانية للنصوص الإلهية".

هذا كلام غير صحيح للآتي:

أ. لسنا بحاجة إلى مزيد من الفقهاء، بل نحن بحاجة إلى علماء في العلوم والطبيعة والفيزياء والذرة والإلكترونيات، ونحوها من العلوم التي قامت عليها المدنية المعاصرة.

ب. الفقه القديم يفي بأمور الدين، وما استجد من حوادث كالبنوك والتأمين والتلقيح الصناعي تفتي بها المجامع الفقهية المنتشرة في العالم الإسلامي

ج. أزمتنا أزمة حضارية وجودية، وليست أزمة فقهية أو حديثية.

د. تنبه الإمام الغزالي إلى كثرة الفقهاء وقلة الأطباء، وخطر ذلك على المجتمع المسلم، واليوم نجد من يريد تكثير الفقهاء ويعزف على هذا الوتر من جديد، فإلى أين نحن ذاهبون؟! هل قامت حضارة الشرق والغرب على الفقه أم على فكر وعلم مندلييف ولافوازيه ونيوتن وديكارت وغاليلو، وأديسون، ومدام كوري ونحوهم، لماذا يعزف الدكتور شحرور وأمثاله على الفقه؟ هل لو جاءنا فقهاء أحلوا الحرام وأحلوا الحلال، وأشاعوا اللهو والمجون سنتقدم حضارياً؟ وهل الحضارة لا وجه لها إلا التفلت والإباحية والعري الذي كان في المجتمعات البدائية؟!

ثالثاً: قوله: "لأنّ النصوص الإلهية بحاجة في كلّ مرّة لإعادة قراءة ثالثة ورابعة... حسب تغيّر الأزمان وتقدّم المعارف إلى أن تقوم الساعة، ولكلّ جيل أن يعيد قراءتها للاجتهاد لنفسه ضمن ظروفه ومعطياته ومتطلباته".

هذا كلام غير صحيح، فالنصوص الإلهية ذات دلالات واضحة، ولا يمكن استخراج معاني وأحكام منها في كل قراءة، لأنها بهذا الاعتبار تصبح دلالاتها غير منتهية، وهذا مستحيل! فما قيمة اللفظ إذا كانت لا توجد له دلالات محددة، ويستطيع كل واحد يسمعه أن يحمله المعنى الذي يريد!. الشريعة قانون إلهي، والقانون ينبغي أن لا تكون له تفسيرات لا نهائية، لأنه مع كثرة التفسيرات يفقد قيمته، ولا يلتزم به أحد! وفي هذا الصدد يقول الإمام الغزالي: ".. فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم. فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله على وجوه شتى، وهذا أيضا من البدع الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب؛ لأن النفوس مائلة إلى الغريب، ومستلذة له، وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة، بتأويل ظواهرها، وتنزيلها على رأيهم، كما حكيناه من مذاهبهم في

كتاب المستظهر المصنف في الرد على الباطنية... فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم (من فسر القر آن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) معنى إلا هذا النمط، وهو أن يكون غرضه ورأيه تقرير أمر وتحقيقه، فيستجر شهادة القرآن إليه، ويحمله عليه، من غير أن يشهد لتنزيله عليه دلالة لفظية لغوية، أو نقلية"[186].

***

ويضيف الدكتور شحرور:

13- إن كان علماء الأصول قرّروا نظرياً مبدأ "تتغيّر الأحكام بتغيّر الأزمان"، فإننا نقرّر نظرياً وعملياً بعونه تعالى: "أنّ الأحكام تتغيّر أيضاً بتغيّر النظام المعرفي"، ولا عجب أبداً إن انتهينا في قراءتنا المعاصرة لآيات الإرث في ضوء الرياضيات الحديثة إلى أحكام ونتائج تختلف عن مثيلاتها عند أهل القرن الثامن الميلادي. فالمسألة أولاً وأخيراً ليست مسألة ذكاء وغباء، ولا مسألة تقوى وعدم تقوى، بل هي بكل بساطة مسألة إشكاليات نعيشها ونظام معرفي نقف عليه، سمحا لنا بأن نرى ما لم يستطع السابقون رؤيته. ويجب أن يرى من يأتي بعدنا، بأرضيتهم المعرفية وإشكالياتهم المتطوّرة عنّا، ما لم نستطع أن نراه نحن ضمن إشكالياتنا ونظامنا المعرفي الحالي.

بما أنّ الرسالة الإلهية (أمّ الكتاب وتفصيلها) رسالة إلهية مجرّدة، فإنّ أيّ اجتهاد فيها ضمن تفصيلها هو تشريع إنساني مدني ضمن حدود الله، وبالتالي نجد الاجتهادات الإنسانية النابعة عن مختلف القراءات لتفصيل المحكم اجتهادات حنيفية، ما يسمح بظهور التعدّدية والاختلاف في الرأي في القضيّة الواحدة. وهذا الأمر يؤسّس لظاهرة الانتخابات والمجالس التشريعية والحدّ من مجال الفتوى ومجالس الإفتاء وإبقائها فقط ضمن حقل الشعائر دون أن تتعدّاه".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: " إن كان علماء الأصول قرّروا نظرياً مبدأ "تتغيّر الأحكام بتغيّر الأزمان"، فإننا نقرّر نظرياً وعملياً بعونه تعالى: "أنّ الأحكام تتغيّر أيضاً بتغيّر النظام المعرفي"، ولا عجب أبداً إن انتهينا في

---

(186) - إحياء علوم الدين، علق عليه جمال محمود، ومحمد سيد، (1/59-60).

قراءتنا المعاصرة لآيات الإرث في ضوء الرياضيات الحديثة إلى أحكام ونتائج تختلف عن مثيلاتها عند أهل القرن الثامن الميلادي".

نقول: الأحكام منها ثابت لا يتغير، وهو ما فيه نص من كتاب أوسنة، وأحكام يمكن أن تتغير، وهي الأحكام التابعة للعرف والعادات، وليست الأحكام جميعها تتغير، فكل حكم ورد في كتاب الله تعالى، أو ثبت في سنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أو أجمعت عليه الأمة فهو حكم قطعي، لا خيار لأحد فيه، فإن كان أمراً وجب الائتمار به وإن كان نهياً وجب الانتهاء عنه ومن ذلك: أحكام العبادات، وصلة الأرحام، ووجوب بر الوالدين، والحجاب، وتحريم الخمر والميسر، وتحريم السحر والشعوذة، فهذه أحكام ونحوها لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، ولكن هذا لا ينفي تغير الفتوى بموجب الحكم إذا اقتضت ذلك مصلحة شرعية ظاهرة بشكلٍ مؤقت لا دائم، ومن ذلك ما حدث من عدم قطع يد السارق عام المجاعة في زمن عمر رضي الله عنه.

والمراد من قاعدة : (لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان): كما يقول الدكتور أشرف عبد الرحمن أن "الأحكام الشرعية المتصلة بمعاملات الناس وعاداتهم وأعرافهم جاءت لتحقق مصالح معينة، وهذه المصالح تتغير في كثير من الأحيان بسبب تغير الزمان، وحينئذ ينبغي - على رأيهم - أن تتغير تلك الأحكام ما دام قد تغيرت مصالحها، ومن هنا وضعوا تلك المقالة وسمَّوها قاعدة... فالأحكام التي تتغير بتغير الأزمان هي الأحكام الاجتهادية التي لا نص فيها بل دليلها القياس أو المصلحة. أما القواعد الكلية والمبادئ العامة والأحكام الجزئية التي ورد فيها نص فإنها لا تتغير ولا تتبدل، كوجوب أداء الأمانات إلى أهلها، ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب رد المظالم إلى أهلها، وحرمة السرقة والغش والربا، وحرمة بيع المسلم على بيع أخيه؛ فإن هذا كله لا يدخله التغيير أو التبديل، لكن قد تتغير الوسائل وأساليب التطبيق" (187).

أما قوله: "فإننا نقرّر نظرياً وعملياً بعونه تعالى: أنَّ الأحكام تتغيّر أيضاً بتغيّر النظام المعرفي". فلا أدري لماذا يعبر بضمير (نحن) وهو فرد وليس بمؤسسة فقهية، ولا مجمع علمي، حتى يقرر وحده بالنيابة عن الأمة كلها، وعن علمائها ونخبها، بمثل هذه الأمور الخطيرة.

---

(187) – موقع الألوكة، مقال: (قاعدة: لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان)، انظر الرابط:
https://bit.ly/2Kg1CnS

ثم من أين له سلطة التقرير بتغير الأحكام حسب النظام المعرفي الذي يدعيه، وأي نظام معرفي يخترعه هو نظام خاص به إلا إذا قبله المتخصصون، فلو قرر إنسان شيئاً في الطب وهو ليس طبيباً، ولم يمارس الطب، فلا يقبل كلامه حتى يقر به جمهور الأطباء، وإلا لادعى كل واحد على ظهر الأرض ما شاء، ولم يكن هنالك حاجة لمجامع البحوث والجامعات والمدارس والمرجعيات العلمية ووزارات التعليم والبحث العلمي!

ولو أن الأحكام الشرعية تتغير بتغير النظام المعرفي، لانطبق هذا على كل ملة ودين على وجه الأرض، ولكننا نرى أن الملل والأديان جميعاً تعكف في معابدها، ولا يتدخل كل من هب ودب في شئون دينها، اللهم إلا الإسلام، فكل من يعرف العربية وله معرفة بسيطة في دين الله، يطرح نفسه كمجدد ومفكر وباحث إسلامي، ما هذه الجرأة في الطروحات التي لا يسندها بحث رصين، ولا شهادة المتخصصين، لتبدل وتغير في أحكام الله! مختبئة خلف عبارة جميلة ساحرة (النظام المعرفي)! وكأن النظام المعرفي لا يعترف بالدراسات المسبقة!، ولا خصوصية كل علم، ولا الفواصل بين العلوم!، ولا المنهجية التي ينبغي اتباعها في كل علم، ولا يقتضي توثيق المواد العلمية في مظانها الأصلية، ويقتضي تقرير النتائج أولاً، ثم إثباتها بعد ذلك! ولا يحترم التخصصات، ولا يعرف طرائق البحث العلمي، ولا يقبل الرأي الآخر، وينكر المسلمات والبديهيات...

أي نظام معرفي هذا الذي يلبس على الناس دينهم؟ ولا تساوي قيمته قيمة الورق الذي كتب عليه!

ولله در أبي العلاء حين قال: (188)

فوا عجبا كم يدعي الفضل ناقــصٌ
ووا أسفا كم يظهــرُ النقصَ فاضلُ

....

إذا وصفَ الطـائيَّ بالبخل مــادرٌ
وعَيَّرَ قُســـاً بالفهـاهة باقلُ
وقالَ السُّهى للشـــمس أنتِ خفيةٌ

---

(188) – انظر: مختارات البارودي، (336/2).

وقال الــدجى يـا صبحُ لونك حائلُ

وطاولتِ الأرضُ الســماءَ سفاهةً

وفاخرتِ الشـهبَ الحصى والجنادلُ

فيا موتُ زرْ إن الحياة ذميمــةٌ

ويا نفسُ جــدي إنَّ دهركِ هازلُ

ثانياً: قوله"بما أنَّ الرسالة الإلهية (أمّ الكتاب وتفصيلها) رسالة إلهية مجرَّدة، فإنَّ أيَّ اجتهاد فيها ضمن تفصيلها هو تشريع إنساني مدني ضمن حدود الله، وبالتالي نجد الاجتهادات الإنسانية النابعة عن مختلف القراءات لتفصيل المحكم اجتهادات حنيفية، ما يسمح بظهور التعدّدية والاختلاف في الرأي في القضيّة الواحدة. وهذا الأمر يؤسّس لظاهرة الانتخابات والمجالس التشريعية والحدّ من مجال الفتوى ومجالس الإفتاء وإبقائها فقط ضمن حقل الشعائر دون أن تتعدّاه".

من قال إن الرسالة الإلهية فقط هي أم الكتاب وتفصيلها، وقد ذكرنا فيما سبق المراد بأم الكتاب؟ وكيف يُقرر بأن"مختلف القراءات لتفصيل المحكم اجتهادات حنيفية"؟ مع أن هنالك قراءات لا تمت للاجتهاد بصلة؟ وما هذه الأحكام والتعميمات بالجملة؟ وعن أي تعدّدية واختلاف في الرأي في القضيّة الواحدة يبحث؟ ألا يكفي هذه الأمة فرقة وتخلفاً حضارياً في شتى الميادين، ولم يبق لها إلا أثارة من دينها تعتصم به كي لا تذوب وتنتهي؟ ماذا سيحصل من فوضى دينية عند نشر آراء كثيرة في كل قضية؟ هل حالة الجدل والتمزق والاختلاف. التي تُساق إليها الأمة رغم أنفها. ستولد فجراً حضارياً جديداً وتنهي أزمات الأمة، أم ستخلق مزيداً من الفتن والفوضى في عالمنا العربي والإسلامي؟.

إن التنوير والفجر والنهضة والحضارة والتقدم والتطور والتحديث... كل هذه الكلمات الجميلة التي تحتاجها الأمة كبرامج عمل، لا كشعارات خلبية خادعة، ولا يتحقق مضمون هذه الشعارات واقعاً إلا من خلال البحث عن حلول واقعية للأزمات المستعصية في قضايا الفساد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والتربوي، وبترك الفقه والتجديد فيه جانباً، فله أهله وعلماؤه ومتخصصوه الذين يقررون مشاريعهم وبرامجهم، وماذا يجددون فيه، وماذا لا يجددون.

إن ترك البرامج الحقيقية للنهضة، والتطلع للمستقبل، وتحويل دفة السفينة باتجاه الماضي والتراث والفقه، لنبش الماضي ومحاكمة رجاله، واستبدال أحكام بأحكامٍ أخرى، ومفاهيم بمفاهيم أخرى، وأفكارٍ بأفكارٍ أخرى ... كل هذا عبث علمي مزيف، يعيد الأمة نحو المربع الأول، يمزقها فكرياً، ويزيد من قدرة التعصب والتكلس والانغلاق، ويشغل الأمة عن واجباتها الأساسية، ومواجهة التحديات الوجودية التي تتربص بها، لتصبح فريسة لكل من يطمع في سلبها ونهبها وغزوها وحرقها... وللأسف يتم هذا العبث والتهريج العلمي كله تحت شعار: التجديد والرؤية المعاصرة!

قد تنكرُ العينُ ضوءَ الشمسِ من رمدٍ

وينكرُ الفمُ طعمَ الماءِ من ســقمِ

****

نتائج الفصل الأول

أولاً: نتائج المبحث الأول

1. 1. يرمي الدكتور شحرور المنهجية العربية والإسلامية بالقصور والضعف دون وجه حق.
2. اتهم الدكتور شحرور الفكر الإسلامي بعدم التفاعل مع التراث الإنساني، والاستفادة من الفلسفات الإنسانية، وهذا بهتان.
3. خلاصة نظرية إسلامية المعرفة ما ذكره الإمام ابن تيمية حول اتفاق صحيح المعقول وصحيح المنقول.
4. إن المسلمين يعيشون أزمات اقتصادية وسياسية واجتماعية، وليست أزمتهم فقهية.
5. يفصل الدكتور شحرور بين الشكلform والمحتوى content ، مع أنهما وحدة واحدة لا تتجزأ.
6. لدراسة القرآن ينبغي اعتماد المنهج الوصفي، وهو الذي يدرس النص القرآني في البيئة التي نزل فيها، والفترة التي نزل فيها.
7. النص القرآني المقدس ثابت الشكل والمحتوى.
8. البنيوية لم تقد إلى نتائج صحيحة، ولا يصح تطبيقها على القرآن، وكذلك منهج التفكيكية.
9. الحداثة لا تصلح منهجا علميا للأدب فضلا عن التفسير.
10. إن الترادف موجود في اللغات كلها ومنها العربية، ولولاه لما كانت صناعة المعاجم قائمة. وقد اضطر الدكتور شحرور في بعض المواضع لإثبات الترادف بشكل عملي وإن أنكره نظرياً.
11. لفظ القرآن ليس مرادفاً للفظ الكتاب ولكن دلالتهما واحدة وهو على ما بين دفتي المصحف، فليس القرآن بمختلف في دلالته عن الكتاب في شيء، وهما اسمان مختلفان لمسمى واحد.
12. مصادر المعرفة كثيرة كالنفس والعقل، والفكر، والقلب، وليست محصورة بالكون الخارجي فقط.
13. وصف الكون بأنه نشأ من عدم، هو ترويج لآراء الدهرية والفلاسفة الذين يؤمنون بقدم العالم.

14. قبل تقسيم العلوم إلى تخصصاتها المختلفة، كان العلم الإنساني الذي قدمه التفكير الإنساني علما واحدا، يجمع كل آراء وأفكار الناس، ويسمى الفلسفة، ومن هنا ذكروا أن الفلسفة أم العلوم.
15. وهنالك كثير من التناقض بين الدين والفلسفة.
16. **ادعى الدكتور شحرور في (الكتاب والقرآن) أنه سيعتمد على الشعر الجاهلي، ولم يذكر في الكتاب كله بيتا واحدا لشاعر من شعراء العصر الجاهلي!.**
17. لا يمكن إهدار جهود علماء اللغة المعاصرين، وإقامة الدراسات على مذكرة مختصرة وضعها له زميله في الدراسة بالاتحاد السوفيتي. فقد اقتصر الكاتب في فهمه لعلوم اللغة واللغة العربية على ما يسميه كتاباً بعنوان: (أسرار اللسان العربي) للدكتور جعفر دك الباب، طبعه كملحق برفقة كتابه (الكتاب والقرآن)، ولم يكلف نفسه بالتوسع قليلاً والاطلاع على ما كتبه الآخرون من علماء اللغة المعاصرين.
18. لا يمكن نزع القرآن من وضعه التاريخي، وتجريده من ظروف ملابسات نزوله الأولى.
19. لا يشترط أن يفقه الناس كل شيء من القرآن، ولا سيما في المتشابهات.
20. لم يحترم الدكتور شحرور عقول المسلمين ولا عواطفهم، وذلك حين وصفهم بأنهم حولوا رسول الله إلى خرافة!
21. قام بجمع الشبه القديمة حول الصحابة وترديدها من جديد، كطعنه بأبي هريرة.
22. يتهجم على علماء المسلمين وفرقهم المختلفة، ولا يقيم وزناً لمن يخالفه.
23. لم يذكر حاشية واحدة في كتابه (الكتاب والقرآن) ليضبط كلمة أو يوثق نصاً، أو يضيف شيئاً، أو يعلق على أمر ذي بال.
24. لا يوثق كلامه من المعاجم العربية.
25. يتناقض الدكتور شحرور في أحكامه ، فهو يقرر شيئاً في مكان، ثم ينقضه في مكان آخر!

26. **ثانياً: نتائج المبحث الثاني**

27. هنالك تشوش وعدم إلمام بالتراث، وعدم معرفة أبجديات العلاقة بين النحو والبلاغة.

28. هنالك غبش في معرفة علم اللغة الحديث واللسانيات، بدليل إنكاره للترادف ونسبة ذلك لعلماء اللسانيات، بينما ذكر الدكتور إبراهيم أنيس بأن معظم علماء اللغة المعاصرين يثبتون الترادف.

29. هناك اضطراب وسوء فهم للنصوص العربية، وانتقاص من الشعر الجاهلي.

30. تنقص الكاتب ملكة تحليل النصوص والتفاعل معها، فأين هو مما نجده في تحليلات العقاد، والنويهي، ومندور، ونعيمة، والنقاش، وأمثالهم؟.

31. هنالك اضطراب في المنهج، إذ قد يستخدم آية ويستخرج منها أحكاماً دون النظر ببقية الآيات التي تكون في الموضوع ذاته.

32. هنالك أحكام معلبة جاهزة يطلقها دون أن يثبت صحتها، أحكام بالجملة لا سند لها من بحث أو تحليل أو استقراء، وكأنه يتعامل مع كومة من الرمل لا مع كتاب عزيز معجز نزل من عند مليك مقتدر! ... وذلك كقوله: "فالأنباء كلّها بما فيها أنباء الرسل، ومن ضمنها القصص المحمّدي وهي الآيات الواردة في سيرة النبي (ص) كآيات موقعة بدر وأُحد والخندق والأحزاب وتبوك وفتح مكة... وسورة التوبة، عبارة عن نصوص تاريخية ولا تؤخذ منها أيّ أحكام شرعية، ولا علاقة لها بالرسالة".

33. لم يذكر لنا مرجعاً واحداً من كتب مناهج البحث العلمي اعتمد عليه، أو استمد منه في تقرير منهجه.

34. لا قيمة علمية لأية نتائج يتم التوصل إليها طالما أنها انطلقت من مقدمات فيها خلل والتباس.

35. هنالك التباس في فهم العلاقة بين الجمال والدقة في النص، فالجمال يحتوي الدقة، ولا ينفصل عنها.

36. الكتابة في العلوم واللغات والآداب الإنسانية تحتاج إلى شيء من التواضع، واحترام جهود العلماء السابقين إلى الكتابة في ميدان تلك الدراسات، وعدم تخطئة الآخرين بدون أدلة برهانية صحيحة.

37. إن المعرفة واحدة لا تتجزأ، وما يسمى اكتشافا جديدا للنص القرآني إنما هو لعب أطفال، يراد منه نسف المفاهيم الأساسية للقرآن تحت ذريعة التطور والتجديد والمنهجية العلمية Scientific Method. ونحن نأبى أن يكون قرآننا لعبة في أيدي بعض المتطفلين على الدراسات القرآنية،

الذين يريدون نقض مفاهيم القرآن الأساسية لهذا الدين، ولا نقبل أن يكون القرآن المقدس حقل تجارب لنتاج بعض النقاد أو أصحاب النظريات اللغوية التي تتبدل بين زمان وآخر، وتتعارض فيما بينها وتتناقض.

38. يطلق الدكتور شحرور شبهات كثيرة حول مصادر الشريعة من كتاب وسنة وإجماع وقياس، فالكتاب عنده غير القرآن، والسنة نبوية ورسولية، وهي اجتهاد وليست وحياً، وينكر الإجماع والقياس، ويحمل بشدة على الثوابت والفقه والفقهاء دون وجه حق!.

39. الدراسات الإنسانية ليست سهلة، واقتحامها من دون معرفة وصبر وحب وهيام بها لا يجدي شيئاً، ولا سيما إذا كان الكاتب متطفلاً على علومها، ولم يتمرس فيها كباحث وخبير، ولله در القائل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه

وجاوزه إلى ما تستطيعُ

الفصل الثاني

مصطلحات الدكتور شحرور كما ذكرها في موقعه على شبكة الإنترنت

في البداية نود أن ننوه بأن هذه المصطلحات كان قد ذكرها الدكتور شحرور في كتبه(189)، فهي منتزعة منها، وهو قد صرح بذلك، وهو أمر جيد، وقد مر بنا قوله: "انطلاقاً من ذلك ارتأينا أن نقدّم في هذا الدليل النقاط الرئيسية للنظام المعرفي المتّبع في قراءتنا المعاصرة ... حتّى يتسنّى للقارئ أن يستوعب كيف توصّلنا إلى الاستنتاجات التي أوردناها في الجزء الثاني من هذا الدليل والخاصّ بالمصطلحات التي تمّ التوصّل إليها وشرحها بالتفصيل في كتبنا".

والدكتور شحرور لم يرتب هنا هذه المصطلحات أبجدياً، ولا هجائياً، ولا تشمل هذه المصطلحات كل المصطلحات القرآنية، ولم يذكر لها أيَّ مصدر ديني أو لغوي!..

وسوف نثبت ما قاله أولاً بين معكوفتين، ثم نتبع ذلك بعبارة: تعقيب ومناقشة، نذكر تحتها بعض الملاحظات، ثم نضع فاصل في نهاية الفقرة، لتبدأ بعده فقرة أخرى نناقش فيها مصطلحاً جديداً، وفق التسلسل الذي وضعه الدكتور شحرور.

قال الدكتور شحرور تحت عنوان: (دليل المصطلحات الواردة في التنزيل الحكيم)(190):

"الكتاب: وردت مفردة كتاب في التنزيل الحكيم بمعنيين حسب منهجنا القراءاتي المعاصر، وهما:

1- الكتاب بمعنى مجموعة المواضيع التي جاءت إلى النبي (ص) وحياً على شكل آيات وسور، ويتضمّن كلّ ما جاء بين دفّتي المصحف من سور ابتداءً من أول سورة الفاتحة وصولاً إلى آخر سورة

---

(189) – انظر مثلاً: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص(51-68، 521-522). و تجفيف منابع الإرهاب، الفصل الثاني، دليل المصطلحات الواردة في التنزيل الحكيم، ص (45-54).

(190) – الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور، انظر الرابط:

https://shahrour.org/?page_id=12

(تنبيه): المصطلحات التي سترد في هذا الفصل مأخوذة كلها من موقع الدكتور شحرور على الرابط المذكور، لذلك لا نرى داعياً لتكرار العزو كل مرة نذكر فيها مصطلحاً له إلى الرابط نفسه، ونكتفي بالإشارة إلى المصدر، والتوثيق لهذه المصطلحات هنا في أول هذا الفصل.

الناس، وهو ما نطلق عليه اسم التنزيل الحكيم لقوله تعالى :(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) (البقرة 176). ويشتمل الكتاب على كلّ من النبوّة (القرآن والسبع المثاني)، والرسالة (أمّ الكتاب وتفصيلها) وعلى تفصيل الكتاب وهي الآيات التي تمثّل فهرس الكتاب.

2- الكتاب بمعنى مجموعة آيات الرسالة فقط، وبهذا المعنى يشترك مع معنى الكتاب عند موسى وعيسى، فالكتاب عند موسى وعيسى هو التشريع فقط. بالنسبة إلى موسى نجده في قوله تعالى :(وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (البقرة 53)، وبالنسبة إلى عيسى نجده في قوله تعالى :(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ) (آل عمران 48). وبهذا يشترك المؤمنون من أمّة محمّد (ص) مع اليهود والنصارى في كونهم من أهل الكتاب أيضا.

وقد جاء الكتاب بالمعنيين الأول والثاني في قوله تعالى :(هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ..) (آل عمران 7). فمصطلح الكتاب الوارد في المرة الأول جاء بمعنى الكتاب كله، وفي المرّة الثانية جاء بمعنى الرسالة فقط أي كتاب التشريع فقط".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، قال ابن فارس: "(كَتَبَ) الْكَافُ وَالتَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالْكِتَابَةُ"(191).

وقال ابن الجوزي: "الْكتاب :اسْم لكَلَام مَجْمُوع فِي صك .وَالْأَصْل فِيهِ :الْجمع. وَمِنْه سميت الكتيبة لاجتماعها. قَالَ ابْن قُتَيْبَة .وَيُقَال:لفعل الْكَاتِب: كتاب .وَيُقَال :كتب كتابا، وَقَامَ قيَاما، وَصَامَ صياما .وَقد يُسمى الشَّيْء بِفعل الْفَاعِل وَيُقَال :هَذَا دِرْهَم ضرب الْأَمِير، وَإِنَّمَا هُوَ مَضْرُوب الْأَمِير .وَيُقَال :هَؤُلَاءِ خلق الله، وَإِنَّمَا هم مخلوقو الله"(192).

ثانياً: يأتي لفظ الكتاب بمعان كثيرة مختلفة، يقول ابن الجوزي: "وَذكر بعض الْمُفَسّرين أَن الْكتاب فِي الْقُرْآن على أحد عشر وَجها:

(191) – معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، كتاب الكاف، مادة (كتب).

(192) – نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم الراضي، ص(525)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ/ 1987م.

أَحدهَا :اللَّوْح الْمَحْفُوظ .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَنْعَام :(وَلَا رطب وَلَا يَابِس إِلَّا فِي كتاب مُبين) ، وفيهَا :(مَا فرطنا فِي الْكتاب من شَيْء) وَفِي الْحَدِيد :(مَا أصَاب من مُصِيبَة فِي الأَرْض وَلَا فِي أَنفسكُم إِلَّا فِي كتاب).

وَالثَّانِي :الْكِتَابَة .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي آل عمرَان :(ويعلمه الْكتاب وَالْحكمَة).

وَالثَّالِث :الْحساب .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الجاثية :(كل أمة تدعى إِلَى كتابها).

وَالرَّابِع :الْعدة .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْبَقَرَة :(حَتَّى يبلغ الْكتاب أَجله).

وَالْخَامِس :الْعَمَل .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي المطففين :(إِن كتاب الْفجار لفي سِجِّين) ، وفيهَا :(إِن كتاب الْأَبْرَار لفي عليين) ، وَقيل :أَرَادَ الْكتاب الَّذِي فِيهِ أَعْمَالهم.

وَالسَّادِس :الْوَقْت .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي آل عمرَان :(كتابا مُؤَجّلا) ، وَفِي الْحجر :(إِلَّا وَلها كتاب مَعْلُوم).

وَالسَّابِع :الْقُرْآن. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي ص :(كتاب أَنزَلْنَاهُ إِلَيْك مبارك) ، وَفِي حم السَّجْدَة :(وَإِنَّهُ لكتاب عَزِيز).

وَالثَّامِن :التَّوْرَاة .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي آل عمرَان :(يَا أهل الْكتاب لم تحاجون فِي إِبْرَاهِيم) ، وَفِي الْمَائِدَة :(قد جَاءَكُم من الله نور وَكتاب مُبين).

وَالتَّاسِع :الانجيل .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي آل عمرَان :(يَا أهل الْكتاب تَعَالَوْا إِلَى كلمة سَوَاء بَيْننَا وَبَيْنكُم).

والعاشر :الْفَرْض .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة النِّسَاء :(كتاب الله عَلَيْكُم).

وَالْحَادِي عشر :الْعلم .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الرّوم :(لقد لبثتم فِي كتاب الله إِلَى يَوْم الْبَعْث)"[193].

ثالثاً: تسمية القرآن بالكتاب تسمية جديدة على العرب ومميزة، قال الجاحظ: "سَمَّى اللَّهُ كتابَه اسماً مخالفا لما سمى العرب كلامهم على الجملة والتفصيل، سمى جملته قرآناً كما سموا ديواناً، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية"[194].

(193) – نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، ص(526–527).

(194) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، ضبطه محمد شمس الدين، (326/2)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ/ 1988م.

رابعاً: للقرآن أسماء كثيرة، وكلها تدل على الكلام الذي بين دفتي المصحف، فقد "قال أبو المعالي عَزِيزي بن عبد الملك المعروف بشَيْذَلة في كتاب البرهان: **إن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسماً:**

كتاباً، ومبيناً في قوله: (حم والكتابِ المبِين).

وقرآناً وكريماً في قوله: (إنه لقرآنٌ كَرِيم).

وكلاماً: (حتى يَسْمَعَ كلاَمَ الله).

ونوراً: (وأنزلنَا إليكم نوراً مبينا).

وهدى ورحمة في قوله: (وهدًى ورَحْمَةً للمحْسنين).

وفرْقاناً: (نَزَّلَ الفرْقَان على عَبْده).

وشفاء: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ).

وموعظة: (قد جاءَتْكم موعظةٌ من رَبكم وشِفَاء لِمَا في الصّدور).

وذِكْراً ومباركا: (وهذا ذكْرٌ مُبَارَك أنزلناه).

وعَلِيًّا: (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ).

وحكمة: (حِكْمَة بالغة).

وحكيما: (تلك آيات الكتابِ الحكيمِ).

ومهَيْمِناً ومصدّقاً: (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ).

وحبْلاً: (واعتَصِموا بحَبْلِ اللهِ جميعا).

وصِرَاطاً مستقيما: (وَأَنّ هذا صِرَاطِي مستقيما).

وقَيِّماً: (قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا).

وقَوْلاً وفصلاً: (إنّه لقَوْل فَصْل).

ونَبأ عظيما: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ، عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ).

وأحسن الحديث، ومَثَاني، ومتَشابهاً: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ).

وتنزيلاً: (وإنّه لتَنْزِيل رَبِّ العالَمِين).

ورُوحاً: (أوْحَيْنَا إليك رُوحاً مِنْ أمْرِنا).

ووَحْياً: (إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ).

وعربيّاً: (قرآناً عَربيّاً).

وبصائر: (هذا بَصَائر للناس).

وبياناً: (هذا بيان للناس).

وعِلماً: (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ).

وحقًّا: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ).

وهادياً: (إنَّ هذا القرآن يَهْدِي).

وعجباً: (قرآنا عَجَبا).

وتذكرة: (وإنّه لَتَذْكرةٌ).

والعروة الوثقى: (فقد استَمْسكَ بالعُرْوَةِ الوثْقى).

وصدقاً: (والذى جاء بالصدْق).

وعدلاً: (تمَّتْ كَلِمة ربِّك صِدقا وعَدْلاً).

وأمْراً: (ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ).

ومنادياً: (إنَّنَا سَمِعْنَا منادياً للإيمان).

وبشرى: (هدًى وبشرى).

ومَجِيداً: (بل هو قرْآنٌ مجيد).

وزَبوراً: (ولقَدْ كتَبْنَا في الزَّبور مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ).

وبشيراً ونذيراً: (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا).

وعزيزاً: (وإنه لَكتَابٌ عَزِيز).

وبلاغاً: (هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ).

وقَصصاً: (أحسن القصص).

وسماه أربعةَ أسماء في آية واحدة: (في صحفٍ مكرَّمَةٍ. مرفوعة مطَهَّرة)[195].

خامساً: وحول معنى القرآن، نرجع إلى ما قاله ابن فارس : " (قَرِيَ) الْقَافُ وَالرَّاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى جُمعٍ وَاجْتِمَاعٍ. مِنْ ذَلِكَ الْقَرْيَةُ، سُمِّيَتْ قَرْيَةً لِاجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا. وَيَقُولُونَ: قَرَيْتُ الْمَاءَ فِي

(195) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، ضبطه محمد شمس الدين، (2/326-329).

الْمِقْرَاةِ: جَمَعْتُهُ، وَذَلِكَ الْمَاءُ الْمَجْمُوعُ قَرِيٌّ. وَجَمْعُ الْقَرْيَةِ قُرًى، جَاءَتْ عَلَى كُسْوَةٍ وَكُسًى. وَالْمِقْرَاةُ: الْجَفْنَةُ، سُمِّيَتْ لِاجْتِمَاعِ الضَّيْفِ عَلَيْهَا، أَوْ لِمَا جُمِعَ فِيهَا مِنْ طَعَامٍ... قَالُوا: وَمِنْهُ الْقُرْآنُ، كَأَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِجَمْعِهِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْقِصَصِ وَغَيْرِ ذَلِكَ" (196).

سادساً: وعن سبب تسميته بالكتاب والقرآن وهما اسمان لمسمى واحد يقول السيوطي: فأما تسميته كتاباً فلِجَمْعِه أنواع العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه. والكتاب لغة الجمع. والمبين، لأنه أبان الحق من الباطل، أي أظهره. وأما القرآن فاختلف فيه، فقال جماعة: هو اسم علَم غير مشتقّ خاصّ بكلام الله، فهو غير مهموز، وبه قرأ ابن كثير. وهو مرويّ عن الشافعي.

وأخرج الخطيب والبيهقي وغيرهما عنه أنه كان يهمز قرأت ولا يهمز القرآن. ويقول: القرآن اسم، وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأت، ولكنه اسمٌ لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل.

وقال قوم منهم الأشعري: هو مشتقّ من قرنت الشيء بالشيء، إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، وسمي به لقران السور والآيات والحروف فيه. وقال الفراء: هو مشتق من القرائن، لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضاً. وهي قرائن. وعلى القولين هو بلا همز ونونه أصلية.

وقال الزجاج: هذا القول سهو. والصحيح أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف. ونَقْل حركة الهمز إلى الساكن قبلها. واختلف القائلون بأنه مهموز، فقال قوم منهم الجياني: هو مصدر لقرأت. كالرّجْحَان والغفْران، سمي به الكتاب المقروء، من باب تسمية المفعول بالمصدر.

وقال آخرون منهم الزجاج: هو وصف على فُعْلان، وهو مشتقّ من القَرْء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء في الحوض أي جمعته.

قال أبو عبيدة: وسمي بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض.

وقال الراغب: لا يُقال لكل جَمْع قرآن، ولا لجَمْعِ كلِّ كلام قرآن، قال: وإنما سمي قرآنا لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة. وقيل: لأنه جمع أنواع العلوم كلها.

وحكى قطْرب قولاً: إنه سمِّي قرآناً لأن القارئ يظهره ويبَيِّنُه من فيه أخْذا من قول العرب: ما قرأت الناقةُ سلّى قطّ، أي ما أسقطت ولداً، أي ما حملت. والقرآن يلفظه القارئ من فيه ويلقيه فسمي قرآناً.

قلت: المختار عندي في هذه المسألة ما نص عليه الشافعي. (197).

---

(196) – معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، كتاب القاف، مادة (قري).

سابعاً: كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى عند العرب.

ثامناً: كثرة الأسماء للقرآن لا تعني تعدد المسمى، فلا يمكن أن نقول بأن الله نزل في وحيه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم خمسين شيئاً مختلفاً بعضها عن بعض، كأن نقول: القرآن يختلف عن الكتاب، وعن الفرقان، وعن أحسن الحديث، وغير ذلك.

تاسعاً: وعليه فذهاب الدكتور شحرور إلى أن الكتاب يأتي بمعنيين فقط هو قصور علمي، وذلك لأن معاني الكتاب في القرآن كثيرة.

عاشراً: وقوله: "ويشتمل الكتاب على كلّ من النبوّة (القرآن والسبع المثاني)، والرسالة (أمّ الكتاب وتفصيلها) وعلى تفصيل الكتاب وهي الآيات التي تمثّل فهرس الكتاب" هو كلام غير صحيح، فليس القرآن بعضاً من الكتاب، بل هو الكتاب نفسه، ونقلنا عن ابن فارس . قبل قليل . أن القرآن يحتوي الأحكام، ونعيده للتأكيد حيث كان قد قال: "وَمِنْهُ الْقُرْآنُ، كَأَنَّهُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِجَمْعِهِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْقِصَصِ وَغَيْرِ ذَلِكَ".

فما ذهب إليه الدكتور شحرور من التفريق بين محتوى الكتاب والقرآن ليس من العلم في شيء، ولم يقل به أحد قبله، ولا علاقة له في مبحث الترادف البتة!.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الذِكر :هو الصيغة اللغوية المنطوقة والمتعبَّد بها لكل آيات الكتاب بغضّ النظر عن فهم محتواها، وهي الصيغة التي تعهّد الله بحفظها لقوله تعالى:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر 19). كما أنّ للذكر معانيَ أخرى وردت في التنزيل الحكيم".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، قال ابن الجوزي: "الذّكر يُقَال على وَجْهَيْن: أَحدهمَا :الذّكر بِالْقَلْبِ. وَالثَّانِي :الذّكر بِاللِّسَانِ. وَهُوَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ حَقِيقِيّ ويستعار فِي مَوَاضِع تدل عَلَيْهَا الْقَرِينَة.

(197) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، ضبطه محمد شمس الدين، (2/328-329).

حَدثنَا مُحَمَّد بن نَاصِر عَن أبي زَكَرِيَّا عَن ابْن جني قَالَ: الذّكر بِكَسْر الذَّال بِاللِّسَانِ وبضم الذَّال بِالْقَلْبِ تَقول :ذكرت الشَّيْء بلساني ذكرا وبقلبي ذكرا، وَيُقَال اجْعَل هَذَا على ذكر مِنْك بِضَم الذَّال، أَي :لَا تنسه .وَالذكر :الْعلاَ والشرف .والمذكر:الَّتِي ولدت ذكرا. قَالَ الْفراء :كم الذكرة من ولدك؟ أَي :الذُّكُور" (198).

ثانياً: من معاني الذكر وهي كثيرة، ما **قاله السيوطي في معنى (ذكر) :-** "وَرَدَ على أوْجه:

ذكر اللِّسان: (فاذْكروا اللهَ كذِكْرِكُمْ).

وذكر القلب: (ذكَروا اللهَ فاستَغْفَروا لذنوبهم).

والحفظ: (واذْكُروا ما فيه).

والطاعة والجزاء: (فاذْكروني أذْكركم).

والصلوات الخمس: (فإذا أَمِنْتم فاذْكُروا الله).

والعظمة: (فلما نسوا ما ذكّروا به).

والبيان: (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ).

والحديث: (اذكرْني عند ربِّك) ، أي حدثه بحالي.

والقرآن: (ومَنْ أعرض عن ذِكْري). (ما يَأتيهم من ذِكْر من ربهم).

والتّوْراة: (فاسْألوا أهل الذكر).

والخبر: (سأتْلُو عليكم منه ذِكْرا).

والشرف: (وإنّه لذِكْرٌ لك ولقومك).

والعيب: (أهذا الذي يذكر آلهتكم).

واللوح المحفوظ: (مِن بَعْدِ الذِّكْرِ).

والثناء: (وذكروا الله كثيرا).

والوحي: (فالتاليات ذِكرا).

والرسول: (ذِكْراً. رسولاً).

والصلاة: (ولَذِكر الله أكبر).

---

(198) – نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم الراضي، ص(301-302).

وصلاة الجمعة: (فاسْعَوا إلى ذِكْر الله).

وصلاة العصر: (عن ذِكْرِ رَبي)"[199] .

ثالثاً: قوله: " الذِكر: هو الصيغة اللغوية المنطوقة والمتعبَّد بها لكل آيات الكتاب بغضّ النظر عن فهم محتواها" هو قصور علمي، فمصطلح الذكر ليس خاصاً بالقرآن وحده.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"القرآن :يمثّل القرآن نبوّة محمّد (ص) لهذا ذُكر مع كلّ من التوراة والإنجيل في قوله تعالى :(... وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ...)(التوبة 111)، ويمثّل مجموع الآيات المتشابهات (آيات النبوّة وتفصيلها) التي تتحدّث عن القوانين الكونية التي تتحكّم في الكون بما فيه من نجوم وكواكب وزلازل ورياح ومياه في الينابيع والأنهار والبحار...، وعن قوانين التاريخ والمجتمعات التي تحكم نشوء الأمم وهلاكها، وعن غيب الماضي من خلق الكون وخلق الإنسان وأنباء الأمم البائدة (القصص القرآني بما فيه القصص المحمّدي)، وعن غيب المستقبل كقيام الساعة والنفخ في الصور والحساب والجنّة والنار. والقرآن جاء من فعل قرن لأنّه قرن القانون العام للوجود مع القانون الخاصّ له مع خط تطوّر سير التاريخ الإنساني، وهو بذلك قرن بين معلومات اللوح المحفوظ ومعلومات الإمام المبين، ويُعدّ الجزء الأكبر من الكتاب ولا يوجد فيه تشريع إطلاقاً. ولأنه فرّق الله عزّ وجلّ فيه بين الحق والباطل في الوجود سمّاه "القرآن العظيم" في قوله :(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (الحجر 87). والقرآن مضافاً إليه السبع المثاني يمثّل جزء النبوة من التنزيل الحكيم".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي للقرآن، وقد قدمناه عند الحديث عن مصطلح الكتاب.

ثانياً: إذا كان القرآن مشتقاً من قرن، فهو "مشتقّ من قرنت الشيء بالشيء، إذا ضممت أحدهما إلى الآخر، وسمي به لقران السور والآيات والحروف فيه". وليس من قرنه قوانين الوجود مع قوانين الخاصة وقوانين التاريخ، فهذا معنى لم تعرفه العرب، والله خاطبهم بما يفهمون وليس بالألغاز والطلاسم.

(199) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (2/182-183).

ثالثاً: القرآن ليس بعضاً من الكتاب، بل هو الكتاب نفسه كما تقدم عند حديثنا عن الكتاب.

رابعاً: ومما يؤكد أن القرآن هو الكتاب قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: 32]. فالكافرون استعملوا لفظ القرآن على كل ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يكونوا يميزون بأن القرآن شيء والكتاب شيء آخر.

خامساً: قوله عن القرآن: "ولا يوجد فيه تشريع إطلاقاً" غلط فظيع، لأن الله تعالى قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ١٨٥﴾ [البقرة: 185] فقد شرع المولى. عز وجل. أحكام الصيام في حديثه عن القرآن.

وكذلك بين. سبحانه. أنه يجيب عن أسئلة المؤمنين، ويبين أحكام بعض الأشياء عند نزول القرآن، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: 101].

سادساً: وقع التحدي بالقرآن، ولو كان القرآن بعضاً من الكتاب لقلنا إن بعض الكتاب معجز، وليس كله، وحاشا لله أن يكون ذلك صحيحاً، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]

سابعاً: وهنالك كثير من الآيات قرنت بين القرآن والكتاب، مما يدل على أنهما شيء واحد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 37]. وقال تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: 1]. وقال تعالى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ١﴾ [النمل: 1].

ثامناً: نلاحظ في إعراب الآيتين الأخيرتين: وهما قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ حيث: (تِلْكَ) اسم إشارة مبتدأ، (آياتُ) خبر، والجملة ابتدائية، (الْكِتَابِ) مضاف إليه، (وَقُرْآنٍ) معطوف على الكتاب، (مُبِينٍ) صفة. وفي إعراب قوله تعالى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أن: (تِلْكَ) مبتدأ، (آياتُ) خبر، (الْقُرْآنِ) مضاف إليه والجملة ابتدائية، (وَكِتَابٍ) معطوف على القرآن، (مُبِينٍ) صفة.

فآيات القرآن هي نفسها آيات الكتاب، وآيات الكتاب هي نفسها آيات القرآن، وهذا يعني أن محتوى القرآن والكتاب واحد، فهما شيء واحد.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"اللوح المحفوظ :بما أنّ القرآن المجيد هو القوانين الصارمة الناظمة للوجود، فإنّ اللوح المحفوظ هو بمثابة برنامج هذه القوانين لقوله تعالى:(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) (البروج 21-22). وهذا البرنامج بقوانينه الصارمة التي تسيّر الوجود هو برنامج ثابت ولا يتغير، لا هو ولا قوانينه، وبالتالي لا ينفع فيه الدعاء لأنّه لا يتغيّر من أجل أحد مهما كان".

تعقيب ومناقشة

أولاً: ذهب الدكتور شحرور إلى المعنى المجازي للوح مع أنه لوح حقيقي، وقد كتب الله فيه مقادير الخلق قبل أن يخلقهم[200]، ولا يجوز نقل الكلمة من الحقيقة إلى المجاز إلا بوجود قرينة تمنع إرادة المعنى الحقيقي، ولا قرينة هنا. **وهذا يدل على عبث المؤلف بتراثنا اللغوي والبلاغي، وعدم تقيده بمنهج أبي علي الفارسي وابن جني والجرجاني الذي حاول التمسح به ليضفي صبغة علمية على ما يكتبه من بنات فكره وأهوائه وخيالاته.**

ثانياً: ذهب إلى أن الدعاء لا ينفع، فقد كتب في اللوح كل شيء، فأين هو من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60]. فهل الدعاء عبث؟

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"السبع المثاني :هي جزء من نبوّة محمّد (ص) أي جزء من القرآن. وهي مقاطع صوتية وردت في فواتح السور، مثل: (ألم – ألمص – كهيعص – حم – طسم) تتألف من أحد عشر مقطعاً صوتياً تمثل

---

(200) – انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، بتحقيق سامي محمد سلامة، (3/265-266، و8/373).

القاسم المشترك في الكلام الإنساني. وقد أشار إليها النبي (ص) في قوله باسم ''جوامع الكلم''، ووردت في الكتاب باسم ''أحسن الحديث'' :(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ) (الزمر 23). وتشكّل السبع المثاني مع القرآن كتاب النبوّة، إذ بهما وقع الإعجاز والتحدّي في قوله :(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (الحجر 87)''.

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، قال الفيروزآبادي :''ثنى أي الشيء، كسعى: رد بعضه على بعض، فتثنى وانثنى واثنونى: انعطف، ... والمثاني: القرآن، أو ما ثني منه مرة بعد مرة، أو الحمد، أو البقرة إلى براءة ...'' (201).

ثانياً: سميت السور أو الآيات بالمثاني لأن المصلي يكرر قراءتها، أو يثني على الله في كل صلاة، سواء في الفرض أو النوافل.

ثالثاً: وهي قد تكون السبع سور الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال وبراءة سورة واحدة. أو هي الفاتحة، وعددها سبع آيات، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : '' أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم '' ، وقد تقدم. والقرآن كله مثاني. ولا ينافي أن يكون المقصود السبع الطوال، مع الفاتحة، أو القرآن كله كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر: 23].لأن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة(202).

رابعاً: ما دام القرآن كله مثاني؛ لأنه يثنى ويكرر في التلاوة والصلاة، فالحديث هنا عن السبع وسبب اختيارها، قال تعالى: (سبعاً من الْمَثَانِي والْقرآنَ العظيم) فهذه الآية فيها عطف العام على الخاص، فالقرآن مثاني، وهذه السبع مثاني، وطالما أن الرسول صلى الله عليه وسلم فسرها بأم الكتاب، وهي الفاتحة، وذلك لأنها تكرر في كل صلاة أكثر من غيرها، فيكون المقصود الأساسي بالسبع المثاني هو سبع آيات سورة الفاتحة. ''قال بعضُ العَدديين: إنما خص لَفظ السبع هنا لأنها أول العدد الكامل الزائد على العدد التام الأجزاء، لأن الستة عدد تام الأجزاء، وهذا العدد له نسبة في المخلوقات الجملة، كعدد السماوات والأرض والأيام والأعضاء، وأبواب جهنم.وغير ذلك مما يطول ذكرها.

---

(201) – القاموس المحيط، مادة (ثنى).

(202) – انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، بتحقيق سامي محمد سلامة، (4/546-548).

وذكر الله لهذه السورة أسماء كثيرة، وفيها سبع آيات، وهي خالية من أحرف العذاب: الثاء: (لا تدعوا اليوم ثبُوراً واحداً). والخاء: (ألاَّ تخافوا ولا تحْزَنُوا). والشين: (ولا تَشقَى). والجيم: (لهم نار جَهنم) – يعني الكفار. والزاي: (إن شَجَرةَ الزّقّوم). والفاء: (يومئذٍ يتفرَقون). والظاء: (أو كظلُماتٍ). فسبحان من خصَّ هذه الأمة بمحامدَ وخصائص يجب عليهم شكْرُها إن عقلوا، ولو لم يكن لهم افتتاح هذا الكتاب المنزَّل عليهم بالحمد تعلما لهم وإرشاداً لحمده. وكرَّر عليهم ذكر ذلك في كتابه: كقوله لنبيه: (قل الحمد لله الذي لم يتخذ وَلَداً). (قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون). فإن قلت: لم أمر بالحَمْد لله على عدم اتخاذِ الوَلد؟. والجواب أنه لو كان له ولد فلا بد من عبادته، وعبادة إلهين يشقّ علينا، ولو كان له ولد لأعطاه أفضل الأشياء، فانفرد بالملك كلّه، ولو كان له ولد لكان"(203).

خامساً: وبناء على ما تقدم فإن ما ذهب إليه الدكتور شحرور هنا باطل، ففواتح السور ليست السبع المثاني، ولا هي جوامع الكلم، ولم يقصدها ربنا في قوله: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ).

سادساً: قوله: " وتشكّل السبع المثاني مع القرآن كتاب النبوّة، إذ بهما وقع الإعجاز والتحدّي" باطل أيضاً، فالإعجاز في القرآن كله والتحدي به كله، من سورة الفاتحة حتى سورة الناس، وليس الإعجاز محصوراً بجزء من دون آخر. ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]. فالسورة من مثل ما نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تشمل أي سورة من الفاتحة حتى الناس، طويلة كانت السورة أو قصيرة، مكية أو مدنية، ولا استثناء في ذلك.

سابعاً: الإعجاز في سورة الكوثر شأنه شأن الإعجاز في سورة البقرة، لا يقدر عليه أحد، ولا يستطيعه مخلوق، فالإعجاز سر لا يعلمه إلا الله تعالى، شأنه شأن الخلق، فمن يخلق ذبابة يخلق فيلاً، لأن من يصنع الحياة في ذبابة يستطيع صناعتها في فيل، ولذلك تحدى ربنا الآلهة المزيفة التي يعبدها المشركون من دونه بأن يخلقوا ذباباً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: 73].

***

(203) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (3/192).

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الحديث :هو أنباء مجموعة آيات الأحداث الكونية :(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) (الغاشية 1)، والأحداث الإنسانية سواء ما غاب منها في طيّات الماضي، أو ما حصل في زمن النبي (ص) من حروب وهجرة :(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...) (يوسف 111). وهذه الآيات ليس فيها أحكام ولا تشريعات لأنها جزء من القرآن أي من نبوة محمّد (ص)، ذلك لأن القرآن كما رأينا قرن بين الأحداث الكونية والأحداث الإنسانية، وهو قابل للتصديق والتكذيب فقط :(فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ) (...القلم 44)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، فالحديث جاء من حدث، "والحدوث كون الشيء بعد أن لم يكن، عرضاً كان ذلك أو جوهراً، وإحداثه: إيجاده...وكل كلامٍ يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو منامه يقال له حديث"[204].

ثانياً: تفسيره للحديث بأنه آيات الأحداث الكونية أو ما حصل في زمن النبي (ص) من حروب وهجرة، تفسير جزئي قاصر، فالحَدِيث فِي الْقُرْآن جاء على "أَرْبَعَة أوجه- :

أَحدهَا :الْقُرْآن، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الطّور :(فليأتوا بِحَدِيث مثله) ، وَفِي المرسلات :(فبِأَي حَدِيث بعده يُؤمنُونَ).

وَالثَّانِي :الْقَصَص، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الزمر :(الله نزل أحسن الحَدِيث كتابا).

وَالثَّالِث :الْعبْرَة، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْمُؤمنِينَ :(وجعلناهم أَحَادِيث فبعدا لقوم لَا يُؤمنُونَ) ، وَفِي سبأ ، (فجعلناهم أَحَادِيث ومزقناهم كل ممزق).

وَالرَّابِع :الْخَبَر، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْبَقَرَة :(أتحدثونهم بِمَا فتح الله عَلَيْكُم) "[205].

***

(204) – المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (حدث).

(205) – نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(248-249).

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الكتاب المبين :هو مجموع آيات القصص القرآني بما فيه القصص المحمّدي، أي هو مجموع الآيات التي تتطرّق إلى أنباء غيب الماضي وإلى أخبار القصص المحمّدي، لأن آيات القصص المحمّدي بما فيها من آيات القتال كانت أخباراً بالنسبة لمن عاصر النبي (ص) لكنّها تحوّلت إلى أنباء عن الماضي لمن بعدهم من العصور. ورد الكتاب المبين في قوله تعالى :(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)(يوسف 1-3)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: لفظ (الكتاب المبين) مكون من كلمتين كتاب ومبين، وسبق الحديث عن مصطلح كتاب، وأما مبين، فمعناها بين واضح، "وسمي الكلام بياناً لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره"[206]. وعليه فلفظ (الكتاب المبين) عام، ولا يختص بآيات القصص القرآني وحدها بما فيه القصص المحمّدي كما ذكر الدكتور شحرور.

ثانياً: ورد لفظ (الكتاب المبين) في القرآن الكريم أيضاً وصفاً للوح المحفوظ[207]، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: 61]. وهذا يعني أن هذا اللفظ يفيد أكثر من معنى في القرآن الكريم.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الإمام المبين :هو أرشيف الإنسانية من يوم خلقها الله عزّ وجلّ إلى يوم الدين، أي أرشيف الأحداث التاريخية الإنسانية الفردية والجماعية إلى قيام الساعة، ومنه جاء الكتاب المبين (القصص القرآني

(206) – المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (بان).

(207) – انظر: تفسير الجلالين، ص (215)، طبعة مؤسسة الريان.

بما فيه القصص المحمّدي). تمت فيه أرشفة الأحداث الإنسانية بعد حدوثها وتحوّلها إلى واقع لقوله تعالى :(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) (يس 12)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، فلفظ (إمام مبين) مكون من كلمتين: إمام ومبين، وكلمة (إمام) لها أربعة معان: القُدوَة، والكنَف، والطريق، وجمع آم، أي تابع. وهو (اجعلنَا للمتّقين إمَاما)[208]. ويضيف الإمام السيوطي: "(الإمام) الذي يؤمّ الناس إليه في الطريق ويتبعونه، ويقال للطريق إمام. ومنه قوله: (وإنهما لَبِإِمَام مُبين) ، أي بطريق واضح يمرون عليها في أسفارهم - يعني القَرْيَتين المهلكتين: قريتي قوم لوط، وأصحاب الأيْكة، فيرونهما، ويعتبر بهما مَنْ خاف وعيد الله تعالى. والإمام الكتاب، ومنه قوله تعالى: (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)، والإمام كل ما ائتممتَ به واقتديت به"[209]. وأما (مبين) فقد سبق شرحها.

ثانياً: الإمام المبين معناه: كتاب بين وهو اللوح المحفوظ نفسه[210]، الذي تمت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: 61].

ثالثاً: من طرائق القرآن الفنية في التعبير البياني أن يعبر عن الشيء الواحد بألفاظ وأساليب مختلفة، فاللوح المحفوظ هو الإمام المبين، وهو الكتاب المبين، والعرب تستجيد هذه الألوان التعبيرية، وتحب الافتنان بطرائق الكلام وافتراع أساليب مبتكرة من القول. ومن لا يفقه لغة العرب وطرائقها في الكلام عليه أن يجتنب تفشسير القرآن للناس.

***

(208) - معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (9/2).

(209) – المصدر السابق، (32/2).

(210) - انظر: تفسير الجلالين، ص (440)، طبعة مؤسسة الريان.

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"مواقع النجوم :هي الفواصل الموجودة بين آيات الكتاب، سواء جاز الوقف عندها أو لم يجز، وليست مواقع النجوم التي في السماء. هي من مفاتيح فهم الكتاب كله خصوصاً بالنسبة للقرآن في عملية تأويله، لأن مواقع النجوم في الكتاب تجعل كلّ آية من آيات الكتاب تحمل فكرة متكاملة:(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) (الواقعة 75-77)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: جاء في تفسير (مواقع النجوم) قولان: أحدهما: أنها نجوم السماء، والثاني: أنها نجوم القرآن. قال الراغب في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: 1] (قيل: أراد به الكوكب، وقيل أراد بذلك القرآن المنجم المنزل قدراً فقدراً، وعلى هذا قوله: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: 75] فقد فسر على الوجهين)[211].

وقال أبو حيان: (قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم: هي نجوم القرآن التي أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويؤيد هذا القول: (إنه لقرآن) فعاد الضمير على ما يفهم من قوله: (بمواقع النجوم) أي نجوم القرآن، وقيل: النجوم الكواكب ومواقعها، قال مجاهد وأبو عبيدة عند طلوعها وغروبها)[212].

ثانياً: لقد اختار الدكتور شحرور وجهاً وذهب إليه دون أن يبين سبب اختياره له، ودون أن يذكر الوجه الثاني، وليس هذا بمنهج علمي صحيح في البحث الموضوعي.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"البيان :هو عكس الكتمان ولا علاقة له بالشرح إطلاقاً لقوله تعالى :(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ) (البقرة 159)،

(211) - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (نجم).

(212) - البحر المحيط، (92/10).

وقوله تعالى :(..وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل 44). وقد أعلن الرسول (ص) كل ما أنزل إليه من وحي ولم يكتم شيئاً، إذ أعلنه صوتياً بمعنى نطقه بنفسه أمام الناس، لكن دون أن يشرح شيئاً منه ومعنى ذلك أن مهمة البيان أوكلت له (ص) ونحن علينا مهمة التفكير في معانيه".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، وقد سبق تعريف البيان.

ثانياً: ذكر بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشرح شيئاً من الوحي، ونحن علينا مهمة التفكير بمعانيه، فكيف يجوز عقلاً أن نفكر بمعانيه وحدنا، والرسول لا يفكر بمعانيه؟، وكيف لا يساعدنا الرسول صلى الله عليه وسلم على فهم معاني ما أنزل إليه؟!. فهذا غير معقول!.

ثالثاً: كتب السنة والآثار مليئة بالأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم التي تبين المجمل وتفصله، وتشرح كثيراً من المعاني الغامضة لبعض آيات القرآن الكريم، ومن جهل هذا فليتعلم، ومن أنكره فيتحمل مسئولية نكرانه.

رابعاً: معنى البيان ليس فقط عكس الكتمان، بل هو (إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللَّسَن، وأصله الكشف والظهور)(213). وتأتي بَيَّنَ بمعنى وضح وعرَّفَ، لازمة ومتعدية(214).

خامساً: من تصور أن وظيفة الرسول مجرد نقل القرآن دون شرحه وإيضاحه وترجمته واقعاً على الأرض؛ فهو لا يفقه من وظيفة الرسول شيئاً، مثله كمن تصور أن وظيفة المعلم فقط نقل المنهاج الذي تضعه وزارة التربية والتعليم إلى الطلبة فقط دون شرحه وتوضيحه؛ فمن تصور ذلك فهو لا يفقه من فن التعليم شيئاً. إذ ليس ثمة شيء يمنع الإيضاح والشرح إذا احتيج إليه، بل هو من متطلبات التعليم، وقد استحدثت الجامعات اليوم تخصصاً سموه تقنيات التعليم من أجل المساعدة في توصيل المعلومات للطالب عبر مزيد من وسائل التقنية والإيضاح.

والرسول صلى الله عليه وسلم ليس مجرد ناقل للوحي؛ بل هو مربي وقدوة ومعلم للناس بنص القرآن الكريم، والمعلم يحتاج إلى الشرح والإيضاح لِيُفَهِّمَ الآخذين عنه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ

(213) – لسان العرب، مادة (بين).

(214) – انظر: القاموس المحيط: مادة (بين) .

رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2]. لاحظ أن وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم الكتاب والحكمة، وليس الكتاب فقط، وتعليم الكتاب ليس فقط مجرد قراءته لهم، **فالقراءة هي أحد مراتب التعليم، وهنالك في العملية التعليمية: الحفظ، والشرح، والفهم، والاستيعاب، والمراجعة، والبحث، والتجربة، والتقويم، والإبداع... فالتعليم سلسلة لا تنقطع من الحلقات المتواصلة، وليس حلقة واحدة هي القراءة فقط.**

خامساً: والتبيان يشمل التثبت، ومنه قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) [الحجرات: 6]. فمن العسف الاقتصار في فهم التبيان على معنى واحد كما ذهب إليه الدكتور شحرور.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"البلاغ :هو أن يصل ما يريده المتكلم إلى السامع، ومنه البلاغة التي تكون في القول لقوله تعالى :(.. وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا) (النساء 63). لا علاقة للبلاغة بالجمال اللفظي وهي على مستويات، بحيث نجد أقل مستوى لها هو لغة الصم والبكم وهي لغة الإشارة :(..قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا..) (آل عمران 41)، ثم ترتقي مستوياتها حتى تصل إلى أعلى الأنواع الذي نجده في التنزيل الحكيم، لأنّ البلاغة فيه جاءت بحيث يصل المعنى للسامع أو القارئ بأقل عدد من الكلمات وعدم وجود الترادف والحشوية لقوله تعالى :(مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ..) (المائدة 99)، وقوله :(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) (..المائدة 67)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، فالبلوغ والبلاغ: "الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكاناً كان أو زماناً، أو أمراً من الأمور المقدرة... والبلاغ: التبليغ"(215).

(215) – المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (بلغ).

ثانياً: ويأتي البلاغ بمعنى الكفاية، نحو قوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ١٠٦﴾ [الأنبياء: 106]"(216).

ثالثاً: البلاغة تقال على وجهين: أحدهما: أن يكون [الكلام] بذاته بليغاً، وذلك بأن يجمع ثلاثة أوصاف: صواباً في موضوع لغته، وطبقاً للمعنى المقصود به، وصدقاً في نفسه، ومتى اخترم وصف من ذلك كان ناقصاً في البلاغة. والثاني: أن يكون بليغاً باعتبار القائل والمقول له، وهو أن يقصد القائل أمراً فيورده على وجه حقيق أن يقبله المقول له، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: 63] يصح حمله على المعنيين"(217).

رابعاً: قوله: "لا علاقة للبلاغة بالجمال اللفظي"، هو كلام غير صحيح، وغير علمي، فالبلاغة قائمة على مجموعة نظم جمالية تشمل النظم واللفظ والمعنى، وكذلك النقد، يقول الدكتور عز الدين إسماعيل: "الشعر عند العرب صناعة، ولهذه الصناعة قوانين تتحكم في الشكل فتجعله جميلاً أو قبيحاً. **والجمال عند العرب يرجع إلى الشكل أكثر مما يرجع إلى المحتوى،** وهو في الفن أكمل منه في الطبيعة، وإن كانت هذه القوانين في ذاتها قوانين طبيعية. ومن ثم كثر عندهم النقد القائم على الأساس الجمالي الصرف؛ الأساس الذي يهتم بجمال الصورة الأولى. وهم في بحثهم عن هذا الجمال الموضوعي قد كشفوا عن الأساسين المشتركين في كل الفنون: الإيقاع والعلاقات، وحاولوا تصوير قوانينهما بصورة ملموسة"(218).

حقاً من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب!

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"تفصيل الكتاب (فهرسة الكتاب) :هو مجموع الآيات التي وجدنا أنّها تمثّل مقدمة كتاب الله عزّ وجلّ. وهذه الآيات تقدّم لنا فهرسة الكتاب كله، بحيث ترشدنا للمواضيع التي تمّ التطرّق إليها في التنزيل الحكيم. وهي ليست من الآيات المحكمات ولا تفصيلها بمعنى أنها ليست من آيات الرسالة (أي

(216) – المصدر السابق.

(217) – المصدر السابق.

(218) – الأسس الجمالية في النقد العربي، ص(250)، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، 1974م.

ليست من آيات أمّ الكتاب ولا من تفصيلها) لأنّه ليس فيها أيّ تشريعات. كما أنها ليست من آيات النبوّة بمعنى أنها ليست من الآيات المتشابهات ولا من تفصيلها (أي ليست من آيات القرآن وتفصيله ولا من آيات السبع المثاني) لأنّه ليس فيها أيّ قوانين كونيّة أو أحداث إنسانيّة. وآيات تفصيل الكتاب وصف تفصيلي للتنزيل الحكيم، كقوله تعالى :(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ...) (البقرة 2)، وقوله :(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) (يونس 37). وقد جاءت من عند الله مباشرة، لا من اللوح المحفوظ شأن الآيات المتشابهات ولا من الكتاب المبين شأن القصص القرآني".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، "الفصل: الحاجز بين الشيئين... والتفصيل: التبيين"(219).

ثانياً: "والمفصل، كمُعَظَّم من القرآن من الحجرات إلى آخره في الأصح ... وسمي لكثرة الفصول بين سوره، أو لقلة المنسوخ فيه"(220).

ثالثاً: بيان المراد بالتفصيل وأقسامه، قال ابن الجوزي: "التفصيل في الأصل: التفريق. وذكر أهل التفسير أنه في القرآن على وجهين:

أحدهما: التفريق، ومنه قوله تعالى في الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ﴾ [الأعراف: 133]، أي: متفرقات بعضها من بعض.

والثاني: البيان، ومنه قوله تعالى في الأعراف: ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 145]، وفي هود: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: 1]، وفي حم السجدة: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [فصلت: 3]"(221).

رابعاً: وعليه فقوله: "تفصيل الكتاب (فهرسة الكتاب)" وكذلك قوله: " وآيات تفصيل الكتاب وصف تفصيلي للتنزيل الحكيم" هو كلام بلا دليل، وليس له أي قيمة علمية، فالكتاب مفصل لكل شيء،

(219) – القاموس المحيط: مادة (فصل) .

(220) – المصدر السابق، مادة (فصل) .

(221) – انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم الراضي، ص(212).

وليس متحدثاً عن نفسه فقط كما زعم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

وآيات القرآن مفصلة لكل شيء، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 11].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الترتيل :هو جمع الآيات ذات الموضوع الواحد في رتل. مثل ترتيل الآيات التي تتعلق بموضوع آدم أو خلق الكون. والترتيل يكون لمواضيع القرآن فقط لقوله تعالى :(...وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) (المزّمّل 4). وتأتي عملية تأويل مواضيع القرآن بعد ترتيلها. أمّا مواضيع الرسالة فليس فيها ترتيل لأنّ مواضيعها مصنّفة حسب المحكم وتفصيله. فكلّ آية محكمة تؤخذ مع تفصيلها :(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود 1). وتخضع آيات الرسالة لعملية الاجتهاد بعد فرز المحكم وتفصيله".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي: "الرَّتَل، محركة: حسن تناسق الشيء ... ورتَّلَ الكلامَ ترتيلا: أحسن تأليفه. وترتَّلَ فيه: تَرَسَّلَ"[222]. وقال الراغب: "الترتيل: إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة. قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: 4]﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ٣٢﴾ [الفرقان: 32]"[223].

ثانياً: قال عَلَمُ البلاغة والإعجاز جار الله الزمخشري: "ترتيل القرآن: قراءته على ترسل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات، حتى يجيء المتلوّ منه شبيها بالثغر المرتل: وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان، وألا يهذّه هذا ولا يسرده سرداً، كما قال عمر رضي الله عنه: شر السير الحقحقة، وشر القراءة الهذرمة، حتى يشبه المتلو في تتابعه الثغر الألص. وسئلت عائشة رضي الله عنها عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

(222) – القاموس المحيط: مادة (رتل) .

(223) – المفردات في غريب القرآن، مادة (رتل).

فقالت: لا كسر دكم هذا، لو أراد السامع أن يعد حروفه لعدها و{تَرْتِيلاً} تأكيد في إيجاب الأمر به، وأنه ما لا بد منه للقارئ"[224].

ثالثاً: ما ذهب إليه الدكتور شحرور من أن " الترتيل :هو جمع الآيات ذات الموضوع الواحد في رتل" ليس هو المراد بالأمر الإلهي، ولم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم، ولا صحابته من بعده، وليس مفروضاً على المسلمين، وإنما فعله العلماء في العصور التالية تسهيلاً للبحث العلمي، ومقتضيات البحث العلمي وتفاصيله لا علاقة لها بمعنى الآية هنا.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"النبأ :هو المعلومة التي تحتمل الحقيقة والوهم لقوله تعالى :(وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (هود 121). وخصائص النبأ أنه إجمالي مختصر، وهو غيب سواء غيب ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، وتنتفي الحضورية في النبأ لأنّ له منبّئاً به وليس له مخبر به. وكان النبي (ص) حاملاً لأنباء ولم يكن مخبراً لأخبار. والإنباء يأتي من مقام النبوّة لا من مقام الرسالة. والقرآن هو كتاب نبوّة محمّد (ص) وفيه القصص القرآني وهي من أنباء الماضي لقوله تعالى :(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ...) (طه 99). كما فيه أنباء المستقبل من قيام الساعة والجنّة والنار... لقوله :(وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ) (القمر 4).

الخبر :هو المعلومة التي تحتمل الصدق والكذب والخطأ والصواب لأنّ للخبر مخبراً به. والخبر تفصيلي مطوّل على عكس النبأ. ولا بدّ من أن يكون راوي الخبر حاضراً يشهد وقوعه بعينيه لقوله تعالى :(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ) (النمل 7)"[225].

(224) – الكشاف، للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (637/4).

(225) – انظر أيضاً في هذا الخصوص ما ذكره الدكتور شحرور في كتابه: القصص القرآني قراءة معاصرة، مدخل إلى القصص وقصة آدم، الباب الأول: القصص في التنزيل الحكيم: فلسفة التاريخ، الفصل الرابع. حيث تحدث عن النبأ والخبر.

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، قال الفيروزآبادي: "الخبر: النبأ"[226]. وفرق بينهما الراغب فقال: "النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل بها علمٌ أو غلبةُ ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب، كالتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبي عليه الصلاة والسلام، ولتضمن النبأ معنى الخبر يقال: أنبأته بكذا، كقولك: أخبرته بكذا، ولتضمنه معنى العلم قيل: أنبأته كذا، كقولك: أعلمته كذا. قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: 67-68]. وقال: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: 1-2]، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ [التغابن: 5]، وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: 49]. ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ [الأعراف: 101]..."[227].

ثانياً: بناء على ما ذكره الراغب، فالخبر أوسع معنى من النبأ، والنبأ هو خبر صادق، وليس كما زعم الدكتور شحرور بأنه هو المعلومة التي تحتمل الحقيقة والوهم.

ثالثاً: قوله: "وتنتفي الحضورية في النبأ لأنّ له منبّئاً به وليس له مخبر به" كلام باطل، فالهدهد جاء سليمان بنبأ، وكان قد حضره، قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: 22].

رابعاً: قوله:"ولا بدّ من أن يكون راوي الخبر حاضراً يشهد وقوعه بعينيه" غير صحيح، فقد يكون الراوي يروي عمن رأى، ونحن في حياتنا ننقل أخباراً كثيرة سمعنا بها ولم نرها، فهو اشتراط في غير موضعه، والقرآن الكريم كان يروي قصة سيدنا موسى عليه السلام، ولكنه لم يقرر قاعدة لغوية في الخبر كما استنتج الدكتور شحرور بزعمه... ولعل مما ينقض كلامه قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 68] والخُبْرُ: العلم بالشيء، وهو مشتق من الخبر، فقد يعلم المرء بشيء ولم يحضره أو لم يقع بعد.

***

(226) – القاموس المحيط: مادة (خبر) .

(227) – المفردات في غريب القرآن، مادة (نبأ).

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الفرقان :هو الوصايا العشر عند موسى ومحمّد (ص) والحكمة عند عيسى، ويمثّل الصراط المستقيم في التنزيل الحكيم. ورد في الآيتين (151-152) في سورة الأنعام بحيث ختم الله عزّ وجلّ هاتين الآيتين بعد ذكر الأمور التي تمثّل الصراط المستقيم فيهما بالآية 153 بقوله تعالى :(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .والصراط المستقيم من الآيات المحكمات (من أمّ الكتاب)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، فالفرقان: "فُعلان من التفريق. والفِرْقُ: الفَلَقُ من الشيء إذا انفلق، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63]"(228).

ثانياً: ويأتي الفرقان في القرآن على "ثلاثة أوجه:

أحدها النصر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: 41].

والثاني: المخرج في الدين من الضلال والشبهة. ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29].

والثالث: القرآن. ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا١﴾ [الفرقان: 1]"(229).

ثالثاً: قوله: "الفرقان :هو الوصايا العشر عند موسى ومحمّد (ص) والحكمة عند عيسى، ويمثّل الصراط المستقيم في التنزيل الحكيم" هو كلام مشوش وغير صحيح، فالفرقان هو وصف للكتب السماوية لأن الإنسان يميزها بواسطتها الحق من الباطل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 53]. وهو اسم من أسماء القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

(228) – انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم الراضي، ص(459).

(229) – انظر: المصدر السابق، ص(459-460).

رابعاً: الوصايا العشر في القرآن الكريم هي:

1- النهي عن الشرك. 2- الوصية بالوالدين والنهي عن عقوقهما. 3- النهي عن قتل الأولاد. 4- النهي عن اقتراب الفواحش. 5- النهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. 6- النهي عن أكل مال اليتيم. 7- الأمر بالوفاء في الكيل والميزان. 8- الأمر بالعدل. 9- الوفاء بالعهد. 10- الأمر باتباع الصراط المستقيم. قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 151-153].

خامساً: الوصايا العشر التي أمر بها الله بني إسرائيل في سفر الخروج، الأصحاح 20 هي: 1-لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. 2- لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ. 3- لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلاً. 4- اُذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ. 5- أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. 6- لاَ تَقْتُلْ. 7- لاَ تَزْنِ. 8- لاَ تَسْرِقْ. 9- لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ. 10- لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ عَبْدَهُ، وَلاَ أَمَتَهُ، وَلاَ ثَوْرَهُ، وَلاَ حِمَارَهُ، وَلاَ شَيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ(230).

سادساَ: من مقارنة الوصايا بين التوراة والقرآن نجد التوحيد شيئاً مشتركاً، والنهي عن الوثنية، والأمر بمكارم الأخلاق كطاعة الوالدين، والنهي عن اجتناب بعض الموبقات كالقتل والزنا، وهذا يؤكد وحدة المصدر للرسالات السماوية واتفاقها في العقائد ومكارم الاخلاق، وحصر الاختلاف فيما بينها في التشريعات وكيفية العبادات والحدود والأحكام.

***

(230) – انظر: موقع المعرفة، الوصايا العشر، على الرابط:
https://bit.ly/2KdsowS

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"التوراة :يمثّل نبوّة موسى، وفيه جاء ذكر الكونيّات والقصص دون أحكام، وجاء متناسباً مع مستوى وعي الناس زمن وحيه إلى موسى، لذا ما جاء فيه من معلومات بدائيّة جدّاً ولا تتناسب مع مستوى وعي الناس الحالي. وقد نزلت الأحكام لموسى مستقلة في الكتاب (شريعة موسى) وفي الألواح (الوصايا العشر)، وفصل الله عزّ وجلّ بين كتاب موسى والوصايا العشر لأنها كانت ستنتقل إلى مَن بعده من الرسل (عيسى ومحمّد) كما هي.

الإنجيل :يمثّل نبوّة عيسى، ولا توجد فيه أيّ أحكام، لأنّ كتاب الشريعة عند عيسى هو ذاته كتاب الشريعة عند موسى معدّلاً لقوله تعالى :(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ) (آل عمران 48)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: تعريف التوراة: التوراة مشتقة من "وَرَى الزَّنْدُ: خرجت ناره... وأوريتهُ ووريته واستوْرَيْتُه. ووَرْيَة النار، وريَتُها: ما تورى به من خِرقة أو حَطبة، والتوراة: تفعلةٌ منه[231].

ثانياً: تعريف الإنجيل: "إنجيل : إفعيل من النجل، وهو الأصل. والإنجيل أصل العلوم. ويقال: هو من نجلت الشيء إذا استخرجته وأظهرته. والإنجيل مستخرج به علوم وحكم"[232].

ثالثاً: قوله عن التوراة: "لذا ما جاء فيه من معلومات بدائيّة جدّاً ولا تتناسب مع مستوى وعي الناس الحالي" كلام غير صحيح، فالمعلومات الكونية التي أوحاها الله تعالى إلى رسله في كتبه السماوية هي في غاية الدقة والأهمية، والاستخفاف بها هو غاية الجهل والغرور!.

رابعاً: قوله: "الإنجيل :يمثّل نبوّة عيسى، ولا توجد فيه أيّ أحكام" باطل، فالإنجيل فيه أحكام بدليل قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47]. فكيف يحكمون بشيء ليس فيه أحكام؟!

(231) – القاموس المحيط: مادة (ورى) .

(232) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (2/33).

خامساً: أقر العلماء بإعجاز التوراة والإنجيل بما فيهما من علوم وشرائع دون نظمهما، قال السيوطي:

"قال القاضي: فإن قيل هل تقولون: إن غير القرآن من كلام الله معجز كالتوراة والإنجيل؟ قلنا: ليس شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف، وإن كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار بالغيوب، وإنما لم يكن معجزا لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن، ولأنا قد علمنا أنه لم يقع التحدي إليه كما وقع في القرآن، ولأن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز. وقد ذكر ابن جني في "الخاطريات" في قوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: 65] أن العدول عن قوله . وإما أن نلقي . لغرضين: أحدهما لفظي، وهو المزاوجة لرؤوس الآي. والآخر معنوي، وهو أنه تعالى أراد أن يخبر عن قوة أنفس السحرة واستطالتهم على موسى، فجاء عنهم باللفظ أتم وأوفى منه في إسنادهم الفعل إليه. ثم أورد سؤالا وهو: إنا نعلم أن السحرة لم يكونوا أهل لسان فيذهب بهم هذا المذهب من صنعه الكلام؟ وأجاب بأن جميع ما ورد في القرآن حكاية عن غير أهل اللسان من القرون الخالية إنما هو معرب عن معانيهم، وليس بحقيقة ألفاظهم، ولهذا لا يشك في أن قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه: 63] أن هذه الفصاحة لم تجر على لغة العجم"[233].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"أهل الكتاب :هم اليهود والنصارى لقوله تعالى :(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (آل عمران 65). والكتاب المقدّس بقسميه العهد القديم والعهد الجديد يتألف من: الكتاب (الشريعة) + الحكمة (الوصايا) + التوراة (نبوّة موسى) + الإنجيل (نبوّة عيسى). فالكتاب عند موسى وعيسى هو آيات الأحكام فقط أو ما يقال عنها الشريعة :(وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (البقرة 53)، وأوحي إلى محمّد (ص) منطوقاً لا مخطوطاً وخطّه الناس. وكتاب عيسى هو أيضاً ما جاء لعيسى من شريعة لقوله تعالى:(قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشر قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ

(233) - الإتقان في علوم القرآن(2/158-159).

وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ) (آل عمران 47-48). فكتاب موسى يختلف عن التوراة وكتاب عيسى يختلف عن كلّ من التوراة والإنجيل لأنّ التوراة يمثّل نبوّة موسى والإنجيل يمثّل نبوّة عيسى وليس فيهما أيّ أحكام".

تعقيب ومناقشة

أولاً: لا يوجد نبي أمي غير محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 157]، وقد سمى الله أمته بالأميين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2]. ولا شك أن أميته مع ما جاء به من العلم معجزة، ولذلك قال البوصيري[234]:

كفَاكَ بِالْعِلْمِ في الأُمِّيِّ مُعْجِزَة
في الجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ في الْيُتُمِ

وفي الموضوع ذاته يقول شوقي في نهج (البردة):

أخــوكَ عيسى دَعا مَيتاً فَقامَ لَهُ
وَأَنتَ أَحيَيتَ أَجــيالاً مِنَ الرِّمَمِ
وَالجَهلُ مَــوتٌ فَإِن أوتيتَ مُعجِزَةً
فَابعَث مِنَ الجَهلِ أَو فَابعَث مِنَ الرَّجَمِ

(234) – بردة المديح المباركة، ص(26)، مكتبة محمد المهايني، دمشق.

وأما أهل الكتاب فهم يقرؤون ويكتبون، وهم أهل علم ومعرفة، وكل نبي موافق لقومه، فمن كانت أمته أمية كان أمياً، ومن كانت أمته تقرأ وتكتب فهو يقرأ ويكتب، ولا يطعن هذا في نبوته، ولا رسالته، إذ لم تكن معجزات الأنبياء السابقين في نظم وتأليف كتبهم، وإنما كانت معجزاتهم حسية من جنس ما اشتهرت به أقوامهم، فعيسى اشتهر قومه بالطب، فجاء يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى، فلا يطعن بنبوته أن يقرأ ويكتب، وعليه فمعنى (ويعلمه الكتاب) أي الكتابة والخط[235]. جاء في القاموس: "كتبَهُ كتْباً وكِتاباً: خطَّهُ ... والكتابُ: ما يكتب فيه، والدواة، والتوراةُ، والصحيفةُ والفرضُ والحكم، والقَدَرُ"[236].

ثانياً: وقد يراد بالكتاب في الآية: (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ) القرآن، ففي المعجم الوسيط: "الكتاب: الصحف المجموعة، والرسالة جمع كتب، والقرآن، والتوراة، والإنجيل"[237]. وذلك أن عيسى ينزل في آخر الزمان ويحكم بين الناس بشريعة القرآن.

ثالثاً: قوله: " فكتاب موسى يختلف عن التوراة وكتاب عيسى يختلف عن كلّ من التوراة والإنجيل لأنّ التوراة يمثّل نبوّة موسى والإنجيل يمثّل نبوّة عيسى وليس فيهما أيّ أحكام". هذا كلام باطل، فلا يوجد كتاب لموسى وآخر لعيسى عليهما السلام غير التوراة والإنجيل، وقوله ليس فيهما أحكام باطل، فكيف يأمر الله تعالى أهل التوراة والإنجيل أن يحكموا بما فيهما، وهما خلو من الأحكام؟! قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 44-47].

---

(235) – انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، بتحقيق سامي محمد سلامة، (2/44). وتفسير الجلالين، ص(56).

(236) – القاموس المحيط: مادة (كتب) .

(237) – المعجم الوسيط، مادة (كتب).

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الإسلام :هو الإيمان تسليماً بوجود الله وباليوم الآخر وأداء العمل الصالح لقوله تعالى :(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة 62). فالإيمان بالله هو التسليم بوحدانيته والتصديق بنبوّات الأنبياء ورسالات الرسل كل في زمانه. فهناك من صدّق بنبوّة نوح أو إبراهيم أو يعقوب :(أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (البقرة 133)، وهناك من صدّق بنبوّة موسى :(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (يونس 90)، وهناك من صدّق بنبوّة عيسى :(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران 52)، كما هناك من صدّق بنبوّة محمّد (ص) :(قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) (الأنبياء 108). فكلّ هؤلاء يؤمنون بالله واليوم الآخر، وقد سمّاهم التنزيل الحكيم "المسلمين" على اختلاف مللهم. ولهذا فإنّ شهادة أنْ "لا إله إلا الله" هي تذكرة الدخول إلى دين الإسلام مهما كانت ملّة الإنسان. والإسلام يُبنى على العمل الصالح بعد الإيمان تسليماً بوجود الله وباليوم الآخر، وقد جعل الله الإيمان به مسلّمة لا يمكن البرهان عليها علمياً أو دحضها علمياً، لذا فهي خيار وقناعة يتساوى فيهما أينشتاين وبائع الطعمية، وفيها تظهر عدالة ربّ العالمين، إذ يجب على المسلم أن يكون عنده ذرة شكّ في وجود الله، والملحد عنده ذرة شكّ في الإلحاد، وهذا الشكّ هو الدافع الأساسي وراء تقدّم المعارف الإنسانية قاطبة، ومبدأ الشك هذا وضعه إبراهيم عليه السلام. أمّا العمل الصالح فيرتكز على القيم الإنسانية وعلى رأسها الوصايا العشر (الفرقان) المذكورة في سورة الأنعام التي خضعت للتراكم بين الرسالات. كما يُبنى الإسلام على التشريع الذي خضع للتطوّر وانتهى بالتشريع الحنيفي المتغيّر (الحدودي)، وعلى الشعائر التي خضعت للاختلاف".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي" قال ابن قتيبة: الإسلام: الدخول في السِّلْم، وهو الانقياد والمتابعة"[238].

ثانياً: يأتي "الإسلام في القرآن على خمسة أوجه:

أَحدهَا :اسْم للدّين الَّذِي تدين بِهِ .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي آل عمرَان :(إِن الدّين عِنْد الله الْإِسْلَام) ، وَفِي الْحَج :(هُوَ سَمَّاكُم الْمُسلمين من قبل).

وَالثَّانِي :التَّوْحِيد وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْمَائِدَة: (يحكم بهَا النَّبِيُّونَ الَّذين أَسْلمُوا للَّذين هادوا).

وَالثَّالِث :الْإِخْلَاص. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْبَقَرَة : (إِذْ قَالَ لَهُ ربه أسلم قَالَ أسلمت لرب الْعَالمين) ، وَفِي آل عمرَان :(فَإِن حاجوك فَقل أسلمت وَجْهي لله وَمن اتبعن وَقل للَّذين أُوتُوا الْكتاب والأميين أأسلمتم فَإِن أَسْلمُوا فقد اهتدوا) ، وَفِي لُقْمَان :(وَمن يسلم وَجهه إِلَى الله وَهُوَ محسن).

وَالرَّابِع :الاستسلام، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي آل عمرَان :(وَله أسلم من فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض طَوْعًا وَكرها) ، وَفِي يُونُس:(آمَنت أَنه لَا إِلَه إِلَّا الَّذِي آمَنت بِهِ بَنو إِسْرَائِيل وَأَنا من الْمُسلمين) ، وَفِي النَّمْل :(وَأسْلمت مَعَ سُلَيْمَان لله رب الْعَالمين) ، وَفِي الصافات :(فَلَمَّا أسلما وتله للجبين) .

وَالْخَامِس :الْإِقْرَار .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي بَرَاءَة :(وَكَفرُوا بعد إِسْلَامهمْ) ، وَفِي الحجرات :(قل لم تؤمنوا وَلَكِن قُولُوا أسلمنَا) [239].

ويلاحظ هنا قصور منهج الدكتور شحرور في فهم مصطلح الإسلام واقتصاره على معنى واحد وهو الدين.

ثالثاً: عرف الإسلام تعريفاً قاصراً، فقال: " الإسلام :هو الإيمان تسليماً بوجود الله وباليوم الآخر وأداء العمل الصالح". وهذا التعريف يناقض تعريف صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم حين قال: (الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا) وقد تقدم. فهل هو يرى نفسه شريكاً لصاحب الرسالة العصماء ليستدرك عليه ويعدل في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كما يريد؟!.

(238) – انظر: نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(136).

(239) – المصدر السابق، ص (136-137).

رابعاً: في تعريفه السابق للإسلام استشهد بآية لا علاقة لها بموضوع تعريف الإسلام، وهي قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) . فالآية قالت: (فلهم أجرهم)، ولم تقل إن المذكورين جميعاً هم مسلمون، بل اعترفت بتعدد الأديان. وكل من اتبع ديناً سماوياً اتباعاً صحيحاً قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فهو ناجٍ يوم القيامة بفضل الله تعالى.

خامساً: قوله: "ولهذا فإنّ شهادة أنْ "لا إله إلا الله" هي تذكرة الدخول إلى دين الإسلام مهما كانت ملّة الإنسان". أين هي شهادة محمد رسول الله؟. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: 150-151]. فكيف يكون مسلماً من لم يؤمن بالرسول والرسالة؟!

مشكلة هذا الكاتب وأمثاله أنهم يبنون قواعدهم على آية دون النظر في باقي الآيات التي تبحث في الموضوع ذاته، وأنهم يأخذون المعنى الظاهري فقط، وينسون أن القرآن كتاب بلاغي معجز، يوجز في موضع، ويفصل في آخر، وأنه متكامل في ذاته، فلا تناقض ولا تعارض، وأنه ينبغي قراءته بمنهج موضوعي استقرائي تحليلي متكامل، وليس على طريقة الاجتزاء والبتر والتسطيح لمعاني آياته وسوره.

سادساً: قال بأنه: "يجب على المسلم أن يكون عنده ذرة شكّ في وجود الله"، هذا كلام غلط، والعياذ بالله من الشك!، فالإيمان بالله فطرة، وهو أعظم حقيقة في الوجود، لا يَشُك فيه عاقل سوي التفكير أبداً، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [إبراهيم: 10].

وأين هو من وعيد الله لمن شك في وجوده، ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: 8].

سابعاً: ومما يبطل ما ذهب إليه الدكتور شحرور قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. **فلو كان أهل الكتاب مسلمون أساساً [بالمعنى الاصطلاحي لا**

اللغوي] لما كان هنالك فائدة لهذه الدعوة، ولما جاء هذا القيد في قوله تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ). إذ كيف يتولون عن الإسلام وهم مسلمون؟!

ثامناً: إن كل من جحد بدين من الأديان فقد كفر به، فالمسلمون مثلاً هم كفار بالطاغوت، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256].

تاسعاً: المسلمون يؤمنون بكافة الأنبياء والمرسلين، فلا يمكن اعتبارهم كفاراً من قبل أتباع الشرائع السماوية، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الإيمان :هو الإيمان بنبوّة محمّد (ص) بعد الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، أي إنّ الإيمان بالنبي (ص) يأتي بعد الإسلام، ويتجلّى في شهادة أنّ "محمّداً رسول الله" لقوله تعالى :(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) (محمّد 2)، وقد سمّاهم الله في كتابه "المؤمنين". وأركان الإيمان بنبوّته (ص) هي أداء الشعائر (الصلاة والزكاة، الصوم، الحج) لقوله تعالى :(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) (المؤمنون 1-3)، وهم بذلك "مسلمون مؤمنون"، فهم مسلمون لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويقومون بالعمل الصالح، ومؤمنون لأنّهم يؤمنون بنبوّة محمّد (ص) ويؤدّون الشعائر. وبذلك هم ينطقون بالشهادتين: إذ بالأولى صاروا مسلمين، وبالثانية صاروا مؤمنين. ومصطلح "مؤمنون" أصبح وقفاً على أتباع ملّة محمّد (ص) فقط في التنزيل الحكيم لأنّ مصطلح "المؤمنون" في زمن كلّ نبي يطلق على من يؤمن به حصراً. ولمّا جاء الوحي للنبي (ص) أطلق مصطلح "المؤمنون" على كل من آمن به (ص) وسمّى المؤمنين بموسى "اليهود" والمؤمنين بعيسى "النصارى". فأصبح مصطلح "المؤمنون" لقباً خاصاً بأتباع محمّد (ص) في التنزيل".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "الإيمان: هو الإيمان بنبوّة محمّد (ص) بعد الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح" هذا غير كافٍ، فلا يكون المرء مؤمناً إلاّ إذا آمن بأركان الإيمان الستة، التي جاءت في الكتاب والسنة، ففي القرآن قال تعالى آمراً بالإيمان بالإيمان بالله وكتبه ورسله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136]. وأخبر عن أن المؤمنين هم من آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]. وبين ضرورة الإيمان بالله واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا، وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: 38-39]. وبين الله تعالى أن كل شيء بقدره، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]. وعليه فقد وجب الإيمان بهذه الأركان الستة، وأكدت ذلك السنة المطهرة، ففي حديث عمر: "قال: فأخبرني عن الإيمان. قال : (أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره). قال: صدقت". وقد تقدم.

ثانياً: تتداخل عند الدكتور شحرور أركان الإيمان بأركان الإسلام، والصورة عنده مشوشة ومقلوبة! وقد ذكر الله تعالى أركان الإيمان في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285] وعليه فقوله "وأركان الإيمان بنبوّته (ص) هي أداء الشعائر الصلاة والزكاة، الصوم، الحج.." لغو وباطل. فهذه أركان الإسلام كما جاء في الحديث الصحيح.

ثالثاً: عندما يطلق لفظ الإيمان أو الإسلام كل واحد منهما على حدة في مكانين مختلفين فإن كل واحد منهما يشمل الآخر، فإذا اجتمعا في مكانٍ واحدٍ وجب التمييز بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 14]. وأما قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ

﴿فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ فلفظ (المؤمنون) هنا يشمل (المسلمون)، فالمؤمنون هم من يقوم يعتقدون بأركان الإيمان ويقومون بأركان الإسلام، لأن الإيمان قول وفعل واعتقاد.

رابعاً: وميز الإمام الغزالي بين الإسلام والإيمان من حيث ثلاثة اعتبارات، فقال: "والبحث الأول لغوي، والثاني تفسيري، والثالث فقهي شرعي.

البحث الأول في موجب اللغة، والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ [يوسف: 17] أي بمصدق، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعناد، وللتصديق محل خاص وهو القلب، واللسان ترجمان، وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح، فإذن كل تصديق بالقلب فهو تسليم، وترك الإباء والجحود، وكذلك الاعتراف باللسان، وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح، **فموجب اللغة أن الإسلام أعم والإيمان أخص، فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام،** فإذن كل تصديق تسليم، وليس كل تسليم تصديقاً.

البحث الثاني عن إطلاق الشرع، والحق فيه: أن الشرع قد ورد باستعمالهما على سبيل الترادف والتوارد، وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل، أما الترادف ففي قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: 35-36]، ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد. وقال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 84]. وقال صلى الله عليه وسلم: (بني الإسلام على خمس). وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس. وأما الاختلاف فقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: 14]، ومعناه: استسلمنا في الظاهر، فأراد بالإيمان ههنا التصديق بالقلب فقط، وبالإسلام الاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح... وأما التداخل فما روي أيضا أنه سئل فقيل أي الأعمال أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (الإسلام) فقال أي الإسلام أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم (الإيمان). وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة، لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها، والإسلام هو تسليم إما بالقلب، وإما باللسان، وإما بالجوارح. وأفضلها الذي بالقلب وهو التصديق الذي يسمى إيمانا، والاستعمال لهما على سبيل الاختلاف، وعلى سبيل التداخل، وعلى سبيل الترادف، كله غير خارج عن طريق التجوز في اللغة"(240).

(240) - إحياء علوم الدين، علق عليه جمال محمود، ومحمد سيد، (1/164-165).

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الإجرام :هو قطع الصلة بالله وبالقيم الإنسانية. بإنكار وجود الله وإنكار اليوم الآخر، والامتناع عن القيام بالعمل الصالح لقوله تعالى :(إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ) (المدّثر 39-47). فالمجرم هو الذي يقطع صلته بالله بعدم إيمانه بوجوده وباليوم الآخر ويقطع صلته بالمجتمع بعدم الالتزام بالقيم الإنسانية".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، قال الراغب: "أصل الجرم: قطع الثمرة عن الشجر ... وأجرَمَ: صار ذا جُرمٍ، نحو: أثمر وألبنَ، واستعير ذلك لكل اكتسابٍ مكروه"[241].

ثانياً: إجرام من كفر وألحد يحاسب عليه في الآخرة، وهو قد أجرم بحق نفسه، وبحق الشريعة التي هي أم العلوم والحقائق الخالدة الكبرى في الوجود، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: 10-11].

أما في الدنيا فحرية الاعتقاد مكفولة، ويُعامل مَنْ كفر كغيره من الناس في الشريعة التي تكفلت بالحرية وحقوق الإنسان لكل من يعيش في ظلها، ما لم يكن محارباً بالسيف لله ورسوله، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الشرك :هو الإيمان بمبدأ الثبات. ولا يلزم في الشرك أن يكون علنياً. وللشرك أنواع عديدة أسوأها شرك التجسيد الذي أشار إليه تعالى بقوله :(إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً) (النساء 48). والشرك بالله هو أن يجعل الإنسان لله شريكاً في

(241) – المفردات في غريب القرآن، مادة (جرم).

العبادة والدعاء. والشرك لسان حال وليس لسان مقال لأنّه لا يوجد إنسان في الأرض قال أو يقول عن نفسه إنه مشرك. فالشرك هو السكون في الفكر والتوقف عن التطوّر كما جاء في قوله تعالى على من أنكر التغيّر وآمن بالثبات :(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) (الكهف 35). والثبات على مبدأ الآبائية هو أيضاً شرك كما جاء في قوله تعالى :(...إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)(الزخرف 23)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، "قال ابن قتيبة: الشرك في اللغة: مصدر شركْتُهُ الأمر أَشركُه. وَفِي الحَدِيث :(إِن معَاذًا أجَاز بَين أهل الْيمن الشرك). وَيُرَاد فِي الْمُزَارعَة أَن يشْتَرك فِيهَا رجلاَنِ أَو ثَلاَثَة. وَإِن الشرك بِاللَّه هُوَ :أَن يُجْعَل لَهُ شريك"[242].

ثانياً: يأتي "الشرك في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدهَا :أَن يعدل بِاللَّه غَيره .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة النِّسَاء :(واعبدوا الله وَلَا تُشركُوا بِهِ شَيْئا) ، وفيهَا :(إِن الله لَا يغْفر أَن يُشرك بِهِ) ، وَفِي بَرَاءَة :(إِن الله بَرِيء من الْمُشْركين وَرَسُوله) ، وَهُوَ الْأَعَمّ فِي الْقُرْآن.

وَالثَّانِي :ادخال شريك فِي طَاعَته دون عِبَادَته .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَعْرَاف :(جعلا لَهُ شركَاء فِيمَا آتاهما) ، أَي :أطاعا إِبْلِيس فِي تَسْمِيَة ولدهما .وَفِي إِبْرَاهِيم :(إِنِّي كفرت بِمَا أشركتموني من قبل). أَي :فِي الطَّاعَة.

وَالثَّالِث :الرِّيَاء فِي الْأَعْمَال .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سورة الْكَهْف :(وَلَا يُشرك بِعبَادة ربه أحدا)"[243].

ثالثاً: قوله: الشرك:"هو الإيمان بمبدأ الثبات" تعريف محدود وقاصر، فالله تعالى لا يتغير ولا يتبدل، وخلقه يتغيرون، فما هو مراده بالثبات؟

---

(242) – انظر: نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(371-372).

(243) – انظر: المصدر السابق، ص(372).

لقد ذكر الدكتور شحرور بعد قليل: " والتوقف عن التطوّر كما جاء في قوله تعالى على من أنكر التغيّر وآمن بالثبات :(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) (الكهف 35). والثبات على مبدأ الآبائية هو أيضاً شرك...".

وهذا كلام مبهم يحتاج توضيح، فهذا الرجل صاحب الجنتين هو مؤمن بالله، ولكنه أشرك به، وذلك أن التوحيد هو أن تؤمن بالله الواحد في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، ومن صفات الله القدرة، ومن أسمائه القدير، وهذا الرجل شك بقدرة الله على الإحياء والبعث، واعتقد بخلود العالم وبقاء المادة، بدليل قوله بعده: (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً **وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي** لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) [الكهف: 36] فصار كافراً مشركاً، لأنه اعتقد ببقاء العالم مع الله، والبقاء هو لله وحده كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

وكذلك الأمر بالنسبة للمشركين ليس شركهم لمجرد اتباعهم آباءهم، وإنما لاتباعهم ما كان يعبده آباؤهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170]، فاتباع الآباء في عبادة الأوثان هو شرك، وأما اتباعهم والثبات على ما كانوا عليه من مكارم وعادات حميدة فليس شركاً، ولا ينبغي خلط الأمور.

وبناء عليه نقول: من أنكر صفة من صفات الله أو جعل لله نداً في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله فقد أشرك بالله تعالى، وقد حصر الدكتور شحرور الشرك في صورة واحدة وقالب واحد، مع تعدد صوره وأشكاله التي تحدث عنها القرآن الكريم، وهذا قصور في المنهج والبحث والاستقراء، وحتى الصورة التي جاء بها فسرها بشكل غير صحيح، وقد أراد من خلال حصر الشرك بهذه الصورة تكفير المسلمين لأنهم يتبعون آباءهم، وأسلمة الكافرين لأنهم تمردوا على آبائهم[244]، وهذا تلاعب بالنصوص، واحتيال على الشرع، وكذب على الحقيقة، وخداع للعقول، وتطرف جديد لا يقل خطراً عن تطرف العنف والإرهاب، **لأن التطرف مدمر للأفراد والمجتمعات كيفما كان، وفي أي اتجاهٍ كان!** فكل تطرف في سلوك الناس يسبقه تطرف في الفكر، ومن المؤسف أن يلبس هذا التطرف الأسود الشديد ثوب العلم والتجديد!

رابعاً: قوله: "والشرك لسان حال وليس لسان مقال لأنّه لا يوجد إنسان في الأرض قال أو يقول عن نفسه إنه مشرك". هذا كلام باطل بشهادة المشركين، فهؤلاء قوم نوح. عليه السلام. يقولون: ﴿وَقَالُوا لَا

(244) – انظر: الفصل الخامس: من فقه واجتهادات الدكتور شحرور، فقرة هـ.تكفير المسلمين وأسلمة الكافرين.

تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23]. وهؤلاء قوم هود. عليه السلام. يقرون بشركهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 53]. وهؤلاء قوم إبراهيم. عليه السلام. يقرون بشركهم: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: 62]، وهؤلاء قوم الرسول. صلى الله عليه وسلم. يقرون بشركهم ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: 36]. بل لقد اعترف المشركون من كل الأمم والشعوب أمام أنبيائهم ورسلهم بأنهم مشركون، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشركُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشركْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148]. فكيف ينكر الدكتور شحروراً أمراً بديهياً ؟!.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الكفر: هو موقف علني واعٍ ضد أمر ما، والكفر لسان مقال أي تصرّف وموقف عدواني. فالكفر صفة إضافية لصفة الشرك فالكافر مشرك معلن عن شركه قولاً أو عملاً في قوله تعالى :(...وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ) (الأحقاف 3). والكفر جاء معنىً مقيّداً دائماً بالموقف المعبّر فيه عن الكفر، أي بتوضيح الكفر بماذا؟ فالكافر بالله هو المشرك به والمعلن عن ذلك بلسان مقال، والكافر بنبوّة محمّد (ص) ورسالته هو كلّ من اتّخذ موقفاً علنياً عدائياً ضدّه (ص) بتكذيبه ومعاداته والتآمر عليه ومحاربته لقوله تعالى :(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (الأنفال 30)... وفي الحروب يصبح وصف "الكافر" وصفاً يتراشق به الطرفان المتحاربان، فكلّ طرف يطلق على الطرف الآخر لقب "كافر" لأنّه أظهر العداء له، لهذا قال الله تعالى للمؤمنين من أتباع الرسول عن خصومهم الذين حاربوهم :(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ) (الأنفال 15). وحتّى موقعة الجمل حصلت بين فئتين كافرتين، لأنّ كلّ واحدة منهما كفرت بأحقية الأخرى في السلطة".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي الكُفْر في اللغة: ستر الشيء، ووُصفَ الليل بالكافر: لستره الأشخاص، والزَرَّاع لستره البذر في الأرض، وليس ذلك باسم لهما[245].

وقال الفيروزآبادي: "الكفر ضد الإيمان"[246].

وقال الراغب: "وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة... والكافر على الإطلاق: متعارف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها، وقد يقال كفر لمن أخل بالشريعة وترك ما لزمه من شكر الله عليه"[247].

ثانياً: قال السيوطي في معنى كافر" :له معنيان: من الكفر، وهو الجحود بوجود الله المضاد لمعرفته. وقد يحكم بكفْرِ الشخص مع كَوْنِه عالماً بالله من طريق الشرع، وهو إذا قال: إن الخمر حلال، والظُّهر غير واجب.

وقيل الكافر هو المكذّب، مثل قوله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ [التغابن: 6].

وبمعنى الزرع، وهو قوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: 20]، أي الزرَّاع. وتكفير الذنوب: غفرانها"[248].

ثالثاً: قوله: " الكفر : هو موقف علني واعٍ ضد أمر ما، والكفر لسان مقال أي تصرّف وموقف عدواني". هذا التعريف ينسجم مع التعريف اللفظي أكثر منه مع المصطلح الشرعي.

رابعاً: قوله: "فالكفر صفة إضافية لصفة الشرك، فالكافر مشرك معلن عن شركه قولاً أو عملاً" ..هذا كلام غير دقيق، فكل مشرك كافر وليس كل كافر مشركاً، فقد يكفر من أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، كمن "**قال: إن الخمر حلال، والظُّهر غير واجب". ولكنه مؤمن بالله تعالى وحده لا شريك له، فالشرك هو الكفر الأعظم والعياذ بالله تعالى! وهذا شكل لتوضيح ذلك:**

(245) – انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة (كفر).

(246) – القاموس المحيط، مادة (كفر).

(247) – المفردات في غريب القرآن، مادة (كفر).

(248) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (226/2).

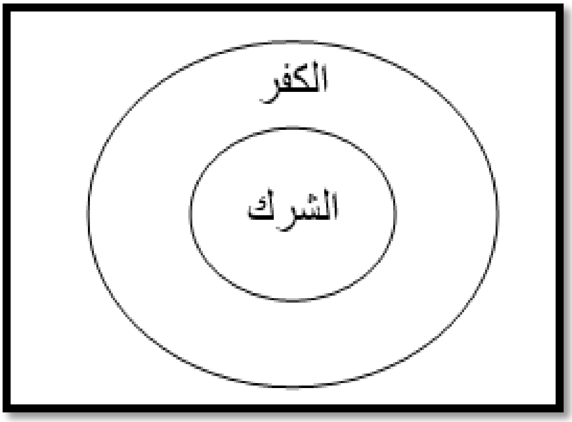

خامساً: قوله: "وحتّى موقعة الجمل حصلت بين فئتين كافرتين، لأنّ كلّ واحدة منهما كفرت بأحقية الأخرى في السلطة". هذا جائز من حيث ظاهر اللغة، ولكنه غير صحيح شرعياً، بل باطل ولا ينبغي قوله، فعندما تتقابل فئتان من المسلمين وتتقاتلان فقد سماهما الله مؤمنين ودعا للإصلاح فيما بينهما، ولم يسمهما كافرين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الرسالة (أمّ الكتاب وتفصيلها) :هي الآيات التي تشتمل على آيات أمّ الكتاب (الكتاب المحكم) وعلى آيات تفصيلها لقوله تعالى :(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (هود 1). وقد أصبح محمّد (ص) رسولاً بالكتاب المحكم (أمّ الكتاب) وتفصيله. وكتاب الرسالة بمحكمه وتفصيله يحتمل الطاعة والمعصية لقوله تعالى :(وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (آل عمران 132)، وهو الذي أطلق عليه التنزيل الحكيم مصطلح كتاب كمعنى ثانٍ للكتاب كما هو عند موسى وعيسى.

الآيات المحكمات (أمّ الكتاب) :هي جزء من الرسالة، وهي آيات الكتاب المحكم وتمثّل آيات أمّ الكتاب لقوله تعالى :(هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ...) (آل عمران 7)، وعددها (19) آية في الكتاب حسب ما توصّلنا إليه في بحثنا، وقد جاء تفصيلها في الرسالة. وآيات أم الكتاب (19) آيات مغلقة لأنّها لا تخضع للاجتهاد. وجاءت مواضيعها حول المحرّمات والأوامر والنواهي والحدود والشعائر والقيم.

آيات تفصيل أم كتاب :هي جزء من الرسالة، وهي آيات تفصيل الآيات المحكمات أي تفصيل آيات أمّ الكتاب وعددها يزيد عن 993 آية دون تكرار كما توصّلنا إليه بعد الدراسة والبحث، ونرى أنّه عدد قابل للتعديل لأنه جاء نتيجة بحث تم القيام به لأول مرة في تاريخ الرسالة المحمّدية. جاء في آيات تفصيل أمّ الكتاب تفصيل مواضيع المحرّمات والأوامر والنواهي والحدود والشعائر والقيم لقوله تعالى :(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف 52).

الآيات المتشابهات :هي آيات القرآن مضافاً إليها السبع المثاني، وهي الآيات الشارحة للقوانين الكونية والإنسانية، التي أصبح بها محمّد (ص) نبيّاً لقوله تعالى :(هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...) (آل عمران 7)، فالقرآن من المتشابهات مضافاً إليه السبع المثاني التي هي أحسن الحديث :(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ...) (الزمر 23). وهذه الآيات تحتمل التصديق والتكذيب. وجزء منها فقط قابل للتأويل من خلال آيات تفصيلها.

آيات تفصيل المتشابه :هي الآيات التي فُصّلت فيها بعض الآيات المتشابهات الموجودة في القرآن فقط لقوله تعالى :(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (فصلت 3)، لأنّ السبع المثاني لا تفصيل لها. وهناك جزء من آيات القرآن لا تفصيل لها لأنّه لا يمكن تأويلها مثل قصّة خلق آدم وبداية الكون ونهايته لقوله تعالى :(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا) (الأعراف 53). والقصص القرآني بما فيه القصص المحمّدي هو آيات تفصيل للأحداث التاريخية في القرآن".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي في **(أمُّ الكتاب)** : **"أصل كلّ كتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي كتبَ اللَّهُ فيه مقاديرَ الأشياء كلها"**[(249)].

ثانيا: تقسيمات الكاتب للمحكم والمتشابه مشوشة ومتداخلة، لا يسعفه فيها سياق النص، ولا رأي سليم، أو منهج صحيح، أو سند من أقوال المحققين من أهل العلم، ومن تكلم في غير فنه أتى بالعجائب**!** وقد تقدم الحديث عن المحكم والمتشابه وأم الكتاب في المبحث الثاني من الفصل الأول، وذلك عند قوله: "خامساً: أسس التشريع المعاصر" فيمكن أن يراجع هناك.

ثالثاً: يمكن أن نضيف هنا شيئاً آخر حول المتشابه في القرآن، وأنه "على ثلاثة أضرب: منه ما تعلّق به أهل الزَّيْغِ من خارجي القِبلة، نحو قوله سبحانه: (فوَرَبِّك لنَسْألنَّهم أجمعين). مع قوله تعالى في الآية الأخرى: (فيومئذٍ لا يُسأل عن ذَنْبِه إنْسٌ ولا جَانٌّ).

ومنه ما تعلّق به أهل البِدْعة مِنْ أهل القِبْلَة من أصول المسائل الفقهية، نحو قوله سبحانه: (لا تدْرِكه الأبصارُ) ، مع قوله تعالى: (وجوهٌ يومئذ ناضِرة) . ونحو قوله سبحانه: (وإذ تَخْلقُ مِنَ الطِّين كهيئة الطَّير) ، وقوله: (وتخلقون إفْكاً)، مع قوله تعالى: (هل من خالق غير الله يرزقكم)، وقوله تعالى: (والله خلقكم وما تعملون). الثالث: ما تعلق به المخالف من مسائل الفروع في الأحكام الفقهية، نحو قوله سبحانه: (وثيابك فطهر)، حيث احتجوا به في إزالة النجاسة بكل مائع غير الماء، مع قوله: (وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً)، وقوله: (وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به)"[(250)].

رابعاً: قوله: "آيات تفصيل أم كتاب :هي جزء من الرسالة، وهي آيات تفصيل الآيات المحكمات أي تفصيل آيات أمّ الكتاب وعددها يزيد عن 993 آية دون تكرار كما توصّلنا إليه بعد الدراسة والبحث، ونرى أنّه عدد قابل للتعديل لأنه جاء نتيجة بحث تم القيام به لأول مرة في تاريخ الرسالة المحمّدية".

كان على الكاتب أن يوضح للقارئ ما هو المنهج الذي استخدمه في عد هذه الآيات... **إن تقسيم آيات القرآن بهذا الشكل تقسيم باطل، لأنه قام على أساس باطل، وهو أن الكتاب غير القرآن،** وهناك آيات للنبوة وآيات للرسالة... ونحن نرى أن القرآن كوكب صامد، وسراج منير، وقالب واحد، وسبيكة

(249) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (31/2).

(250) – المصدر السابق، (478/2-479).

واحدة، ولا يمكن تقطيع آياته وفرزها بهذا العد العشوائي، فهو إساءة وتشويه لجمال القرآن، ووحدة النص، وكمال المعاني الموجودة فيه.

خامساً: قوله: "السبع المثاني لا تفصيل لها" حكم غير صحيح، فالراجح أن السبع المثاني هي سورة الفاتحة، وهي أجملت موضوعات القرآن الكريم، فهي كمقدمة له، وكل ما في القرآن هو تفصيل لها.

سادساً: ينبغي التعامل مع القرآن الكريم بروح العربي الصريح، الذي يأبى اللف والدوران، وكثرة التعقيدات، وخلط الأمور ببعضها، وينبغي للباحث الموضوعي أن يعيش مع المعنى العام للنص، ويدرك الأهداف العامة للنص، لا أن يغرق في التفاصيل وينسى الغرض العام، ويبحث عن أشياء غريبة واستنتاجات شاذة يأباها العقل الصحيح، والذوق الرفيع، والحس السليم، فالقرآن كتاب واضح سهل، وهو كتاب هداية ورحمة، وشريعة الله سهلة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، والعرب لا يتحملون كثرة التعقيد للنصوص... وإنما من شروط فصاحة الكلام عندهم خلوه من التعقيد اللفظي والمعنوي، وهذه الشريعة عفوية جاءت للأميين الذين ليس لهم كتاب ولا دفتر، فينبغي التعامل معها بروح أدبية عالية، والنظر إلى زبدة الكلام كما ذهب إلى هذا شيخ البلاغة القرآنية جار الله الزمخشري(251).

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الناسخ والمنسوخ :النسخ هو استبدال حكم ورد في رسالة سابقة بآخر أيسر منه في رسالة لاحقة. فقد ينتقل بند من بنود شريعة ما كما هو إلى شريعة تالية (الفرقان)، أو يُعدَّل كحكم الزنا بالرجم عند موسى الذي تحوّل إلى حكم الجلد كحدّ أعلى عند محمّد (ص)، أو يُلغى كحكم قتل الولد العاق في شريعة موسى، أو يضاف بند جديد كالإرث في الرسالة المحمّدية. أمّا بين آيات التنزيل الحكيم فلا ناسخ ولا منسوخ لأنّ الرسالة المحمّدية هي الرسالة الخاتم وجاءت رحمة للعالمين لقوله تعالى :(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء 107)، خُففت فيها العقوبات التي كانت في الرسالات السابقة لها :(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ

(251) – ينظر: الكاشف، للطيبي، (433/2). شروح التلخيص (عروس الأفراح) للسبكي، (35/4، 262). و(شرح عقود الجمان) للسيوطي، ص (102).

عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...) (الأعراف 157). والرسالة المحمّدية هي المرحلة الانتقالية بين انتهاء الوحي الإلهي وانتهاء التشريع الإلهي وختمه بتوقف النسخ بين الرسالات الإلهية، وبداية التشريع الإنساني الحنيفي بالاجتهاد في تفصيل المحكم الذي جاء في الرسالة الإلهية الخاتمة. يتم النسخ بين التشريعات الإنسانية حسب تطوّر التاريخ وتطوّر الظروف الموضوعية للمجتمعات. والتشريع والنسخ الإنساني مهمّة البرلمانات والمجالس التشريعية. وأول تشريع إنساني واجب نسخه هو اجتهادات النبي (ص) التي قام فيها بتنظيم مجتمعه (قانون مدني) حسب ظروف التطوّر التاريخي لمجتمعه بدون أن يخالف التشريع الحنيفي الذي جاء في الرسالة الإلهية الموجودة في المصحف. واجتهاداته واجبة النسخ بعده لأنها أصبحت بعده اجتهادات متجاوزة معرفياً وتشريعيا".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، جاء في القاموس: "نسخَه: كمنعَه: أزاله، وغيره، وأبْطَلَه، وأقامَ شيئاً مُقامَه"[(252)].

ثانياً: تقدم الحديث عن الناسخ والمنسوخ في المبحث الثاني من الفصل الأول، وذلك عند قوله: "خامساً: أسس التشريع المعاصر" فيمكن أن يراجع هناك.

ثالثاً: قوله: " وأول تشريع إنساني واجب نسخه هو اجتهادات النبي (ص) التي قام فيها بتنظيم مجتمعه (قانون مدني) حسب ظروف التطوّر التاريخي لمجتمعه".

هذا هو إنكار للسنة النبوية، وحصرها في بيئة وزمن محددين، وقد تم تجاوزهما الآن! ومن ذلك الذي يستطيع أن يلغي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! إن حق النسخ والإلغاء في القرآن الكريم هو حق حصري لله تعالى وحده، قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106].

وحق الإلغاء والتعديل للسنة النبوية هو حق حصري لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فالله تعالى هو الذي يلغي لنبيه صلى الله عليه وسلم أمراً، أو يأمره وينهاه ويعدل له بعض التشريعات، قال تعالى:

(252) – القاموس المحيط، مادة (نسخ).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: 1]. وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يعدل في التشريعات كما يوحي إليه ربه، كقوله: (كنتُ نهيتُكم عنْ زيارةِ القبور ألا فزوروها؛ فإنها تَرِقُّ القلبَ، وتُدْمِعُ العينَ، وتُذَكِّرُ الآخرةَ، ولا تقولوا هُجْراً)(253).

ولا يجوز هذا لبشر من بعده كائناً من كان أن يعدل في أمر بسيط، فكيف بإلغاء سنته صلى الله عليه وسلم؟!

رابعاً: لا يجوز عقلاً ولا نقلاً التلاعب بنصوص الدين من كتاب وسنة، بالتعديل، والإلغاء، والحذف، والإضافة، أو تحريف الألفاظ، أو تبديل المعاني، أو السخرية منها، أو الثورة عليها، أو تشريع ما يشبهها، أو ينقضها، فحق التشريع في أمور الدين حق حصري لله وحده، ثم لرسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7].

خامساً: ومن شرع في دين الله ما يخالفه، أو استحدث به أمراً لم يأذن به الله، فهذا غير مقبول عقلاً ولا شرعاً، لأن من أحب ديناً فليتبعه كما أمر صاحبه، أما تغييره وتبديله بشكل جزئي أو كلي؛ فهو عدوان على الدين وصاحبه، فليس من يرفض الدين ويحاربه بأشد خطراً على الدين ممن يتلبس فيه ويقوم بتغييره من داخله، فالتغيير الداخلي بالتغيير والتبديل، والتغيير الخارجي بالفتك والحرب، كلاهما يهدفان إلى تغيير الدين وإزالته، وربما عجز العدو الخارجي في مشروع إزالة الدين فحققه له من تقمص الدين وراح يزيل ألفاظه ومعانيه عن مواضعها، أو يحرف دلالتها، فحقق لأعداء الدين ما عجزوا عن تحقيقه! ألا ترى إلى الشجرة الصامدة العاتية التي تستعصي على الرياح والأعاصير، تدخل فيها سوسة صغيرة، فتأكلها من داخلها، فإذا أكلتها ضعفت وهوت بعد صمود وشموخ!.

سادساً: إن التبديل والتغيير في الدين هو من كبائر الإثم والعدوان، جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31] الآتي: "رَوَى الْإِمَام أَحْمَد، وَالتِّرْمِذِيّ وَابْن جَرِير مِنْ طُرُق، عَنْ عَدِيّ بْن حَاتِم، رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَتْهُ دَعْوَة رَسُول اللَّه. صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَرَّ إِلَى الشَّام، وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّة، فَأُسِرَتْ أُخْته وَجَمَاعَة مِنْ قَوْمه، ثُمَّ مَنَّ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُخْته

(253) - رواه الحاكم عن أنس، انظر: الجامع الصغير، (56/5).

وَأَعْطاها، فَرَجَعَتْ إِلَى أَخِيهَا، وَرَغَّبَتْهُ فِي الْإِسْلَامِ وَفِي الْقُدُوم عَلَى رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَقَدَّمَ عَدِيّ الْمَدِينَة، وَكَانَ رَئِيسًا فِي قَوْمه طَيْء، وَأَبُوهُ حَاتِم الطَّائِيّ الْمَشْهُور بِالْكَرْمِ، فَتَحَدَّثَ النَّاس بِقُدُومِهِ، فَدَخَلَ عَلَى رَسُول اللَّه . صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَآله وَسَلَّمَ . وَفِي عُنُق عَدِيّ صَلِيب مِنْ فِضَّة، فَقَرَأَه رَسُول اللَّه . صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . هَذِهِ الْآيَة (اِتَّخَذُوا أَحْبَارهمْ وَرُهْبَانهمْ أَرْبَابًا مِنْ دُون اللَّه). قَالَ : فَقُلْت: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ. فَقَالَ (بَلَى، إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ الْحَلَال، وَأَحَلُّوا لَهُمْ الْحَرَام، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتهمْ إِيَّاهُم)"(254).

فالحذر الحذر من التلاعب بالنصوص المقدسة فهو هلاك للتابع والمتبوع، والله حسبنا ونعم الوكيل.

ولا ينبغي أيضاً لأي باحث موضوعي تسفيه السلف الصالح الذين حملوا لنا الكتاب والسنة، أو ازدراء العلماء الذين فسروهما، فهذا كله ليس من أخلاق العلماء، وهو أمر منهي عنه، وفيه فتح لمسالك الشيطان ومزالقه، ولذلك ينبغي للعلماء والباحثين الصادقين اجتناب هذا كله، وهذا من أبجديات البحث في النصوص الإلهية المقدسة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

سابعاً: الشريعة الإسلامية كتاب وسنة، ومن لم تعجبه الشريعة كما جاءتنا من مصادرها بيضاء نقية، فليدعها وليلتمس سواها، ولا يشوهها لنا بحجة التطوير والعصرنة، فيقلب الكلام ويتلاعب به، فالشرائع ثابتة لا تتطور ولا تتبدل، والعقل قد تلعب به الأهواء، وهو يختلف من شخص لآخر، فلا وصاية لأحد على هذه الأمة ليقوم بعقله القاصر فيحطم ديننا ونصوصنا المقدسة، ولا ينبغي أن تكون شريعتنا لعبة بين يدي البشر وأهوائهم، إنما قدرنا الذي رضيه الله تعالى لنا، وفي الحديث: (من لم يرضَ بقضاءِ الله ، ويؤمنْ بقدرِ الله، فليلتمس إلهاً غير الله)(255).

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"جاء (المجيء) :المجيء بالشيء هو إحضاره. وإحضار الشيء يكون من خارج دائرة من جاء به لقوله تعالى :(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) (مريم 43). فالفرق

(254) – تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، بتحقيق سامي محمد سلامة، (135/4).

(255) – رواه الطبراني في الأوسط عن أنس، وهو ضعيف، انظر: الجامع الصغير، (224/6).

في الآية واضح بين جاء وأتى، لأنّ العلم جاء لإبراهيم من ربّه أي من خارج دائرة إبراهيم المعرفية وهذا العلم غير موجود داخل الدائرة المعرفية لوالده. فالرسول (ص) جاءه الوحي من الله أي من خارج دائرته المعرفية وهذا الوحي مقدّس وأبدي، أمّا اجتهاداته (ص) في التشريع فقد أتى بها من داخل دائرته المعرفية وهي ظرفية مرحلية قابلة للنسخ".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي: "جاء يجيء جيْأةً، ومجيئاً، والمجيء كالإتيان، لكن المجيء أعمّ، لأن الإتيانَ مجيء بسهولة ... وجاء بكذا: استحضره"[256].

ثانياً: قوله: " فالفرق في الآية واضح بين جاء وأتى..." وبنى عليه أن الإتيان يأتي من داخل الدائرة المعرفية، وهذا باطل لغة وشرعاً، بدليل أن الإتيان جاء بنص القرآن للوحي من خارج الدائرة المعرفية، قال تعالى عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾ [الصافات: 117]. وقال عن إيتائه الإنجيل لعيسى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 46]. وقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: 30]. والدكتور شحرور لا يستقرئ نصوص الكتاب وآياته، وإنما ينتزع قواعده من آية دون النظر إلى غيرها، وهذا منهج يعطي تعميمات وأحكاماً خاطئة في النهاية.

ثالثاً: قوله: " أمّا اجتهاداته (ص) في التشريع فقد أتى بها من داخل دائرته المعرفية وهي ظرفية مرحلية قابلة للنسخ". فقد عاد يشنشن حول حجية السنة وإلغائها، وقد تم الرد عليه في الفقرة السابقة.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"آتى (إيتاء) :إيتاء الشيء هو إعطاؤه. وإيتاء الشيء المعطى يكون من داخل دائرة المعطي، لأنّ إيتاء الشيء يتطلّب أولاً امتلاكه قبل إعطائه لقوله تعالى :(وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَة) (النساء 4)، وقوله

(256) – المفردات في غريب القرآن، مادة (جاء).

تعالى :(وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا) (المزمل 20). فقوله تعالى :(...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ...) (الحشر 7) يعني ما أعطاكم الرسول من عطاء من عنده، أي ما صدر عنه من اجتهادات إنسانية متعلقة بالتشريع لمجتمعه في حياته باعتباره قائداً أعلى له ولا علاقة للأمر بالوحي. وفي هذه الاجتهادات كانت الطاعة واجبة على أهل زمانه فقط من أفراد مجتمعه. علما أنّ فعل أتى من نفس جذر فعل آتى لكن يختلف معه في المعنى، بحيث أنّ فعل أتى من الإتيان وهو فعل مجرد يقع على الفاعل بينما فعل آتى فمن الإيتاء وهو فعل مزيد ويقع على المفعول وليس الفاعل، فآتى الإنسان شيئا بمعنى أعطاه لغيره، بينما أتى الإنسان فمعناها حضر بنفسه كما جاء في قوله تعالى :(يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (الشعراء 88-89)".

تعقيب ومناقشة

قوله: " فقوله تعالى :(...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ...) (الحشر 7) يعني ما أعطاكم الرسول من عطاء من عنده، أي ما صدر عنه من اجتهادات إنسانية متعلقة بالتشريع لمجتمعه في حياته باعتباره قائداً أعلى له ولا علاقة للأمر بالوحي".

هذا الكلام كذب على اللغة وعلى الله ورسوله، وقد جاء بأمثلة فيها الإيتاء بشكل حسي، فأين هو من قوله تعالى:﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33] فإذا كان المال الذي عندنا هو مال الله، فكذلك العلم الذي عندنا هو علم الله، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255]. وما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من العلم والخير هو مما آتاه الله من الوحي، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]. وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: 99]. بل لا يجوز للإنسان أن ينسب شيئاً من العلم لنفسه، ألا ترى أن الله غضب على قارون لما قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: 78].

فما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من العلم هو وحي، وسنته وحي، حتى اجتهادته كانت وحياً، أراد الله من خلالها أن يعلم الأمة الاجتهاد، ويفتح لهم بابه ابتداءً بنبيهم معلم الخير الذي كان مفتاحاً لكل خير، مغلاقاً لكل شر.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"أولو الأمر :هم ممثّلو السلطة التشريعية في المجتمع لقوله تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ..) (النساء 59). وتكون طاعتهم واجبة على أفراد مجتمعاتهم في حياتهم فقط في ما يملونه عليهم من تشريعات (قوانين) تكون سائدة في حياتهم فقط. فطاعة النبي (ص) في ما صدر عنه من تشريعات كانت لازمة على أفراد مجتمعه في حياته فقط باعتباره كان وليّ أمر مجتمعه في ما أتاهم به من تشريعات (قانون مدني). لهذا جاءت طاعته كوليّ أمر منفصلة عن طاعة الله ومتّصلة بالمقابل بطاعة أولي الأمر، لأنّ الطاعة تكون للقانون فقط. فأولو الأمر هم الذين يمثلون السلطة التشريعية في أيّ مجتمع وبالتالي فإنّ الطاعة واجبة للتشريعات التي يسنّونها لا لأشخاصهم. وتشريعاتهم تقوم على ما يُطلق عليه "تقييد المطلق وإطلاق المقيّد"، ومعناه تنظيم الحلال بالأمر والنهي وهو ما يُعرف الآن بـ"القانون المدني""؟".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "أولو الأمر :هم ممثّلو السلطة التشريعية في المجتمع". هذا كلام فيه نظر، فقد ورد أنهم السلطة التنفيذية: الحاكم ومن يمثله، وورد عن ابن عباس وعطاء وجاهد: أنهم أهل الفقه والدين. وقد ذكر ابن كثير أحاديث كثيرة في طاعة الحكام والعلماء، وقال: (فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء) [257].

والجمع بين هذه الأقوال كلها: أن الطاعة مطلوبة لكل في اختصاصه، للحاكم، كما لعلماء الدين، كما للوالدين، وكل أمير ولي أمراً، كل واحد يطاع في حدود اختصاصه، ما لم يأمروا بمعصية أو ظلم.

(257) – انظر: تفسير القرآن العظيم، بتحقيق سامي محمد سلامة، (2/342-345).

ثانياً: قوله: "فطاعة النبي (ص) في ما صدر عنه من تشريعات كانت لازمة على أفراد مجتمعه في حياته فقط باعتباره كان وليّ أمر مجتمعه".. كلام يريد منه صرف الناس عن سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وقد حذر الله تعالى من مغبة عصيان الرسول صلى الله عليه وسلم، وهجر سنته الشريفة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الحنيفيَّة :هي صفة التغيّر بما في ذلك التغيّر في التفكير والتشريع والتقاليد والعادات، أي كلّ "المتغيّرات"، لقوله تعالى :(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الروم 30)، في ظلّ الثوابت التي لا تخضع للتحوّل "مستقيمة" والتي لا تخرج عنها المتغيّرات. هذه الثوابت هي "الصراط المستقيم" أي القيم الإنسانية بما فيها من محرّمات ونواهٍ وحدود الرسالة الإلهية. وعلى ضوء هذه الثوابت يحنف الإنسان في التشريع أي يغيّر تشريعاته بالأخذ في الاعتبار المتغيّرات. تجسِّد الحنيفية خاصّية العالمية في الرسالة الإلهية بتماشيها مع المتغيّرات حسب الزمان والمكان رحمة بالناس لقوله تعالى :(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء 107). فأوّل من اكتشف مبدأ التغيّر (الحنيفية) هو إبراهيم في قوله تعالى :(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(الأنعام 79)، أي اكتشف أنّ كلّ شيء متغيّر ما عدا الله. فالثابت هو الله فقط، وفي التشريع، الثابت عندنا هي المحرّمات الـ 14 التي جاءت مختومة في الرسالة المحمّدية وهي حصراً من عند الله، علماً بأنّ تشريع موسى وعيسى لم يكونا حنيفيين لذا ألغيا الآن تماماً. وقد انتقلت الحنيفيَّة من إبراهيم إلى محمّد (ص). الحنيفية تشجع التعددية مهما كان نوعها، لذا فإنّ الأحادية لله وحده عزّ وجلّ وهي الباقية أما التعددية في لغير الله وهي متغيرة دائما، وأي أحادية في أي مجتمع مهما كان نوعها فهي ضد الحنيفيَّة لأنها ضد الفطرة وفرضها يتم بالإكراه والعنف، لهذا فإن أي مجتمع يقوم على الأحادية مجتمع سكوني جامد لا يمكن أن يتطور ومصيره إلى الهلاك".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي: قال الراغب: "الحَنْفُ: هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة"(258). وقال الفيروزآبادي:"الحَنَفُ: الاستقامة، والاعوجاج في الرجل... والحنيفُ، كأمير: الصحيحُ الميلِ إلى الإسلام، الثابتُ عليه، وكلُّ منْ حجَّ، أو كان على دين إبراهيم"(259).

ثانياً: قال السيوطي معدداً معاني (حنيف): "حَنِيفاً : موحّداً. وقيل حاجّا. وقيل مُختتناً، وجمعه حُنَفَاء. والحَنِيف اليوم المسلم.وقيل: إنما سمي إبراهيم حنيفاً لأنه كان حنف عما كان يعبد أبوه وقومه من الآلهة إلى عبادة الله، أي عدل عن ذلك ومال. وأصل الحنَف مَيْلٌ من إبهامي القدمين كل واحدة منهما على صاحبتها(260).

ثالثاً: قوله: "الحنيفيَّة :هي صفة التغيّر بما في ذلك التغيّر في التفكير والتشريع والتقاليد والعادات...". معنى مستحدث لا يوافق اللغة، وهو غير صحيح بالمطلق، فالتغير صفة الشرك والمشركين، كل يوم يتخذون رباً جديداً وإلهاً مستحدثاً، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان: 43]. أما المؤمنون فثابتون عند عبادة إلهٍ واحدٍ منذ آدم إلى قيام الساعة، ويتوارثون دينهم عن آبائهم كما هو، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133].

رابعاً: الثبات والتغير لا علاقة له بالحنيفية، وقوله بأن إبراهيم اكتشف أنّ كلّ شيء متغيّر ما عدا الله. وأن الثابت هو الله فقط... هذا كلام غير صحيح، فكل مسلم قبل إبراهيم وبعده يعتقد أن الله حي لا يموت ولا يتبدل ولا يتغير، **ولا نقول عن الله ثابت كما قال الدكتور شحرور، فنحن لسنا في درس فيزياء نتكلم عن الثابت والمتحرك،** ولا نقول كما قال بأن موسى وعيسى ليسا على الحنيفية، فالأنبياء والرسل بعد إبراهيم كلهم على دين إبراهيم عليه السلام، وهو الحنيفية السمحة.

خامساً: قوله: "فأوّل من اكتشف مبدأ التغيّر (الحنيفية)". يجب أن نسمي الأشياء بمسمياتها، فالحنيفية هي العودة إلى التوحيد، وليست مبدأ التغير، لأنها لو كانت مبدأ التغير لكان كل من غير دينه إلى

(258) – المفردات في غريب القرآن، مادة (حنف).

(259) – القاموس المحيط، مادة (حنف).

(260) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (2/146).

دين آخر حنيفياً، ولكان كل من ابتدع ديناً جديداً، ومذهباً مستحدثاً حنيفياً، وهذا غير صحيح، فالحنيفية هي اتباع إبراهيم عليه السلام في عبادته لربه الواحد، وكونه غير عقيدة الناس من الشرك إلى الإيمان، فهذا التغيير المقيد بالنقلة من الشرك للإيمان هو الحنيفية، فإذا قلنا إن التغير فقط هو الحنيفية، ولم نقيده من الشرك إلى الإيمان فهذا بتر للحقائق، وتزييف للمعلومات.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الملّة : هي صفة الثبات في السلوك لا في الاعتقاد، أي الثبات في ممارسة الشعائر، وبسبب هذا الثبات في السلوك فإنّ الملل تختلف بعضها عن بعض وتتعدّد، إذ نجد أنّ هناك: الملة اليهودية، الملة المسيحية، الملة المحمّدية... وقد ذكر التنزيل الحكيم اختلاف الشعائر في الملل ولم يلغ أيّاً منها، ففي الملة المحمّدية جاءت الشعائر (الصلاة، الزكاة، الصوم، الحجّ) مع البعثة المحمّدية وظلت ثابتة كما هي من يومها حتى الآن، وكذلك شعائر الملّتين اليهودية والنصرانية كانت وما زالت ثابتة إلى يومنا هذا. أمّا التشريع في الرسالة المحمّدية فهو حنيفي متطوّر لقوله تعالى :(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (الروم 30)، أي يقوم على خاصّية التطوّر في التشريع "الحنيفية" وتبقى المحرمات هي الثوابت. والحنيفية ملّة إبراهيم لقوله تعالى :(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّه وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) (النساء 125). وقد ألغت الرسالة الخاتمة تشريع الملة اليهودية والنصرانية لأنّه تشريع ثابت لا يتّصف بالحنيفية، وجاءت بالحنيفية في التشريع، وعن هذا الأمر تحديداً جاء قوله تعالى :(وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ...) (البقرة 120)، أي أنّ رضاهم عن النبي (ص) كان مرتبطا باتباعه لهم في التشريع غير الحنيفي، لكنه (ص) لم يتبعهم في تشريعاته بل اتبع الحنيفية التي جاء بها إبراهيم، في حين أن الفقهاء بعده ألغوا الحنيفية في التشريع وسلكوا طريق التشريع غير الحنيفي في الفقه".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، قال الفيروز آبادي: "المِلَّةُ: الشريعةُ أو الدين، وتَمَلَّلَ وامْتَلَّ: دخلَ فيها"[261].

ثانياً: قوله: "الملّة هي صفة الثبات في السلوك لا في الاعتقاد، أي الثبات في ممارسة الشعائر" كلام لم يقله أحد قبله، ولا صلة له بالمعنى اللغوي، ويلاحظ هنا أن الدكتور شحرور لا يعبأ باللغة ولا معانيها ولا معاجمها، ويعطي المفردات المعنى الذي يريده ضارباً عرض الحائط بكل ما وعد به من اعتماد على معاجم اللغة العربية في منهجه.

ثالثاً: قوله: "وبسبب هذا الثبات في السلوك فإنّ الملل تختلف بعضها عن بعض وتتعدّد" هذا كلام غير صحيح، فاختلاف الملل بسبب اختلاف العقائد وليس السلوك، بل إن السلوك عند معظم الملل واحد، فالفضائل من صدق وكرم وشجاعة ووفاء وعدل ومحبة وأمانة هي فضائل عند الناس جميعاً، وضدها من كذب وجبن وغدر وظلم وبغض وخيانة هي رذائل عند الناس جميعاً، ولكن جوهر الاختلاف قائم في العقائد وليس في السلوك، وأصل الإيمان وأركانه واحدة عند جميع الأنبياء والمرسلين، وإنما نشأ الاختلاف بسبب تحريف الأتباع لكلام الله الذي أنزله في كتبه السابقة.

ثم هو سمى العبادات سلوكاً تهاوناً بشأنها، والسلوك هو الأخلاق، وأما العبادات فأركان وأسس، ولذلك لما ألف الإمام حجة الإسلام الغزالي كتابه: (إحياء علوم الدين) جعله أربعة أقسام: العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات. وجعل العبادات ومسائل الإيمان والاعتقاد في جزء واحد، وذلك أن الإيمان قول وفعل واعتقاد.

رابعاً: وفي هذا السياق قال ابن أبي العز: "والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق، وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة، فإن تلك إنما فسرتها السنة، والإيمان بين معناه الكتاب والسنة. فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2] الآية. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: 15]، الآية. وقوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]، فنفي الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل على

(261) – القاموس المحيط، مادة (ملل).

أن هذه الغاية فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد، ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذي وُعد أهلُهُ بدخول الجنة بلا عذاب"[262].

ولكن كعادته يقلب الدكتور شحرور كل شيء معكوساً، وقد ذكرني هذا بقول الشاعر **الأرجاني في وصف الزمان** وهو يخاطب الوزير شهاب الدين بن نظام الملك طالباً منه التجلد في مواجهة نوائبه:[263]

هذا زمانٌ على ما فيهِ من كـدرٍ يحكـي انقلابَ لياليهِ بأهليهِ
غديرُ ماءٍ تراءى في أسافلِـهِ خيـالُ قومٍ قيامٍ في أعاليهِ
فالرجلُ تبصرُ مرفوعاً أخامصها والرأسُ يوجدُ منكوساً نواصيهِ
صابرْ زمانَك تعبرْ عنك شـدتُـهُ وأمهلِ الرفقَ يخلصْ منه صافيهِ

خامساً: قوله: "أمّا التشريع في الرسالة المحمّدية فهو حنيفي متطوّر". نقول: لا علاقة للتطور بالحنيفية، والتشريع منه ما هو ثابت كالحدود، ومنه ما هو متغير يتبع العرف والاجتهاد كالتعزير في العقوبات مثلاً.

سادساً: قوله: "وقد ألغت الرسالة الخاتمة تشريع الملة اليهودية والنصرانية لأنّه تشريع ثابت لا يتّصف بالحنيفية". يُقال له: لا علاقة مباشرة للتطور بنسخ الشرائع السابقة، فقد كان السبب المباشر للنسخ بسبب ما دب إليها من تصحيف وتحريف.

سابعاً: قوله عن اليهود والنصارى: "أي أنّ رضاهم عن النبي (ص) كان مرتبطاً باتباعه لهم في التشريع غير الحنيفي". هذا كلام غير صحيح، فالخلاف كان حول قضايا تتعلق بالعقيدة، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: 30].

(262) - شرح الطحاوية، صدر الدين علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق أحمد شاكر، ص(350-351)، نشر وزارة الشئون الإسلامية والدعوة والإرشاد، الرياض، 1418هـ.

(263) - مختارات البارودي (3/134-135).

ثامناً: قوله: بأن "الفقهاء بعده ألغوا الحنيفية في التشريع وسلكوا طريق التشريع غير الحنيفي في الفقه"، حكم بغير دليل، وكعادته يطلق الدكتور شحرور الأحكام بلا أدلة رَشَّاً لا دِراكاً، وكأن هذا من مقتضيات المنهج التاريخي العلمي، أو من من مقتضيات العصر العلمي، أو هو آخر ما توصل له علم الألسنة الذي يدعي أنه يتكئ عليه!!!

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الظلم: هو وضع الشيء في غير محله، وبشكل عام هو الوقوع في الوهم، فالذي يعطي أجرا لإنسان دون المستحق فهو يظلمه بذلك لأنه ظن أنه لا يستحق أكثر. وهذا هو المعنى العام للظلم، فمن يقدس مظاهر الطبيعة يظلم نفسه لأنه يقع في الوهم بأن مظاهر الطبيعة تضر وتنفع. وكذلك من يقدس الأصنام والتماثيل والاعتقاد بثبات الظواهر والمجتمعات يعتبر ظالما لنفسه لأنه وقع في الوهم وفي نفس الوقت ظلم غيره باعتقاده كما جاء في قوله تعالى :(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا) (الكهف 59)، لأنه لا يمكن أن يهلك القرى إلا أذا توقفت عن الحركة والتطور في هذا الكون المتحرك. وقد ورد مصطلح الظلم كثيرا في التنزيل الحكيم لذا علينا أن نفهم المعنى المقصود منه ضمن للموضوع الذي ذكر فيه".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، قال الراغب: "والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضعُ الشيء في غير موضعه المختص به؛ إما بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإما بعدولٍ عن وقته ومكانه، ومن هذا يقال: ظلمتُ السِّقاء: إذا تناولته في غير وقته، ويسمى ذلك اللبن: الظَّليم. وظلمتُ الأرضَ: حفرتُها ولم تكن موضعاً للحفر، وتلك الأرض يقال لها المظلومة..."(264).

ثانياً: قوله عن سبب الظلم: " وبشكل عام هو الوقوع في الوهم" كلام غير صحيح، فالظلم قد يكون بسبب الوهم أو متعمداً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ

(264) – المفردات في غريب القرآن، مادة (ظلم).

عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93]، فها هنا مجرم يتعمد القتل، وليس الموضوع هو الوهم، وكثيراً ما يظلم الناس بعضهم بعضاً، قال المتنبي(265):

والظلم من شيم النفوس فإن تجدْ ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يظلـــمُ

ثالثاً: ذكر السيوطي بأن الظلم: "يقع في القرآن على ثلاثة معان: الكفر، والمعاصي، وظلم الناس، أي التعدّي عليهم، والجور والسفَه، والظلم والتعدي بمعنى واحد، ولا يوصف سبحانه بها، لأنه لا رَاحِمَ فوقه ولا زاجر، فأفعالُه تعالى لا يقارنها نهي، وإنما يتصوَّر ذلك في حقوقنا المقارنة النهي لأفعالنا النهي عنها"(266).

رابعاً: قوله: " لا يمكن أن يهلك القرى إلا أذا توقفت عن الحركة والتطور في هذا الكون المتحرك" هذا كلام قد يعجب رجال الأعمال الذين يبحثون عن مصالحهم الاقتصادية، ولكنه ليس بكلامٍ شرعي، ولا علمي، فالحركة والتطور شأن اجتماعي حضاري يخص الناس، والدين جاء للبدو والحاضرة، ولا يضره أن تسكن خيمة، ولا أن تسكن قصراً، ولا يهلك الله الناس إلا بسبب ذنوبهم ومعاصيهم كما قال تعالى عن قوم نوح الذي أشركوا فدمرهم بذنوبهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا، مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: 23-25].

خامساً: كل ما في هذا الكون يتحرك، ورحم الله أبا العلاء حين قال: (267)

إذا فاتَكَ الإثراءُ من غيرِ وجهِهِ
فإنّ قليلَ الخَلّ أولـى وأبْرَكُ
ونحنُ، بعلمِ اللّهِ، مـن مُتَحَرِّكٍ
يُرى ساكِناً، أو ساكنٍ يتَحَرّكُ

---

(265) – مختارات البارودي، (41/1).

(266) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (221/2).

(267) – اللزوميات، (152/2)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، 1986م.

فالنجوم المتحركة تبدو ساكنة وهي تتحرك، وأجسامنا حين ننام ساكنة ولكن كل أجهزتها وخلاياها تتحرك، فكل شيء في هذا الكون يتحرك إما فيزيائياً، أو عبر خياله وتفكيره، فلا داعي لأن يهلك الله القرى لأجل الحركة وهو الذي حركها، وفي هذا الصدد يقول عبد الغني النابلسي:

رأيتُ خيالَ الظلِّ أكبرَ عبرةٍ — لمنْ هوَ في علمِ الحقيقةِ راقي

شخوصٌ وأشباحٌ تمرُّ وتنقضي — وتفنى جميعاً والمحركُ باقي

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"التمام والكمال :التمام هو اكتمال المستمرّ دون انقطاع. فالصيام مثلاً يجب إتمامه دون انقطاع لقوله تعالى: (...وَكُلُواْ وَاشرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشرُوهُنَّ...) (البقرة 187). أمّا الكمال فهو اكتمال المتقطع كما هي حال الرضاع لقوله تعالى :(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ...) (البقرة 233). فالرضاع يتمّ على فترات متقطعة على عكس الصيام في اليوم الواحد الذي يكون مستمرّاً. ونجد المصطلحين معاً في قوله تعالى :(...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا...) (المائدة 3)، إذ بالنسبة لقوله :(أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) يُفهم منه أنّ الله عز وجلّ أكمل في الرسالة المحمّدية دينه الذي جاء متقطعاً حسب فترات بعث الأنبياء والرسل، وبالنسبة لقوله :(وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) يُفهم منه أنه أتمّ نعمته على عباده التي لم تنقطع يوماً منذ خلقهم".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي: "الكمال: التمام، كَمَلَ: كنَصَرَ، وكرُمَ، وعلِمَ، كمالاً وكُمولاً..." (268).
وقال الراغب: "تمام الشيء: انتهاؤه إلى حد لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، والناقص: ما يحتاج إلى شيءٍ خارج

(268) – القاموس المحيط، مادة (كمل).

عنه. ويقال ذلك للمعدود والممسوح، تقول عدد تام وليل تام، قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: 115]، ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف: 8]، ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشر﴾ [الأعراف: 142]"[269].

وقال الراغب: "كمال الشيء: حصول ما فيه الغرض منه، فإذا قيل: كمل ذلك، فمعناه: حصل ما هو الغرض منه"[270].

ثانياً: الصحيح في الفرق بين الكمال والتمام ما قاله أبو هلال العسكري وهو: "أن قولنا كمال اسم لاجتماع أبعاض الْمَوْصُوف بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ المتكلمون: الْعقل كَمَال عُلُوم ضروريات يميز بهَا الْقَبِيح من الْحسن يُرِيدُونَ اجْتِمَاع عُلُوم، ولا يقال: تَمام عُلُوم لِأَن التَّمام اسْم للجزء،، وَالْبَعْض الَّذِي يتم بِهِ الْمَوْصُوف بِأَنَّهُ تَامّ، وَلِهَذَا قَالَ أَصْحَاب النّظم: القافية تَمام الْبَيْت، وَلَا يُقَال: كَمَال الْبَيْت، وَيَقُولُونَ: الْبَيْت بِكَمَالِهِ، أي باجتماعه، وَالْبَيْت بتَمَامِهِ أَي بقافيته ، وَيُقَال: هَذَا تَمام حَقك للْبَعْض الَّذِي يتم بِهِ الْحق، وَلَا يُقَال: كَمَال حَقك. فإن قيل: لم قلت: إِن معنى قَول الْمُتَكَلِّمين: كَمَال عُلُوم اجْتِمَاع؟ قُلْنَا: لَا اخْتِلَاف بَينهم فِي ذَلِك، وَالَّذِي يُوضحهُ أَن الْعقل الْمَحْدُود بأنه كَمَال عُلُوم هُوَ هَذِه الْجُمْلَة. واجتماعها، وَلِهَذَا لَا يُوصف الْمُرَاهق بِأَنَّهُ عَاقل، وَإِن حصل بعض هَذِه الْعُلُوم أَو أَكْثَرهَا لَهُ، وَإِنَّمَا يُقَال لَهُ عَاقل إِذا اجتمت لَهُ"[271].

ثالثاً: قوله: " وبالنسبة لقوله :(وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) يُفهم منه أنه أتمّ نعمته على عباده التي لم تنقطع يوماً منذ خلقهم". المقصود بالنعمة الهداية وليس النعم التي لا تنقطع منذ خلقهم الله تعالى كما ظن الدكتور شحرور، فالنعم لا حصر لها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 18]. وهي مستمرة إلى يوم القيامة، وإنما حديثه عن نعمة الإيمان والهداية، وهذا يشبه أسلوب قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115].

***

(269) – المفردات في غريب القرآن، مادة (تمم).

(270) – المصدر السابق ، مادة (كمل).

(271) – الفروق اللغوية، حققه محمد إبراهيم سليم، ص(263)، دار العلم والثقافة، القاهرة.

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الحرام :(SIN) هو حكم شامل أبدي ثابت بالمنع الذي لا رخصة فيه، خصّ به الله عزّ وجلّ نفسه حصراً لأنّه يمثّل حاكمية الله. والحرام لا يتغيّر إلّا بإرسال رسول جديد عنده بيّنات من ربّه. والمحرّمات في حقيقتها قيود تكبّل السلوك الإنساني، كانت في رسالة موسى كثيرة لكن على شكل أوامر ونواهٍ، ثم صارت في رسالة محمّد (ص) محرّمات ختمت وحصرت بالعدد (14) محرّماً فقط مصداقاً لقوله تعالى :(...يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...) (البقرة 185)، بحيث جاء أحد المحرّمات في تحريم التقوّل على الله أي إضافة محرّمات إلى محرّماته أو تحليل أحد محرّماته لقوله تعالى :(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (الأعراف 33)، فالتقوّل على الله محرّم ويأتي من ضمنه إضافة محرّمات إلى محرّمات الله أو تحليل محرّماته لقوله تعالى :(وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ) (النحل 116). والاجتهاد الإنساني يكون في تفصيل المحرّمات الـ 14 فقط كما جاء في الرسالة وفي تقييد الحلال لأنّ الحلال لا يمارس إلّا مقيّداً".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، جاء في المعجم الوسيط: "حَرمَ فلاناً الشيءَ ـِ حِرْماناً: منعَه إيَّاه.(حَرُمَ) الشيءُ ـُ حُرْمَة: امْتنع. ويقال: حَرُم عليه كذا. و.الصلاةُ حُرْماً: امتنَع فعلها.(أحْرَم) الرجلُ: دخل في الحَرَم، أو البلدِ الحَرَام، أو في الشَّهر الحَرام، أو في حُرْمة من عهدٍ أو ميثاق. و.بفلان: نَزَل في حَرَمه احتماءً به. و. بالصَّلاة: دخل فيها. و.عن الشيء: أمْسَك. و.بالحجِّ أو العمرة: دخل في عَملٍ يحرم عليه به ما كان حَلالاً.(حَرَّم) الشيءَ عليه أو على غيره: جعله حراماً"(272).

ثانياً: التحريم هو المنع، وصيغ المنع كثيرة، منها النهي، وقد سبق مناقشة هذا الموضوع في المبحث الثاني من الفصل الأول، عند النقطة السابعة من"خامساً: أسس التشريع المعاصر".

(272) – المعجم الوسيط، مادة (حرم).

ثالثاً: للرسول. صلى الله عليه وسلم. حق التحليل والتحريم، فهو مبلغ عن ربه عز وجل، ومؤتمن على وحي السماء.

رابعاً: المحرمات في نصوص الكتاب الحكيم والسنة النبوية الشريفة أكثر من سبعين، وليس أربعة عشر محرماً كما يقول الدكتور شحرور، وقد تقدم سردها في الفقرة المشار إليها آنفاً.

خامساً: استعماله لمصطلح ''حاكمية الله'' يريد من خلاله تسويق نفسه، فقد كثر استخدام هذا المصطلح بين العلماء والدعاة اليوم، وهو يدل على تأثره. ولو شكلياً. بكاتب إسلامي معاصر استخدم هذا المصطلح بكثرة في كتاباته، وهو صاحب تفسير الظلال، بيد أن الأخير. رغم بعض الملاحظات العلمية عليه. فإنه قد التزم اتباع السنة، وقضى خلف الأسوار، ولم تكن رسالته هدم تراث العرب والمسلمين، ويكفيه ما ذكره مؤرخ الأمة خير الدين الزركلي في ترجمته: ''ولما وصل خبر استشهاده إلى المغرب أُقيمت على روحه صلاة الغائب، وأصدر أبو بكر القادري عدداً خاصاً به من مجلة (الإيمان)، ولما كانت النكسة (أو النكبة) عام 1967م، قال علال الفاسي: ما كان الله لينصر حرباً يقودها قاتل سيد قطب''[273].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

''الفواحش :هو جمع مفرد فاحشة. وهي كلّ ما يُكره فعله أو قوله، أي كلّ ما تأنفه الفطرة الإنسانية السليمة التي لم يَشُبْها أيّ خلل، وله علاقة بالجنس لقوله تعالى :(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ...) (آل عمران 135)، والفواحش من المحرّمات لقوله تعالى :(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...) (الأعراف 33). وعدد الفواحش ست (6) هي: نكاح المحارم، نكاح المتزوّجة، الزنا (الجنس العلني)، السفاح (الجنس الجماعي)، المثلية الجنسية (الأخذان)، ونكاح ما نكح الآباء (الأصول من جهة الأب والأمّ مهما علت بمن فيهم الأعمام والأخوال). والفواحش قسمان ظاهرة وباطنة، فالظاهرة هي: نكاح المتزوّجة والزنا والسفاح ونكاح ما نكح الأب. والباطنة هي: نكاح المحارم والمثلية الجنسية. والفواحش باطلة كلّها حتى لو قونَنْتها المجالس التشريعية والبرلمانات''.

---

(273) – الأعلام (3/147-148).

تعقيب ومناقشة

أولاً: جاء في التعريف اللغوي: "فَحِش القولُ والفعلُ ُ فُحْشاً: اشتدّ قبحه. و الأمرُ: جاوز حدّه. فهو فاحِش، وفَحّاش. (فَحُش) ُفُحشاً، وفَحَاشَة: فَحَش. ويقال: فَحُش على من معه. (أَفْحَشَ): أتى بالفُحْش. ويقال: أفحش عليه في المنطق. (فَحَّشَ) بالشيء: شنّع. (تَفَاحَشَ): أظهر الفُحش. والقومُ: تراموا بالفُحش. و الأمرُ: اشتد قبحه. (تَفَحّش): تفاحش. و بالشيء: شنّع. (الفَاحِشَة): مؤنث الفاحِش. و القبيح الشنيع من قول أو فعل. (ج) فَوَاحِش. وفي التنزيل العزيز: {قل إنّما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن}. (الفُحْش): القبيح الشنيع من قول أو فعل. (الفَحْشَاء): الفُحْش. وفي التنزيل العزيز: {الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء}"[(274)].

ثانياً: قوله: "وله علاقة بالجنس"، هذا كلام غير دقيق، فلا يشترط ذلك وفق التعريف اللغوي والشرعي، قال الراغب: "الفُحشُ والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال"[(275)]. وسرد عدداً من الآيات الكريمة تؤيد ما قاله...

ثالثاً: قوله: "والفواحش باطلة كلّها حتى لو قونَنْتها المجالس التشريعية والبرلمانات". كلام سليم وجيد، فليست وظيفة البرلمانات تحليل الحرام أو تحريم الحلال، فهذا متروك للشرائع والأديان في كل مجتمع وأمة.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الخمر :هي كلّ شراب وصل بشاربه إلى حدّ السكر بغضّ النظر عن طريقة تناوله (الفم، الحقن، الشم...)، بحيث لا يعلم ما يقول ولا يميّز ما يفعل لقوله تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ...) (النساء 43). وقد سُمّيت الخمر خمراً لأنها تغطي بخمارها (السكر) على العقل. والسُكر لا علاقة له بالكمّية المشروبة وبعدد الكؤوس لاختلاف البشر بعضهم عن

(274) – المعجم الوسيط، مادة (فحش).

(275) – المفردات في غريب القرآن، مادة (فحش).

بعض. والسكر هو رجس الخمر المنهيّ عنه في قوله :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة 90)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي: "أصل الخمر: ستر الشيء، ويقال لما يُستر به خُمار... والخمرُ سميت لكونها خامرةً لمقر العقل، وهو عند بعض الناس اسم لكل مسكر"[276].

ثانياً: قوله: "والسكر هو رجس الخمر المنهيّ عنه" غير صحيح، فالمنهي عنه الخمر بحد ذاتها، وهي رجس ولو لم يشربها الإنسان، ولا يجوز حملها وبيعها والتجارة بها لأنها رجس.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الرجس :هو الاختلاط في الأمور أو ما يسمى باللغة الإنجليزية confusion، فرجس الخمر هو السكر حيث وصفه التنزيل الحكيم في قوله:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ..) (النساء 43). ورجس الأوثان أن تختلط عليك الأمور بأن تظن أن الأوثان تنفع أو تضر، فالأوثان ظاهرة عامة وتشمل: 1.عبادة وتقديس ظواهر الطبيعة من رعد وبرق ونار... وتقديس الكواكب والقمر والنجوم...2. تقديس مجسمات لا تعبر عن شيء بعينه كمزيج بين جسم إنسان ورأس حيوان أو العكس. وهذه من الأصنام فمثلا أصنام الكعبة قديما لم تكن مجسمات تمثل أحدا بعينه. 3. التماثيل: كأن تصنع تمثالا لشخص بعينه مثل تمثال سعد زغلول بمصر.

بالنسبة للوثنية المرتبطة بمظاهر الطبيعة، ولأنه لا يمكن إزالة هذه المظاهر من الوجود، فقد قال تعالى بشأنها :(..فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ..)(الحج 30) بمعنى اجتناب أن تختلط عليكم الأمور فيها فتظنوا أنها تنفع وتضر. وقد تطور مستوى وعي الإنسان في العصر الحالي بحيث أصبح يدرك أن مظاهر الطبيعة لا تنفع ولا تضر، وكذلك أصبح يدرك أنّ التماثيل التي تمثل رموزا وطنية أو منحوتات تاريخية لا تنفع ولا تضر وبالتالي لا ضرورة من إزالتها، لأن الاختلاط في الأمور (الرجس) بشأنها لم يعد موجودا كما

(276) – المصدر السابق، مادة (خمر).

كان في السابق. وبالتالي تحريم النحت والرسم لا مبرر له نهائيا، وكذلك وضع الرموز المنحوتة كتمثال الحرية مثلا لا علاقة له بالحرام إطلاقا".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي: " الرِّجْسُ): القَذَر. و . الشيء القَذِر. و . الفعل القبيح. و . الحرام. و . اللَّعنة. و . الكُفْر. و . العذاب. وفي التنزيل العزيز: (وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ). ورجْسُ الشَّيْطَان: وسْوَسَتُه. (ج) أَرْجاس"[277].

ثانياً: نجاسة الأوثان والتماثيل معنوية لا حسية.

ثالثاً: قوله: " الرجس_:هو الاختلاط في الأمور..." هذا كلام غير صحيح، ولم يرد في المعجم العربي.

رابعاً: الرسم ليس محرماً، والمساجد الإسلامية مليئة بالرسومات المختلفة، ومنها مسجد بني أمية بدمشق، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. وكذلك فن النحت مباح، والزخارف الإسلامية والنقوش في العمارة الإسلامية منتشرة في العالم كله، وإنما المحرم من النحت فقط التماثيل والأوثان.

خامساً: إباحته للتماثيل بقوله: " وقد تطور مستوى وعي الإنسان في العصر الحالي بحيث أصبح يدرك أن مظاهر الطبيعة لا تنفع ولا تضر، وكذلك أصبح يدرك أنّ التماثيل التي تمثل رموزا وطنية أو منحوتات تاريخية لا تنفع ولا تضر".

هذا كلام غير صحيح، فالصين والهند وبعض القبائل بأفريقيا وأمريكا اللاتينية مما يقرب أن يشكل حوالي 50٪ من سكان العالم هم من عبدة الأوثان، فالعقل البشري مازال يفصل بين العلم الحديث والطقوس الدينية.

سادساً: التحليل والتحريم حق لله وحده، وليس لبشر أن يفعل ذلك، فمن حلل محرماً أو حرم محللاً فقد أعظم الفرية على الله تعالى! وصادر حقاً من حقوق الربوبية لنفسه، نعوذ بالله من غضب الله!.

***

(277) – المعجم الوسيط، مادة (جنب).

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"اجتنبوا :يأتي هذا الفعل في التنزيل الحكيم للظواهر التي نواجهها بشكل مباشر دون أن نقصدها، كأن تقول لإنسان يقود السيارة "اجتنب الحفر في الطريق" أي أنه سيصادفها في طريقه دون أن يقصدها. ومثالها ظواهر الطبيعة من نجوم وكواكب وقمر ورعد وبرق ونار... التي علينا اجتناب الرجس فيها أي الاعتقاد بأنها تملك قوى خارقة تستطيع أن تنفعنا وتضرنا بها :(..فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ..) (الحج 30). واجتناب قول الزور الوارد في قوله :(..وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ..) (الحج 30) فمعناه اجتناب اللغو في القول كأن تمدح أو تذم بضاعة أو نحوها، ويختلف عما جاء في قوله تعالى :(..وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى..) (الأنعام 152)، فالمقصود في هذه الآية هو الإدلاء بالشهادة في القضاء لذا طلب العدل فيها. أما الخمر بمعناه العام فشائع استعماله في العالم بأسره بحيث نصادفه دون أن نقصده بحيث يمكننا أن نصادفه دون أن نقصده، وبالتالي اجتناب رجس الخمر بمعنى اجتناب السكر فقط، وهو الإثم بغير الحق، أما السكر من أجل التخدير في العمليات الجراحية فهو إثم بحق".

تعقيب ومناقشة

أولاً: اجتنبوا: فعل أمر ومعناه ابتعدوا، وفي اللغة: اجتنبَ الشيءَ ابتعدَ عنه[278].

ثانياً: التعبير باجتنبوا غاية في التحذير من الاقتراب من المحظور، فمجرد القرب منه غير مسموح، خشية الوقوع به.

ثالثاً: قوله: "اجتنبوا :يأتي هذا الفعل في التنزيل الحكيم للظواهر التي نواجهها بشكل مباشر دون أن نقصدها، كأن تقول لإنسان يقود السيارة "اجتنب الحفر في الطريق".

هذا الكلام قصور في الفهم اللغوي، فكلمة اجتنبوا تستخدم للظواهر التي نواجهها بشكل مباشر سواء كنا نقصدها، أو لا نقصدها، وإنما يحمل الفعل [أي فعل] معنى السياق الذي يأتي فيه، ولنضرب مثالاً على ذلك: إذا قال الرجل لصديقه بنبرة حادة: قتلتني فهذا يعني آلمتني أشد الألم، ولكن إذا قال المحب لحبيبه قتلتني فهذا مقام تودد وغزل، وعليه قول امرئ القيس:

(278) – انظر: المعجم الوسيط، مادة (رجس).

أغرك مني أن حـبك قاتلي

وأنك مهما أمرت القلب يفعلِ

وقوله:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي

ومسنونة زرق كأنياب أغوالِ

ففي المرة الأولى: استلذ القتل لأنه من حبيب، وفي الثانية: استبشعه واستنكره لأنه من خصم. والأوامر التي تأتي من الله تعالى كلها أوامر جادة لا لهو فيها ولا هزل، فهي أوامر صارمة، فحين يقول اجتنبوا فهو يرفض اقترابنا منها بقصد أو بدون قصد.

ثم هل في العالم عاقل يعبد الأوثان، أو يلعب الميسر، أو يشرب الخمر سهواً دون قصد؟! لقد أغرب الدكتور شحرور جداً هنا، وتعامل مع الناس كأنهم أطفال بلا عقول، وتعامل مع الأوثان كأنها دمى، يقترب منها الطفل سهواً ليلعب بها لا ليعبدها!.

رابعاً: قوله: " وبالتالي اجتناب رجس الخمر بمعنى اجتناب السكر فقط، وهو الإثم بغير الحق، أما السكر من أجل التخدير في العمليات الجراحية فهو إثم بحق". هذا كلام باطل، فالمطلوب اجتناب الخمر وليس رجسها فقط، أما التخدير في العمليات الجراحية فهو مباح، وليس إثماً بحق ولا ما يحزنون، ولا يسمى سكراً، فالسكران رجل يهذي والمريض المخدر ينام، ولا علاقة بينهما، وإن تشابه تأثير كل من الخمر والتخدير على العقل البشري، ولكن كلا منهما من واد يختلف عن صاحبه.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"لا تقربوا : تستعمل للأمور التي نقصدها عن سابق إصرار ووعي مثل الفواحش فإننا لا نصادفها دون قصد بل نقصدها في مظانها :(..وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ..) (الأنعام 151). وكذلك الأمر بالنسبة لمال اليتيم فإنك تقصده لأخذه :(وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ..) (الأنعام 152)، فنحن نعلم أنه مال اليتيم ولا نصادفه في أي تعامل مالي".

تعقيب ومناقشة

قوله: " لا تقربوا :تستعمل للأمور التي نقصدها عن سابق إصرار ووعي"، لا علاقة عند القصد بالإصرار والوعي من عدمه، فالنهي عن الاقتراب، سواء بوعي أو بلا وعي! فهل يُرخص للسكران مثلاً قرب الفواحش، لأنه قصدها بلا وعي؟! ولا أدري من أين يخترع الدكتور شحرور معاني لغوية من عندها لا يقرها المعجم ولا السياق ولا المصادر البحثية، ويسقطها على اللغة والقرآن ادعاءً بلا برهان... وإنما العلم بالدليل وإلا لادعى كل امرئ ما يريد!

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الإثم :له معنى عام هو التخلف عن الشيء، نقول أثمت الناقة أي تخلفت في المسير عن غيرها. وقد جاء الإثم والبغي بغير حق كأحد المحرمات لأن اقترافهما تخلف عن العمل الصالح. فقولنا لأحدهم لا إثم عليك إذا قام بعمل ما، بمعنى أنه لم يتخلف في الثواب أو في العمل عمّن لم يقم به والعكس صحيح. فالسكر فيه إثم كبير :(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ..) (البقرة 219)، لأن من سكر يتخلف في السيطرة على سلوكه وكلامه عمّن لم يسكر، أما السكر من أجل التخدير للعلاج فهو إثم بحق لهذا قال عنه :(وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) .كذلك من يشرك بالله فقد اقترف إثما عظيما :(..وَمَن يُشركْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا) (النساء 48)، بمعنى أنه رجع أشواطا بعيدة عمّن لم يشرك به".

تعقيب ومناقشة

أولاً: في المعجم: "أثِمَ: أَثَماً، وإثْماً، وأَثَاماً، ومَأْثَماً: وقع في الإثم. فهو أَثِم، وآثِم، وأثِيم، وأَثَّام، وأثُوم.آثَمَهُ إيثاماً: أوقعه في الإثم.أثَّمه: عَدَّهُ آثِماً.تَأَثَّم: تجنَّب الإثْم. تقول: فلان يتأثَّم من الصغائر. و. تاب من الإثْم واستغفر.الأَثَام: الإثم. و. جزاء الإثم. وفي التنزيل العزيز: (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثاماً، يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ).الإِثْم: الذَّنْب الذي يَسْتحقّ العُقوبة عليه. (ج) آثام"(279).

(279) – المعجم الوسيط، مادة (أثم).

ثانياً: يأتي الإثم في القرآن "على ستة أوجه: أحدها: الزنا. والثاني: الخطأ. والثالث: الشرك. والرابع: المعصية دون الشرك. والخامس: الحرام. والسادس: الخمر. والدكتور شحرور لا يذكر إلا معنى واحداً للإثم، وهذا قصور علمي، وفيما يأتي تفصيل المواقع الستة:[280]

أحدهَا :الزِّنَى. وَمِنْه قَوْله تَعَالَى [فِي الْأَنْعَام] : (وذروا ظَاهر الْإِثْم وباطنه).

وَالثَّانِي :الْخَطَأ .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْبَقَرَة :(فَمن خَافَ من موص جنفا أَو إِثْمًا).

وَالثَّالِث :الشرك .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْمَائِدَة :(وَترى كثيرا مِنْهُم يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْم والعدوان)، وفيهَا :(لَوْلَا ينههم الربانيون والأحبار عَن قَوْلهم الْإِثْم).

وَالرَّابِع :الْمعْصِيَة دون الشرك .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْبَقَرَة :(تظاهرون عَلَيْهِم بالإثم والعدوان)، وفيهَا :(فَمن تعجل فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْم عَلَيْهِ)، أَي :فَلاَ ذَنْب عَلَيْهِ .وَفِي الْمَائِدَة :(لَا تعاونوا على الْإِثْم والعدوان)، وفيهَا :(فَمن اضْطر فِي مَخْمَصَة غير متجانف لإثم)، وَفِي المجادلة :(فَلاَ تتناجوا بالإثم والعدوان).

وَالْخَامِس :الْحَرَام .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة النِّسَاء :(أتأخذونه بهتانا وإثما مُبينًا).

وَالسَّادِس :الْخمر .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَعْرَاف :(قل إِنَّمَا حرم رَبِّي الْفَوَاحِش مَا ظهر مِنْهَا وَمَا بطن وَالْإِثْم وَالْبَغي بِغَيْر الْحق)، وَالْإِثْم فِيمَا يُقَال :اسْم للخمر مَشْهُور عِنْدهم .وأنشدوا:

شربت الْإِثْم حَتَّى ضل عَقْلِي ... كَذَاك الْإِثْم يذهب بالعقول

ثالثاً: قوله: " أما السكر من أجل التخدير للعلاج فهو إثم بحق"... هذا كلام خاطئ، ففي حالة العلاج لا تكون إثماً مطلقاً، والضرورات تبيح المحظورات، وهذا مقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 173].

***

(280) – نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص (147-149).

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"البغي :هو طلب شيء ما للحصول عليه. وهناك بغي بحق وبغي بغير حق. فهناك من يقدم شيئا تطوعا فيسمى ابتغاء كما جاء في قوله تعالى:(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشري نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) (البقرة 207). والبغي بحق هو أخذ الأشياء بموافقة أصحابها كأن تشتري شيئا وتدفع ثمنه. أما البغي بغير حق فهو كل شيء يؤخذ من الغير بغير موافقته، وتحت هذا البند تندرج كل أنواع السرقة والاحتيال والابتزاز...وهو من المحرمات :(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (..الأعراف 33)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، "قال الزجاج: معنى البغي في اللغة: قصد الفساد... قال ابن فارس: البغية: الحاجة. وبغيتك الشيء: طلبته لك. وابتغيتك: أعنتك على طلبه"[281].

ثانياً: والبغي في القرآن يأتي على ثلاثة أوجه: الظلم، والمعصية، والحسد، وفيما يأتي تفصيلها:[282]

أحدهَا :الظُّلم . وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَعْرَاف :(وَالْإِثْم وَالْبَغي بِغَيْر الْحق) ، وَفِي النَّحْل :(وينْهى عَن الْفَحْشَاء وَالْمُنكر وَالْبَغي) ، وَفِي حم عسق [الشورى] :(وَالَّذين إِذا أَصَابَهُم الْبَغي هم ينتصرون).

وَالثَّانِي :الْمعْصِيَة . وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي يُونُس :(فَلَمَّا أنجهم إِذا هم يَبْغُونَ فِي الأَرْض بِغَيْر الْحق يَا أَيهَا النَّاس إِنَّمَا بَغْيكُمْ على أَنفسكُم)

وَالثَّالِث :الْحَسَد .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي حم عسق [الشورى]: (إِلَّا من بعد مَا جَاءَهُم الْعلم بغيا بَينهم).

ثالثاً: هل يوجد بغي بحق؟ وهل مثلاً من اعتدي عليه فرد عدوان المعتدي، هل يسمى رده العدوان بغياً، أم هو دفاع مشروع؟، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: 39]. **لاحظ قال (هم ينتصرون) ولم يقل يبغون، والدفاع حق مشروع في القوانين والشرائع السماوية كما الوضعية.**

(281) – نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص (191-192).

(282) – انظر: المصدر السابق، ص (192-193).

(ملاحظة)

ذكر الزمخشري عند قوله تعالى: (فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق) [يونس: 23] ما نصه: "فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ (بِغَيْرِ الْحَقِّ)، وَالْبَغْيُ لَا يَكُونُ بِحَقٍّ؟ (قُلْتُ) : بَلَى وَهُوَ اسْتِيلَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَرْضِ الْكَفَرَةِ، وَهَدْمُ دُورِهِمْ، وَإِحْرَاقُ زُرُوعِهِمْ، وَقَطْعُ أَشْجَارِهِمْ كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَنِي قُرَيْظَةَ"(283).

ومن أهل العلم من خالفوا الزمخشري فيما ذهب إليه من تقسيمه للبغي.

وإذا سميت الحربُ العادلة أو الفتح المبين أو الدفاع عن المقدسات والأوطان بغياً فهو من باب الاتساع في القول لا أكثر، كما سُميت الأعمال جريمة في قوله تعالى: (قل لا تسألونَ عما أجرمنا ولا نُسألُ عما تعملون) [سبأ: 25].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"النهي :النهي ظرفي وهو ضدّ الأمر. علما أنّ النواهي والأوامر الإلهية ظواهر ثابتة لكن التشريع فيها يخضع للاجتهاد الإنساني الظرفي لأنّ ظروفها ومعطياتها تتغيّر حسب تغيّر الزمان والمكان والمستوى المعرفي للمجتمعات. لهذا ترك الله مهمّة الاجتهاد فيها للسلطة التشريعية لقوله تعالى :(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل 90). فالنهي قد يأمر به الله كما جاء في آية النحل 90، أو يأمر به النبي (ص) لقوله تعالى :(...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...) (الحشر 7)، أو قد تأمر به التشريعات الإنسانية. وهو لا يحمل صفة الإكراه، فإن حمل هذه الصفة يصبح منعاً، لأنّ الطبيب ينهى عن التدخين، أمّا السلطة فتمنع التدخين في الأماكن العامّة. وبناءً على ذلك فإنّ الدين يُحَرِّم ويَنْهَى ويَأمُر لكنه لا يَمنع لأنّه (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...) (البقرة 256)، أما سلطة الدولة فتَنْهَى وتَأمُر وتَمنَع لكنّها لا تُحرِّم".

---

(283) - الكشاف، للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (2/339).

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، النهي: "نهى الشيءُ إليه ـ نَهْياً: بلَغَ. يقال: نهى إليه المَثَل. و عن الشيء: زجَر. ويقال: نهى الله عن كذا: حرّمه ... (النَّهْي): طلب الامتناع عن الشيء. و(عند النّحاة): طلب ترك الفِعْل باستعمال (لا) النّاهية والمضارع المجزوم"(284).

ثانياً: قوله: "وهو ـ أي النهي ـ لا يحمل صفة الإكراه" كلام غير صحيح، وعجيب أن يدعي **الدكتور شحرور يقول إنه يتبع المنهج اللغوي! فهل غاب عنه أن النهي معناه: "طلب الكف عن الفعل أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام"(285).**

ثالثاً: قوله: " النهي ظرفي وهو ضدّ الأمر". من أين جاء بالظرفية؟، النهي هو محظور إلى يوم القيامة، عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90] هل نهيه سبحانه عن (الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) مؤقت أم هو إلى يوم القيامة؟!

رابعاً: قوله: " أما سلطة الدولة فتَنْهَى وتَأْمُر وتَمنَع لكنّها لا تُحرِّم" هذا الكلام خلط بين شئون الدولة المدنية وشئون الدين، فللدولة أن تمنع البناء في مكان معين مثلاً، وتسمح بالبناء في مكان آخر، وهذه أمور تتعلق بمصالح العباد الدنيوية، ولكن لا دخل للدولة في التحليل والتحريم من وجهة النظر الشرعية، فهذا خاص بالعلماء والفقهاء فقط.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"التبذير :هو تجاوز حدود الإنفاق في الوجوه المشروعة المباحة، مثاله رجل أوصى بـ 90٪ من ثروته للجمعيات الخيرية. ورجل دعا ثلاثة من أصحابه إلى مأدبة فصنع لهم طعاماً يكفي ثلاثين. والتبذير لا يكون إلّا في الكمّ ضمن الحلال لقوله تعالى :(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) (الإسراء 26)".

---

(284) – المعجم الوسيط، مادة (نهى).

(285) – علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، ص(90)، دار النهضة العربية، بيروت، 1404هـ/ 1984م..

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، قال الراغب: "التبذير: التفريق، وأصله إلقاء البذر وطرحه، فاستعير لكل مضيع لماله، فتبذير البذر: تضييع في الظاهر لمن لم يعرف مآل ما يلقيه"[286].

ثانياً: قوله: " التبذير :هو تجاوز حدود الإنفاق في الوجوه المشروعة المباحة" كلام سليم بشكل عام، وسياق الآية يتحدث عن النهي عن تضييع المال، ولذلك قال الله تعالى عقب الآية التي أوردها: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 27]، وإخوان الشياطين لا ينفقون أموالهم في الوجوه المشروعة المباحة.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الإسراف :هو الاشتطاط والإيغال في الخروج من الحلال إلى الحرام، ولا علاقة له بزيادة أو نقصان. فكثيره وقليله سواء. في الحلال نجد في قوله تعالى :(يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشربُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأعراف 31). وفي الحرام في قوله تعالى:(وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ) (الإسراء 33)، فقتل القاتل حلال عن طريق تطبيق القانون (التشريع) وليس بالانتقام، أما قتل كلّ أسرته أو عشيرته فإسراف في ممارسة عقوبة وذلك محرّم. وقل مثل ذلك في الكفر بالله الذي يُعدّ إسرافاً :(...وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) (يونس 83)، وفي غيره من المحرّمات الأخرى كالغشّ في المواصفات وغيرها. والإسراف لا يكون إلّا في الكيف".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، "قال ابن فارس: السَّرفُ: مجاوزة الحد. والسَّرَف: الجهل. والسَّرفُ: الجاهل. والسَّرف: الضراوة"[287].

---

(286) – المفردات في غريب القرآن، مادة (بذر).

(287) – نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(363).

ثانياً: ذكر بعض المفسرين أن السرف في القرآن على ستة أوجه:(288)

أحدها الخروج عما يجب، ومنه قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: 33]. أي لا تقتل غير من لا يجب قتله.

والثاني: الحرام. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسۡرَافا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾ [النساء: 6].

والثالث: الإنفاق في المعصية. ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]

والرابع: تحريم الحلال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141].

والخامس: الشرك، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: 43].

والسادس: الإفراط في الذنوب، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

ثالثاً: قوله عن السرف: " ولا علاقة له بزيادة أو نقصان. فكثيره وقليله سواء" فيه نظر، فقد قال الراغب: "السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر"(289). ولا شك أن السرف في الإنفاق يتعلق بالزيادة والنقصان، والأمور نسبية.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"السيّئة :هو كلّ عمل يُلحِق بالآخرين ضرراً، قلَّ أو كثُر. ولا تكون السيّئة بحق الله تعالى، فالله عزّ وجلّ لا يُحسن إليه ولا يُساء له لأنّه لا تنفعه ولا تضرّه أعمال الخلق لقوله تعالى :(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) (الجاثية 15). ومثال السيّئة: السرقة والافتراء والتطفيف أو الإخسار في الكيل والميزان لقوله تعالى :(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (الشورى 40). فالإساءة للآخر تكون بإلحاق الضرر به ومن يقترف السيّئة يكُن مذنباً".

(288) – انظر: المصدر السابق، ص(363-364).

(289) – المفردات في غريب القرآن، مادة (سرف).

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته هنا التعريف اللغوي، السيئة: مؤنث سيئ، وهي: الذنب، والخطيئة، والذنب الصغير، والعيب، والنقص، وعكس حسنة(290).

ثانياً: ذكر أهل التفسير أن لفظ السيئات في القرآن على خمسة أوجه: وهذا تفصيلها:(291)

أَحدهَا :الشرك .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة النِّسَاء :(وَلَيْست التَّوْبَة للَّذين يعْملُونَ السَّيِّئَات) ، وَفِي يُونُس :(وَالَّذين كسبوا السَّيِّئَات جَزَاء سَيِّئَة بِمِثْلِهَا).

وَالثَّانِي :الْعَذَاب .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الزمر :(فَأَصَابَهُمْ سيئات مَا كسبوا وَالَّذين ظلمُوا من هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سيئات مَا كسبوا).

وَالثَّالِث :الضّر .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَعْرَاف :(وبلوناهم بِالْحَسَنَاتِ والسيئات) ، وَفِي هود :(ليَقُولن ذهب السَّيِّئَات عني).

وَالرَّابِع :الشر وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْمُؤمن :(فوقاه الله سيئات مَا مكروا).

وَالْخَامِس :إتْيَان الرِّجَال .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي هود :(وَمن قبل كَانُوا يعْملُونَ السَّيِّئَات).

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الذنب: هو كلّ عمل غير صالح يرتكبه الإنسان باقتراف محرّمات الله عزّ وجلّ أو نواهيه أو عدم الامتثال لأوامره. إمّا بارتكابها بحق الله تعالى فقط كارتكاب بعض المحرّمات والنواهي التي ليس فيها إساءة للناس مثل: الشرك بالله، واقتراف الفواحش، وإمّا باقتراف عمل غير صالح بحقّ الله والناس معاً كارتكاب المحرّمات التي فيها إساءة للآخر كعقوق الوالدين والسرقة وشهادة الزور... ويتمّ إصلاح الذنب بطلب المغفرة، بينما يتمّ إصلاح السيّئة بالتكفير عنها لقوله تعالى :(رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي

---

(290) – انظر: القاموس المحيط، مادة (ساءه). والمعجم الوسيط (ساء).

(291) – انظر: نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(362-363).

لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ) (آل عمران 193)"(292).

تعقيب ومناقشة

.قوله" ويتمّ إصلاح الذنب بطلب المغفرة، بينما يتمّ إصلاح السيّئة بالتكفير عنها" فيه لبس، وذلك أن التكفير عن السيئات والذنوب جميعاً قد يكون بسبب طلب المغفرة، أو بسبب عمل صالح كالحج المبرور، أو بكرم إلهي من دون سبب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشركَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشركْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الابتلاء: هو نوع من الامتحان بنوعيه الإيجابي والسلبي، له وجود كقانون موضوعي ساري على كل أهل الأرض لقوله تعالى :(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا) (الكهف 7)، وقوله :(فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ) (الفجر 15-16). ومعنى أن الابتلاء قانون موضوعي أنّنا نلمسه في اختلاف الدخل بين الناس، لأنه إذا تساوى الدخل بينهم كما يريد البعض عندها تموت كل الطموحات عند كل فرد ويصاب المجتمع ساعتها بالشلل. في حين أنّنا نجد أنّ الابتلاء الشخصي محدد الموضوع وخاص بالشخص نفسه، فقد ابتلى الله عزّ وجلّ ابراهيم بمجموعة من القوانين الموضوعية لفهمها وقد نجح إبراهيم في ذلك لقوله تعالى:(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) (..البقرة 124). كما ابتلى محمداً (ص) بالنبوة والرسالة معا وقد نجح فيهما. أما البلاء فهو الامتحان السلبي الجماعي كما حصل لقوم موسى مع فرعون في قوله تعالى :(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة

(292) – راجع كتاب الدكتور شحرور: الإسلام والإيمان. منظومة القيم، القسم الثاني: منظومة القيم، الفصل الرابع: الذنب والسيئة.

49)، إذ نلاحظ هنا أن البلاء جاء بشكل جماعي ناتج عن ادعاء فرعون الربوبية وتحويله بني إسرائيل إلى عبيد".

تعقيب ومناقشة

أولاً: قال السيوطي: "ابْتَلى ، أي اختبر، أي اختبره بما تعبّدَه به من السنن. وقد اختلف فيها اختلافاً كثيرا، فقيل خصال الفِطْرة. وقيل مناسك الحج. وقيل ثلاثون خصلة، عشرة ذكرت في (براءة) من قوله: (التّائِبون ...) . (التوبة: 112) ، وعشرة في الأحزاب من قوله: (إنّ المسلمين والمسلمات). وعشرة في المعارج من قوله: (إلا المْصَلّين)[293].

ثانياً: ذكر الراغب أن التكليف سمي بلاءً من أوجه:

أحدها أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاء.

والثاني أنها اختبارات، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31].

والثالث: أن اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر[294].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الفتنة :لا تكون الفتنة أساساً إلا من قبل طرف قوي على طرف أضعف منه. فقوله تعالى لموسى :(.. وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا..) (طه 40)، معناه أنّ موسى أصبح إنساناً قوياً لايقابله أحد في مواجهة مباشرة. والدولة الديكتاتورية عندما تعتقل انسانا ما تختلف معه في الرأي فإنها لكي تفتنه عن آرائه:(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا..) (البروج 10). كذلك يمكن لامرأة ما أن تفتن رجلا بإغرائه بمفاتنها وجعله في موقف ضعيف أمامها وهي في موقف أقوى منه، فتطلب منه أمورا لا يقبلها عادة. وكذلك الأموال

(293) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (32/2).

(294) – انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة (بلى).

والأولاد فتنة لأن الإنسان يصبح ضعيفا أمامهما. أما المناسبات التي استعمل فيها الفقهاء عبارة: (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها) فذلك هراء لأنهم عكسوا معنى الفتنة، لأنه عندما يحتج الضعيف على القوي لا يعتبر ذلك فتنة".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، قال الراغب: "أصل الفَتْن: إدخالُ الذهبِ النارَ لتظهر جودته من رداءته... وجُعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً، وقد قال فيهما: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشر وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]. وقال في الشدة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: 102]"[295].

ثانياً: قال السيوطي مفصلاً معاني كلمة الفتنة: "(فِتْنة) وردت على أوجه: الشرك: (والفِتْنَة أشَدّ من القَتْل)، (حتى لا تكونَ فِتْنَة) . والضلال: (ابتغَاء الفِتْنَة) . والقَتْل: (أنْ يَفْتِنَكم الذين كفَروا) . والصدُّ: (واحْذَرْهم أنْ يَفْتِنوك). والضلالة :(ومَنْ يُرِدِ الله فِتْنَتَه). والمعذرة: (ثم لم تكن فتْنَتهم). والقضاء: (إن هي إلا فِتْنَتك) . والضلالة: (ألاَ في الفتْنَةِ سقَطوا). والمرض: (يُفتنون في كل عام). والعبرة: (لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً) .والعقوبة: (أن تصيبهم فتنة). والاختبار: (ولقد فتَنَّا الذين مِنْ قبلهم). والعذاب: (جعل فِتْنَةَ الناس كعذابِ الله). والإحراق: (يوم همْ على النار يُفْتَنون). والجنون: (بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ)" [296].

يلاحظ كثرة معاني الفتنة في القرآن الكريم! وقد اختزلها الدكتور شحرور بمعنى واحد!

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الظن :من أفعال الأضداد، ويعني الشك واليقين معا. بحيث يفهم المعنى المقصود منه من خلال السياق العام للآية. معنى اليقين فقد جاء في قوله تعالى :(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة46)، وقوله تعالى :(وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعجِزَهُ هَرَبًا)(الجن

---

(295) – المفردات في غريب القرآن، مادة (فتن).

(296) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (3/153).

12). ومعنى الشك جاء في قوله تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ) (الحجرات 12)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، "الظن في الأصل: قوة أحد الشيئين على نقيضه في النفس. والفرق بينه وبين الشك، أن الشك: التردد في أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر"[297].

ثانياً: يأتي الظن في القرآن على خمسة أوجه:[298]

أحدها: الشك. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: 32]

والثاني: اليقين. ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 46].

والثالث: التهمة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[299] [التكوير: 24]، أي متهم.

والرابع: الحسبان. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ، وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 22-23]

والخامس: الكذب ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: 28]

***

(297) – انظر: نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(424).

(298) – انظر: المصدر السابق، ص(425-426).

(299) – (بضنين) هناك قراءة بالظاء، ومعنى ضنين من الضن، وهو البخل، وأما ظنين فهو من الظنة وهي التهمة. انظر: الكشاف، للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (713/4).

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الإنزال :هو نقل الوحي من شكل غير قابل للإدراك الإنساني إلى شكل قابل للإدراك. وقد تمّ الإنزال دفعة واحدة بالنسبة للقرآن ما عدا القصص المحمّدي لخصوصيته في الإنزال لقوله تعالى :(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ...) (البقرة 185). وكذلك كتاب الرسالة (أمّ الكتاب وتفصيلها) لم يحصل فيه الإنزال دفعة واحدة".

"التنزيل :هو نقلة موضوعيّة للوحي خارج الوعي الإنساني، جرى فيها تنزيل ما تمّ إنزاله على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، بحيث جاء التنزيل للقرآن متفرّقاً بعد إنزاله الذي تمّ دفعة واحدة في شهر رمضان أي على مراحل. أمّا القصص المحمّدي فقد تلازم فيه الإنزال والتنزيل لخصوصيّته عن سائر القصص القرآني الآخر. وقد تلازم كذلك الإنزال والتنزيل للرسالة (أمّ الكتاب وتفصيلها) لأنّها من عند الله مباشرة".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، "الإنزال: حطُّ الشيء من العلوِّ. والفاعل: مُنزِل. والمفعول: مُنزَل. والنازلة: الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس"(300).

ثانياً: يأتي "الإنزال في القرآن على أربعة أوجه:

أحدها: القول. ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام : (قال سأنزل مثل ما أنزل الله).

والثاني: الخلق. ومنه قوله تعالى في يونس : (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق) ، وفي الزمر : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) ، ومثله : (وأنزلنا الحديد).

والثالث: البسط. ومنه قوله تعالى في حم عسق [الشورى]: (ولكن ينزل بقدرٍ ما يشاء).

والرابع: نفس الإنزال، ومنه قوله تعالى في حم عسق [الشورى]: (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته)"(301).

ثالثاً: وحول الإنزال قال السيوطي: "اختلف في كيفية إنزاله من اللوح المحفوظ على ثلاثة أقوال:

(300) – انظر: نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(127).

(301) – المصدر السابق، ص(128-129).

أحدها: وهو الأصح الأشهر؛ أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجما في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، على حسب الخلاف في مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة...

القول الثاني: أنه نزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، في كل ليلة ما يقدر الله إنزاله في كل السنة، ثم نزل بعد ذلك منجما في جميع السنة. وهذا القول ذكره الإمام فخر الدين الرازي بحثاً فقال: يحتمل أنه كان ينزل في كل ليلة قدر ما يحتاج الناس إلى إنزاله إلى مثلها من اللوح إلى السماء الدنيا، ثم توقف، هل هذا أولى أو الأول؟. قال ابن كثير: وهذا الذي جعله احتمالا نقله القرطبي عن مقاتل بن حيان، وحكى الإجماع على أنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا. قلت: وممن قال بقول مقاتل: الحليمي والماوردي، ويوافقه قول ابن شهاب آخر القرآن عهداً بالعرش آية الدين.

القول الثالث: أنه ابتدئ إنزاله في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات، وبه قال الشعبي. قال ابن حجر في شرح البخاري: والأول هو الصحيح المعتمد"[302].

رابعاً: فالإنزال: نزوله جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، والتنزيل نزوله بعد ذلك منجما في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين على الرسول صلى الله عليه وسلم.

خامساً: قول الدكتور شحرور: "وقد تمّ الإنزال دفعة واحدة بالنسبة للقرآن ما عدا القصص المحمّدي لخصوصيته في الإنزال" **هذا ادعاء لا دليل عليه، وهو كلام باطل، والصحيح ما ذكرناه من أقوال العلم،** فالقرآن كله بما فيه من القصص المحمدي نزل في وقت واحد إلى السماء الدنيا، ثم نزل منجماً بعد ذلك، والدكتور شحرور يسعى دوماً للمخالفة والإغراب في الألفاظ والمعاني.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الربوبيّة :هي أحد مقامين لا ثالث لهما للذات الإلهيّة، ويُسمّى مقامَ الربوبية لأنّ ربَّ الناس هو مالكهم وخالقهم ورازقهم شاؤوا أو أبوا كما في قوله تعالى :(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ

---

(302) – الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (1/53-54).

وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة 21) وقوله :(إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (الإسراء 30). والعلاقة التي بين الناس وربّهم من مقام الربوبيّة علاقة صارمة لا خيار فيها لأنّها تخضع للقوانين الموضوعية للوجود. من هذا المقام جاء كتاب النبوّة (القرآن) بقوانينه الكونية والإنسانية للنبي (ص)، ومنه أيضاً جاءت بعض الأسماء الحسنى كالرزاق والمحيي والمميت، وأوّلها الرحمن. والربّ هو المخصّص للدعاء والسؤال لأنّه المالك".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، "الرَّبُّ في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام... ولا يقال الربُّ مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات"[(303)]، "ورب كل شيء: مالكه ومستحقه، أو صاحبه"[(304)].

ثانياً: ذكر السيوطي أن **"(رَبّ) له أربعة معان: الإله. والسيّد. والمالك للشيء. والمصْلِح للأمر. وكلها تصلح في رَبِّ العالمين، إلا أن الأرْجحَ معنى الإله، لاختصاصه باللهِ تعالى، كما أن الأرجح في العالمين أن يُراد به كل موجودٍ سوَى الله تعالى، فيعمّ جميع المخلوقات"**[(305)].

ثالثاً: قوله: "الربوبيّة :هي أحد مقامين لا ثالث لهما للذات الإلهيّة".

هذا كلام فيه نظر وتفصيل، فأما من حيث التوحيد فهو: توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية، قال ابن أبي العز الحنفي: "ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه، فهو نوعان: توحيد في الإثبات والمعرفة، وتوحيد في الطلب والقصد، فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى، وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله... والثاني هو توحيد الطلب والقصد، مثل ما تضمنته سورة (قل يا أيها الكافرون)... وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل سورة في القرآن. فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يُعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي"[(306)].

---

(303) – المفردات في غريب القرآن، مادة (رب).

(304) – القاموس المحيط، مادة (ربب).

(305) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (185/2).

(306) – شرح الطحاوية، تحقيق أحمد شاكر، ص(41).

والذات الإلهية لها أسماء وصفات كثيرة، وقد يُستدل بأسمائه وصفاته سبحانه على ذاته الواحدة[307]، وقد يأتي مقام من كل اسم أو صفة، والله تعالى أعلم.

رابعاً: قوله: "من هذا المقام جاء كتاب النبوّة (القرآن) بقوانينه الكونية والإنسانية للنبي (ص)". هذا كلام لا دليل عليه، وكتاب النبوة هو كتاب الرسالة، لا فرق بينهما، ولا يجوز التكلم على الله بغير علم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

خامساً: قوله: "ومنه أيضاً جاءت بعض الأسماء الحسنى كالرزاق والمحيي والمميت، وأوّلها الرحمن". نقول: الأسماء الحسنى ليست مشتقة من لفظ رب، ولكنها أسماء أزلية للذات الإلهية، ومقام الربوبية يقتضي معانيها وصفاتها.

سادساً: قوله: "والربّ هو المخصّص للدعاء والسؤال لأنّه المالك" كلام غير دقيق، فيستطيع المرء أن يدعو الله بأسمائه الحسنى كلها، قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: 110].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الألوهيّة :هي المقام الثاني للذات الإلهيّة، ويسمّى مقام الألوهية. وإذا كان مقام الربوبية للخلق جميعاً، فإن مقام الألوهية خاصّ بالإنسان العاقل فقط لأنّ منه جاءت الرسالة (أمّ الكتاب وتفصيلها)، وفيه الطاعة والمعصية. ومنه أيضاً جاءت بعض الأسماء الحسنى كالغفور والغفّار والتواب.. وتنشأ علاقة الإنسان بالله عزّ وجلّ من هذا المقام لأنّها علاقة تقوم على الطاعة والمعصية أي على العبادة التي تكون لله عند الاعتراف بألوهيته من الإنسان لقوله تعالى :(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء 25). فالله هو ربّ محمّد (ص) وربّ أبي لهب، ولكنّه إله محمّد (ص) وليس إله أبي لهب لأنّ أبا لهب لم يعترف بألوهيته".

---

(307) – انظر: شرح الطحاوية، تحقيق أحمد شاكر، ص(48).

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، الإله: المعبود، وألهَ فلانٌ يألهُ: عبد ... وإله حقه أن لا يجمع، إذ لا معبود سواه، لكنِ العربُ لاعتقادهم أن هاهنا معبودات جمعوه فقالوا: الآلهة.[308]

ثانياً: مقام الألوهية مُتضمن بمقام الربوبية، ولفظ الرب من معانيه الإله كما ذكر السيوطي، ولا يستحق الألوهية إلا صاحب مقام الربوبية وهو الله رب العالمين.

ثالثاً: يتضمن مقام الألوهية بعض معاني الأسماء الحسنى.

رابعاً: قوله: ''فإن مقام الألوهية خاصّ بالإنسان العاقل فقط لأنّ منه جاءت الرسالة (أمّ الكتاب وتفصيلها)''.

هذا كلام لا دليل عليه، وتقسيم القرآن لجزء من مقام الربوبية وآخر من مقام الألوهية لا دليل عليه، وقول على الله بغير علم، **ويكفي أن نعتقد بأن القرآن كله من عند الله وكفى**، والكلام على الله بغير دليل شرعي لا ينبغي، ولذلك نعى الله على المشركين قولهم أشياء كاذبة على الله تعالى، وخوضهم بأمور لا يعلمونها، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

''الرحمن: هو أحد أسماء الربوبية وأهمّها. وهو من أسماء الأضداد، فهو الرحمن بمعنى الرؤوف الرحيم والجبّار في آن واحد. فأمّا بمعنى الرؤوف الرحيم ففي قوله تعالى :(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (البقرة 163)، وأمّا بمعنى الجبّار المنتقم ففي قوله تعالى :(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) (مريم 45). فاسم الجلالة الله هو عنوان الألوهية واسم الرحمن هو عنوان الربوبية، وهما معاً مناط الدعاء عند الإنسان لقوله تعالى :(قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى) (...الإسراء 110)''.

---

(308) – انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة (إله).

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي: فمعنى (رحمن): ذو الرحمة، ولا يوصف به غَيْر الله. (رحيم) : عظيم الرحمة[309].

ثانيا: قال ابن فارس: "(رَحِمَ) لرَّاءُ وَالْحَاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ وَالْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ. يُقَالُ مِنْ ذَلِكَ رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ. وَالرُّحْمُ وَالْمَرْحَمَةُ والرَّحْمَةُ بِمَعْنًى. وَالرَّحِمُ: عَلَاقَةُ الْقَرَابَةِ، ثُمَّ سُمِّيَتْ رَحِمُ الْأُنْثَى رَحِمًا مِنْ هَذَا، **لِأَنَّ مِنْهَا مَا يَكُونُ مَا يُرْحَمُ وَيُرَقُّ لَهُ مِنْ وَلَدٍ**"[310].

ثالثاً: قوله: "الرحمن :هو أحد أسماء الربوبية وأهمّها. وهو من أسماء الأضداد". هذا كلام غير صحيح، ولم يرد في المعاجم أنه من أسماء الأضداد، فالرحمن لا يحتمل غير الرحمة. والآية التي استند إليها وهي قوله تعالى :(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) تعني أن أباه يستحق العذاب، ولكن لأن الله رحمن رحيم أمهله ولم يعذبه حتى ذلك الحين، وليس معناها أنه حتماً سيعذبه، بدليل أنه صدر الآية بقوله: (أخاف) فهو من باب التحذير والشعور بالمسئولية من الخليل عليه السلام تجاه أبيه.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"العرش :جاء العرش في قوله تعالى :(اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (النمل 26). والعرش هو أوامر الله ونواهيه لقوله تعالى :(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) (البروج 15-16)، فقد ربطت الآية بين العرش والفعل الإلهي من تحريم وأمر ونهي. ولا يحمل العرش معنىً مكانياً إطلاقاً لأنّ الله عزّ وجلّ خارج الزمان والمكان بل هو خالقهما وخالق كل شيء والمتصرّف فيهما بإرادته لقوله تعالى: (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (الزخرف 82)".

---

(309) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (185/2).

(310) – معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مادة (رحم).

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي: قال الراغب: "العرش في الأصل: شيء مُسَقَّفٌ، وجمعه عُروش. قال تعالى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259]، ومنه قيل: عَرَشتُ الكرْمَ وعرَّشْتُه: إذا جعلت له كهيئة سقف، وقد يقال لذلك العريش... وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوه... وكني به عن العز والسلطان والمملكة... وعرش الله: مما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة، فإنه لو كان كذلك لكان حاملاً له، تعالى عن ذلك، لا محمولاً، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: 41]"[311].

ثانياً: قوله: "والعرش هو أوامر الله ونواهيه". **هذا الكلام تحريف لمعاني لغة العرب ودلالاتها، وتأكيد بأن الدكتور شحرور لا يعترف بالقواميس العربية إلا ما جاء فيها حسب مزاجه، وهو هنا يخترع لغة جديدة خاصة به، لا علاقة لها بلغة القرآن ولا كلام العرب.**

ثالثاً: قوله: " ربطت الآية بين العرش والفعل الإلهي من تحريم وأمر ونهي" لا يعني أن العرش هو الأمر والنهي، وإنما معناه: صاحب هذا العرش العظيم هو الذي يستطيع أن يأمر وينهى ويفعل ما يريد سبحانه وتعالى!، كما قال تعالى: (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) [الزمر: 15].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الكرسيّ :بما أنّ العرش هو المحرّمات والأوامر والنواهي الإلهية، فإنّ الكرسي هو معلومات ربّ العالمين لقوله تعالى :(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) (البقرة 255). والعرش مرتبط بالكرسيّ، إذ يأتي التحريم والأمر والنهي ضمن معلومات الآمر والناهي".

(311) – انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة (عرش).

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي"قال الزجاج: الكرسي في اللغة: هو الذي يُجلس عليه، والكرسي والكراسة: إنما هو الشيء الذي قد ثبت ولزم بعضه بعضاً".

ثانياً: وذكر بعض المفسرين أن الكرسي في القرآن على وجهين:

أحدهما: الكرسي الذي يجلس عليه. ومنه قوله تعالى في ص: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ [ص: 34].

والثاني: العلم. ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: 255]، أي: علمه. رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس"(312).

فالكرسي هو علم الله عند ابن عباس. وتابعه الدكتور شحرور في ذلك، والله تعالى أعلم.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"نفخ الصور :هو تسارع التغيّر في صيرورة النظام الكوني الذي يؤدّي إلى الانفجار الكوني المعلن عن نهاية هذا الوجود المادّي لقوله تعالى :(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) (النمل 87).

الساعة :هي ظاهرة انفجار الكون نتيجة تسارع التغيّر في صيرورته (النفخ في الصور)، وعلم لحظة حدوثها عند ربّ العالمين فقط لأنّها غير مبرمجة في اللوح المحفوظ لقوله تعالى :(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ) (ق 20)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي لكل من الصور والساعة، فالصور: "قيل: هو مثل قرنٍ يُنفخ فيه، فيجعل الله سبحانه ذلك سبباً لعوْدِ الصُّوَر والأرواح إلى أجسامها"(313).

(312) – نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(510-511).

(313) – المفردات في غريب القرآن، مادة (صور).

وأما الساعة فهي: "جزء من أجزاء الزمان، ويُعبرُ به عن القيامة ... سُميت تشبيهاً بذلك لسرعة حِسابِه" [314].

ثانياً: لا أحد يعلم كيفية الساعة ولا وقت حدوثها، وربطه للساعة بالانفجار الكوني المعلن عن نهاية هذا الوجود المادّي هو تخرص ورجم بالغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى!.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الحقّ :هو الوجود الموضوعي بعالميه: عالم الشهادة وعالم الغيب. هذا الوجود بعالميه وُجد خارج الوعي الإنساني. مثال عالم الشهادة: الشمس والقمر والرياح والجبال والقوانين الناظمة لها، ومثال عالم الغيب: الله واليوم الآخر، فالله حقّ لأن وجوده لا علاقة للوعي الإنساني به، والكون حق لأنّه قائم موجود سواء وعاه الإنسان أم لا. فأما بالنسبة لوجود الله الحق فنجده في قوله تعالى :(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) (لقمان 30)، وأما بالنسبة للوجود فنجده في قوله تعالى :(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ) (الأنعام 73). وقد فرّقت النبوّة (القرآن) بين الحقّ والباطل في الوجود سواء الكوني أو التاريخي، بينما نجد الرسالة فرّقت بين "افعل" و"لا تفعل" في السلوك الإنساني الواعي (الذاتي)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، ففي المعجم "حَقَّ الأمرُ ـ حَقًّا، وحَقَّة، وحُقُوقاً: صَحَّ وثبت وصدق. وفي التنزيل العزيز: (لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ويَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الكافِرِيْنَ). ويقال: يَحِقُّ عليك أن تفعل كذا: يَجِب. ويَحِقُّ لك أن تفعل كذا: يسوغ. وهو حَقِيق بكذا: جدير. وحَقِيق عليَّ ذلك: واجب. وأنا حقيق على كذا: حريص. و. الصغير من الإبل ـِ حِقًّا وحِقَّة: دخل في السنة الرابعة. و. الأمر ـُ حَقًّا: تَيَقَّنَه. و. صَدَّقَه. يقال: حَقَقْتُ حَذَر فلان: فعلت ما كان يحذره. وتقول: حققت حَزْرَ فلان، وحَقَقْتُ ظَنَّه: فعلت ما كان يَحزِرُه أو يَظُنُّه. و. فلاناً: غلَبَه في الخُصومة. و. ضرَبَه في حاقِّ رأسه أو حُقِّ كتفه. و. العُقْدَةَ: أحكم شدَّها. و. الطريقَ:

(314) – المصدر السابق، مادة (ساعة).

توسَّطه.(حُقَّ) له أن يفعل كذا: حَقَّ. وفي التنزيل العزيز: (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ).(أَحَقَّ) فلانٌ: قال حقًّا. و.ادَّعاه فثبت له. و.الأمرَ: حَقَّه"[315].

ثانياً: قال السيوطي في معاني الحق: "(حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) : أي وجبت عليهم الحجة، فوجب العذاب. ومثله: (حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ) أي وجبت. والحق له أربعة معانٍ: الصدق، والعدل في الحكم، والشيء الثابت، والأمر الواجب. والحق اسم الله تعالى، أي واجب الوجود. ومنه الحديث: (السحرُ حقٌّ) يعني أنه موجود لا أنه صواب، والعين حق، يعني يصيب الشيء، وليس معناه أنه حسن، وقد يعبر به عن كلامه سبحانه حيث يقول: (وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ). ومنه (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) ، يعني بالقول، وهو قوله تعالى (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). فسمى القول حقا – يعني صدقا. وقد يعبر به عن الإسلام، نحو قوله (يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) : يعني الإسلام. وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ) ، أي وجبت. وقد يعبر عنه بالنبي – صلى الله عليه وسلم – لقوله تعالى (وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)"[316].

ويلاحظ هنا أن الدكتور شحرور اختصر الحق في معنى أو معنيين، فالحق عنده هو الوجود الموضوعي بعالميه: عالم الشهادة وعالم الغيب، وهذا لا ينبغي لمن يدعي العلم بالكتاب والسنة واللغة العربية، ويفسر للناس كتاب ربهم عز وجل.

ثالثاً: قوله: "وقد فرّقت النبوّة (القرآن) بين الحقّ والباطل في الوجود سواء الكوني أو التاريخي، بينما نجد الرسالة فرّقت بين "افعل" و"لا تفعل" في السلوك الإنساني الواعي (الذاتي)".

هذا تقسيم من عنده، **والصحيح أن أوامر النبوة وأخبارها هي نفسها أوامر الرسالة وأخبارها، ولا فرق بينهما في النصوص الإسلامية، ولا عند أهل العلم.**

***

(315) – المعجم الوسيط، مادة (حق).

(316) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (2/158).

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الباطل :هو الوهم في التصوّر الإنساني وليس له أيّ وجود موضوعي لأنّه محض توهّم ناتج عن الاعتقادات والأفكار الإنسانية غير الموضوعية. فالاعتقاد بأنّ النجوم تضرّ وتنفع وأنّ الأحجار تضرّ وتنفع هو باطل، لأنّه وهم ولا نقول عنه إنّه خطأ لقوله تعالى :(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (لقمان 30)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي ، ففي المعجم: "بَطَلَ الشيءُ ُبُطْلاً، وبُطْولاً، وبُطْلاناً: ذهب ضَياعاً. يقال: بَطَلَ دَمُ القتيل. وذهب دَمُه بُطْلاً: إذا قُتِل ولم يؤخذ له ثأْر ولا دِية. و. فَسَدَ وسقط حكمه. يقال: بَطَل البيع، وبَطَل الدليل. فهو باطِلٌ. ... وفي التنزيل العزيز: (وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ).بَطَّل العاملَ: عَطَّلَهُ. و. العَمَلَ: قطَعَه. (محدثة).تَبطَّلَ: تَشَجّع. و. تَعَطل. و. اتبع طريق اللهو والجهالة. و. القومُ: تَداوَلُوا البَاطِلَ.الأُبْطُولَة: ما لا ثبات له عند الفحص عنه. (ج) أَباطيل.البَاطِلُ: الأُبْطُولَةُ. و(في اصطلاح الفقهاء): ما وقع غير صحيح من أَصله. بخلاف الفاسد الذي يقع صحيحاً في جملته، ويعوزه بعض الشرط"[317].

ثانياً: قوله" الباطل :هو الوهم في التصوّر الإنساني وليس له أيّ وجود موضوعي".

هذا كلام لا يستوعب الباطل كله، فهناك باطل يقوم على الوهم، وهناك ما يقوم على الحس، فالباطل له وجود حسي يتمثل بالأصنام والأوثان، وحانات الخمر وبيوت اللهو، وليس مقصوراً على الوهم فقط، ويشهد لهذا قوله تعالى: (إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) [الأعراف :139].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"كلمات الله :هي الوجود الموضوعي للأشياء والظواهر خارج الوعي الإنساني. فالشمس والقمر هي كلمات الله لقوله تعالى :(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

(317) – المعجم الوسيط، مادة (بطل).

تَهْتَدُونَ) (الأعراف 158). وعيسى بن مريم أيضاً كلمة الله لقوله تعالى :(إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشرِكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ...) (آل عمران 45). والله يحقّ الحق بكلماته أي يجعله موجوداً في الحقيقة والواقع، بقوله للشيء :(كن فيكون) التي بها تتحوّل إرادة الله إلى واقع ملموس، كما جاء في قوله تعالى :(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس 82)، وقوله :(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ) (الأنبياء 69)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، وذكره هام للربط بين المعنى الاصطلاحي والمعنى اللغوي، الكلام جمع كلمة، ويقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة[318].

وفي المعجم: "(الكَلِمَة، والكِلْمَة): اللفظة الواحدة. و.(عند النحاة): اللفظة الدَّالة على معنى مفرد بالوضع، سواء أكانت حرفاً واحداً، كلام الجرّ، أم أكثر. و.الجملة أو العبارة التامة المعنى، كما في قولهم: لا إله إلا الله: كلمة التوحيد. وكلمة الله: حكمه أو إرادته. وفي التنزيل العزيز: {وكلمة الله هي العليا}، و: {كذلك حقَّت كلمة ربِّك على الذين فسقوا}. والكلام المؤلَّف المطوَّل، قصيدة، أو خطبة، أو مقالة، أو رسالة"[319].

ثانياً: يأتي معنى "الْكَلِمَات فِي الْقُرْآن على سَبْعَة أوجه:

أَحدهَا :الْكَلِمَات الْعشر اللواتي ابتلى الله تَعَالَى بِهن إِبْرَاهِيم وَهن خمس فِي الرَّأْس: وَخمس فِي الْجَسَد. فَأَما (اللواتي) فِي الرَّأْس فَالْفرق والمضمضة وَالِاسْتِنْشَاق وقص الشَّارِب والسواك. واللواتي فِي الْجَسَد تقليم الأظافر وَحلق الْعَانَة ونتف الابط والاستطابة بِالْمَاءِ والختان. رَوَاهُ طَاوُوس عَن ابْن عَبَّاس .وَهُوَ معنى قَوْله تَعَالَى :(وَإِذ ابتلى إِبْرَاهِيم ربه بِكَلِمَات).

وَالثَّانِي :الْكَلِمَات الَّتِي تلقاها آدم (من ربه) . وَهِي قَوْله تَعَالَى :(رَبنَا ظلمنَا أَنْفُسنَا وَإِن لم تغْفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين).

وَالثَّالِث :الْقُرْآن .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَعْرَاف :(يُؤمن بِاللَّه وكلماته).

---

(318) – المفردات في غريب القرآن، مادة (كلم).

(319) – المعجم الوسيط، مادة (كلم).

وَالرَّابِع :علم الله وعجائبه .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْكَهْف :(قبل أَن تنفد كَلِمَات رَبِّي)، وَفِي لُقْمَان:(مَا نفدت كَلِمَات الله) ، وَقيل (فِي) هَذَا الْوَجْه: إِنَّه على ظَاهره لِأَن كَلَام الله لَا ينْفد.

وَالْخَامِس :(الدّين). وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي (الْأَنْعَام): (لَا مبدل لكلماته وَهُوَ السَّمِيع الْعَلِيم).

وَالسَّادِس :لَا إِلَه إِلَّا الله .وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي بَرَاءَة :(وَكلمَة الله هِيَ الْعليا).

وَالسَّابِع :قَوْله: "كن". وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي سُورَة النِّسَاء :(إِنَّمَا الْمَسِيح عِيسَى ابْن مَرْيَم رَسُول الله وكلمته)"(320).

ثالثاً: قوله: " كلمات الله :هي الوجود الموضوعي للأشياء والظواهر خارج الوعي الإنساني".

هذا تفسير جزئي لكلمات الله، **فكلماته سبحانه أيضاً هي ما قاله في كتبه السماوية، وأيضاً أحاديثه القدسية، وما يقوله إذا أراد أي شيء في الوجود، فهي لا تتوقف ولا تنقطع،** قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"العدم :هو الدالّ بدون المدلول، فالدالّ هو العدم والوجود هو المدلول، والله خلق الوجود من العدم، أي إنّ الوجود كان في علم الله دالّات بدون مدلولات ثم أوجده الله، تماماً مثلما خلق الإنسان من عدم كما جاء في قوله تعالى :(أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) (مريم 67). فالوجود هو كلمات الله وهو تطابق الدالّ مع المدلول. وكمال المعرفة عند الله هو كليّة التطابق بين كلّ احتمالات الدالّات مع المدلولات، لذا فإنّ الله عزّ وجلّ يرى بدون عين ويسمع بدون أذن. فالعين والأذن أدوات معرفة. وكامل المعرفة لا يحتاج إلى أدوات معرفة إطلاقاً. والرياضيّات البحتة هي التعبير الأمثل عن العدم، وبما أنّ علوم الرياضيّات البحتة متقدّمة على علوم الفيزياء فهذا يؤكد أنّ العدم سبق الوجود وأنّ الوجود الكوني ليس أزلياً ولا أبدياً بل هو حديث".

(320) – نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(524–525).

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "لذا فإنّ الله عزّ وجلّ يرى بدون عين ويسمع بدون أذن. فالعين والأذن أدوات معرفة. وكامل المعرفة لا يحتاج إلى أدوات معرفة إطلاقاً". هذا الكلام باطل، فالله قد أثبت لنفسه بعض الصفات مثل العين، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: 39]. وكذلك أثبت اليد، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 64]، ونحو ذلك من الصفات...

وأهل السنة وجمهور المسلمين يثبتون لله ما أثبته لنفسه من صفات على الوجه الذي يريده الله تعالى، من غير تأويل ولا تكييف ولا تجسيم ولا نفي ولا تعطيل.

ثانياً: وحول العدم والوجود عند الفلاسفة يقول الدكتور مصطفى حسيبة: "لما كانت الميتافيزيقيا هي دراسة ما هو موجود، فقد يتوقع المرء من الميتافيزيقيين أن لا يتعدوا الحد، فيكون لديهم القليل فقط مما يقولونه عن الذي ليس موجوداً، ولكن منذ بارمينيدس في القرن الخامس قبل الميلاد، حدثت تعليقات غنية عن إمكان عالم فارغ، إذا كانت هناك فراغات، وحول طبيعة العدم والسلب، لمَ هناك بعض الشيء وليس لا شيء؟ هذا السؤال أدرجه مارتن هيدجر كأهم مدخل أساسي إلى الفلسفة"[321].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"القدر :هو الوجود الموضوعي للأشياء وظواهرها وقوانينها خارج الوعي الإنساني. هذا الوجود بظواهره وقوانينه مذكور في كتاب النبوّة (القرآن) لقوله تعالى :(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (يونس 5)، وهو كلمات الله".

"القضاء :هو ظاهرة تتعلق بالسلوك الإنساني الواعي (إرادة إنسانية)، وهو قائم على الحركة الواعية بين النفي أو الإثبات في أيّ قرار إرادي واعٍ. لهذا فإن القضاء يتعلق بما جاء من أحكام في كتاب الرسالة

(321) - المعجم الفلسفي، ص(309).

(أمّ الكتاب وتفصيلها) كما في قوله تعالى :(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) (...الإسراء 23)".

"المشيئة :هي الحرّية، وهي إمكانية النفي والإثبات في مهمّة اتّخاذ القرارات الواعية في أشياء معلومة، أي هي تقاطع القضاء والقدر معاً في حياة الإنسان. فالقضاء هو إمكانية النفي والإثبات والقدر هو الأشياء الموضوعية مع وجود علاقة بينهما هي المعرفة. وهناك ارتباط بين المشيئة الإلهية والمشيئة الإنسانية لأنّ الله كامل المعرفة والإنسان معرفته نسبية لقوله تعالى :(وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا)(الإنسان 30). أمّا الإرادة فهي اتّخاذ قرار ما، والإرادة الإنسانية مرتبطة أيضاً بالإرادة الإلهية لأنّ إرادة الإنسان تدخل ضمن العلم الإلهي الاحتمالي لقوله تعالى :(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا) (النساء 27).

المشيئة (الحرّية) = القضاء + القدر (بعلاقة المعرفة)"

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي لكل من: القدر، القضاء، المشيئة، وفيما يأتي تعريف هذه الكلمات:

القَدَرُ : "مِقدار الشيء وحالاته المقدرة له. وفي التنزيل العزيز: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}. و. وقت الشيء أو مكانه المقدر له. و. القضاء الذي يقضي به الله على عباده. (ج) أقدار"(322).

القضاء: "قال ابن قتيبة: أصل القضاء: الختم. وقال الزجاج: القضاء في اللغة على ضروب كلها ترجع إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه"(323).

المشيئة: "..الشيء: عبارة عن الموجود، وأصله مصدر شاء، وإذا وصف به تعالى فمعناه شاءٍ، وإذا وُصف به غيره فمعناه المشيء، وعلى الثاني قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: 16]. ... المشيئة عند أكثر المتكلمين كالإرادة سواء، وعند بعضهم: المشيئة في الأصل إيجاد الشيء وإصابته، وإن كان قد يستعمل في التعارف موضع الإرادة، فالمشيئة من الله الإيجاد، ومن الناس الإصابة..."(324).

---

(322) – المعجم الوسيط، مادة (قدر).

(323) – انظر: نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(506).

(324) – انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة (شيء).

ثانياً: قال السيوطي: قَضَى "ورد على أوجه: الفراغ: (فإذا قَضَيْتُم مَنَاسِككم) . والأمر: (إذا قَضَى أمْرا) . والأجل: (فمنهم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ). والفصل: (لقُضِيَ الأَمْر بيني وبينكم). والمضي: (ليَقْضِيَ اللهُ أمْراً كان مفعولاً). والهلاك: (لقضِيَ إليهم أجَلُهم). والوجوب: (لَمَّا قُضِيَ الأمر). والإبرام: (إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا). والإعلام: (وقَضَيْنَا إلى بني إسرائيل). والوصية: (وقَضَى ربّكَ ألاَّ تعْبدوا إلا إيَّاه). والأداء والوفاء: (ذلك بيني وبينك أيما الأجَلين قَضَيْت)، يعني أديت ووفيت. والفراغ: (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) ، أي فرغ ومضى. والحكم: (واللهُ يَقْضِي بالحق) ، أي يحكم. والموت: (فلما قضينا عليه الموت)"[325].

ثالثاً: كلام الدكتور شحرور في القضاء والقدر متداخل وتناقض، وغير موافق لما جاء به الكتاب العزيز، إذ كيف يعرف القضاء بقوله: " هو ظاهرة تتعلق بالسلوك الإنساني الواعي (إرادة إنسانية)، وهو قائم على الحركة الواعية بين النفي أو الإثبات في أيّ قرار إرادي واعٍ". مع أن القضاء أمر إلهي!؟

وكيف يصف علم الله بالاحتمالي في قوله: "لأنّ إرادة الإنسان تدخل ضمن العلم الإلهي الاحتمالي" مع أن علم الله قطعي!؟

وكيف يعتبر المشيئة هي الحرية وهي نتاج القضاء والقدر وفق معادلته:

المشيئة (الحرّية) = القضاء + القدر (بعلاقة المعرفة)

فهذا كله كلام غير دقيق، وغير صحيح، تداخل فيه الحق مع الباطل، وهو لا يستند إلى دليل علمي، ويفسد الرأي و اللغة والدين في آن واحد.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"العباد :هو جمع مفرد عبد، والعبد من أسماء الأضداد، لأنّه يُطلق على المطيع والعاصي معاً لقوله تعالى :(وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات 56). فالعبد العاصي ورد ذكره في قوله تعالى :(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...) (الزمر 53)، والعبد المطيع في قوله تعالى :(ذَلِكَ الَّذِي يُبَشر اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(325) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (139/3).

الصَّالِحَاتِ قُل لّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ) (الشورى 23). فالعبد هو الذي يختار ويقرّر أفعاله بكلّ حرّية ودون إكراه. وعباد الله هم من يطيعونه ويعصونه بملء إرادتهم، لأنّ عبادية الناس لله تُبنى على الاختيار أي الحرّية المسؤولة لقوله تعالى :(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)(الفاتحة 5). وجاء ذكر معنى المعصية في قوله تعالى :(قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) (الزخرف 81) أي أنا أوّل الكافرين به. وجاء استعمال المعنيين معاً (الطاعة والمعصية) في سورة "الكافرون":.....".

"العبيد :هو جمع مفرد عبد مملوك، أي الرقيق. والعبد المملوك ليس له حرّية في اختيار أفعاله لأنّه لا يملك من أمره شيئاً ويكون مكرهاً في جميع أحواله لقوله تعالى :(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ...) (النحل 75). فنحن عباد الله في الدنيا لقوله تعالى :(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر 10)، لكننا عبيده يوم الحساب لأننا لا نملك من الأمر شيئاً يومها لقوله تعالى :(قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ) (ق 28-29). والعبوديّة لله في الحياة الدنيا غير مطلوبة بل المطلوب من عباده العبادية له، وإن وجدت العبودية في الحياة الدنيا فعلاً فإنّها تكون دائماً لغير الله حتماً"[326].

تعقيب ومناقشة

أولاً: جاء في القاموس: "العبدُ: الإنسانُ حراً كان أو رقيقاً، والمملوك، كالعبْدَلِ، ج: عبدون، وعبيد، وأَعْبُدٌ، وعِعباد، وعُبدانٌ، وعِبدان، وعِبِدَّانٌ، بكسرتين مشددة الدال..."[327].

وجاء في المعجم الوسيط: "عبدَ اللهَ ُعِبَادَةً، وعُبُودِيَّة: انقاد له وخضع وذلَّ. ويقال: ما عبدك عنِّي: ما حبسك.(عَبِدَ)َ عَبَداً، وعَبَدَة: ندِم. و.عليه: غَضِب. و.منه: أَنِف. و.على نفسه: لامها. و.عليه: حَرَص. و. به: لزمه فلم يفارقه. فهو عابد، وعَبِد.(عَبُد)ُ عُبُوداً، وعُبُودِيَّة: مُلِك هو وآباؤه من قبل.(أَعْبَدَ) القومُ

(326) – للمزيد راجع كتاب الدكتور شحرور: الإسلام والإيمان. منظومة القيم، القسم الثاني: منظومة القيم، الفصل الأول: العباد والعبيد.

(327) – القاموس المحيط، مادة (عبد).

بفلان: اجتمعوا عليه يضربونه. و. فلاناً: استعبده. و. فلاناً عبداً: ملّكه إياه. (أُعْبِد) به: ماتت راحلته في الطريق، أو اعتلّت فانقطع به.(عَبَّدَه): ذلَّله. يقال: عبَّدَ الطريقَ، وعبَّد البعيرَ. و. فلاناً: اتَّخذه عبداً. وفي التنزيل العزيز: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}.. و. السفينةَ والبعيرَ: طلاهما بالقار. ويقال: ما عبَّد فلان أن فعلَ كذا: ما لبث.(تَعَبَّدَ): انفرد بالعبادة. و. فلاناً: اتَّخذه عبداً. و. دعاه للطاعة.(اعْتَبَده): اتَّخَذَه عبداً.(اسْتَعْبَدَه): اعتبده.(العابِد): الموحِّد. (ج) عَبَدَة، وعُبَّد، وعُبَّاد.(العَبَابيد) من الخيل والنَّاس: المتفرِّقون الذَّاهبون في كلِّ وجه؛ يقال: تفرَّقوا عبابيد. و. الطُّرُق المتفرِّقَة. و. الآكام. (لا واحد لها من لفظها).(العِبَاد): قبائل شَتَّى من بطون العرب اجتمعوا على النَّصْرانيَّة ونزلوا بالحيرة، ومنهم عديّ بن زيد العِباديّ.(العِبَادَة): الخضوع للإله على وجه التعظيم. و. الشعائر الدينية ... (العَبْد): الرَّقيق. و. الإنسان حُرًّا كان أو رقيقاً؛ لأنه مربوب لله عزَّ وجلّ. (ج) عبيد، وعُبُد، وأعبد، وعِبدان"[328].

ثانياً: سردنا نصين من المعاجم، ليُعْلَم أنه في لغة العرب: عبد جمعه عبيد وعباد، فما ادعاه الدكتور شحرور من فروق بين العباد والعبيد ليس موجوداً باللغة العربية، والقرآن جاء وفق لغة العرب، وخاطبهم بما يفهمونه، **فاختراع معان لم تأت في لغة العرب والتقعيد على شيء لا أساس له باطل،** والقرآن المعجز يستعمل مرة لفظ عباد، ومرة عبيد، بحسب الغرض والسياق، وهذا من مقتضى إعجازه، وعلى من أراد معرفة سبب ذلك العودة إلى الزمخشري وأبي حيان والقرطبي والطيبي وغيرهم من أرباب هذا العلم.

ثالثاً: أما أن يأتي مَنْ يقول: "والعبوديّة لله في الحياة الدنيا غير مطلوبة بل المطلوب من عباده العبادية له، وإن وجدت العبودية في الحياة الدنيا فعلاً فإنّها تكون دائماً لغير الله حتماً".

فهذا كلام لا يقبله صاحب حس عربي سليم، فالذل لله عز، واستغناء عن غيره سبحانه وتعالى، ولله در القاضي عياض حين قال:

ومما زادني شرفاً وتيهاً
وكدتُ بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي
وأن صيرتَ أحمدَ لي نبياً

(328) – المعجم الوسيط، مادة (عبد).

رابعاً: ثم لنلاحظ قوله أولاً: "العباد :هو جمع مفرد عبد، والعبد من أسماء الأضداد، ...فالعبد هو الذي يختار ويقرّر أفعاله بكلّ حرّية ودون إكراه"، وقوله بعد ذلك: "العبيد :هو جمع مفرد عبد مملوك، أي الرقيق. والعبد المملوك ليس له حرّية في اختيار أفعاله لأنّه لا يملك من أمره شيئاً ويكون مكرهاً في جميع أحواله"، **فقد ميز بين معنى جمعين لمفردة واحدة، فكلمة عبد جمعها عبيد وعباد، ولا فرق بين الجمعين من حيث دلالتهما على الأحرار والأرقاء معاً، وليس كما يدعي.**

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"البشر :هو كائن حيّ ينتمي إلى الفصيلة العليا من الكائنات الحيّة من الثدييات، وهو وجود بيولوجي صرف لقوله تعالى :(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشرا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) (الحجر 28). من هنا جاءت تسمية كليّة الطبّ البشري لأنّها تَدْرُس الإنسان ككائن حيّ.

الإنسان :هو كائن بشري لقوله تعالى :(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ) (المؤمنون 12)، تحوّل إلى كائن عاقل واعٍ بنفخ الروح فيه لقوله تعالى :(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) (الحجر 29). فاستحقّ بذلك أن يخلف الله في الأرض لقوله تعالى :(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً...) (البقرة 30). وحين يتجمّع أفراد الإنسان تتشكل المجتمعات الإنسانية، أمّا الحيوانات فتتجمّع في أسراب كالطيور أو في قطعان كالبهائم.

آدم :هو أبو الإنسان وليس والد البشر[329]، وبه بدأ التاريخ الإنساني الواعي، أي إن الإنسان العاقل المتكلم ينتسب إلى سلالة آدم لقوله تعالى :(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) (الإسراء 70)".

(329) – انظر أيضاً في هذا الخصوص ما ذكره في كتابه: القصص القرآني قراءة معاصرة، مدخل إلى القصص وقصة آدم، الباب الثاني: قصة آدم.

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، "البِشر.البَشر: الإِنسان (الواحد والجمع والمذكر والمؤنث فيه سواء). وقد يُثَنَّى ويُجمع على أَبْشَار. وفي التنزيل العزيز: (أَنُؤْمِنُ لِبَشرِيْنِ مِثْلِنَا)"[330].

"والإنسان: واحد الناس، والجمعُ ناسٌ وأَناسِيُّ، ولا يُصرف. وقيل: سُمي إنسان: لأنه يأنس بجنسه. وقال ابن قتيبة: سُمي الإنسُ إنساً لظهورهم، وإدراك البصر إياهم، وهو من قولك: آنستُ كذا، أي: أبصرته. قال الله عز وجل: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه: 10]، أي: أبصرت"[331].

ثانياً: والبشر هو نفسه الإنسان، وهو نفسه آدم عليه السلام، مخلوق من طين، وسجد له الملائكة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشرا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: 71-76].

ثالثاً: ويأتي لفظ الإنسان في القرآن الكريم على خمسة وعشرين وجهاً، منها: آدم، وأولاد آدم، وبعض الأشخاص ممن نزل فيهم آية من آيات القرآن[332].

رابعاً: قوله: "آدم-:هو أبو الإنسان وليس والد البشر"[333]، هذا قول لا يتوافق مع اللغة العربية ولا الآيات القرآنية، ولا مع ما ورد في السنة النبوية الشريفة، وليس له دليل علمي صحيح.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الروح :هي المعرفة والتشريع المرتبطان بالإنسان. بدأت عند الإنسان بتعليمه الأسماء، كبداية للفكر الإنساني المبنيّ على عدم التناقض ثمّ الانتقال إلى التجريد. لذا سُمّي الوحي روحاً في قوله

---

(330) – المعجم الوسيط، مادة (بشر).

(331) – نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(176).

(332) – انظر: المصدر السابق، ص(177-183).

(333) – انظر أيضاً في هذا الخصوص ما ذكره د. شحرور في كتابه: القصص القرآني قراءة معاصرة، مدخل إلى القصص وقصة آدم، الباب الثاني: قصة آدم.

تعالى :(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا) (الشورى 52) لأنّه أوحى إليه المعرفة والتشريع. وبناءً على ذلك فإنّ البشر يمثل الوجود الموضوعي المادّي للإنسان، والمعرفة والتشريع يمثلان الوجود المدرك الواعي الإنساني للبشر، ويعبّر عنها باللغة، لأنّ اللغة هي حاملة الفكر:

إنسان = بشر (الموضوعي) + روح (الذاتي).

روح = (معرفة + تشريع) بحامل لغوي مبني على عدم التناقض".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي : "الرُّوحُ، بالضم: ما به حياة الأنفس، ويؤنث، والقرآن، والوحي، وجبريل، وعيسى، عليهما السلام، والنفخ، وأمر النبوة، وحكم الله تعالى وأمره..."[334].

ثانياً: إن لفظ روح " ورد في القرآن الكريم على أوجه: الأمر: (وروح منه). والوحي: (ينزل الملائكة بالرّوح). والقرآن: (أوْحَيْنَا إليكَ روحاً من أمرنا). والرحمة: (وأيّدهم بروح منه). والحياة: (فَروح ورَيْحان) . وجبريل: (فأرْسَلْنَا زوحنا). (نزل به الرّوح الأمين). وملك عظيم: (يوم يقوم الرُّوحُ). وجنْس من الملائكة: (تنزَّل الملائكة والروح فيها). وروح البدن: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) ، أي من علم ربي لا نَعْلَمه نحن ولا أنتم، لأنه من الأمور التي استأثر الله بها، ولم يطلِعْ عليها خلْقَه، وكانت اليهود قد قالت لقريش: سَلوه عن الروح فإن لم يجبكم فيه بشيء فهو نبيٌّ، وذلك أنه كان عندهم في التوراة أن الروح مما انفرد الله بعلمها.

وقال ابن بريدة: لقد مضى النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يعرف الروح، ولقد كثر اختلاف الناس في النفس والروح حتى أنهوه إلى خمسمائة قول، وليس فيها ما يعوَّل عليه"[335].

ثالثاً: تعريفه الروح بقوله: "هي المعرفة والتشريع المرتبطان بالإنسان" هذا التعريف لا يتطابق مع اللغة العربية ولا مع الشريعة التي جاء فيها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 85].

(334) – القاموس المحيط، مادة (روح).

(335) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (201/2).

رابعاً: يقول الدكتور مصطفى حسيبة بعد استعراضه لآيات تحدثت عن الروح في القرآن الكريم: "ففي كل هذه الآيات الروح لا تدل على الروح أو النفس الإنسانية، بل على كيان إلهي يتنزل من الله، ويقرب من معنى الكلمة (اللوغس)" [336].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"النفس :من الناحية المادّية هي كلّ كائن حيّ يتنفّس ويحتاج إلى الأوكسجين، وهي النفس التي يصيبها الموت لقوله تعالى :(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً...) (آل عمران 145). ومن الناحية البسيكولوجية هي مجموعة المعلومات والأحاسيس التي تشكل الأنا الإنسانية منذ الطفولة حتى الموت مع وجود التغيّر البيولوجي للخلايا، وهي النفس التي تُتوفى لقوله تعالى :(اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) (...الزمر 42)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته تعريف النفس في اللغة، وتعريف النفس: "الرُّوح. ويُقال: خرجت نفسُه، وجاد بنَفْسِه: مات. و.الدَّمُ. يُقال: دفَقَ نَفَسَهُ. و.ذاتُ الشيء وعينُه. يُقال: جاء هو نفسه أو بنَفْسِه. (ج) أَنْفُسٌ، ونُفوسٌ. ويُقال: أصابته نَفْسٌ: عَيْنٌ. وفلان ذو نَفَس: خُلُق وجَلَد. ويُقال: في نَفْسِي أن أفعل كذا: قصدي ومرادي. وفلان يؤامر نَفْسَيْهِ: له رأيان لا يدري على أيها يثبت" [337].

وتعريف الدكتور شحرور للنفس هو تعريف قاصر عن الإحاطة بمعاني النفس، وخارج عما يعرفه العرب في لغتهم.

ثانياً: يقول الدكتور مصطفى حسيبة إن "كلمة نفس تدل على معنى إنساني خالص، وغالباً بمعنى ذات الإنسان، ومبدأ الحياة فيه، كما في الآيات: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: 281]..." [338].

---

(336) – المعجم الفلسفي، ص(630).

(337) – المعجم الوسيط، مادة (نفسه).

(338) – المعجم الفلسفي، ص(630).

ويضيف: "إن العلوم المعاصرة لم تقدم لنا إجابات شافية لتعريف النفس وتحديد وظيفتها، رغم ظهور علم للنفس مستقل، ولهذا اتجه علماء النفس إلى تحديد وظائف النفس بدلاً من البحث في ماهيتها"[339].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الفؤاد :هو الإدراك المشخص الناتج عن طريق الحواسّ مباشرة (perception) وعلى رأسها السمع والبصر لقوله تعالى :(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً) (الإسراء 36). وهو ردّ الفعل الغريزي الموجود عند الحيوان والإنسان معاً مع فرق بينهما أنّ الفؤاد الغريزي الإنساني متطوّر عن الحيواني لأنّه يربط بين الاسم والمسمّى ويزيل التناقض بينهما، وهو بمثابة مقدّمة حسّية للفكر الإنساني لأنّه يمثل المادّة الخام التي تنطلق منها عملية التفكير المجرّد للإنسان. فالفؤاد هو بمثابة الصاعق "المحرّض" للفكر الإنساني أي يمثل مرحلة الإقلاع له".

تعقيب ومناقشة

– فاته تعريف الفؤاد في اللغة: "الفُؤاد: القلب. وفي التنزيل العزيز: {ما كذب الفؤاد ما رأى}. ويقال: هو فارغ الفؤاد: لا همّ عنده ولا حزن. أو سيِّئ الحال، وبه قال بعض المفسرين في قوله تعالى: {وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً}. (ج) أفئدة"[340].

وتعريفه للفؤاد هو خارج عما يعرفه العرب في لغتهم!، ولم يذكر لنا من أين أتى به!.

***

(339) – المرجع السابق، ص(631).

(340) – المعجم الوسيط، مادة (فأده).

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الفكر :هو عملية تحليل المدركات (المادة الخام) الآتية من الفؤاد لقوله تعالى: (...وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران 191)، وهو مرتبط بالعقل.

العقل :هو عملية الربط بين المدركات (المادة الخام) الآتية من الفؤاد بعد أن يكون الفكر قد قام بتحليلها، وذلك لاستخلاص نتائج منها بعد تحليلها. فالآيات التي ذُكرت فيها الظواهر المرتبط بعضها ببعض جاء فيها قوله تعالى: "تعقلون" أو "يعقلون"، مثل قوله تعالى :(...وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الجاثية 5)، فاختلاف الليل والنهار يشير إلى الفصول الأربعة وهي مرتبطة بما بعدها لأنّ فيها تتغيّر الأمطار والرياح، وهذه الظواهر الثلاث مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً عقلانياً، لهذا قال تعالى في نهاية الآية (لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: العقل في اللغة: "ما يقابل الغريزة التي لا اختيار لها. ومنه: الإنسان حيوان عاقل. و. ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات. و. ما به يتميز الحسن من القبيح، والخير من الشر، والحق من الباطل. و. القلب. و. الدِّيَة. و. الحصن. و. الملجأ. (ج) عُقُول"[341].

ثانياً: أما الفِكْر فهو: "إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول. ويقال: لي في الأمر فِكْر: نظر ورويّة. وما لي في الأمر فكر: ما لي فيه حاجة ولا مبالاة. (ج) أفكار.(الفَكْر): يقال ليس لي في هذا الأمر فكر: لا أحتاج إليه ولا أبالي به.(الفِكْرَة): الفِكْر. و. الصّورة الذّهنيّة لأمر مّا. (ج) فِكَر.(الفِكْرَى): الفِكر. (ج) فِكْرَيات.(الفِكِّير): الكثير التفكير"[342].

---

(341) – المعجم الوسيط، مادة (عقل).

(342) – المرجع السابق، مادة (فكر).

ثالثاً: أما بالنسبة للمدارس الفلسفية والنفسية والتربوية فلديها تعريفات أخرى كثيرة ومختلفة للعقل[343]، نختار منها: هو "ملكة إدراك ما هو كلي وضروري سواء كان ماهية أو قيمة". أو هو "حامل معرفة، وطاقة تجريد، ومركز التفكير والأحكام، وملكة متعالية شكلت التفوق النوعي للإنسان بوصفه كائناً فكرياً"[344].

*****

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"القلب :هو آلة العقل، وهو جزء الدماغ الذي يقلّب الأشياء بتحليلها والربط بينها ليصل إلى نتائج (يعقلها). وليس في كلّ آيات التنزيل الحكيم ما يشير إلى العضلة القلبية التي تضخّ الدم في أنحاء الجسم. وقد ربط عزّ وجلّ بين القلب والعقل في قوله تعالى :(لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لّا يَعْقِلُونَ) (الحشر 14)، لأنّ العقل من وظائف الدماغ".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، " (القَلْب): عضو عَضَلِيّ أجوف يستقبل الدَّمَ من الأوردة ويدفعه في الشرايين، قاعدته إلى أعلى معلَّقة بنِياط في الجهة اليسرى من التجويف الصدريّ، وبه تجويفان: يَسَاريّ به الدم الأحمر، ويمينيّ به الدم الأزرق المحتاج إلى التنقية؛ وبكل تجويف تجويفان فرعيان يفصل بينهما صمام، ويسمى التجويف العُلْوي: الأُذَين، والتجويف السُّفليُّ: البُطَين. وقد يعبر بالقلب عن العقل.و(قَلْب كُلّ شَيْء): وسطه ولُبُّه ومحضه. وقلب النخلة: جُمَّارُها. وقلب الشجر: ما لانَ من أجوافها. ورجل قَلْب: خالص النسب (للواحد والجمع والمذكر والمؤنث). وجئتك بهذا الأمر قلباً: مَحْضاً. (ج) قلُوب"[345].

ثانياً: قال ابن الجوزي: "وذكر أهل التفسير أن القلب في القرآن على ثلاثة أوجه: أحدها: القلب الذي هو محل النفس. ومنه قوله تعالى في الحج: (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور).

---

(343) - انظر: المعجم الفلسفي، د. مصطفى حسيبة، ص(637-648).

(344) - المرجع السابق، ص(643، و 645).

(345) - المعجم الوسيط، مادة (قلب).

والثاني: الرأي. ومنه قوله تعالى في الحشر: (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) . والثالث: العقل. ومنه قوله تعالى في ق : (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب)"[346].

ثالثاً: قوله: " القلب :هو آلة العقل، وهو جزء الدماغ" يتناقض مع قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]. فالقلب ليس جزء الدماغ، ولكنه عضو مستقل بذاته.

رابعاً: إن عملية التفكير والسلوك الإنساني يتداخل فيها عمل العقل (الفكر) ومكانه في المخ، مع عمل القلب (العاطفة)، ولذلك لا يمكن فصل عمل العقل عن عمل القلب، فالإنسان مكون من جسم وعقل وقلب وروح، وقراراته تتحكم فيها هذا الأشياء بشكل متداخل فيما بينها، فليس العقل وحده هو الذي يسيطر على سلوك الفرد وقرارته، وإنما القلب كذلك. وحينما يستخدم القرآن لفظ القلب فإنما يستخدمه بمعانيه المختلفة كما تقدم، ولا يقصد دوماً هذا العضو الذي يضخ الدم بالضرورة.

خامساً: (ملاحظة هامة): ظن بعض الناس أن القرآن الكريم لم يلتفت إلى أهمية الدماغ، وهو الذي يفكر بواسطته الإنسان، واكتفى بالحديث عن القلب، وهذا باطل، فقد تقدم أن القلب يأتي في القرآن الكريم بمعنى الرأي والعقل، وليس دوماً هذه الجارحة، والرأي والعقل يكونان ويعملان بواسطة الدماغ، والدماغ يشتمل على المخ والمخيخ وجذع الدماغ كما هو معلوم. فالإشارة إلى الرأي والعقل تقتضي ضمناً الإشارة إلى الدماغ، لأنهما أثران من آثار نشاطه. تماماً كما أن الإشارة إلى السقف تتضمن الإشارة إلى البيت، لأن البيت يتضمن السقف والجدران، والإشارة إلى سرعة السيارة تتضمن الإشارة إلى السيارة، لأن السرعة من آثارها، وعليه قوله تعالى: (والعاديات ضبحاً) هي إشارة إلى الخيل لأنها هي التي تعدو، والعدْو من آثارها.

ومما يؤكد تنويه القرآن بالمخ بشكل صريح وقاطع، وأنه مركز قرارات الإنسان قوله تعالى: (كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) [العلق: 15-16]. والناصية هي مقدمة الرأس، أو الشعر الذي ينبت في مقدمة الرأس، وقد "أثبت العلم الحديث أن الناصية التي تقع في مقدمة الرأس أسفل الجبهة ويقع فيها المخ أي أنها هي المسؤولة عن اتخاذ القرارات، والكذب والخطأ، وبالتالي فإن الناصية هي من تقود

(346) – نزهة الأعين النواظر، تحقيق الراضي، ص(483-484).

الإنسان لأنها هي المسؤولة عن إصدار الأوامر، وهنا يظهر إعجاز القرآن في الكلام عن الناصية ووظيفتها وطبيعة عملها قبل أن يتوصل العلم الحديث إلى هذه الحقيقة"[347].

ولأهمية هذا الجزء من الرأس، قال الله تعالى: (ما من دابة الإ هو آخذ بناصيتها) [هود: 56]، وجاء في الحديث الشريف: (اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك)[348]. والناصية هنا هي مركز القيادة في الإنسان.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"القلم :هو تمييز الأشكال بصفاتها بعضها من بعض والتعرّف إليها، أي هو عملية "التقليم" Identification لقوله تعالى :(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)(القلم 1)، فالعين تقلّم الأشكال والألوان، والأذن تقلّم الأصوات، واللسان يقلّم الطعوم. والقلم هو وسيلة اكتساب المخلوقات كلها للمعارف سواء العاقل منها أو غير العاقل بما فيها الملائكة. والمعرفة الإنسانية خط صاعد إلى الأعلى ومحوره القلم (التمييز)، لا تخرج عنه إطلاقاً لقوله تعالى:(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق 3-5)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، " القَلَم: ما يكتب به. (ج) أقلام، وقِلام. و. المِقَصّ، ويقال له: القَلمان أيضاً. و. السَّهْم الذي يجال بين القوم في القمار والقُرْعة. وجفَّ القلم: قُضِي الأمر وأُبرم. وقد أُطلق القلم عند الكاتبين على الخطّ، فقالوا: يكتب بالقلم النَّسخي. و(في اصطلاح الدَّواوين): قسم من أقسام الديوان، يقال: قلم الكتَّاب، وقلم المحضرين، وقلم المستخدمين. وقلم الحبر: قلم مداده مخزون فيه لا يسيل على سنِّه إلا وقت الكتابة به. وقلم الرصاص: قلم سنّه من الجرافيت لا مداد له"[349].

---

(347) – ماهي الناصية؟ موقع موضوع، على الرابط:

https://bit.ly/2OVuZQr

(348). انظر: جامع الأصول، لابن الأثير، بتحقيق الأرناؤوط، (298/4).

(349) – المعجم الوسيط، مادة (قلم).

ثانياً: قوله: "القلم :هو تمييز الأشكال بصفاتها بعضها من بعض والتعرّف إليها" **هذا تعريف لوظيفة القلم وأثره، وليس تعريفاً له بوصفه أداة لها اسم محدد.**

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"السطر :هو التصنيف Classification لقوله تعالى :(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) (القلم 1)، أي جمع الأشياء بعد تصنيفها في مجموعات في قوله تعالى :(وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) (القمر 53). مثاله تصنيف الحيوانات البرّية: الثدييّات والزواحف...".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، ومعنى السطر في المعجم: "سطر الْكتاب سطراً كتبه، وَفُلَانًا: صرعه، وَالشَّيْء بِالسَّيْفِ: قطعه . (أسطر) الشَّيْء: أَخطأَ فِي قِرَاءَته. وَيُقَال أسطر اسْمِي: تجَاوز السطر الَّذِي هُوَ فِيهِ. (سطَّرَ) الْكتابَ: سَطَرَهُ. والورقةَ: رسم فِيهَا خُطُوطًا بالمِسْطرة. والعبارةَ: ألفها. وَيُقَال: سَطَّرَ الأكاذيبَ. وسَطَّرَ علينا: قصّ علينا الأساطير. (اسْتَطَرَ) الْكتابَ: سَطَرَهُ... (السَّطرُ) الصَّفُّ من كل شَيْء. يُقَال: سطْرٌ من الْكِتَابَة، وسَطْرٌ من الشّجر (ج) أَسْطُر وسُطُورٌ وأَسْطار (جج) أَساطير"[350].

ثانياً: السطر معروف في لغة العرب، واختراع معنى له لا يعرفه العرب تكلف، والتكلف منهي عنه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الشيطان :له معنيان، الأوّل: شيطان الوهم، وهو الجانب الآخر في العملية الفكرية للإنسان لقوله تعالى :(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ) (الحج 3)، وكلّ إنسان له شيطانه وهو القرين الذي يحاول أن يوقعه في الخطأ والوهم لقوله تعالى :(الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي

(350) – المرجع السابق، مادة (سطر).

الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ) (ق 26-27). والثاني: شيطان الأخلاق وهو الذي يحاول أن يوقع الناس في الحرام ويقعد لهم على الصراط المستقيم (الفرقان) لقوله تعالى :(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) (الأعراف 16)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، "الشيطان: اسم لكل متمرد. قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كلُّ غالبٍ متمردٍ من الجنِّ والإنسِ والدَّوابِّ فهو شيطان"[(351)].

ثانياً: ويأتي لفظ الشيطان في القرآن على أربعة أوجه[(352)]:

أحدها: الكاهن. ومنه قوله تعالى في البقرة: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14]. وقيل: هم رؤساؤهم في الكفر.

والثاني: الطاغي من الجن والإنس. ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112]

والثالث: الحية. ومنه قوله تعالى في الصافات: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: 65]

والرابع: أمية بن خلف، ومنه قوله تعالى في الفرقان: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 29].

ويلاحظ دائماً أن الدكتور شحرور يختصر دائما معاني المصطلحات القرآنية واستعمالاتها المختلفة.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الموت :دورة الحياة في الطبيعة، وتُبنى هذه الدورة على ظاهرة التعاقب بين الموت والحياة. فالموت فيها يتعاقب مع الحياة لأنّه رديف لها. والموت هو ظاهرة الانتقال من حالة إلى حالة، فبالنسبة لأشياء

(351) – نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(374).

(352) – انظر: المصدر السابق، ص(375-376).

الطبيعة لقوله تعالى :(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) (الروم 19)، وبالنسبة للإنسان لقوله تعالى :(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (البقرة 28)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي: "الموت ضد الحياة. ويطلق الموت ويراد به العقل والإيمان، نحو ما في التنزيل العزيز: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122]، ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: 80]. كما يراد به: ما يُضعف الطبيعة ولا يلائمها، كالخوف والحزن، كقوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: 17]، والأحوال الشاقة كالفقر والذل والهرم والمعصية[353].

ثانياً: في الفلسفة: "الموت هو توقف الكائنات (الحية) نهائياً عن النمو والاستقلاب والنشاطات الوظيفية الحيوية (مثل التنفس والأكل والشرب والتفكر والحركة ..إلخ) ولا يمكن للأجساد الميتة أن ترجع لمزاولة النشاطات والوظائف الآنفة الذكر"[354].

ثالثاً: قوله: " الموت :دورة الحياة في الطبيعة" هذا ليس تعريفاً للموت، وإنما تفسير لحركة الموت والحياة في الطبيعة، ولكن الدكتور شحرور لا يحترز في مصطلحاته، ويخلط الأمور دوماً بعضها ببعض!.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الهلاك :ظاهرة إنسانية أحادية الاتجاه، أي ليس فيها تعاقب. فهلاك الإنسان هو انقطاع أثره لعدم وجود أصول له ولا فروع لقوله تعالى :(...قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ...) (النساء 176). وهلاك الأمم والحضارات يعني اندثارها دون رجعة لقوله تعالى :(وَحَرَامٌ عَلَى

(353) – انظر: المعجم الوسيط، مادة (مات).

(354) – انظر: المعجم الفلسفي، ص(609).

قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ) (الأنبياء 95). فالحضارات والأمم تهلك ولا تموت مثال: الحضارة الإمبراطورية، والرومانية، والخلافة الإسلامية، ثمّ الاتحاد السوفياتي؛ فكلها هلكت دون رجعة لقوله :(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) (مريم 98)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي ففي المعجم: "هلك فلانٌ ـ هَلاكاً، وهُلوكاً، ومَهْلِكاً، وتَهْلُكة: مات. فهو هالك. (ج) هَلْكى، وهُلَّك، وهَوَالك. وفي التنزيل العزيز: {لِيَهْلك من هَلَكَ عن بيِّنَة}. وفيه: {ما شهدنا مَهْلِك أهله}، و: {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلُكَة}.(أهْلَكَه): جعله يهْلِك. ويقال: أهلك مالَه: باعه.(هَلَّكَه): أهلكه. ويقال: هلَّك فلانٌ فلاناً: أهلكه.(اهْتَلَكَ) فلانٌ: ألقى نفسه في التَّهلُكة. و الطائرُ: جَدذ في طَيَرانه. و المنتجِعُ: ضلّ الطريق"[355].

ثانياً: الهلاك وفق تعريفه هو الموت، ولا شيء غير ذلك، فقد قال: "وهلاك الأمم والحضارات يعني اندثارها دون رجعة لقوله تعالى :(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ) (الأنبياء 95)". ثم ناقض ما قاله فأضاف: "فالحضارات والأمم تهلك ولا تموت". وأي شيء ذهب بلا رجعة فهذا يعني الموت والنهاية من عالم الدنيا، ولا حاجة لحذلقات كلامية.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الأمّة :هي المجموعة من المخلوقات، عاقلة أو غير عاقلة، يجمعها سلوك موحّد لقوله تعالى :(وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم..) (الأنعام 38). هذا السلوك يختلف من أمّة إلى أخرى، فأمّا أمم الحيوانات فسلوكياتها غريزية، بينما الأمم العاقلة سلوكياتها مرتبطة بالثقافة والتوجّه الديني. وقد تغيّرت مع التطوّر التاريخي، سلوكيات الناس في التجمّعات الإنسانية، بتطوّر المعارف والشرائع والعادات، مثالها الأمّة المحمّدية التي تجمع أفرادها الشعائر (الصلوات الخمس، صوم رمضان...) بحيث سمّاهم التنزيل الحكيم (المؤمنون)".

(355) – المعجم الوسيط، مادة (هلك).

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، فالأمة هي: **الطريقةُ، والإِمامةُ، والائتمامُ بالإِمامِ، وبالضم: الرَّجُلُ الجامِع للخيرِ، والإِمامُ، وجماعةٌ أُرْسِلَ إليهم رسولٌ، والجيلُ من كُلِّ حَيٍّ، والجِنْسُ** [356].

ثانياً: يأتي لفظ أمَّة في القرآن الكريم "لمعان: جماعة، ومنه: (وَجَد عليه أمة) ورجل جامع للخير، ومنه: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) ، ودين وملّة، كقوله: (إنّا وجَدْنَا آباءنا على أمَّةٍ) وحين وزمان كقوله تعالى: (إلى أمَّةٍ معدودة) .، (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) أي نسيان. (وأمَّةٌ قائمة) يقال فلان حسن الأمة، أي قائمة. وأمة: رجل منفرد بدين لا يشركه فيه أحد، كقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يبعث زيد بن عمرو بن نفَيل أمة وحده. وأمة: أم، يقال هذه أمّة زيد، أي أمه"[357].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"القومية :هي علاقة ارتباطية تجمع بين مجموعة عاقلة من الناس يكون لهم لغة واحدة ولسان واحد، الأمر الذي يخلق تجانساً فيما بينهم في طريقة التفكير. مثالها: العرب يتكلمون العربية، وبنو إسرائيل يتكلمون العبرية، والفرنسيون يتكلمون الفرنسية... ولا أفضلية في الوجود لأيّ قومية على أخرى، لكنّ الأفضلية تأتي من مميزات أخرى تكتسبها قومية ما عن جدارة واستحقاق، وبجهد أفرادها وسعيهم، لا بمجرّد أنّهم عرب أو يهود أو فرنسيون أو أتراك أو... والعروبة هي الانتماء الواعي إلى القومية العربية والتعصّب الإيجابي لهذا الانتماء، وليست ذات نظرة عرقية، بل هي نظرة إنسانية صرفة، والتعصّب الإيجابي لها يتطلب من العرب الجدّ والسعي والمشاركة الفعّالة في صنع الحضارة الإنسانية مع بقية القوميات.

الشعب :هو مجموعة عاقلة من الناس يجمعها نظام اقتصادي وقانوني واحد على بقعة من الأرض تسمّى الوطن، والفرد فيها يسمّى "مواطن". قد يتألف الشعب أحياناً من أمم متعدّدة ذات ملل مختلفة (مؤمنون، نصارى، يهود، بوذيون...) وقوميات مختلفة (عرب، يهود، كرد، إنجليز...) يعيشون في وطن واحد تحت نظام دولة واحدة. ومفهوم الشعب أعمّ من مفهومي الأمة والقومية، فقد تجد في شعب واحد

---

(356) – انظر: القاموس المحيط، مادة (أمم).

(357) – معترك الأقران في إعجاز القرآن، ضبطه محمد شمس الدين، (29/2).

أمماً متعدّدة كأمّة محمّد (ص) وأمّة عيسى وأمّة موسى...وفيه قوميات متعدّدة لكلّ قومية لغتها الخاصّة. وبالتالي تصبح العلاقة بين الأمم والقوميات والشعوب علاقة مبنية على التعارف لقوله تعالى :(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)(الحجرات 13)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: يلاحظ إهماله التعريف اللغوي، للقومية والشعب، مما يجعلنا نشك في منهجه المزعوم "المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية بالاعتماد على اللغة العربية".

ثانياً: إقحام المصطلحات المعاصرة بمعانيها الحديثة في علم التفسير أمر دخيل على الدراسات القرآنية.

ثالثاً: قوله: "القومية :هي علاقة ارتباطية تجمع بين مجموعة عاقلة من الناس يكون لهم لغة واحدة ولسان واحد، الأمر الذي يخلق تجانساً فيما بينهم في طريقة التفكير". السؤال هنا ماذا عن الأقليات التي لا تنطق اللغة نفسها؟ هل هم قومية أخرى؟ كيف يُصنفون؟

رابعاً: قوله: " قد يتألف الشعب أحياناً من أمم متعدّدة ذات ملل مختلفة (مؤمنون، نصارى، يهود، بوذيون...) وقوميات مختلفة (عرب، يهود، كرد، إنجليز...)".

المعروف أن الأمة تتكون من مجموعة شعوب، فنقول: الأمة العربية تتكون من شعوب الدول العربية من المحيط إلى الخليج، ولكن الدكتور شحرور عكس وجعل الأمم تكون شعباً واحداً، وكأنه لا يعرف أن الجزء لا يحتوي الكل، فالكل هو الأمة المكونة من أجزاء هي الشعوب، والشعوب هي مكونة من قومية واحدة أو قوميات عدة.

وعليه لدينا مثلاً الشعب العربي السوري هو جزء من الشعوب العربية، وهي التي تكون الأمة العربية التي تعيش في العالم العربي، والعالم العربي هو جزء من الأمة الإسلامية التي تعيش في العالم الإسلامي.

وعليه: فالأمة الإسلامية تتكون من مجموعة أمم، كالعرب والأتراك والفرس وغيرهم.

والأمة العربية هي مجموعة من الشعوب التي تعيش في البلاد العربية من المحيط إلى الخليج.

والشعب العربي في سورية هو جزء من الأمة العربية التي هي جزء من الأمة الإسلامية.

ويتكون الشعب العربي السوري من مجموعات وشرائح وأعراق مختلفة، غالبيتها من العرب المسلمين، إضافة إلى وجود بعض شرائح من أعراق وأديان أخرى، يعيشون جميعاً معاً تحت مسمى الوطن.

والحضارات والأمم والشعوب والثقافات والأديان واللغات تتداخل فيما بينها، وليست منفصلة عن بعضها بعضاً بجدار كجدار برلين مثلاً، ولا يعني وجود أديان أخرى أو أعراق أخرى في المجتمع السوري أنه صار يتكون من مجموعة أمم وأعراق مختلفة، لأنه في هذه الحالة لو قلنا إن الشعب السوري يتكون من الأمم الإسلامية والمسيحية والعربية والكردية وغيرها، لكان يفترض أن ينتمي إليه كل مسيحي ومسلم وعربي وكردي، وهذا يخالف الواقع، فكثير من هؤلاء ينتمون إلى بلدان أخرى، وإنما نقول تدخل في تركيبة الشعب السوري شرائح من أمم وأعراق أخرى.

وعندما نطلق وصف العالم العربي أو الإسلامي فليس معناه أن كل فرد في هذا العالم هو عربي أو مسلم، وكذلك عندما نقول العالم المسيحي فليس معناه أن كل فرد في هذا العالم مسيحي، وإنما نعني بهذا الأغلبية، وجميع دول العالم فيها شرائح وأديان وأعراق مختلفة، وإنما تصنف تلك الدول غالباً بحسب الأكثرية، مع الاحترام الكامل للمكونات الأخرى واحترام لخصوصياتها، **والوطن الواحد يستظل به جميع أبنائه على حد سواء، وتجمعهم قيم ومبادئ ومصالح ومصير مشترك.**

ونشير هنا إلى أن التعددية في المجتمعات المتطورة الحديثة، هي عامل أساسي في نهضة تلك المجتمعات وحيويتها وتحضرها ونموها وتقدمها، والله تعالى لم يشأ أن يجمع الناس على لغة واحدة، ولا دين واحد، ولا عرق واحد، ولا في مكان واحد... وإنما خلقهم مختلفين في ذلك كله، لينشأ التعارف والتنافس والتبادل الثقافي والتجاري، ومن ثم تعمر الدنيا، وتزدهر الحياة.

وعلينا أن نفهم أن التعددية فسيفساء جميلة تُسهم في رقي الأمم، وليست وسيلة صراع ونزاع كما هو الحال في بعض مناطق العالم الثالث.

خامساً: لماذا استبعد الدكتور شحرور الدين من الرابطة القومية؟ ولا سيما أن هنالك بعض الدول يدين فيها الشعب بنسبة 100٪ بدين واحد! فلماذا لا يكون الدين رابطة بين الناس في هذه الحالة؟.

سادساً: يقول الأستاذ ساطع الحصري عن الرابطة الدينية: "..لكن العوامل التي تؤثر في تكوين الأمم تميز بعضها من بعض لا تنحصر في اللغة والتاريخ؛ بل إن هناك عوامل أخرى تؤثر في ذلك تأثيراً واضحاً،

فتقوي تارة تأثير العاملين الأساسيين المذكورين آنفاً، وتضعف ذلك التأثير طوراً. إن أهم هذه العوامل، هو **الدين**. لأن الدين يولد نوعاً من "الوحدة" في شعور الأفراد الذين ينتمون إليه، ويثير في نفوسهم بعض العواطف والنزعات الخاصة التي تؤثر في أعمالهم تأثيراً شديداً. فالدين يعتبر من هذه الوجهة من أهم الروابط الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وتؤثر بذلك في سير السياسة والتاريخ"[358].

هذا كلام شيخ العروبة حول الدين وأهميته كرابطة قومية، بيد أن الدكتور شحرور تجاوزه ولم يذكر الدين كرابطة قومية! ومن العجيب أنه يتحدث باسم الدين، ويُنظر ويؤطر لما يسميه القراءة المعاصرة التي استبعدت الدين نهائياً كرابطة في حياة الأمم والشعوب!

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الولاء والبراء :الولاء من ألفاظ الأضداد، بمعنى إمّا الاتباع أوالإعراض. أمّا البراء فهو الإعراض فقط. وكلاهما علاقة إنسانية اجتماعية، تبدأ عند الفرد فكراً نظرياً ثمّ تصبح سلوكاً عملياً. أما بالنسبة للولاء فنجده في قوله تعالى :(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ...) (البقرة 148). وبالنسبة للبراء فنجده في قوله تعالى :(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ) (الزخرف 26)، والولاء والبراء أنواع: 1. الولاء والبراء في الإسلام: –الولاء: اتّباع التوحيد والحاكمية الإلهية في المحرّمات بالدفاع عن القيم الإنسانية والحنيفية ورفض الإكراه. –البراء: التبرّؤ من الشرك ومن الإجرام بحق الله وحق المجتمع وخصوصاً الطغيان ومن العداء للإنسان. 2. الولاء والبراء في الإيمان: –الولاء: اتّباع شعائر الملّة المحمّدية بمشاركة أتباع محمّد (ص) فيها. –البراء: التبرّؤ من المعتدين على الملة المحمّدية بالسبّ والشتم بالردّ عليهم حسب أسلوبهم. 3. الولاء والبراء في القومية: –الولاء: أن يدافع عن لغته وعدم التعرّض للغات الآخرين. –البراء: لا يوجد براء في القومية. 4. الولاء والبراء في الشعب: –الولاء: احترام للقانون والعلاقة القانونية والإنسانية مع كلّ المواطنين والدفاع عن الوطن (الديار) .

البراء: التبرّؤ من مخالفة القانون ومن أعداء الوطن".

---

(358) – موقع الصوت العربي الحر، الجزء الأول: عوامل القومية/ ساطع الحصري، على الرابط: https://bit.ly/2YP3MTi

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي كعادته، جاء في القاموس: " والوَلاءُ :المِلْكُ. والمَوْلَى: المالِكُ، والعَبْدُ، والمُعْتِقُ، والمُعْتَقُ، والصاحِبُ، والقريبُ كابنِ العَمِّ ونحوِه، والجارُ، والحَليفُ، والابنُ، والعَمُّ، والنَّزيلُ، والشريكُ، وابنُ الأُخْتِ، والوَلِيُّ، والرَّبُّ، والناصِرُ، والمُنْعِمُ والمُنْعَمُ عليه، والمُحِبُّ، والتابعُ، والصِّهْرُ. وفيه مَوْلَوِيَّةٌ، أي: يُشْبِهُ المَوالِيَ. وهو يَتَمَوْلَى: يَتَشَبَّهُ بالسادةِ. وتَوَلاَّهُ: اتَّخَذَهُ وليًّا، و.الأمْرَ: تَقَلَّدَهُ. وإنه لَبَيِّنُ الوَلاءَةِ والوَلِيَّةِ التَّوَلِّي والوَلاءِ والوَلايةِ، ويُكْسَرُ. ودارٌ وَلْيَةٌ: قريبةٌ"(359).

ثانياً: تعريف البراء: "بَرِئَ من الأمرِ يبْرَأُ، ويَبْرُؤُ نادِرٌ، بَرَاءً وبَرَاءَةً وبُرُوءاً :تبَرَّأَ، وأَبْرَأَكَ منه وبرَأَك، وأنتَ بَرِيٌءُ، ج :بَرِيؤُونَ، وكَفُقَهاءَ وكِرَامٍ وأشرافٍ وأنْصِباءَ ورُخَالٍ، وهي :بهاءٍ، ج :بَرِيئَاتٌ وبَرِيَّاتٌ وبرَايَا، كَخَطَايَا، وأنا بَرَاءٌ منه :لا يُثَنَّى ولا يُجْمَعُ ولا يُؤَنَّثُ، أي :بَرِيءٌ. والبَرَاءُ :أَوَّلُ لَيْلَةٍ أو يَوْمٍ من الشَّهْرِ، أو آخِرُها أو آخِرُهُ، كابْنِ البَرَاءِ.." (360).

ثالثاً: الولاء والبراء في الدين لا علاقة لهما بما ذهب إليه الدكتور شحرور بالولاء والبراء للقومية والشعب، فهو هنا يخرج عن موضوع القرآن الكريم.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الوالد والوالدة :الوالد هو صاحب الحيوان المنوي(Biological Father) ، وقد يكون هو الأب المربّي وقد لا يكون. والوالدة هي صاحبة البويضة وقد تكون هي الأمّ المربّية وقد لا تكون (Biological Mother)لقوله تعالى :(وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (لقمان 14). والذي يحدد الوالد والوالدة هو فحص الحمض النووي.DNA

الأب والأم :الأب هو من يقوم على رعاية الولد ويربّيه. وقد يكون والداً وقد لا يكون، لكن في الحالتين له الحرمة والبرّ والإرث والنسب. فالإنسان قد يكون له والد واحد هو الأب نفسه، وقد يكون له

(359) – القاموس المحيط، مادة (برأ).

(360) – المصدر السابق، مادة (ولي).

والد واحد وأب واحد أو أكثر غير الوالد. والأمّ هي من ترعى الولد وتربّيه، وقد تكون هي صاحبة البويضة الأولى وقد لا تكون، أي قد تكون الأم هي الوالدة وقد لا تكون، فهناك الأم الوالدة والأم الحاضنة والأم المرضعة والأم المربّية، وهناك أمّ المؤمنين، وكلّ هؤلاء الأمّهات لهنّ حرمة. لكن هناك أمّ واحدة لها الحرمة والإرث والبرّ وهي التي دخلت في وعي الطفل على أنّها أمّه لأنّها بدأت بتربيته بعد ولادته مباشرة سواء منها هي أو من غيرها. فالوالدان مفهوم بشري بيولوجي بحت، أمّا الأبوان فمفهوم إنساني اجتماعي. **والنسب للأب والأمّ لا للوالد والوالدة**"(361).

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي: فالوالد: الأب، والوالدان: الأب والأم، الوالدة الأم(362).

أما: "الأَبُ: الوالد. و.الجد، ويطلق على العَمِّ، و على صاحب الشيء، و على من كان سبباً في إيجاد شيءٍ أو ظهوره أو إِصلاحه. (ج) آباء، وأُبُوٌّ وأُبُوَّةٌ. وفي التنزيل العزيز: (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي). ويقال: أُبُوَّتُه أُبُوَّةُ صدقٍ: آباؤه. ويقال: فلان أبو الضَّيف، وأَبُو الأضيافِ، إذا كان كريماً مِطْعاماً. وفلان ابن أبيه: إذا شابَهَ أباه. ويقال: لله أبوك: في مَعْرِض المدح والتعجب. وبأبي أنتَ: أفديك بأبي. ويقال: لا أبَ لك: في مواضع التعجب، والحَثِّ، والزجْر.الأبوانِ: الأبُ والأُمّ. قال تعالى: (وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ). و. الأبُ والجَدُّ. و. الأبُ والعَمّ.الأَبَوِيّ المنسوبُ إلى الأب.الأَبَوِيّة: نظامٌ اجتماعيّ يتألف من جماعة أو جماعات، أصلها أُسَرٌ مشتركة في الدم، بحيث تخضع جميعها لسلطة حاكمٍ هو أكبر الذكور فيها"(363).

ثانياً: معنى الوالدين مأخوذ من ولد، ويشير إلى علاقتهم بالولادة، وأما معنى الأبوين فهو يشمل الولادة ويتوسع قليلاً ليشمل الرعاية والتربية، وقد يطلق مجازاً على غير الوالدين ممن لهم صلة برعاية الإنسان.

قوله: "والذي يحدد الوالد والوالدة هو فحص الحمض النووي.DNA " هذا في حالة الشك أو الضياع أو الالتباس، وإلا فالناس مؤتمنون على أنسابهم.

(361) – للمزيد راجع كتاب الدكتور شحرور: الإسلام والإيمان. منظومة القيم، القسم الثاني: منظومة القيم، الفصل الثالث: الأبوان والوالدان.

(362) – انظر: المعجم الوسيط، مادة (ولدت).

(363) – المرجع السابق، مادة (أبا).

قوله: "والنسب للأب والأمّ لا للوالد والوالدة" أراد به نفي النسب للوالدين أصحاب البويضة والنطفة، وإنما لمن ربى هذا المولود وتعهده، فإذا كانا هما الأبوين فبها ونعمت، وإن كان غيرهما نسب لغيرهما، وهذا افتراء على دين الله عز وجل، فالوالدان البيولوجيان للولد هما اللذان لهما حق النسب وغيره، وأما الأبوان في حالة لم يكونوا الوالدين فحقوقهما أدبية، ولا ينسب لهما المولود، ولا يرثانه، ولا يوجد تبني في الإسلام.

ثالثاً: ولو كان كلام الدكتور شحرور صحيحاً لتم نسبة سيدنا موسى عليه السلام إلى فرعون الذي رباه، وليس عمران الذي ينتهي نسبه إلى يعقوب عليه السلام.

أهذا هو التجديد الذي يُروَّج له في بلاد المسلمين، تشكيكٌ بالأنساب! وفصل بين الآباء والأبناء في الأسرة الواحدة!!

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الفتى – الفتاة :هو الإنسان المرتبط حياتيا بشخص آخر. من هنا جاء مفهوم الفتوى لأن الفتوى مرتبطة بصاحبها كأن نقول: (فتوى فلان). والله عزّ وجلّ أيضاً يفتي :(يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ..) (النساء 176). من هنا نفهم معنى فتى موسى :(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ..) (الكهف 60). كما يذكر التاريخ يوشع بن نون الذي كان يلازم موسى دائماً، ويوسف فتى العزيز وزوجته كانت حياته متعلقة ببيت العزيز لذا قال تعالى: (..امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا..) (يوسف30). وكذلك قوله :(..وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) (النور33) أي أن العمر لاعلاقة له بذلك، فالفتاة كما جاء في الآية هي المرأة المرتبطة حياتياً بشخص آخر".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، جاء في المعجم: "(الفَتَى): الشابّ أوّل شبابه بين المراهقة والرّجولة. وفي التنزيل العزيز: {قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم}. و.السّخيّ، و.ذو النجدة. و.الخادم. وفي التنزيل العزيز: {قال لفتاه آتنا غداءنا}. مثناه: فتَيَان وفتَوَان. (ج) فِتيان، وفِتيَة، وفُتُوّ، وفُتِيّ. وهي فتاة. (ج)

فَتَيَات.(الفُتُوَّة): الشّباب بين طَوْرَي المراهقة والرّجولة. و. النّجدة. و. مسلك أو نظام ينمّي خلق الشجاعة والنجدة في الفتى"[364].

ثانياً: قوله: "الفتى – الفتاة :هو الإنسان المرتبط حياتيا بشخص آخر. من هنا جاء مفهوم الفتوى لأن الفتوى مرتبطة بصاحبها كأن نقول: فتوى فلان".

هذا كلام غير صحيح بالمطلق، ولا يوجد في القواميس ولا يعرفه العرب، ولا علاقة للفتوى بالفتى والفتاة! **إنه اشتقاق صرفي جديد لا قواعد له من علوم الصرف،** نسأل الله تعالى اللطف والهداية.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الحجاب :الحجاب له معنى مكاني بحت في التنزيل الحكيم. هو عبارة عن ساتر لحجب من يقف وراءه عن الرؤية كما قال عن مريم في قوله تعالى :(فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشرا سَوِيًّا) (مريم17). ولاعلاقة للحجاب باللباس".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي: "الْحجاب :الحاجز الْمَانِع من الْإِدْرَاك .وَيُقَال للأعمى :مَحْجُوب لِأَن بَينه وَبَين الْإِدْرَاك بالبصر مَانِعا"[365].

ثانياً: يأتي الْحجاب فِي الْقُرْآن على أَرْبَعَة أوجه:[366]

أَحدهَا :السُّور، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي الْأَعْرَاف :(وَبَينهمَا حجاب).

وَالثَّانِي :السّتْر، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي مَرْيَم :(فاتخذت من دونهم حِجَابا) ، وَفِي الْأَحْزَاب :(فسألوهن من وَرَاء حجاب).

وَالثَّالِث :الْجَبَل، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى [فِي ص] : (حَتَّى تَوَارَتْ بالحجاب).

---

(364) – المعجم الوسيط، مادة (فتاه).

(365) – نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(246).

(366) – انظر: المصدر السابق، ص(246–247).

وَالرَّابِع :الْمَنْع، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى فِي المطففين :(كلا إِنَّهُم عَن رَبهم يَوْمئِذٍ لمحجوبون).

قوله: " ولا علاقة للحجاب باللباس". هذا غير صحيح، فاللباس يجب أن يحجب محاسن المرأة ومفاتنها، وإلا كانت المرأة كاسية عارية، إذا كان لباسها ضيقاً أو شفافاً غير ساتر. وموضوع الحجاب متفق عليه عند المسلمين جميعاً، مع اختلاف في بعض التفاصيل.

(ملاحظة): جمع الأستاذ محمود الشحات الشريف أسماء خمسين كتاباً عن الحجاب وخطر التبرج والسفور، مع روابطها على الشبكة الإلكترونية العالمية، وهو عدد كاف ليثبت اتفاق الأمة على الحجاب، منها: رسالة الحجاب، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، وكتاب: حكم السفور والحجاب ونكاح الشغار، للشيخ عبد العزيز بن باز، والحجاب والسفور لأحمد عبد الغفور عطار، والحجاب، لأبي الأعلى المودودي، وجلباب المرأة المسلمة للألباني، وغيرها[367].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الجيوب : هي عبارة عن طبقتين قد يكون بينهما شيء ما، فمن هنا جاء جيب القميص مثلاً. جاءت في قوله تعالى :(..ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن..) (النور 31). والجيوب المذكورة هنا هي الموجودة في خلقة الانسان ومنها ظاهرة ومنها مخفية. أما الظاهرة فهي الموجودة في الوجه (الفم – الأنف – العينان – الأذنان)، وجمال الوجه أساساً يكمن في الجيوب من حيث وضعها وحجمها ولونها وتناسبها. أما المخفية فهي الموجودة في باقي جسد المرأة وهي: الفرج والإليتين وتحت الإبطين وفتحة الصدر، وهذه الجيوب هي التي تعتبر من خصوصيات المرأة. لذا ذكر في الآية ما يخص المرأة من الزينة المخفية فقط، وحدد لمن يمكن مشاهدتها".

---

(367) – انظر: ملتقى أهل الحديث، على الرابط:
https://bit.ly/2KANR1V

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، "جَابُ القميصَ ونحوَهُ. جَيْباً: جَعَلَ له جَيْباً.(جَيَّبَ) القميصَ ونحوه: جَابهُ.(جَيْبُ) القميص ونحوه: ما يُدْخَل منه الرأس عند لُبْسِه. (ج) جُيُوب، وأجْيَاب. وفي التنزيل العزيز: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ).ويقال: فلانٌ ناصحُ الجَيْب: أمينٌ. وجَيْبُ الأرض: مَدْخَلُها. وجيبُ الثوب: ما توضع فيه الدَّراهم ونحوها. (مو)"[368].

ثانياً: الجيب إذاً فتحة الرأس، ولا علاقة للآية الكريمة بالمعنى الحديث الذي ذكره الدكتور شحرور بأنه: " هي عبارة عن طبقتين قد يكون بينهما شيء ما، فمن هنا جاء جيب القميص..." فهذا المعنى ليس هو المقصود، وإنما المراد تغطية الصدر عند فتحة الرأس، وأما اختراعه لجيوب ظاهرة وأخرى مخفية فهذا لا تساعده فيه لغة البيان والإعجاز. وإنما العلم رواية ودراية، ورحم الله الشافعي إذ يقول:

كل العلوم سـوى القرآن مشغلة

إلا الحديث وعلـم الفقه في الـدين

العلم ما كان فيه قال حـــدثنا

وما سوى ذاك وسواس الشياطين

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الميثاق :هو مجموعة بنود يلتزم الإنسان بها. وقد وضّح لنا التنزيل الحكيم بنود ميثاق بني إسرائيل لقوله تعالى :(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ) (البقرة 83). فميثاق الزوجية مثلاً يلزم به الزوج نفسه طوعاً ومدى الحياة، وبالمقابل تعطيه

---

(368) – المعجم الوسيط، مادة (جاب).

الزوجة الطاعة والعصمة كذلك طوعاً ومدى الحياة لأنّ الميثاق تعهّد من طرف واحد. وكلّ أنواع القسم المهنية عبارة عن مواثيق في شتى المجالات: الطبّ، الجيش، الوزارات...

العهد :هو التعهّد بالالتزام ببنود ميثاق ما. ويأتي العهد بعد الميثاق. وسُمّي عهداً لأنه ممّا يجب الحفاظ عليه لقوله تعالى :(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (يس 60)، وهو ما يلزم الإنسان نفسه به، أي التزام الإنسان الطوعي بأمر ما. وهو ما يُعرف في المفهوم المعاصر بالقسم بالالتزام بميثاق ما كالقسم المهني أو العسكري أو السياسي، ولا يكون إلا علناً كما في قوله تعالى :(بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (..آل عمران 76)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، فالميثاقُ هو: "عقدٌ مؤكد بيمينٍ وعهدٍ، قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: 81]"[369].

ثانياً: وأما العهد فقد "قال ابن قتيبة: الأمان: عهدٌ. والوصية: عهدٌ. واليمينُ عهدٌ. والحِفاظُ عهدٌ. قال عليه السلام: (إنَّ حُسنَ العهدِ من الإيمان). والزمان: عهد. يقال: كان ذلك بعهدِ فلان. وَقَالَ ابْن فَارس :الْعَهْد: الْأمان الموثق .[وَيُقَال: عهِدت إِلَيْهِ: إِذا أوصيته، المعهد :الْمنزل] ، إِذا كَانَ مثابة .والعهد :الَّذِي يعاهدك والعهدة: وَثِيقَة الْمُتَبَايعين، وَفِي الْأَمر عُهْدَة :لم يحكم بعد .والتعهد :الاحتفاظ بالشَّيْء وتجديد الْعَهْد بِهِ.

وَيَقُولُونَ :تعهدت ضيعتي وَلَا يَقُولُونَ تعاهدت. لِأَن التعاهد لَا يكون إِلَّا من اثْنَيْنِ، والعهد من الْمَطَر"[370].

ثالثاً: يأتي العهد في القرآن على سبعة أوجه[371]:

أحدها: الوصية. ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: 60].

---

(369) - المفردات في غريب القرآن، مادة (وثق).

(370) - انظر: نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(446-447).

(371) - انظر: المصدر السابق، ص(447-448).

والثاني: الأمان. ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4].

والثالث: الوفاء. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: 102].

والرابع: التوحيد. ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: 87].، أي: وحده بقول لا إله إلا الله.

والخامس: اليمين. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: 91]، قاله ابن قتيبة.

والسادس: الوحي. ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]، أي: أوحينا، قاله الحسن.

والسابع: النبوة. ومنه قوله تعالى: .﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124].

يلاحظ غفلة الدكتور شحرور عن هذه المعاني، ولا بد للمصطلح من أن يعمها، لا أن يعم أحدها فقط.

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"العقد :هو اتفاق بين طرفين بكلّ طواعية على أمر ما. وأنواع العقود كثيرة. وأيّ عقد عبارة عن تكليف بين طرفين أو أطراف، لأنّه يرتبط بشروط يتّفق عليها الطرفان أو الأطراف المتعاقدة التي يجب على كل طرف الوفاء بها لقوله تعالى :(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ...) (المائدة 1). مثال العقد الدستور الذي يُعدّ أعلى عقد في المجتمع ويكون بين السلطة والشعب.

ميثاق الزوجية :هو علاقة صهر ونسب بين رجل بالغ عاقل وامرأة بالغة عاقلة، غايتها إقامة أسرة وحياة مشتركة مدى الحياة وإنجاب ذرّية، وقوام هذه العلاقة الإيجاب والقبول والعزم على الاستمرار. ولهما أن يفترقا بالطلاق بعد الزواج ضمن شروط صعبة بيّنَها تعالى تضمن حقّ المرأة كاملاً. وهذا الميثاق

يعطيه الزوج فقط وهو أن يرعاها في السرّاء والضرّاء والصحّة والمرض والصبا والشيخوخة، وأن يحافظ على مالها وعدم إهانتها. وفي المقابل هي تعطيه الطاعة بالمعروف والعصمة والوفاء. وهذا الميثاق لا يكون إلّا علناً بحضور أهل الزوج والزوجة وأكبر عدد من الناس".

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي لكل من العقد والميثاق، أما العقد فقد قال الراغب: "العقدُ: الجمعُ بين أطراف الشيء، ويُستعملُ ذلك في الأجسام الصلبة كَعقْدِ الحبل، وعقد البناء، ثم يُستعار ذلك للمعاني، نحو: عقد البيع، والعهد، وغيرهما، فيقال: عاقدْتُهُ، وعَقَدْتُهُ، وتعاقدنا، وعقدْتُ يمينَه"[372].

ثانياً: وأما الميثاقُ فهو كما تقدم: "عقدٌ مؤكد بيمينٍ وعهدٍ، قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: 81]"[373].

***

وقال الدكتور شحرور يبين مصطلحاته:

"الشهيد :الشهيد مفرد جمعه شهداء. وهو سامع الحدث ومبصره وحاضره، فمن يحضر ويسمع عقد بيع بين متبايعين هو شهيد وليس شاهداً لقوله تعالى :(...وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ...) (البقرة 282). فشهداء بدر هم من حضروا بدراً، الذين قُتلوا منهم والذين بقوا أحياءً بعد المعركة من المؤمنين والمشركين على السواء. والله شهيد على عباده لقوله تعالى :(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (الإسراء 96). والصحافيون كلهم شهداء لأنهم يحضرون الحدث وينقلونه لنا، سواء من مات منهم وهو يؤدّي عمله أو من بقي حياً. وقوله تعالى :(وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (آل عمران 169)، لا علاقة له مطلقاً بالشهادة ولا بالشهداء كما يتوهّم كثيرون.

---

(372) – المفردات في غريب القرآن، مادة (عقد).

(373) – المصدر السابق، مادة (وثق).

الشاهد :الشاهد مفرد جمعه شاهدون. وهو من علم ودرى بالخبر من دون حضور، ثمّ حلله واستنتج منه نتائج بفضل خبراته. فالصحافيون كما قلنا شهداء، أمّا الذين يشاهدون التلفزيون ويسمعون الخبر فهم شاهدون. ولا بدّ لوجود الشاهدين من أن يسبقه وجود الشهداء، مثاله قوله تعالى: (..وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ) (يوسف 26)، والمحاكم كلها تقوم على الشهيد الحاضر والشاهد الخبير"[374].

تعقيب ومناقشة

أولاً: فاته التعريف اللغوي، "الشهيد: يقال ويراد به: الشاهد. يقال: شاهد وشهيد. كما يقال: عالم وعليم. وهو مأخوذ من المشاهدة. والشهادةُ: الإخبار بما شُوهد. والمشهد محضر الناس. والشهيد: القتيل في سبيل الله، سمي شهيداً لأنَّ ملائكةَ الرحمة تشهده. قال ابن فارس: ويقال: سمي شهيداً لسقوطه على الأرض بالشهادة"[375].

ثانياً: ذكر أهل التفسير أن الشهيد في القرآن على سبعة أوجه[376] :

أحدها: النبي المبلغ. ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا٤١﴾ [النساء: 41].

والثاني: الملك الحافظ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: 21].

والثالث: أمة محمد عليه السلام. ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 53].

والرابع: الشاهد بالحق على المشهود عليه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: 282].

والخامس: القتيل في سبيل الله. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

(374) – للمزيد راجع كتاب الدكتور شحرور: الإسلام والإيمان. منظومة القيم، القسم الثاني: منظومة القيم، الفصل الثاني: الشهادة والشهيد.

(375) – نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، تحقيق الراضي، ص(377-378).

(376) – انظر: المصدر السابق، ص(378-379).

والسادس: الحاضر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 72]

والسابع: الشريك وهو الصنم. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23].

ثالثاً: قوله: "الشهيد :الشهيد مفرد جمعه شهداء". لم يشر إلى جمع آخر لشهيد، فشهيد يجمع على أشهاد أيضاً، جاء في المعجم: " (الشَّهِيدُ): مَنْ قُتِلَ في سبيل الله. و.من يؤدِّي الشهادة. وفي التنزيل العزيز: {وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيْدٌ}. (ج) شُهَداءُ، وأَشهادٌ"[377].

رابعاً: قوله: "وقوله تعالى :"(وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) (آل عمران 169)، لا علاقة له مطلقاً بالشهادة ولا بالشهداء كما يتوهّم كثيرون".

هذا غلط، ولا ينبغي للمرء أن يغلط حتى على الشهداء! فإذا كان الشهيد من يُوَقِّعُ أو تؤخذ منه البصمة، فإن شهيد المعركة بصم بدمائه على الحدث، ولذلك يُدفن بلباسه، ويأتي يوم القيامة كهيئته حين قتل، تثغب جراحه دماً، في موكب بهي مهيب مع النبيين عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَأَشرقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: 69].

وعلماء اللغة هم الفيصل في هذا، ففي المعجم: "(الشَّهِيدُ): مَنْ قُتِلَ في سبيل الله"، ولا ينبغي للمرء أن يحشر نفسه في شيء لا يفهمه!

خامساً: قوله: " الشاهد :الشاهد مفرد جمعه شاهدون. وهو من علم ودرى بالخبر من دون حضور". هذا كلام غير صحيح، ففي المعجم: "الشاهد: من يؤدي الشهادة، والدليل"[378]. ولا بد لمن يؤدي الشهادة أن يكون رأى بعينيه الحدث وحضره، وإلا رُدَّتْ شهادته. ويقال للشاهد شهيد أيضاً، ففي القرآن الكريم: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِب وَلَا شَهِيد﴾.

سادساً: قوله: " الشاهد :الشاهد مفرد جمعه شاهدون". اقتصر على جمع المذكر السالم، وفي المعجم يجمع شاهد على: "شُهُود، وأَشْهادٌ، وشُهَّدٌ، وشَهْدٌ. وجَمْع غير العاقل: شواهِدُ"[379].

---

(377) – المعجم الوسيط، مادة (شهد).

(378) – المرجع السابق، مادة (شهد).

(379) – المرجع السابق، مادة (شهد).

سابعاً: أدرك الشاعر الراحل نزار قباني حجم الفراغ الذي يعيش فيه بعض الكتاب والمفكرين في زماننا، وذلك حين قال: (أين المفكرون الشهداء في العالم العربي؟ أين هم المشنوقون على حبال كلماتهم؟ أين هم اللابسون أكفانهم بانتظار سيف المذابح)[380].

إن بعض الكتاب من المحدثين يعيشون في وهم وفراغ، فبدلا من إنقاذ جسم الأمة مما تعانيه من أمراض، والبحث عن حلول ناجعة لها، نجدهم قد ذهبوا إلى العبث الفكري، خوفاً من ضريبة حمل الحقيقة والدفاع عنها، وراحوا يقرعون هذه الأمة، ويحاربون علماءها وتاريخها وثقافتها وتراثها وحضارتها وأبطالها وشهداءها! يفعلون ذلك كله تحت شعارات وهمية خادعة خاطئة كاذبة، تدفعهم لهذا مصالح وأوهام شتى، فينبغي الحذر من الكلام الخلبي الخادع، وما كل ما يلمعُ ذهباً!.

اللهم صبراً! حتى نلاقي وجهك الكريم وأنت راضٍ عنا.

****

380 - الأعمال النثرية الكاملة (7/429).

نتائج الفصل الثاني

1- **سمى الدكتور شحرور هذه المصطلحات: (دليل المصطلحات الواردة في التنزيل الحكيم).** وليست هذه كل المصطلحات الواردة في القرآن الكريم، فمنهجه انتقائي وليس استقصائياً شاملاً.

2- ترتيب هذا المصطلحات جاء عشوائياً، ولم يرتبها الدكتور شحرور أبجدياً ولا هجائياً.

3- لم يذكر الدكتور شحرور لهذه المصطلحات أي مصدر ديني أو لغوي. وهو يفعل هذا في عصر قد تطورت فيه مناهج البحث والتأليف تطوراً عظيماً، بل إن القدماء كانوا يرتبون مصطلحاتهم حسب المعجم، وقد يذكرون مصادرها.. ولكننا نشهد اليوم نكوصاً علمياً في كل اتجاه!

4- يأخذ الدكتور شحرور أحياناً معنى المصطلح من آية واحدة دون النظر إلى بقية الآيات في سياقات أخرى، ولا إلى معناه واستعمالاته في اللغة العربية، **والقرآن عربي، وجاءت المعاجم لتخدمه، وكان ينبغي الاستفادة منها عند تقرير معاني المصطلحات وتحديدها بشكل صحيح.**

5- لكل مصطلح في القرآن عدد من المعاني، وذلك لتوافق السياقات التي ورد فيها، وكذلك معاني جميع الآيات التي جاء فيها هذا اللفظ، ويلاحظ هنا غفلة الدكتور شحرور عن هذه المعاني عند تحديده للمصطلح، حيث يقتصر غالباً على معنى واحد لا يوافق جميع الآيات التي جاء بها هذا اللفظ كما تقدم، **ولا بد للمصطلح من أن يعمها، لا أن يوافق أحدها فقط.**

6- **ذكر الدكتور شحرور كثيراً من هذه المصطلحات في كتبه**[381]، فهي منتزعة منها، وكان قد أشار إلى ذلك.

7- في معظم الأحيان يتجاهل الدكتور شحرور التعريف اللغوي للمصطلحات، علماً أن ذكره هام للربط بين المعنى الاصطلاحي والمعنى اللغوي.

8- أقحم الدكتور شحرور المصطلحات المعاصرة بمعانيها الحديثة على معاني القرآن الكريم، وهو أمر دخيل على الدراسات القرآنية.

9- يخترع الدكتور شحرور بعض المعاني التي لم تعرفها اللغة العربية، ولا تنسجم معها، مثل اسم الرحمن ادعى بأنه من الأضداد!.

(381) - انظر مثلاً: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص(51-68، 521-522).

10- الولاء والبراء في الدين لا علاقة له بما ذهب إليه الدكتور شحرور بالولاء والبراء للقومية والشعب، فهو يخرج عن موضوع القرآن الكريم، ويقحم مصطلحات لا علاقة لها بموضوعه.

11- شوه الدكتور شحرور مصطلح الوالدين وزيف قوانين النسب.

12- لا يبالي بالمعاجم ويضرب بها عرض الحائط، ويأتي بمعان غريبة عجيبة كما في حديثه عن العرش والقلم، وكذلك الشهيد؛ حيث نفى علاقة الشهيد بالشهادة والشهداء... مما يجعلنا نشك في منهجه اللغوي المزعوم.

13- يقتصر في علم الصرف على صيغة واحدة، ولا يذكر بقية الصيغ التي تأتي بها الكلمة. كما في جمع شاهد مثلاً، فقد ذكر صيغة وترك خمس صيغ أخرى لم يذكرها.

14- تتناقض بعض تعريفاته مع الفلسفة كتعريفه للموت مثلاً.

15- تتناقض بعض تعريفاته مع علم النفس كتعريفه للنفس، وتعريفه للروح مثلاً.

16- ينفي صفات الله الثابتة مثل اليد والعين خلال حديثه عن العدم مخالفاً مذهب التفويض لله بعلمها، وهو الذي كان عليه السلف الصالح.

17- لا يستعين بالسنة النبوية مطلقاً في شرح مصطلحات القرآن.

18- يحمل على الفقهاء خلال ذكر المصطلحات، كما في حديثه عن مصطلح الفتنة.

19- قد لا يُعَرِّف المصطلح، وإنما يذكر صفة له، كما في حديثه عن القلم.

20- يتكلف في استنباط معانٍ مستحدثة لا يدل عليها السياق القرآني، والتكلف منهي عنه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86].

***

الفصل الثالث

دراسة محتوى فكر الدكتور شحرور

ذكر الدكتور شحرور أسماء كتبه عند حديثه عن منهجه تحت عنوان: (المنهج المتبع في التعامل مع التنزيل الحكيم وفق القراءة المعاصرة. لمحة وجيزة عن قراءتنا المعاصرة للتنزيل الحكيم)[382]، حيث قال: (.. وقد حوت هذه اللمحة الأسس التي تقوم عليها قراءتنا المعاصرة والتي قمنا بتطبيقها في كتبنا العشرة التي نشرناها حتى الآن، ابتداءً من عام 1990، بدءاً بكتاب "الكتاب والقرآن" الذي تلته مجموعة من الكتب هي: "الدولة والمجتمع"، "الإسلام والإيمان"، "فقه المرأة"، "تجفيف منابع الإرهاب"، "القصص القرآني" بجزأيه الأول والثاني، "السنّة الرسولية والسنّة النبوية"، "الدين والسلطة"، وأخيراً وليس آخراً "أمّ الكتاب وتفصيلها").

وهذه الكتب تعد بآلاف الصفحة، فسنكتفي ببعض النماذج منها، وبعض الملاحظات عما وجدناه فيها، والتفصيل والتتبع لكل ما فيها ربما يحتاج إلى مجلدات...

وكنا قد تتبعنا كلاً من منهجه، ومصطلحاته، فيما مضى بالتفصيل، وعليهما أسس كتبه، ونريد هنا أن نقدم مجرد عينات من أقواله وأفكاره واجتهاداته، ففي تلك الكتب تكرار كثير لأفكاره وكلامه من جهة، بالإضافة إلى أننا لا نريد أن يطول البحث ويتشعب من جهة أخرى، والحر تكفيه الإشارة كما يقال.

وهذا الفصل هو آخر فصول البحث، وقد جعلناه في تسعة مباحث، هذه هي:

المبحث الأول: الموقف من القرآن الكريم وعلومه

المبحث الثاني: الموقف من السنة النبوية وعلومها

(382) – انظر الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور، على الرابط:
https://shahrour.org/?page_id=3

المبحث الثالث: الموقف من الإجماع

المبحث الرابع: الموقف من القياس

المبحث الخامس: الموقف من التراث العلمي والسلف الصالح

المبحث السادس: الموقف من السلفية والفرق الإسلامية

المبحث السابع: من اجتهادات الدكتور شحرور.

المبحث الثامن: من فقه الدكتور شحرور.

المبحث التاسع: ملاحظات علمية مختلفة

***

المبحث الأول: الموقف من القرآن الكريم وعلومه

وفيه مسائل عدة:

المسألة الأولى: أحكام عامة

أولاً: يرى الدكتور شحرور أنه لا بد من البحث والتنقيب في القرآن الكريم، وتجاوز منهج الصحابة الذي يقف مع بعض آيات القرآن موقف التفويض، يقول: ''فإذا سألني سائل الآن: ألا يسعك ما وسع الصحابة في فهم الكتاب والقرآن؟ فجوابي بكل جرأة ويقين هو: كلا. لا يسعني ما وسعهم، لأن أرضيتي العلمية تختلف عن أرضيتهم، ومناهج البحث العلمي عندي تختلف عنهم، وأعيش في عصر مختلف تماما عن عصرهم، والتحديات التي أواجهها تختلف عن تحدياتهم. إنني أواجه فلسفات قوية ومنيعة، دخلت عقر داري، وأواجه تقدما علميا يؤثر على كل حركة وكل قرار أتخذه في حياتي، وأكون متوهما إذا قلت أو قبلت أنه يسعني ما وسعهم''[383].

والحقيقة أن الصحابة رضي الله عنهم لم يقفوا موقف التفويض إلا عند آيات الصفات والمتشابهات، ولكنهم فيما عدا ذلك فقد فسروا القرآن للناس، ولو تتبعنا مثلاً تفسير الطبري، وكتاب الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، لوجدناهم حافلين بذلك، وموقفهم في عدم تأويل آيات الصفات هو موقف سليم، فمن ذا يستطيع أن يتكلم عن الذات الإلهية والله سبحانه: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، ولا يحيط به شيء؟! بيد أن هذا لا يعني الثبات عند منهجهم لدى بعض العلماء، فقد أوَّل الخلف بعض آيات الصفات لأسباب تتعلق بالصراع الحضاري مع الثقافات الأخرى التي احتكت بالثقافة الإسلامية.

ثانياً: يؤكد الدكتور شحرور على أن التأويلات الجديدة التي أتى بها ليست نهائية، ولا هي بملزمة للأجيال القادمة، يقول: ''علينا أن لا ننسى أن التأويلات التي نؤولها في عهدنا قابلة للتطوير أو النقض على مر السنين، لأن تأويلات عصرنا تقوم على أساس نسبية معرفتنا للحقيقة، وهذا هو أهم بند علينا أن لا ننساه

---

(383) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (567).

وعلينا أن نؤكد عليه للأجيال القادمة لكي لا تتحجر ولا تتزمت، ولكي تكون روح المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة هي المهيمنة على أجيالنا المقبلة''(384).

وهذا كلام غير علمي، إذا كانت هذه التأويلات قابلة للتطوير أو النقض، فمعنى ذلك أنها لا ترتكز إلى قواعد منهجية ثابتة، لأن المنهج الصحيح يعطي نتائج صحيحة، فهي لا تعدو أن تكون ظنونا لتأويل النصوص، أو لبيان المراد منها، والظن لا يغني من الحق شيئا.

ثالثاً: ويؤكد الدكتور شحرور أن طبيعة الإسلام (دين الحنيفية) هو التطور والتغير لملاءمة أوضاع الناس وأحوالهم، يقول: ''إن الإسلام دين الفطرة، وهو دين الحنيفية المتغيرة حسب الزمان والمكان، وحسب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وهو متطابق تماما مع فطرة الناس والتي تحمل تشابها كبيرا مع قوانين الطبيعة''(385).

هذا الكلام فيه خلط عجيب، لأن تغير الحنيفية المتوافقة مع الفطرة، يستلزم تغير الفطرة، ومن قال إن الفطرة متغيرة؟ إن الله فطر النفس الإنسانية على الخير والشر معا، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10]، وفطر الإنسان على حب الشهوات، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14]، وفطره على حب الخير أيضا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8]، والإنسان هو الإنسان منذ عهد آدم حتى قيام الساعة، إما أن يعيش لهواه وذاته وأهوائه، أو أن يعيش لدين الله الذي خلقه الله من أجله.

ونضرب مثلا لذلك بقوم لوط عليه السلام، فالفطرة السليمة تقتضي أن تكون العلاقة الجنسية بين الزوجين: الذكر والأنثى، فحين تجاوزوا حدود الفطرة، ونشأ عندهم ما يسمى اليوم **بالمثلية، أو الانحرافات الجنسية** Sexual Deviation، عاقبهم الله أشد العقاب، فالفطرة لا تتغير، ولا ينبغي لها أن تتغير، ولذلك قيل: **لا جديد تحت الشمس** There is nothing new under the sun .

(384) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (502)

(385) - المرجع السابق، ص (575)

والحنيفية أيضا لا تتغير ولا تتطور، لأن التغير معناه فقد الخصائص الأولى، فحين تتحول الخمر إلى خل، لا يمكن بيعها على أنها خمر، وكذلك حين يتحول أي مبدأ إلى مبدأ آخر لا يمكن القول إن المبدأ الجديد هو عين المبدأ القديم، لأن الجديد ممكن أن يتحول إلى مبدأ ثالث، والثالث إلى رابع، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية، فلا يلزم أن تكون المبادئ التي تحولت وتغيرت هي عين المبدأ الأول، لأنها لو كانت هي عينه لقلنا إذاً هذا المبدأ لم يتطور، وإذا كانت غيره فهذا يعني نهاية المبدأ الأول. **فلا يعقل أن يتغير الشيء ويبقى هو كحاله قبل التغيير، فهذا محال،** فإذا قلنا إن الحنيفية تتبدل فهذا يعني أن الصورة التي تبدلت إليها الحنيفية ليست هي الصورة الأولى التي كان عليها إبراهيم عليه السلام، وبإمكانك أن تسميها ما شئت، إلا أن تطلق عليها لفظ الحنيفية فهذا محال.

رابعاً: ويضيف الدكتور شحرور بأن العرب لم يهتموا بفهم القرآن، بل هجروه، لعدم توفر أدوات البحث العلمي لديهم، ويستوي في الهجران الكافرون وأكابر الصحابة كالخلفاء الراشدين على حد سواء، يقول: "لقد اهتم العرب بفهم الرسالة اهتماما شديدا، وأعطوها كل وقتهم وجهدهم، وجاهدوا في نشرها بين الأمم، ولكنهم لم يهتموا بفهم القرآن، لأن القرآن بحاجة إلى تفرغ ووضع حضاري معين وبحث علمي، لذا قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106]، قال: (على الناس) ولم يقل على الذين اتقوا، فكلما زادت معاهد البحث العلمي وزاد عدد المتفرغين لهذا البحث، وزاد عدد الاختصاصات زاد فهم الناس للقرآن، هذه الشروط لم تكن متوفرة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه الظاهرة وردت في سورة الفرقان بقوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30]، فقوم الرسول هم العرب، كل العرب، لاحظ قوله (إن قومي) إذ لم يقل: إن الذين كفروا من قومي، ولو عنى المسلمين لقال أمتي، لأن العرب قومه والمسلمون أمته، هذه الآية تنطبق على العرب جميعا بما فيهم الصحابة والخلفاء الراشدين من أبي بكر الصديق إلى علي ابن أبي طالب"(386).

إن اتهام أكابر الصحابة بعدم فهم القرآن وهجرانه، وجعلهم مع الكافرين في مستوى واحد، هو اتهام باطل من وجوه كثيرة، نذكر منها:

1. إن القرآن نزل بلغتهم، وقد كانوا أكثر علما باللغة ممن جاء بعدهم، ولذلك حولوه مباشرة إلى عمل، وليس إلى جدل، وعاشوه لحظة بلحظة، وقد شهد القرآن بفضلهم وعلمهم في مواضع كثيرة من آياته.

---

(386) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (129).

2. والقرآن كتاب هداية وهو موجه من الله إلى خلقه على اختلاف مستوياتهم العلمية، فلا يعقل أن يكون العلماء هم الذين يفهمونه والعامة لا تفهمه وتهجره، وإلا لكان كتاب طلاسم وليس كتاب هداية للناس جميعا.

3. كيف يفهم العرب الرسالة ولا يفهمون القرآن؟ فهل الرسالة شيء خارج عن القرآن؟ أم القرآن شيء خارج عن الرسالة؟.

4. إن لفظ (قومي) الذي يتذرع به الدكتور شحرور هو من باب إطلاق العام وإرادة الخاص، أي: الذين كفروا من قومي اتخذوا القرآن مهجوراً، وهذا معروف في أساليب اللغة، نقول حضر. الطلاب أي جلهم، وغاب الطلاب أي بعضهم، وقد قال القرآن في آية أخرى: (وكذب به قومك وهو الحق) [الأنعام: (66)]، فهل كذب بالقرآن أكابر الصحابة؟، أم هم أول من صدق به حتى نعت أحدهم بالصدِّيق؟، فالمقصود هنا بعض قومك كذبوا بالقرآن، وليس كلهم، **والدكتور شحرور يدعي بأنه سيستخدم المنهج اللغوي في التفسير، فكيف فاته معرفة قاعدة بسيطة في البلاغة العربية؟.**

5. هل يعقل أن ينزل الله سبحانه كتاباً من السماء، على قوم لا يفقهونه لأنه ليست لديهم أدوات البحث العلمي كما زعم الدكتور شحرور؟ كان الأولى إذا إما أن ينزله في بيئة علمية لكي يفقهوه، أو أن يؤخر نزوله حتى تتطور العلوم ومناهج البحث فينزله بعد ذلك، لأن تنزيل القرآن ، على قوم لا يفقهونه بدعوى أنه ليست لديهم أدوات البحث العلمي قد ينافي الحكمة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

خامساً: وقد توصل الدكتور شحرور إلى نتيجة خطيرة وهي التفريق بين لفظ الكتاب والقرآن كما سبق ذكره في الحديث عن منهجه. ولأن المسلمين والعلماء منهم على وجه الخصوص لم يفقهوا القرآن كما يفقهه الدكتور شحرور، فهو يرى ضرورة سحب القرآن من أيديهم، يقول: "علينا أن نسحب القرآن قبل أن يفوت الأوان من أيدي السادة الوعاظ المعروفين بالعلماء الأفاضل، أو رجال الدين، حيث يجب أن يكون موقف هؤلاء العلماء الأفاضل من القرآن هو كموقف العامة تماما، التسليم، لأن معلوماتهم بالنسبة للقرآن لا تزيد عن معلومات العامة بتاتا، وإن كان لهؤلاء الناس دور، فدورهم وعظي بحت"[387].

(387) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د.شحرور، ص (205).

تعقيب ومناقشة

هذا أسلوب إرهابي في التعامل مع الآخرين، بعيد كل البعد عن الشفافية Transparency، ويدل على أن بعض من يسمون أنفسهم بالعقلانيين لم يتقدموا خطوة واحدة إلى الإمام، وذلك من يوم ما قام أسلافهم المعتزلة بامتحان الناس في قضية خلق القرآن، والتي كان من آثارها زج إمام أهل الحديث صاحب المسند أحمد بن حنبل في السجن وحتى اليوم، فهم يصادرون الآراء، ولا يقبلون إلا ما تمليه عليهم عقولهم، ما معنى نسحب القرآن؟ وما هذا التعميم الخاطئ اللامنهجي، وكيف يسوي بين العلماء والعامة؟ ومن هم العلماء الذين يقصدهم؟.

إن كثيراً من علماء الدين اليوم يعرفون عن علوم الحياة والدين مثلما يعرفه هو أو أكثر، وكثير من علماء الدين يتخرجون من جامعات الغرب والشرق على حد سواء، ويجيدون من اللغات الأجنبية مثلما يجيده الآخرون أو أكثر، فلا داعي لشن حملة على علماء الدين، حتى لا يكون الكاتب في صف أصحاب البروتوكولات الذين أعلنوا أن من أهدافهم السخرية من رجال الدين والحط من أقدارهم. حيث جاء في خططهم: (لقد وجهنا اهتماما كبيرا إلى الحط من كرامة رجال الدين الأمميين غير اليهود في أعين الناس، وبذلك نجحنا في الإساءة إلى رسالتهم والإضرار بها، وهي التي كانت تشكل عقبة كبيرة في طريقنا، إن نفوذ رجال الدين على الناس يتضاءل يوما بعد يوم، اليوم تسود الحرية الدينية في كل مكان، ولن يطول الوقت لسنين قليلة حتى تنهار المسيحية انهيارا تاما، سيبقى علينا بعد ذلك السهل اليسير للقضاء على الديانات الأخرى)[388].

***

المسألة الثانية: نماذج من الاجتهادات التفسيرية الحديثة

النموذج الأول: فسر الدكتور شحرور قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: 49] بقوله: "فالصدر هنا ليس جوف الصدر، ولا جوف الرأس: الجمجمة، وإنما هو كما يقول الشاعر:

(388) – بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود، شوقي عبد الناصر، البروتوكول السابع عشر، ص (164).

ونحن أناس لا توسط بيننا

لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فالصدر هنا تعني ما نقوله الآن: الصدارة، كأن نقول إن إسحاق نيوتن يحتل مركز الصدارة بين علماء الرياضيات، وإن أينشتاين يحتل مركز الصدارة بين علماء الفيزياء، فالراسخون في العلم هم من الناس الذين يحتلون مكان الصدارة بين العلماء والفلاسفة، وهؤلاء من أمثال: البيروني، الحسن بن الهيثم، ابن رشد، إسحاق نيوتن، أينشتاين، تشارلز دارون، كانت، هيجل"(389).

وهذا التفسير غير صحيح، لأن لفظ الصدور تكرر كثيرا في القرآن بمعناه الدلالي الأولي، وليس بمعناه المجازي، والحقيقة هي الأصل، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ١﴾ [الشرح: 1]، والصدر: الجوف الذي فيه القلب، وليس من الصدارة في هذه الآيات. قال الراغب: (الصدر: الجارحة... قال بعض الحكماء: حيثما ذكر الله تعالى القلب، فإشارة إلى العقل والعلم. نحو: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، وحيثما ذكر الصدر فإشارة إلى ذلك، وإشارة إلى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب ونحوها)(390).

***

النموذج الثاني: وفسر الدكتور شحرور الاستعاذة الواردة في سورة الناس بقوله: "الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى من الوسواس الخناس الذي يوسوس في الناس الذين يحتلون مكان الصدارة في مجتمعهم أو في العالم بأسره، إن النتيجة المباشرة لما **قلنا هي أن كل التفاسير الموجودة بين أيدينا ليست أكثر من تفاسير تاريخية مرحلية للقرآن**، أي لها قيمة تاريخية لأنها نتاج أشخاص عاشوا منذ قرون"(391).

(389)- الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (193).

(390) - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (صدر).

(391) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (193-194).

جعل الدكتور شحرور الناس هم الذين يحتلون مراكز الصدارة، وأما الذين لا يحتلون مراكز الصدارة، فإننا نسأله ببساطة: هل هم من الناس، أم ليسوا منهم؟ وهل يوسوس لهم الشيطان أم لا ؟. إن لفظ الناس جمع لاسم الإنسان، واللام فيه للجنسية، وهو يعم الجميع وليس محددا بطائفة دون أخرى.

وأما الحملة على كتب التفسير فهي منهجية خاطئة، لأننا نقول للكاتب: إن تفسيرك للقرآن الآن هو تفسير تاريخي باعتبار أنه قد دخل التاريخ، فليس له قيمة الآن، وإنما له قيمة تاريخية!، تُرى متى يكون التفسير تاريخيا أو غير تاريخي؟ ما هي المدة التي ينبغي أن تمر على كتابة التفسير أو وفاة المفسر.حتى يكون تفسيره تاريخيا؟ **إنه لا يمكن إسقاط التفاسير بهذه الصورة، فالعلم الذي فيها لا تسقط قيمته باعتبار الزمن،** وأما بعض آراء مفسريها واجتهاداتهم في بعض الأمور الكونية فقد ننظر إليها باعتبارها مرحلة تاريخية، ولكن هنالك أحكام الدين، والقصص، والتشريع، والفقه، والتاريخ، والسيرة، وغيرذلك، مما لا يمكن إغفاله أو إسقاطه أبدا.

***

النموذج الثالث: قال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: 75-76]، قال الدكتور شحرور في تفسيرها: ''إن الانتباه لمواقع النجوم في الكتاب كله، وهي الفواصل بين الآيات لا مواقع النجوم في السماء، هي من مفاتيح تأويل القرآن وفهم آيات الكتاب كله''[392].

تعقيب ومناقشة

وسوف نستعرض ما قاله المفسرون في هذه الآية قبل مناقشة الدكتور شحرور:

قال الزمخشري: (ومن المجاز: أنزل القرآن نجوما، ونجم عليه الدين)[393].

(392) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (199)

(393) - أساس البلاغة، مادة (نجم).

وقال الراغب في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: 1]: (قيل: أراد به الكوكب، وقيل أراد بذلك القرآن المنجم المنزل قدراً فقدراً، وعلى هذا قوله: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ فقد فسر على الوجهين)(394).

وقال أبو حيان: (قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم: هي نجوم القرآن التي أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويؤيد هذا القول: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ [الواقعة: 77] فعاد الضمير على ما يفهم من قوله: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ أي نجوم القرآن، وقيل: النجوم الكواكب ومواقعها، قال مجاهد وأبو عبيدة عند طلوعها وغروبها)(395).

وقال الألوسي: (أي بمساقط كواكب السماء ومغاربها، كما جاء في رواية عن قتادة والحسن، على أن الوقوع بمعنى السقوط والغروب، وتخصيصها بالقسم لما في غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير، ولذا استدل الخليل عليه السلام بالأفول على وجود الصانع جل وعلا)(396).

وعلى هذا فكلام الدكتور شحرور منقول من كتب التفسير، ولكن المفسرين جوَّزوا الرأيين في مواقع النجوم، فإما أن يكون المراد نجوم السماء، أو الفواصل القرآنية، والكاتب اعتنق رأيا منهما ورفض الآخر بلا حجة ولا دليل، علماً أن الرأي الذي يقول بأن المراد نجوم السماء هو الأقرب للعقل والنفس، وهو الأقرب إلى دلالة الكلام عند العرب، فعندما يطلق لفظ النجوم يتبادر إلى الذهن المعنى الحسي قبل المعنى المجازي، وهذه الفواصل التي يتكلم عنها مختلف في بعضها، ولذلك اختلفوا في عدد آيات بعض السور، وقد أقسم الله بما هو ظاهر ملموس أمام الأعين، وهو مواقع نجوم السماء، وأما القرآن فلم يكن مكتوبا وموزعا على الصحابة بالصورة التي في أيدينا حتى يتأملوا في فواصل الآيات، بل لقد كان أكثرهم أميين، وإنما نشأ علم الفواصل بعد ذلك، مما يرجح الرأي الأول، ولا ينفيه كما فعل الدكتور شحرور.

وأما قول العلامة أبي حيان إن الضمير في (إنه لقرآن) عاد إلى ما يفهم من قوله:(مواقع النجوم) أي نجوم القرآن، ففيه نظر، لقول الله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا

(394) -: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (نجم).

(395) - البحر المحيط، (92/10).

(396) - روح المعاني، (56/27).

تَنَفَّسَ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: 15-19]، وذلك لأن الضمير هنا في (إنه) يعود على القرآن، ولا صلة للقرآن بالخنس، كما أنه لا صلة له بمواقع النجوم، وقد أقسم الله مرة بالنجم، ومرة بالخنس، ومرة بمواقع النجوم، ومرة بالشمس والقمر، وغير ذلك، على أن ما أنزله على محمد هو كلام من لدنه سبحانه وتعالى.

***

النموذج الرابع: قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ، فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ) [المؤمنون: 18-20]، قال الدكتور شحرور في تفسير الشجرة: "الآية 20 معطوفة على الآية 19 ولكنها مفصولة عنها منجمة، ذكر في هذه الآية شجرة واحدة فقط، وما هي هذه الشجرة لا ندري، ولكننا نقول إنها مهمة جداً لأنها في آية وحدها ومن المرجح أنها لا تصلح للطعام الآدمي، لذا قال: (وصبغ للآكلين) ولو كانت هذه الشجرة كما يقول بعضهم هي الزيتون لوضعها في الآية 119 الزيتون طعام الآدمي"[397].

إن هذه الشجرة تخرج في طور سيناء، فهي محددة الموقع، فلا يعقل أن يذكر الله للعرب وصف شجرة في مكان يقع على مشارف الجزيرة، وهم لا يعرفون هذه الشجرة مع علمهم بذلك المكان، والدكتور شحرور الذي عاب على الصحابة هجرانهم للقرآن، وهم لم يهجروه، حيث فسروا الآية بالزيتون، بل هو الذي هجر القرآن، حين قرر بعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن أنه لا يدري المراد من الشجرة!، **ألم يقل إن العلماء في العصر الحديث أقدر على فهم القرآن ممن سبقهم؟** لأن لديهم المنهج العلمي وأدوات البحث، هل تجهيل الناس بالحقائق العلمية هو المنهج العلمي الذي يتبعه؟.

وأما قوله: (لا تصلح للأكل) فهذا مخالف للحقيقة، لأن الآية قالت: (تنبت بالدهن)، وهو المادة الدهنية المستخرجة من الزيتون: الزيت. وصبغ للآكلين، أي بالإضافة لكونها تعطينا الدهن الذي له منافع كثيرة، فهي تعطينا الصبغ، قال الراغب: "(وصبغ للآكلين)، أي: أدم لهم، من قولهم: اصطبغت

(397) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (200).

بالخل"[398]. ولذلك جاء قوله (للآكلين)عقب الصبغ؛ ليبين أن ثمر هذه الشجرة مما يؤكل وينتفع به. وأما وضع هذه الشجرة في آية مستقلة فهو من باب العناية بها نظرا لأهميتها وفضلها، وهذا شائع في لغة العرب وأساليبهم.

***

النموذج الخامس: جاء في تفسير الدكتور شحرور لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7]: "أي الراسخون في العلم يعلمون ما هي النظريات والحقائق العلمية التي يمكن استنتاجها من الآية القرآنية، كل حسب اختصاصه وحسب الأرضية المعرفية لعصره، وحيث يمكن استنتاج نظريات علمية جديدة تعتبر قفزات هائلة في المعرفة الإنسانية، مثل نظرية النشوء والارتقاء لداروين لأنها تعتبر نموذجا حيا ممتازا للتأويل"[399].

قصر الدكتور شحرور مصطلح الراسخين في العلم على علماء العلوم البحتة، دون علماء العلوم الإنسانية بغير وجه حق، فالراسخون في العلم هم الذين يمتلكون المعرفة من شتى جوانبها، وليسوا فئة من أصحاب التخصصات النادرة دون غيرهم. قال الراغب: (الراسخ في العلم: المتحقق به الذي لا يعرضه شبهة)[400].

وأما دارون فنظريته باطلة، وهي تأويل إلحادي لنشأة الخلق من دون خالق، ويكفي لمعرفة بطلانها العودة إلى كتاب: (نظرية دارون بين مؤيديها ومعارضيها، لقيس قرطاس، نشر مؤسسة الرسالة).. وسيأتي الحديث عن هذه النظرية فيما بعد.

***

(398) - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (صبغ).

(399) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (194-195).

(400)- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (رسخ).

النموذج السادس: جاء في تفسير الدكتور شحرور لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: 1]، [التغابن: 1]: "والتسبيح جاءت من سبح وهو الحركة المستمرة كالعوم في الماء، كقوله عن حركة كل شيء ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: 33]، هذا الصراع يؤدي إلى التغير في الأشياء، وينتج عنه مقولة أن الموت حق، والله حي باق"(401).

والتسبيح هنا ليس من السباحة كما قال الدكتور شحرور، لأنه لو كان من السباحة وهي الحركة لقلنا إن ما لا يتحرك لا يسبح لله، فهناك أشياء ساكنة في الكون، قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 13]، والصواب ما قاله الراغب: (التسبيح: تنزيه الله، وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى).(402)والفرق بين التسبيح والتحميد، أن التسبيح هو: (تنزيه الله عما لا يليق به، وأما التحميد فهو إثبات المحامد له، والكمالات اللائقة به)(403).

***

النموذج السابع: جاء في تفسير الدكتور شحرور لقوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: 3]: "وهنا الشهر لا تعني الشهر الزماني، كأن نقول ألف شهر أي 83سنة وثلث، أما إذا فهمناها على أنها من الشهرة والإشهار فيتطابق المعنى مع مفهوم الإنزال والجعل، وهنا كلمة ألف إما أن تعني أن إشهار القرآن خير من ألف إشهار آخر،... أو نفهم ألف شهر، ألف تعني تأليف الأشياء بعضها مع بعض كأن نقول: الأليف والألفة والتأليف، فنفهم ألف شهر على أنه إذا جمعت كل الأوامر الأخرى الصادرة من رب العالمين وتألفت بعضها مع بعض، فإن إشهار القرآن خير منها جميعا"(404).

هذا تحريف للمعنى، فإن القرآن قد ذكر لفظ (ليلة) أولا، ثم استعمل صيغة التفضيل (خير) والعادة أن تفضل ليلة على غيرها من الليالي والأزمنة، فذكر بالمقابل لها ألف شهر، ولم يستعمل لفظ شهر بالقرآن بمعنى

(401) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (223).

(402) - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (سبح).

(403) - سيدنا محمد رسول الله، شمائله الحميدة وخصاله المجيدة، لعبد الله سراج الدين، ص (257).

(404) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (206-207).

الإشهار أبداً [405]، وإذا سمعت كلمة شهر انصرفت إلى الزمن المعروف بداهة[406]، والعادة أن يقال: يوم كسنة، ويوم كشهر، فتشبه الأيام ببعضها البعض، كما قال أبو تمام[407]:

أعوام وصل كان ينسي طولها

ذكر النوى فكأنها أيـــامُ

ثم انبرت أيام هجر أردفت

بجوى أسى فكأنهـا أعوامُ

***

النموذج الثامن: قال الدكتور شحرور تعقيبا على عدد من الآيات ورد فيها لفظ سبحان الله، مثل: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: 4]، قال: "أما القول سبحان الله هو تنزيه الله عن النقائض والعيوب فهو قول قد مضى زمانه، حيث إن النقائض والعيوب تحمل معنى معرفياً ومعنى اجتماعياً إنسانياً، فهي تحمل مفهوم النسبية، حيث تتغير هذه المفاهيم من مكان لآخر ومن زمن لآخر، إن التسبيح الحقيقي للأشياء كلها في وجودها لله تعالى يرجع إلى كون الله مصدر الحركة الجدلية الداخلية في الأشياء كلها، منذ أن خلق الله هذا الكون المادي، وهو منزه عن هذه الحركة في ذاته، لأنه واحد أحد صمد، ليس كمثله شيء، حيث إن هذه الحركة تؤدي إلى هلاك الأشياء: الموت"[408].

وهذا التفسير للتسبيح بمعنيين مختلفين خطأ، فاللغة هي اللغة، فإذا حملت الألفاظ معاني مغايرة تماماً عبر الأزمنة، تتغير اللغة، ولا يبقى صلة وصل بين الأمس واليوم إلا الأصوات اللغوية فقط، والأصوات نفسها قد تتغير تبعاً لتطور اللهجات والألسنة، فتنقطع علاقة اللفظ صوتاً ودلالة بين ماضيه وحاضره، فنكون أمام

---

(405) - انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (شهر).

(406) - انظر: أساس البلاغة للزمخشري، مادة (شهر)

(407) - ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، (3/150-151).

(408)- الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (224).

لغة أخرى مغايرة للأولى ولكن مكتوبة بحروف عربية، وهذا منهج عقيم في فهم اللغة، وكذلك في تفسير النصوص القديمة والحديثة وفهمها على حد سواء.

وأما قوله: إن الله مصدر الحركة، فنقول إن الله مصدر الإيجاد أولا، لأن الشيء لا يتحرك قبل أن يوجد، فالله أوجد وأبدع ونفخ الروح في الكائنات الحية، وبعد ذلك تحركت الكائنات، ولكنها لا بد أن تسكن عقب الحركة، فالحركة والسكون زوجان متعاقبان على الأحياء في هذه الحياة، حتى نهاية رحلتها بالموت، فإذا مات الحي بعثه الله بعد ذلك فتحرك، فالنهاية هي الحركة الدائمة، وليست السكون، والله ليس مصدر الحركة وحدها، بل هو مصدر السكون أيضا، لأن الشيء قبل أن يكون لا يوصف بحركة ولا سكون.

***

النموذج التاسع: أنكر الدكتور شحرور بعث النبيين والشهداء، مستدلاً بفهم خاطئ لآية من كتاب الله تعالى، حيث قال: ''وقد أكد أنه لا بعث للنبيين والشهداء، لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، في قوله: ﴿وَأَشرقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: 69]لاحظ قوله: (وجيء بالنبيين والشهداء) قال هذا لأنهم أصلاً موجودون عند ربهم''(409).

والاستدلال الذي عُرض هنا غير سليم، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: 111]، فهل هذا ينفي أنها كانت ميتة قبل أن تأتي، لأن الإتيان ينافي الموت؟ لقد كانت ميتة فَبُعثت وجاءت، وهذا من مجاز الحذف في اللغة، وأيضا الشهداء والأنبياء لهم حياة خاصة بهم، ولكنهم يبعثون من قبورهم ويؤتى بهم، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]، وليست الحياة التي هم فيها الآن حياة بأجسادهم وأرواحهم حتى يستغنون عن النشر والبعث مرة أخرى. والأحاديث الصحيحة تؤكد ما ذكرناه.

(409) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (382).

ومما يبطل قول الدكتور شحرور وما ذهب إليه قوله تعالى عن سيدنا يحيى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15]، فيحيى نبي من الأنبياء يبعثه الله تعالى، وكذلك قول سيدنا عيسى عليه السلام عن نفسه: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 33]. فالأنبياء والرسل جميعاً يُبعثون، وكذلك الشهداء، وهذا بنص القرآن الكريم، ولكن الدكتور شحرور لا يتعقب جميع الآيات، فهو يبني حكمه على استقراء ناقص أو آية واحدة، وفق فهم ظاهري سطحي بعدياً كل البعد عن المنهجية العلمية، والفهم الصحيح للكتاب الكريم وللغة العربية.

***

النموذج العاشر: قال الدكتور شحرور: "الجنة والنار لم توجدا بعد، واستقرار النقيضين فيهما"[410].

وهذا كلام ردده بعض المعتزلة والقدرية من قبل[411]، وهو لغو لا طائل فيه، وتنقضه الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة، **وكيف ذكر الدكتور شحرور أن الأنبياء والشهداء عند ربهم يرزقون، ثم أنكر وجود الجنة الآن؟ فأين هم الآن؟ مقتضى هذا الكلام كله هو التشكيك بالأمور الغيبية**، وهو أمر لا طائل من ورائه، والعاقل من ابتعد عن هذه المزالق، ولم يكلف نفسه ما لا يطيق، وقدم العمل على الجدل والمراء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: 18].

***

النموذج الحادي عشر: أيد الدكتور شحرور في الحديث حول الإنسان الأول: (آدم) نظرية التطور التي جاء بها دارون، حيث قال: "إن البشر وجد على الأرض نتيجة تطور استمر ملايين السنين: (البث)، حيث إن المخلوقات الحية بث بعضها من بعض طبقا للقانون الأول للجدل، وتكيفت مع الطبيعة، وبعضها مع

(410) - المرجع السابق، ص (240).

(411) – انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق أحمد شاكر، ص(420).

بعض طبقا للقانون الثاني للجدل، وقد وجد البشر وانتشر في مناطق حارة مغطاة بالغابات، حيث يوجد في هذه الغابات مخلوقات حية أخرى كان يفترسها البشر، ﴿وَيَسفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ وكان يسلك سلوك الحيوانات الأخرى أي كان كائنا غير عاقل، إذ لم تظهر فيه ظاهرة العمل الواعي وهو بشر"[412].

ويضيف: "وهنا أيضا يجب أن نفهم أن آدم ليس شخصاً واحداً، وإنما هو جنس، نقول عنه: الجنس الآدمي"[413].

وفي موضع آخر يقول: "إنه من الخطأ الفادح أن نظن أن الله خلق الأفاعي وحدها ونفخ فيها الروح، وخلق القطط وحدها ونفخ فيها الروح، وخلق الأسماك وحدها ونفخ فيها الروح، ونؤكد هنا أننا نفهم الروح على أنها ليست سر الحياة وإنما هي سر الأنسنة ونقصد بها تحول البشر الذي هو من الفصيلة الحيوانية إلى إنسان"[414].

تعقيب ومناقشة

أولاً: إن نظرية التطور، أو النشوء والارتقاء، هي نظرية قديمة جداً، ترجع إلى آلاف السنين، وتوجد آثارها في آثار الخرافات الدينية التي وضعها حكماء بابل وآشور ومصر القديمة، وممن تناول هذه النظرية أرسطو الذي أعلن أن الإنسان هو نهاية عملية ارتقاء طويلة مستمرة، وقد عرض لهذه النظرية الإنجليزي توماس هكسلي، والعالم الألماني أرنست هوكل، والعالم الإنجليزي تشارلز دارون المتوفى1919م.[415]، (فافترض عام 1859 أن كل الأنواع الحالية من الأحياء يمكن أن تكون ذات أصل واحد، أو بضعة أصول تتنوع طبقا لقانون الانتخاب الطبيعي، أو بقاء الأصلح،... وفي أخريات أيامه تراجع دارون عن تلك النظريات، ونادى بأن ما في العالم من نظام، يشهد بعناية إلهية، وأنه قد اختار لنفسه مذهب اللاأدريين، وبأن المسألة خارجة عن نطاق العقل، ثم استطرد بعد ذلك فقال: بأنه يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به ذرة من

---

(412) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (290).

(413) - المرجع السابق، ص (291).

(414) - المرجع السابق، ص (227).

(415) - انظر: الإنسان ذلك المخلوق العجيب، د. سمير يحيى الجمال، ص (9-13).

الشك في أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة والأنفس الناطقة المفكرة، قد صدر عن مصادفة عمياء، لأن المصادفة لا تخلق نظاما، ولا تبدع حكما، وذلك أكبر دليل على وجود الله)(416).

ثانياً: وهذه النظرية قد ثبت بطلانها علميا، لأن (نظرية النشوء والارتقاء عاجزة عن التدليل على حدوث أي ارتقاء تقدمي، وإنما على العكس من ذلك تؤدي إلى انحطاط وانقراض الحياة على وجه الأرض).(417)، وفي هذا الصدد (أعلن العالم البيولوجي الأمريكي أوستن كلارك ... بأنه لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيا من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر مع غيرها، وأن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة منفصلة)(418).

ومن المستهجن أن النظريات الباطلة المتهافتة التي يتخلى عنها الكثير من العلماء الآن، نأتي ونستوردها ونلبسها مسوح الحقائق العلمية، وندعو إليها تحت ستار الإلحاد تارة، والدين تارة أخرى!.

ثالثاً: يبقى أن نشير إلى ما سماه الدكتور شحرور بالقانون الثاني للجدل، فهو هنا يحاول إسقاط التفسير المادي للتاريخ على التاريخ الإسلامي، والجدلية نظرية فلسفية نادى بها إنجلز مثلما نادى ماركس بالشيوعية، وكلاهما مفكران شيوعيان، وهما صديقان أيضاً، وقد هوت الشيوعية وهوى معها التفسير المادي للتاريخ، وكان من المفترض وفق التفسير المادي أن تكون الشيوعية هي المحطة الأخيرة في سلسلة النظم الاجتماعية التي عرفتها البشرية، لذا فإن إسقاط المصطلحات المستوردة الميتة على كتاب الله مع ثبوت بطلانها وفشلها وإخفاقها، فيه تجن كبير على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

***

النموذج الثاني عشر: **تفسير الفتنة في قوله تعالى:** ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 191].

---

(416) - المرجع السابق، ص (14-16).

(417) - المرجع السابق، ص (21-22).

(418) - المرجع السابق، ص (19).

قال الدكتور شحرور: "نقف هنا بالشرح عند قوله تعالى: {والفتنة أشد من القتل}، الذي سوّغ الفقهاء عبر التاريخ للسلطات الحاكمة المستبدة تحت شعاره، قمع كل معارضة مهما كان نوعها، وإعطاءها المبرر للفتك بالناس والقتل الجماعي، وفتح السجون والمعتقلات، ومصادرة أموال المعارضين، والتهمة هي (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها). فما هي الفتنة التي هي أشد من القتل، والتي ترفعها السلطة المستبدة فوق رأس كل إنسان يريد أن يقول شيئاً أو يعترض على شيء؟؟ ونأخذ قوله تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين * واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين} البقرة 190 و191. لقد بدأ النبي (ص) بدعوة الناس إلى التوحيد، وكانت دعوته سلمية، تترك الخيار للناس كلهم في الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، حجته في ذلك كله التنزيل الموحى إليه، وشعاره (خلّوا بيني وبين الناس)، للتحدث إليهم ودعوتهم دون إكراه ومخاطبتهم بالموعظة الحسنة، وهو ما نسميه اليوم بالحوار السلمي الفكري، في المجتمعات الديمقراطية، فالمجتمع الديمقراطي لا يقمع ولا يمنع أي فكر جديد طالما أنه لا يستعمل العنف والإكراه. وكان جواب المشركين وقريش (السلطة المستبدة) المنع والقمع، منع الناس من الاستماع إليه، ومنعه من الكلام إليهم، وقمع كل من اختار من الناس عن قناعة ورضى ما كان يدعو النبي (ص) إليه. كانت هذه المرحلة بالنسبة للنبي (ص) هي ما نسميه (النضال السلبي)، حيث قامت قريش بعرض الجاه والمال والملك عليه، مقابل أن يترك ما يدعو إليه (يثبتوك)، في محاولة منها لإغرائه، وفتنته عن طريق دعوته، وهذه الفتنة التي وردت في الآية كما نرى. ثم رأينا في قراءة التاريخ، كيف رفض النبي (ص) هذه الفتنة وهذا الإغراء، ورأينا كيف قاد القمع والمنع والتعذيب إلى الهجرة (الإخراج من الديار)، ثم إلى قتل الناس، وكيف دخلت الدعوة بعد الهجرة في مرحلة ما نسميه (النضال الإيجابي)، ثم كيف بدأ (ص) بتأسيس دولته الجديدة، وبالرد على الاعتداء بالاعتداء وعلى القتال بالقتال وعلى القتل بالقتل، رداً يقوم على أساس المماثلة والقصاص من جهة، والتقوى، أي عدم التجاوز والإسراف في القتل والقتال، من جهة أخرى. لكن هذا القتل الذي وقع، بقتلاه وضحاياه، إنما جاء نتيجة للإغراء والفتنة، لذا قال تعالى أن هذه الفتنة التي قادت إلى القتل أشد من القتل نفسه. **إن أية دعوة سلمية فكرية تتبنى مبدأ اللاعنف في خطابها للناس (تظاهرات سلمية، مطالبة بحرية الكلام والتعبير، وحرية الاجتماعات، وحرية النشر) تدخل تحت المبدأ**

النبوي (خلو بيني وبين الناس) وإن أية مقاومة لدعوات كهذه مؤمنة أو ملحدة، بالقمع والمنع والإغراء، هي الفتنة. فالفتنة بناء على ذلك، أمر وتصرف يصدر عن السلطة المستبدة (الطرف الأقوى) وليس عن الناس المقموعين الممنوعين المفتونين كما ذهب البعض. وهذه هي الفتنة التي تعتبر أشد من القتل، فالمجتمع الإسلامي هو المجتمع الديمقراطي الذي يقوم على حرية العقيدة، وحرية التعبير، والتعددية الحزبية، وحرية الانتخابات، وفصل السلطات الثلاث، وهو المجتمع الذي لا توجد فيه فتنة تمارسها السلطة المستبدة وبالتالي لا يوجد فيه قتل. إلا أن الفقهاء والمفسرين عكسوا تماماً مفهوم الفتنة في الآية، فجعلوها تصدر عن الناس وليس عن السلطة المستبدة والتي هي الطرف الأقوى، إذ كيف يمكن لطرف ضعيف أن يمارس الفتنة، فتحولت إلى مشروع على رقاب الناس وفكر الناس، وهذا من بصمات الاستبداد على علوم الفقه وعلوم القرآن. فاعرف هذا!!"[419].

تعقيب ومناقشة

أولاً: قال الدكتور شحرور: "فالفتنة بناء على ذلك، أمر وتصرف يصدر عن السلطة المستبدة (الطرف الأقوى) وليس عن الناس المقموعين الممنوعين المفتونين كما ذهب البعض".

هذا كلام التبس فيه الحق بالباطل، فالديمقراطية وتعبير الشعب عن إرادته وقمع السلطة المستبدة له شيء، وما في الآية شيء آخر، قد يشبهه ولكن ليس هو.

ثانياً: الحرية الدينية كانت قائمة في الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده، فقبل الإسلام كان هنالك اليهود في المدينة وخيبر واليمن، وكان هنالك النصارى في نجران والشمال، وكانت قبيلة تغلب نصرانية، وكان بمكة من هم متحنفون على دين إبراهيم عليه السلام كورقة بن نوفل...

وكان هنالك أديان وأقليات أخرى عند العرب، فهنالك من يعبد الشمس والقمر والكواكب، ومنهم الدهريون، والثنويون، وعبدة الجن، وعباد الملائكة، ومنهم من عبدوا النار وغير ذلك[420].

وأما بعد الإسلام فالحرية الدينية مصونة بنص الكتاب، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256].

---

(419) - في الدولة والمجتمع، ص (317-319).

(420) - انظر: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، للألوسي، (2/194-286)، دار الكتب العلمية، بيروت.

ثالثاً: الخلاف بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقومه كان على كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ، وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: 4-7].

رابعاً: مضمون كلمة التوحيد معناه: تطهير الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية من الأصنام والآلهة المزيفة من دون الله، والخلاص من الفساد، والاستبداد، والربا، والاحتكار، والخرافة... **فلا إله إلا الله نظام حياة، وثورة مفاهيم شاملة، ومشروع حضارة جديدة،** وهو ما يهدد سلطان قريش والمشركين، فحاربوا النبي . صلى الله عليه وسلم . ليس لكونه اتخذ ديناً غير دينهم، بل لأنه جاء بدين جديد فيه تهديد لسلطانهم وجبروتهم، ويريد أن يقتلع عقائدهم الضالة من جذورها، ويغرس مكانها دعوة التوحيد.

خامساً: وعن قيمة كلمة التوحيد وقوتها وعظمتها، مما ساعد على انتشار الإسلام بيسر وسهولة، يقول غوستاف لوبون تحت عنوان: (فلسفة القرآن): "وتشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام، والإسلام وإدراكه سهل، خال مما نراه في الأديان الأخرى، ويأباه الذوق السليم، غالباً، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إلهٍ واحدٍ، وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعة فروض، يدخل الجنة من يقوم بها، ويدخل النار من يعرض عنها. وإنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد، ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما ماثلها من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت على دقائق الجدل. وساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كلَّ المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام ، كما نفسر السبب في عدم تنصر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً، سواء كانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة"[421].

(421) - حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص (125).

سادساً: أوذي رسول الله ومن معه، وتعرضوا للفتنة، ومعنى (والفتنة أشد من القتل) كما قال الزمخشري: "أي: المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل، وقيل لبعض الحكماء: ما أشد من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت. **جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التي يتمنى عندها الموت،** ومنه قول القائل [من الطويل] :

لقتلٌ بحد السيف أهون موقعاً

على النفس من قتلٍ بحد فراقِ

وقيل: (الفتنة): عذاب الآخرة (ذوقوا فتنتكم) [الذاريات: 13] وقيل: الشرك أعظم من القتل في الحرم، وذلك أنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم ويعيبون به المسلمين، فقيل: والشرك الذي هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه، ويجوز أن يراد: وفتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم إياهم في الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتالهم"[422].

سابعاً: وخلاصة معنى الفتنة: 1- التعذيب النفسي والجسدي. 2- الإخراج من الوطن. 3- عذاب الآخرة. 4- الشرك والردة. 5- الصد عن المسجد الحرام.

ثامناً: وليس في معنى الفتنة ما ذكره الدكتور شحرور من أن أية مقاومة لدعوات فكرية سلمية مؤمنة أو ملحدة، بالقمع والمنع والإغراء، هي الفتنة. فكلامه هذا تلبيس على الناس، القرآن يتكلم عن فتنة في الدين، والدكتور شحرور يتكلم عن الفتنة في المفهوم السياسي، وإن كان الظلم وقمع الناس ومصادرة الحريات مرفوض دينياً ومُدان أخلاقياً، والفتن كلها متشابهة من حيث الوسائل والأساليب، ولكنها مختلفة من حيث الأسباب والنتائج. ونضيف هنا أيضاً: الإلحاد هو الذي يفتن الناس في دينهم وليس العكس، فحرية الدين مصونة في الإسلام.

***

(422) - الكشاف، للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (236/1).

المسألة الثالثة: قضية الإعجاز القرآني Inimitability of the Koran :

من المعلوم أن القرآن معجز، ووجوه إعجازه كثيرة، منها ما يتعلق بالبلاغة والفصاحة، ومنها ما يتعلق بالأخبار الغيبية، والمعجزات العلمية، ومنها ما يتعلق بالتشريع والأحكام ...إلخ، وقد تحدى الله العرب على أن يأتوا بمثله، فعجزوا، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور، فعجزوا، ثم تحداهم بسورة واحدة، فعجزوا، وما زال التحدي قائما إلى قيام الساعة، وبين لهم أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن أبدا، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 23-24].

أما الدكتور شحرور فيرى أن بعض الكتاب معجز، دون بعضه الآخر، ولندرك هذا تعود إلى أقواله وتقسيماته، فقد قسم ما أنزله الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم إلى: الكتاب وأم الكتاب، والنبوة، وقال: "لنعطِ التعاريف الكاملة لكل منها:

1- الكتاب: هو مجموعة المواضيع التي جاءت إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم وحياً، وهو مجموع الآيات الموجودة بين دفّتي المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس، وفيه النبوّة والرسالة وهو الرسالة فقط بالنسبة لموسى وعيسى.

الكتاب= الرسالة + النبوة

2- أم الكتاب: هي مجموعة الآيات التي تشكل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وفيها العبادات والحدود والتعليمات والفرقان والصراط المستقيم والحكمة، وهي الكتاب المحكم، ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهي التي أوحيت من الله مباشرة وليس لها وجود مسبق قبل الإنزال والتنزيل، ولا يوجد فيها جعل.

3- النبوة: وفيها القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب. والنبوة حسب الآيات التالية:

آ. الآيات المتشابهات: وهي القرآن والسبع المثاني.

ب. آيات لا محكمات ولا متشابهات: تفصيل الكتاب"[423].

(423) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (213).

وبناء على هذا التقسيم أنكر الدكتور شحرور الإعجاز في أحكام الكتاب، يقول: "ما هي الغايات التي فصل الكتاب من أجلها على هذا الشكل؟ أي لماذا تداخل المتشابه وتفصيل الكتاب بين المحكم، ثم تفصيل الكتاب إلى هذا العدد والمواقع من السور والآيات؟ **إن الهدف الأول الذي نراه هو أن الآيات المحكمات قابلة للتزوير، وليس فيها أي إعجاز**، وقد حصل فعلاً هذا عند اليهود"[424].

وقد كرر تأكيده بأن الأحكام لا إعجاز فيها، يقول: **"إن الأحكام من الكتاب وليست من القرآن، وهي الكتاب بالنسبة لموسى وعيسى ولا يوجد فيها أي إعجاز"**[425].

كما أنكر الإعجاز في أم الكتاب، يقول عقب الآية: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: 7]: "**هنا نرى أن الإعجاز جاء في القرآن فقط، وليس في أم الكتاب، إذ أن أم الكتاب ذاتية، وهكذا لا يمكن أن نرى في أي آية من آيات الأحكام مصطلح (قال الله)، هذا مستحيل..**"[426].

وقد أكد هذا المعنى أكثر من مرة، فقال في موضع آخر: "لقد شكل القرآن من الكتاب معظمه، وبما أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، فيجب أن تبقى معجزته خالدة، وكلما تقدمت الإنسانية في المعارف والعلوم يظهر إعجاز القرآن بشكل أوضح، فكانت معجزته معاكسة تماماً لمعجزات بقية الأنبياء"[427].

تعقيب ومناقشة

أولاً: لقد نفى الدكتور شحرور إعجاز الكتاب الذي نزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بشكل جزئي، فكتاب الله عنده يتكون من مجموع قسمين: الأول: أم الكتاب، والثاني: النبوة وفيها القرآن، وقسم أم الكتاب ليس فيه إعجاز، وإنما الإعجاز في النبوة (القرآن) وبهذا بقيت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بنصف معجزة، أي إعجاز الكتاب عنده في قسم القرآن فقط، دون قسم أم الكتاب، وذلك أنه يعتبر لفظ الكتاب

---

(424) - المرجع السابق، ص (116).

(425) - المرجع السابق، ص (180).

(426) - المرجع السابق، ص (77).

(427) - المرجع السابق، ص (186).

غير لفظ القرآن، والقرآن عنده جزء من الكتاب لا مساوٍ له، فالإعجاز عنده في النبوة والقرآن فقط، دون أم الكتاب، أي بعض الكتاب معجز (القرآن)، وبعضه الآخر غير معجز (أم الكتاب)!.

ثانياً: وهذا ادعاء لم يقل به أحد من الباحثين قبل الدكتور شحرور، فالإعجاز قائم في الكتاب كله من أوله إلى آخره، وهو جوهر كامل لا يتجزأ، وهو في آيات الأحكام مثله مثل ما هو في القصص والتوحيد والإيمان، وما أشبه الإعجاز بالكوكب الصامد الذي لا ينطفئ نوره ولا يتجزأ، والكتاب العزيز صادر عن مشكاة واحدة، ويمثل كلاً متكاملاً، والإعجاز فيه هو برهان صدقه، وعلامة جماله، وآية سموه، وعنوان جلالته، وتجزيئه بهذا الشكل يدل على عدم فهمه وإدراك دلائله ومعرفة قيمته.

ثالثاً: ولا شك أن هذا تشكيك بالإعجاز، وخطوة تمهيدية تفتح الباب للباحثين لإنكار الإعجاز كله في المستقبل، فاليوم يأتي من ينكر الإعجاز في أم الكتاب، وغداً يأتي من ينكر الإعجاز في القرآن، وبذلك يبطل الإعجاز في الكتاب كله، لتبقى نبوة محمد. صلى الله عليه وسلم. بلا معجزة!، أي دعوى بلا دليل يساندها، فجردت الرسالة من أعظم ركائزها وهو إعجاز القرآن!.

رابعاً: وأكثر المعتزلة أقروا الإعجاز بالصرفة، ومنهم من أقر بالإعجاز في نظم القرآن كالجاحظ والزمخشري، ولكن ما سمعنا أحدا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم نفى إعجاز القرآن كلية، أو في بعض أقسامه دون بعض، إلا أن يكون ابن الراوندي، ومن كان على شاكلته. وقد رد عليه أبو العلاء المعري، وفند ما في كتبه مثل: التاج، والدامغ، اللذين أبطل فيها الإعجاز، فقال: (وأما بن الراوندي فلم يكن إلى المصلحة بمهدي، وأما تاجه - أحد كتب ابن الراوندي - فلا يصلح أن يكون نعلاً، ولم يجد من عذاب وعلاً - أي ملجأ -)[428].

ويضيف أبو العلاء مفنداً ما في كتب ابن الراوندي: (وأما الدامغ فما إخاله دمغ فيه إلا من ألفه، وبسوء الخلافة خلفه، وفي العرب رجل يعرف بدميغ الشيطان، وهذا الرجل كذاوي الخيطان - أسراب النعام - وإنما المنكَر أنه في الآونة يُذكر، دل ممن وضعه على ضعف دماغ، فهل يؤذن لصوت ماغ – صياح السنور –)[429].

(428) – رسالة الغفران، تحقيق: د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ص (469).

(429) – المصدر السابق، ص (471).

خامساً: والمعري ـ رحمه الله تعالى ـ يؤكد أن القرآن معجز، وشهادته ذات قيمة عظيمة، يقول في هذا السياق: (وأجمع ملحد ومهتد، وناكب عن المحجة ومقتد، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كتاب بهر بالإعجاز، ولقي عدوه بالإرجاز، وما حذي على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ولا هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذي الأرب، وجاء كالشمس اللائحة نوراً للمسرة والبائحة، ولو فهمه الهضب الراكد لتصدع، أو الوعول المعصمة لراق الفادرة والصدع، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]، وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق)[430].

وشهادة المعري لها قيمتها، فقد نسب إليه التشكيك بالإعجاز، بيد أن هذا النص يبرئه مما نسب إليه. ويؤكد أن الإعجاز متفق عليه عند أهل الاختصاص، مثلما هو متفق عليه عند عامة المسلمين، أيا كانت وجهتهم.

***

المسألة الرابعة: الموقف من علم التفسير وكتبه

أولاً: يتهم الدكتور شحرور المفسرين بعدم فهم القرآن الكريم، ويطلق تعميماته القاطعة بشأن المفسرين، فيقول: "لقد فهم المفسرون أن الدين كله هو اليهودية والنصرانية: الأديان السابقة، ولكن الدين كله هو اسم جنس، وأعتقد أن الدين كله بالإضافة إلى كل الديانات السابقة يعني الدين الإسلامي بمركباته الثلاث، ودين الحق هو أحد مركباته وهو أقواها جميعا"[431].

وهذه مغالطات صريحة تدل على عدم معرفته بكتب التفسير، يقول ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19]: "إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى

---

(430) – المصدر السابق، ص (472-473).

(431) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (718).

الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد. صلى الله عليه وسلم. الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم، فمن لقي الله بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته فليس بمقتبل عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 85] الآية"[432].

ويقول أيضا: **"والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم،** كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، والآيات في هذا كثيرة، والأحاديث، فمنها قوله صلى الله عليه وسلم: (نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد)"[433].

ثانياً: يدين الدكتور شحرور العلماءَ الذين لم يقدموا شيئا ينفع المسلمين، يقول: "ماذا قدم السادة العلماء للناس؟ لقد تصدر العلماء المجالس والإذاعة والتلفزيون على أنهم علماء المسلمين وجلهم ناقل، وليس بمجتهد، أي إنهم قدموا لنا ماذا فهم السلف من القرآن، على أنه تفسير للقرآن، والواقع أنهم بذلك لم يقدموا ما يؤكد أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، بل قدموا تفاعل هؤلاء الناس مع القرآن وبالتالي قدموا الأرضية المعرفية التاريخية لهؤلاء الناس، ونحن في القرن العشرين، أي قدموا لنا تراثا إسلاميا ميتا"[434].

وهذا تعميم بلا أدلة تسانده، مما يُنْقِضُ الحكم من أساسه، وهو يتنافى مع أبسط قواعد المنهجية العلمية Scientific Method، وذلك لأن "التعميم الباطل أحد الأصول الكبرى التي تقتات عليها مغالطات المضلين والمفسدين في الأرض"[435].

ثالثاً: ويضيف الدكتور شحرور منتقداً المفسرين: "وبذلك أصبح الإسلام دين نقل، ومات العقل والنظرة النقدية إلى النصوص، وعند مشايخنا فهم القرآن هو عن.. عن، وقال مجاهد وعكرمة وابن عباس وابن كثير والزمخشري، علما بأن أقوال هؤلاء ليس لها قيمة علمية كبيرة بالنسبة لنا، ولكن لها قيمة تراثية

---

(432) - تفسير القرآن العظيم، (1/379-380). دار الخير.

(433) - المصدر السابق، (1/199).

(434) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (209).

(435) - التحريف المعاصر في الدين، للميداني، ص (31).

أكاديمية بحتة، والقيمة الحقيقية هي للنص القرآني الحي المتشابه، وهكذا يمكن لنا أن نقدم التبرير العلمي لإصرار النبي صلى الله عليه وسلم على تدوين الوحي، وبنفس الوقت إصراره على عدم تدوين أقواله الشخصية، لأن الله هو الحي المطلق، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبي، ولكنه إنسان، هكذا فقط، يمكن أن نقول بكل جرأة علمية: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان"(436).

يلاحظ أن الدكتور شحرور نسف قيمة كتب التفسير كلها، بل والسنة معها أيضا، لأن محمدا .صلى الله عليه وسلم .إنسان قد مات، فصار كلامه مثل كلام المفسرين له قيمة تاريخية لا أكثر!.

ومسألة عدم الحاجة إلى كتب التفسير غير صحيحة، فمعلوم أن النحو أيضا لم يكن موجودا في عصر الصحابة، وكانوا يتكلمون العربية الفصحى بسليقتهم من غير حاجة إليه، ثم اقتضت طبيعة الحياة، وتطور الظروف والأحوال، والاحتكاك بالأمم الأخرى، إلى تدوين العلوم، ومن بين هذه العلوم: النحو والتفسير وغيرهما، **وتدوين العلوم هو ما نفخر به في تراثنا الإسلامي،** وإلا لضاعت واندثرت مآثرنا العلمية كلها، فالقول بعدم وجود التفاسير في عهد الصحابة لا يعني عدم الحاجة إلى هذه التفاسير، لأن الصحابة كانوا يفسرون القرآن للناس ولكن لا يكتبون، فجاء من جمع ما نقل عنهم في هذا الصدد وعن النبي صلى الله عليه وسلم، وسمي هذا بالتفسير المأثور، ثم نشأت بعد ذلك مدارس التفسير الأخرى.

ثم إننا لنتساءل: هل يعني عدم وجود الشيء في عصر الصحابة عدم مشروعيته؟ لقد كان أكثر الصحابة أميين لا يعرفون الكتابة، ولا يعرفون إلا اليسير من سائر العلوم كالرياضيات، والكيمياء، والفلك، وغيرها، ولكنهم فتحوا العالم بجهادهم، فهل نستطيع اليوم أن نحقق بعض ما أنجزوه في خدمة الدين الحنيف بمعزل عن التعمق في دراسة هذه العلوم وغيرها من علوم العصر الحديث؟.

إنها دعوى خطيرة يراد منها حرمان الأمة الإسلامية من جهود علمائها السابقين، وعدم الاستفادة من الدراسات القرآنية، والتشكيك بكل الدراسات الجادة التي قامت لخدمة هذا الوحي الإلهي المقدس.

***

(436) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (209).

المبحث الثاني: الموقف من السنة النبوية وعلومها

وفيه مسائل عدة:

المسألة الأولى: تعريف السنة

رفض الدكتور شحرور التعريفات التقليدية للسنة(437)، وابتكر تعريفا جديداً للسنة بأنها: (هي منهج في تطبيق أحكام أم الكتاب بسهولة ويسر دون الخروج عن حدود الله في أمور الحدود أو وضع حدود عرفية مرحلية في بقية الأمور، مع الأخذ بعين الاعتبار عالم الحقيقة الزمان والمكان، والشروط الموضوعية التي تطبق فيها هذه الأحكام)(438).

فالسنة عنده تطبيق للقرآن في واقع نسبي محدد، وطالما أن السنة تطبيق للقرآن في واقع محدد، وقد تغير الواقع اليوم عن حاله بالأمس، لذا يرى الدكتور شحرور بأن: "علينا اعتبار كل الأحاديث المتعلقة بالحلال والحرام والحدود التي لم يرد نص فيها في الكتاب على أنها أحاديث مرحلية، مثل: الغناء والموسيقى والتصوير، واعتبارها أحاديث قيلت في حينها حسب الظروف السائدة، وعلينا أيضا اعتبار كل أحاديث الغيبيات التي لا تنطبق مع القرآن مثل عذاب القبر والروح على أنها سر الحياة، على أنها أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وعدم الأخذ بها"(439).

***

المسألة الثانية: التكذيب بالأحاديث الصحيحة

وهذا الموقف الذي اتخذه الدكتور شحرور يقود إلى إنكار كل حديث من السنة لا يوافق هوى النفس، فقد أورد الدكتور شحرور الحديث الآتي: (لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن

(437) - انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، د. شحرور، ص (545-548).

(438) - المرجع السابق، ص (549).

(439) - المرجع السابق، ص (572).

تسجد لزوجها)، وقال عقبه: "ولكن في الحياة الآخرة يوجد في الجنة حور عين للجماع، والرجل ليس بحاجة إلى أن يخدمه أحد في الجنة (قطوفها دانية) (الحاقة23)، ففي هذه الحالة الرجل ليس بحاجة إلى المرأة، فأرسلها إلى النار معتمدا على الحديث: (أريت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع، وأريت أكثر أهلها من النساء) (البخاري ج2 ص93)، هذان الحديثان يناقضان كل ما أوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم في الكتاب شكلا ومضمونا، وقد شرحت في مفهوم الأزواج في الجنة مفهوم الحور العين، وقد قلنا إن آيات الجنة والنار هي من الآيات المتشابهات"[440].

تعقيب ومناقشة

أولاً: هذا اتهام باطل لأهل العلم بوضع الحديثين، علما بأن الحديث الأول فيه بيان فضل الزوج الذي يتحمل أعباء الأسرة، وهناك أحاديث كثيرة أخرى في فضل المرأة أيضاً، ويكفي في هذا الصدد الآثار المروية بأن الجنة تحت أقدام الأمهات، وأن الأم مقدمة في البر على الأب، وأن خير ما يكنز المرء المرأة الصالحة.

والحديث الثاني ذكر فيه أن أكثر أهل النار النساء، ومعلوم أن ما تجاوز نسبة 50٪ بقليل يكون أكثر من الآخر، فهل ينبغي أن يتساوى عدد الداخلين إلى النار من الجنسين؟ أم ينبغي أن يكون حظ الرجال من النار أكثر؟ إن الأمر لا يعدو أن يكون قضية غيبية، لذا لا ينبغي التعامل مع قضايا الغيب بهذه السذاجة من التأويل.

ثم من أين للكاتب أن يدعي بأن الحور العين ستخدم الرجال في الجنة فلا حاجة لهم بنساء الدنيا؟! إن المرأة في الجنة، أو الحور العين لا تعمل ولا تخدم، فهنالك غلمان مخلدون يقومون بوظيفة الخدمة، أي الخدمة في الجنة على عاتق الذكور وليس الإناث، **وقد ورد في الآثار النبوية بأن المرأة التي تدخل الجنة تكون أكرم وأجمل من الحور العين[441]، فلا ينبغي للكاتب أن يبتز النساء بهذا الأسلوب، ليثير سخطهن على دينهن، فيكون قد أسهم فعلا في جعلهن أكثر أهل النار!.**

---

(440) - المرجع السابق، ص (596).

(441) - انظر: مرقاة المفاتيح، للقاري، (10/332).

ثانياً: أمر آخر نود أن ننبه إليه هنا، هو أن الثابت في أعداد كل من الجنسين أن نسبة النساء في العالم أكثر من الرجال، وقد يكون الفارق بينهما قليلاً كما في بعض البلاد العربية، أو كثيراً كما في جنوب شرق آسيا وبعض البلاد الأوروبية، فإذا كانت نسبة النساء أكثر، فإن هذا يقتضي أن يكون عدد من يدخلن النار أكثر من عدد الرجال، هذا لو افترضنا أن النسبة متساوية فيمن يدخل النار من الجنسين، والله أعلم.

ثالثاً: الإسلام هو الذي كرَّم المرأة ورفع شأنها، والعرب المسلمون هم من حرروا المرأة من قيود الرق والعبودية والأهواء، وأعادوا لها اعتبارها في الحياة، فلا داعي للاستهزاء بما ورد في السنة الشريفة من أمور غيبية، وفي هذا السياق نذكر قول غوستاف لوبون: "إن الأوربيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة، **والإسلام إذن، لا النصرانية، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع**، وإذا نظرت إلى سنيورات نصارى الدور الأول من القرون الوسطى، رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحرمة للنساء، وإذا تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن وجدتَ ما يُزيل كل شكٍ في هذا الأمر، وعلمتَ أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظاً نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى... وهنا نستطيع أن نكرر، إذن، قولنا إن الإسلام الذي رفع شأن المرأة، بل نضيف إلى هذا: أنه أول دينٍ فعل ذلك، **ويسهل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان والأمم التي جاءت قبل العرب أساءت إلى المرأة، وهذا ما أوضحناه في كتابنا الأخير..**"[442].

***

وأنكر الدكتور شحرور حديثاً في الصحيحين وغيرهما عن خير القرون[443]، حيث قال: "ينسبونه إلى النبي (ص) في قوله عن خير الناس وخير الأمم وخير القرون، وكأن النبي (ص) حكم، وما كان له أن يفعل، بأن بعد القرن الثاني الهجري، لا يوجد أناس قادرون على الفهم، وأن تطور التاريخ والمعارف الإنسانية سيقف بعدها، وأن علينا اليوم أن ننظر إلى أنفسنا نظرة دونية بالمقارنة بالسلف، ولا أمل لنا مهما فعلنا بالوصول إلى مستواهم، وأن التاريخ وقانون التاريخ يسير إلى الوراء لا إلى الأمام، وأننا أمام إما نقل

(442) – حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص (403-406).

(443) – ورد الحديث في مسلم، عن عائشة رضي الله عنها: (خيرُ الناس القرنُ الذي أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث). وهنالك صيغ أخرى ورد فيها. انظر روايات الحديث وشرحه في فيض القدير، (3/478-479).

الحاضر إلى الماضي، أو جر الماضي إلى الحاضر، ولا يوجد أي مستقبل في كليهما، وأن ازدهار الفكر محصور بهذه القرون الثلاثة، أما بعدها فالعاقل هو المقلد!! وكأن عشرات الآيات الواردة في التنزيل الحكيم التي تحدثت عن الذين يعقلون والذين يتفكرون، هي مخصوصة بأهل تلك القرون، أما نحن .. فلا عقل لدينا ولا فكر إلا التقليد".

ويضيف قائلاً: "ونحن نقول، إن هذا الحديث بالذات، وهو من أحاديث الآحاد، بالشكل الذي يرد في صحاح كتب الحديث، يناقض العمود الفقري للعقيدة الإسلامية، ولقوانين التاريخ في القصص القرآني، التي تشير إلى تقدم المعارف والتشريع، لا إلى تخلفها. ويناقض حديث (مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره). لقد حصلت في هذه القرون الثلاثة، معارك الجمل وصفين، وقتل الصحابة بعضهم بعضاً، وتم إلغاء الشورى من الإسلام، وترسيخ الاستبداد السياسي، واستلام الحكم بالقوة، وتحويله إلى وراثة بالقهر، وترسيخ السلطة المطلقة للخليفة، وتم عصيان أمر النبي (ص) بعدم كتابة وتدوين حديثه، فإذا صح هذا الحديث إلى جانب ما ذكرنا، فعلينا أن نقبل كل التخلف الذي نحن فيه، وعلى رأسه الاستبداد السياسي وغياب الديمقراطية، وأن لا نطمح بأن يكون لنا في العالم دور نساهم فيه بصنع الحضارة والتقدم. وإذا صح هذا الحديث، فهذا يعني أنه يكذب قول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ..﴾ [الأعراف: 188]"(444).

تعقيب ومناقشة

أولاً: لا بد من منهج واضح في التعامل مع مصادر السنة، فإما التصديق بها وقبولها، أو رفضها وتكذيبها، أما قبولها حيناً ورفضها حيناً آخر، فهذا ليس بمنهج علمي صحيح. لأن الشك مجرد أن يتطرق لبعض الأحاديث قد يتسع وينتقل إلى غيرها، وهذا يقود إلى هدم السنة التي هي شرح للقرآن الكريم وتفصيل له، **فإذا ضاعت السنة أصبح القرآن بلا شرح، فكيف نصلي أو نزكي أو نحج...إلخ، وهذا يعني ضياع الدين بأكمله.**

(444) - في الدولة والمجتمع، ص (218-219).

ثانياً: يجنح الدكتور شحرور إلى ضرب السنة بعضها ببعض، عكس منهج علماء السلف في التوفيق بين الروايات المتعارضة كما فعل ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث). وخيرية القرون الأولى مقطوع بها في القرآن الكريم بلفظ (كنتم) قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110]. وأما الحديث (مثل أمتي مثل المطر...) فهذا من باب التشابه، وهو أسلوب من أساليب البيان، والمفضل فيه هو المذكور أولاً، ويبدو أن الدكتور شحرور لم يطلع عليه. وآخر هذه الأمة هو عند نزول المسيح عيسى بن مريم، فالمقارنة بين حالتين: الأولى عند وجود محمد صلى الله عليه وسلم، والثانية عند نزول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ولاشك أن الحالة الأولى أفضل.

ثالثاً: ذكر الدكتور شحرور عدداً من المصائب والنكبات التي حلت في القرون الأولى، ولم يذكر لها حسنة واحدة، والصحابة بشر، قد يخطئون، ولكن هم الذين حملوا الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها، وهم من نقل لنا الكتاب الكريم والسنة النبوية والسيرة الشريفة، وهم الأسوة في اتباعهم، وأن تبدر من بعضهم بعض الأخطاء فهذا لا يلغي فضائل أعمالهم، والميزان المستقيم ذكر الحسنات والسيئات، لا ذكر السيئات وحدها، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: 90].

رابعاً: منهج الدكتور شحرور يخالف القرآن الكريم الذي أثنى على الصحابة رضي الله عنهم وزكاهم، وذكر أن من بعدهم يدعون لهم ويستغفرون لهم، لا يُشهرون بمثالبهم وعيوبهم كما يفعل الدكتور شحرور، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 8-10].

خامساً: ذكر بأن المسلمين عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم حين دونوا حديثه، وهذا كلام باطل، ففي بعض المواقف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة السنة في حياته، كما في أمره (اكتبوا لأبي شاة) متفق عليه، وكتب سيدنا علي بن أبي طالب بعض الأحاديث في حياة النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في الصحيحين، وإنما كان النهي خشية التباسه بالقرآن، ولما جمع القرآن وكتب، واستقر الإسلام في الأرض،

زال سبب المنع، والتفت المسلمون إلى تدوين السنة، وقد "همَّ الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه به، واستشار الصحابة رضي الله عنهم فأشاروا عليه بذلك، ثم استخار الله شهراً، ثم قال: إني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله عز وجل، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً، رواه البيهقي. وفي هذا ما يؤكد أن علة نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن كتابة الحديث هي ما ذكرنا قبل، من خشية أن يختلط على البعض القرآن بالسنة، لذا كان نهيه عن تدوين السنة عاماً، وإذنه كان خاصاً لظروف وملابسات معينه. وأما تدوين السنة تدويناً عاماً، فتكاد تجمع الروايات أن أول من فعله هو الخليفة الراشد (عمر بن عبد العزيز) إذ أرسل إلى أبي بكر بن حزم عامله وقاضيه على المدينة قائلاً: (انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء) وأمره أن يكتب ما عند عمرة بنت عبد الرحمن، والقاسم بن محمد. ورغب إلى محمد بن مسلم الزهري أن يكتب بقية حديث أهل المدينة. بل أرسل إلى ولاة الأمصار كلها وكبار علمائها يطلب منهم مثل هذا، فقد أخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أهل الآفاق (انظروا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه).ثم بعد ذلك شاع التدوين، وظهرت الكتب. فلله الحمد والمنة أن حفظ كتابه، وهيأ رجالاً حفظوا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم"(445).

سادساً: قوله: "فإذا صح هذا الحديث إلى جانب ما ذكرنا، فعلينا أن نقبل كل التخلف الذي نحن فيه، وعلى رأسه الاستبداد السياسي وغياب الديمقراطية، وأن لا نطمح بأن يكون لنا في العالم دور نساهم فيه بصنع الحضارة والتقدم". نقول: الحديث صحيح، وهو من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، فمجد الأمة الحضاري والعلمي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي بلغ ذروته في القرون الأولى، وهذا ما دفع مستشرقاً مثل آدم متز أن يكتب كتابه القيم: (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري). والتاريخ المجيد ينبغي أن يكون محفزاً للنهضة، لا مثبطاً كما يفهم الدكتور شحرور، ولله درُّ الفرزدق حين قال:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

---

(445) - فتوى: كتابة الحديث وتدوينه، موقع إسلام ويب، على الرابط:
https://bit.ly/2KnaeI2

سابعاً: يحرص الدكتور شحرور على ضرب السنة بعضها ببعض، وضربها بالواقع كما تقدم[446]، وكذلك يحرص على ضربها بالقرآن الكريم تمهيداً لإسقاطها، وقوله الآتي يندرج في هذا الإطار: "وإذا صح هذا الحديث، فهذا يعني أنه يكذب قول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ..﴾". واستنتاجه هذا غير صحيح، فالرسول صلى الله عليه وسلم نبأه الله ببعض العلامات الغيبية، مثلما هو حال من قبله من الرسل، وإنما هو لا يعلم الغيب فيما يخص نفسه، فلا تعارض ولا تكذيب إلا عند من لا يفقه في العلم شيئاً، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: 26-27]. والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، ويفصل بعضه بعضاً، فمن أخذ آية دون النظر إلى بقية الآيات في الموضوع ذاته جاء بالعجائب!

***

المسألة الثالثة: التشكيك في رواة السنة والغرض منه

جاء في كتاب (في الدولة والمجتمع) للدكتور شحرور: "فقد أجاز علم الحديث أخذا الحديث عن أطفال، كعبد الله بن عباس الذي نقل البخاري عنه أنه قال: توفي رسول الله وأنا ابن عشر سنين مختوناً. ويروي صاحب المنار أن له في مسند أحمد 1696 حديثاً. وكأنس بن مالك وكان عمره أقل من عشر سنوات حين وفاة الرسول، وعبد الله بن الزبير، والحسن بن علي، والحسين بن علي .. وغيرهم.

وعبد الله بن عباس لم يعرف النبي، ولا اجتمع به قبل الفتح، إذ كان يقيم في مكة مع أبيه الذي لم يهاجر مع من هاجروا إلى المدينة. حتى بعد الفتح، عاد النبي إلى المدينة وبقي ابن عباس مع أبيه في مكة، وهو ابن ثمان. فمن أين له كما يروي البخاري: والله الذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت.

ونحن اليوم لا نقبل شهادة طفل في هذه السن، ببيع أو شراء دراجة، فكيف قبل المحدثون ذلك؟ لقد كان علماء الحديث حريصين جداً على أمانة الراوي وعدالته، حتى إن البخاري رفض حديث رجل يكذب

(446) - انظر في هذا الصدد أيضاً: نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي فقه المرأة، ص (157-160)، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2000م.

على دابته، ويرفضون في الوقت نفسه شهادة رجل كعمر بن الخطاب في رجل كأبي هريرة، حيث منعه من رواية الحديث، واتهمه بالسرقة والرشوة في ولايته على البحرين. ومع ذلك زادت أحاديثه في كتب الصحاح والسنن على الخمسة آلاف حديث، كما يحكي ابن عساكر، رغم أنه كما يقول الشيخ رشيد رضا: لو أحصينا ما انفرد به أبو هريرة من أحاديث الأحكام الشرعية لرأيناه قليلاً جداً، وعلمنا أنه لو لم يروه لما نقصت كتب الأحكام شيئاً، وأن الطعن فيه لو كان صادقاً ما حطَّ من قدر الشريعة شيئاً. (تفسير المنار ج19 ص 108).

من هنا يتم طرح أمور كثيرة على المسلمين تحت شعار الإسلام، كلها من أحاديث الآحاد، دون أن يتعب المسلمون أنفسهم في العودة إلى قراءة التنزيل الحكيم ودراسته دراسة مستفيضة، لما يحتاجونه في ذلك إلى الوقت والجهد وتحمل مسئولية وجرأة في الحق"(447).

تعقيب ومناقشة

أولا: قوله " وعبد الله بن عباس لم يعرف النبي، ولا اجتمع به قبل الفتح، إذ كان يقيم في مكة مع أبيه الذي لم يهاجر مع من هاجروا إلى المدينة. حتى بعد الفتح، عاد النبي إلى المدينة وبقي ابن عباس مع أبيه في مكة، وهو ابن ثمان. فمن أين له كما يروي البخاري: والله الذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت".

والجواب على هذا التساؤل: بأن ابن عباس دعا له النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يُشترط أن يكون سمع هذه الأحاديث مباشرة من النبي صلى الله عليه وسلم، فقد يكون سمع بعضها من أبيه العباس، أو من الخلفاء الأربعة، أو من الصحابة ورواها بعد ذلك مرفوعة إلى النبي عليه السلام مباشرة دون أن يذكر من حدثه بها.

وابن عباس عاش فترة طويلة (ت68هـ)، وهي تؤهله لأن يجمع العلم وينشره، ولا يُشترط أن تكون معرفته بأوقات نزول الآيات وأماكنها قد تلقاها مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقد يكون تلقاها عن القراء من الصحابة. والحصول على المعلومات له طرق عدة وليس طريقاً واحدة.

ثانياً: قوله: " وكأنس بن مالك وكان عمره أقل من عشر سنوات حين وفاة الرسول". هذا كلام غير صحيح، فأنس كان عمره عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حوالي عشرين عاماً أو أكثر بقليل، فقد ولد

(447) - في الدولة والمجتمع، ص (27-28).

قبل الهجرة بعشر سنوات ومات (93هـ) بالبصرة، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة[448]. **وتصغير عمر أنس يدل إما على جهل بالتاريخ، أو حقد على السنة ومحاولة تشويهها بأية صورة كانت، ولو عن طريق ادعاء أن رواتها أطفال!.**

ثالثاً: قوله: "ونحن اليوم لا نقبل شهادة طفل في هذه السن، ببيع أو شراء دراجة...". هذا لبس وخلط للأمور، فالشهادة شيء والعلم شيء آخر، فالأطفال لهم مقدرات ذهنية هائلة، وهم أقدر على الحفظ والمتابعة، ومن ثم قد قيل: (العلم في الصغر كالنقش على الحجر). وقد احترم الله الطفولة، وجعل بعض أنبيائه يتكلمون وهم أطفال، قال تعالى بشأن السيد المسيح عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 46].

رابعاً: والأطفال فيهم البراءة والصدق والطهارة والذكاء، ولذلك قد يضبطون ما لا يضبطه الكبار أحياناً. والطفل في مرحلة الطفولة المتوسطة (6-8) سنوات "يستطيع البدء بالتفكير المجرد، والتصور والتذكر والانتباه المقصود المركز، وفي هذه الفترة يستمر التكوين العقلي في نشاطه الدراكي، ويبدأ الخيال العلمي، ويظهر شيء أولي من التفكير المجرد لدى الطفل، وما يميز هذه المرحلة كونها تبدأ فيها الكتابة"[449].

خامساً: عاد ليشكك بأبي هريرة، ثم نقل دفاع الشيخ رشيد رضا عن أبي هريرة، وكأنه لا يدري ماذا يكتب!.

سادساً: وعزل عمر لأبي هريرة يدل على ورع عمر وعدله، ولا يطعن بعدالة أبي هريرة، فالذنوب الصغيرة يراها المقربون كبيرة، والورع بحر لا ساحل له!.

سابعاً: وأما نهي سيدنا عمر رضي الله عنه عن كتابة غير القرآن؛ فكان خشية أن يختلط بالقرآن الكريم.. فلما استقر الإسلام؛ أحس المسلمون بضرورة تدوين السنة، وابتدأ ذلك رسمياً في عهد عمر بن عبد العزيز حيث أرسل إلى أبي بكر بن حزم قاضيه على المدينة قائلاً: انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء... وعمّم هذا الأمر إلى جميع الأمصار. ولا ينبغي أن

(448) - الأعلام، للزركلي، (2/24-25).

(449) - علم نفس النمو الطفولة والمراهقة، د. علي فالح الهنداوي، ص(213)، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات، الطبعة السادسة، 1427هـ/ 2007م.

يُستخدم نهي سيدنا عمر رضي الله عنه عن كتابة غير القرآن كحجة للطعن في مشروعية السنة النبوية الشريفة.

ثامناً: قوله: "من هنا يتم طرح أمور كثيرة على المسلمين تحت شعار الإسلام، كلها من أحاديث الآحاد، دون أن يتعب المسلمون أنفسهم في العودة إلى قراءة التنزيل الحكيم ودراسته دراسة مستفيضة". هذا كلام غير صحيح، فالمسلمون لم يخدموا السنة إلا لخدمة القرآن الكريم، ولم يدونوا علوم العربية إلا خدمة للقرآن الكريم، ومن غير الإنصاف أن يأتي من ينعتهم بإهمال القرآن في آخر الزمان... **لقد انقلبت الأمور، وصارت البديهيات تحتاج إلى إثبات..**

***

المسألة الرابعة: التشكيك في الصحيحين

قال الدكتور شحرور: "وفي حديث آخر: عن عمر بن عبد العزيز عن أبيه عن النبي (ص) قال: "لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهودياً أو نصرانياً" (صحيح مسلم 4970، أحمد 18666). إن واضع هذه الحديث ليس لديه أية فكرة عن توزع الأديان ونسبها في الكرة الأرضية وتوزع السكان، حيث أن المسلمين والنصارى واليهود لا يشكلون أكثر من نصف سكان العالم، فنسي الراوي وضع النصف الآخر، مما يبين أن الحديث موضوع. هل يمكن أن تكون هذه الأحاديث صحيحة؟ وهل يمكن أن تكون وحياً إلهياً ثانياً، مقدماً على التنزيل الحكيم كوحي أول؟ **يقولون صحيح مسلم وصحيح البخاري، ويقولون إنهما أصح الكتب بعد كتاب الله. ونقول نحن: هذه إحدى أكبر المغالطات التي ما زالت المؤسسات الدينية تُكره الناس على التسليم بها، تحت طائلة التكفير والنفي.** فالصحة في كتاب الله صحة حقيقية لغوية واقعية، يؤيدها العلم، ويثبتها الكون المشهود. أما الصحة في كتب الحديث فصحة مجازية اصطلاحية تواضع أهل المؤسسة الدينية أنفسهم على تسميتها أي أنها تحمل الطابع الذاتي، صحة نسبية إن ثبتت عند أحدهم نفاها الآخر. صحة تعتمد القائل بغض النظر عما قال. فإذا تجرأ أحد، كما نفعل نحن الآن، وأشار إلى تناقض أو خطأ في حديث آحاد، كشفه له العلم القطعي، اتهموه بالعمالة وبمحاولة القضاء على الإسلام عن طريق تهديم السنة النبوية بالطعن في الحديث، كوحي ثان يمثل السنة. في الوقت الذي نرى فيه أنهم هم الهادمون الطاعنون المسيئون (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن

مصلحون﴾ إلا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) البقرة 10، 11. فحين يقولون إن الحديث النبوي كما هو في كتب الحديث بين أيدينا وحي، ويثبت بعد ذلك بالبرهان وجود خطأ أو تناقض في أحد هذه الأحاديث، وما أكثرها، فهم يبذرون بذور القضاء على الحديث النبوي كله، صحيحه ومتناقضه، وبالتالي يقضون على النبوة. أما نحن فتعليقنا على هذه الأحاديث: كذب الرواة وصدق الله ورسوله"[450].

تعقيب ومناقشة

أولاً: إذا حاكمنا السنة إلى الواقع، فبعد مدة سنأتي ونحاكم القرآن إلى الواقع، ونحن كمسلمين مرجعيتنا القرآن والسنة، إنما نحاكم الواقع إلى القرآن والسنة وليس العكس!.

ثانياً: قضايا الغيب ويوم القيامة لها قوانين أخرى غير قوانين الدنيا، فلا نستعجل بها، فإنها آتية.

ثالثاً: لا بد في حالة البحث العلمي الموضوعي من جمع شتى الأحاديث في الموضوع الواحد، ومحاولة الجمع بينها، وليس البناء على واحدٍ منها دون الآخر.

رابعاً: بعض الأحاديث رويت بالمعنى، أو في لفظها اضطراب، فبالموازنة مع أحاديث أخرى في الباب ذاته تُعرف الحقيقة.

خامساً: التكذيب بالخبر الصادق منهج خاطئ، ويجب على المكذب إثبات زيف الخبر بشكل علمي صحيح قبل التكذيب به.

سادساَ: في البلاغة ضمن علاقات المجاز المرسل قد يُذكر البعض ويراد الكل، فقد يكون ذكر اليهود والنصارى لأنهم من أكثر من عارضوا الدعوة في فجر الإسلام، وأراد بهم سائر من رفض الدعوة الإسلامية من شتى الملل والنحل.

سابعاً: كل من آمن بنبيه، ومات موحداً قبل البعثة النبوية فهو من أهل الجنة، يهودياً كان أو نصرانياً، أو من أي ملةٍ كان! قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62].

ثامناً: الصحيحان موضع ثقة علماء المسلمين، والتشكيك بالصحيحين يكون بنقد منهجهما بأسلوب علمي، لا باستعراض بهلواني لبعض الأحاديث والحكم من خلالها عن كل ما في الصحيحين.

---

(450) – نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي فقه المرأة، ص (160-161).

تاسعاً: قول الدكتور شحرور عن العلماء: "في الوقت الذي نرى فيه أنهم هم الهادمون الطاعنون المسيئون". هذا كلام خارج عن أدب الدعوة وأخلاق الإسلام.

عاشراً: قول الدكتور شحرور: " أما نحن فتعليقنا على هذه الأحاديث: كذب الرواة وصدق الله ورسوله". الحقيقة أن الرواة لم يكذبوا، فهم خدم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد دعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: (نضر الله امرأً سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه) (451).

فرضي الله عن الرواة، والمحدثين، وأهل الحديث، وحملة العلم المخلصين، وصدق الله ورسوله والمؤمنون، ورحمَ الله القائل:

يا سـادةً لهمُ بالمصطفى نسبُ
رفقاً بقومٍ لهمْ بالمصطفى حسبُ
أهل الحديث همُ أهلُ النبي وإنْ
لمْ يَصحبوا نفْسَهُ أنفاسَهُ صحِبوا

***

المسألة الخامسة: الموقف من علوم الحديث

مثلما وقع الرفض لعلوم القرآن، وجدنا صيحات لرفض علوم السنة، بل لرفض السنة نفسها، يقول الدكتور شحرور في معرض حديثه عن تيار النقل: "هذا التيار نتج عنه أمران في منتهى الخطورة: 1- وضع حياة النبي صلى الله عليه وسلم في عالم المطلق، بينما كانت حياته منسوبة إلى شبه جزيرة العرب في القرن السابع، بكل ما أحاطها من معطيات اقتصادية واجتماعية وسياسية. 2- الإصرار على أن أوامر النبي ونواهيه هي وحي، وأن السنة هي وحي، والوحي دائما من الله، والله مطلق، علما بأن طاعة النبي متصلة بطاعة الله

(451) - رواه الترمذي عن زيد بن ثابت، انظر: الجامع الصغير، (284/6).

في الحدود، حدود الله والعبادات والأخلاق، الصراط المستقيم فقط. هذان السببان نتج عنهما أننا وقعنا في عمق المزلق المسيحي دون أن ندري، حيث إن الديانة المسيحية مرتبطة بشخص المسيح حصرا، وقد كان كلام المسيح عندهم هو كلام الله، لذا فإننا نرى أن كل الأناجيل على اختلاف أنواعها عبارة عن السيرة الذاتية للسيد المسيح، والأحاديث هي السيرة الذاتية للسيد النبي صلى الله عليه وسلم، فكما أن هنالك عدة أناجيل، فهناك عدة كتب للحديث، فلماذا نعيب على المسيحيين أن لديهم عدة نسخ للأناجيل، ولا نعيب هذا على أنفسنا في الحديث، تقوم المسيحية على تأييد المسيح، فشعائرهم الدينية مرتبطة بشخصية المسيح، عيد الميلاد، عيد الفصح، حتى القداس هو الحضور الحي للمسيح، فالمسيح بذاته هو الشهادة الإلهية لا الإنجيل، أما عندنا نحن المسلمين فالشهادة الإلهية هي الكتاب المنزل وليس شخصية النبي، ولكن بمفهوم السنة التقليدي الموروث أصبح محمد صلى الله عليه وسلم هو الشهادة الإلهية إلى جانب الكتاب، بل أصبح فعليا الحديث النبوي هو المعتمد عليه أكثر من الكتاب في بعض الأحيان"[452].

تعقيب ومناقشة

أولاً: هذا الكلام فيه مجموعة من الأغاليط، فمقارنة الأناجيل بكتب السنة لا وجه له، وإنما ينبغي أن تقارن بالقرآن، فإن الله قد بين لنا أنه هو الذي أنزل الإنجيل، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: 3-4]، فهنالك إنجيل منزل من السماء، وهو يقابل القرآن الذي عندنا، فإذا كان الإنجيل الموجود حاليا هو السيرة الذاتية للسيد المسيح، وهي مجموعة أناجيل، فهذا يعني أن الإنجيل الذي نزل من السماء قد ضاع، وإذا كانت الأناجيل هي ذاتها ما نزل من السماء، فلماذا هي عدة كتب وليست كتابا واحدا كالقرآن؟. وهذا يعني أن المقارنة بين الأناجيل وكتب السنة قائمة على قياس غير سليم من أساسه.

ثانياً: إن السنة ليست مقدمة على القرآن كما ذكرنا، بل هي شرح وتوضيح وتفصيل له، وهي تختلف عن القرآن وإن كانت وحياً، وذلك أن ألفاظها من عند النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك تلاوتها غير متعبد بها كالقرآن، كما أنه ليس كل ما صدر عن النبي. صلى الله عليه وسلم. في أموره الخاصة، أو حياته العامة، هو

---

(452) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (568-569).

وحي من الله، أو داخل في السنة عند بعض العلماء، فكلام الرسول صلى الله عليه وسلم **على قسمين: منه ما سبيله تبليغ الرسالة، وهذا مستنده الوحي، ومنه ما ليس من باب تبليغ الرسالة، ومستنده التجربة، فمنه الطب وحديث أم زرع وغيره**[453].

ثالثاً: يبقى أن نشير إلى أن كثرة كتب السنة ظاهرة إيجابية، لأن ورود الحديث في أكثر من كتاب، ولدى أكثر من راوٍ، يعزز مكانته، ويفتح المجال أمام العلماء للتحسين والتضعيف، والقبول والرفض، بخلاف ما لو كانت السنة محصورة في كتاب واحد، فذاك سيقلل فرص الاجتهاد، ويلزم الناس بنص واحد، ربما نقل بالمعنى، أو دب إليه التحريف.

إنه لمن حسن طالع هذه الأمة أنها لا تخضع إلى رأي مجتهد واحد، أو راوية واحد لكتب السنة، أو جامع واحد لهذه الكتب، فالتعددية هي روح هذه الأمة، وهي مجال خصب لحرية الفكر، وتنوع المناهج، وتعزيز الاجتهاد، كما أن اتفاق عدة رواة في كتب مختلفة على متن حديث واحد، يؤكد صحة الحديث النبوي Prophetic Tradition، ويزيد من توثيقه علمياً.

رابعاً: وموقف الدكتور شحرور من السنة، ومن شخص النبي صلى الله عليه وسلم، شبيه بموقف سلمان رشدي، ولا يبعد أن يكون مستوحى من موقف سلمان رشدي الذي يقول: (لم يكن _ أي محمد – إلا رسولاً، والرسالة هي التي يجب أن تبجل)[454]، ويضيف: (ولكن في أيامنا هذه استولت على الإسلام طائفة متسلطة من رجال الدين، وهم الآن شرطة الفكر المعاصرون، وقد حولوا محمداً إلى كائن كامل الأوصاف، وحياته إلى حياة مثالية، ووحيه إلى حدث جلي لا لبس فيه، وهو ما لم يكن عليه أصلاً، وأقيمت محرمات صارمة، ولم يعد في وسع المرء أن يرى محمداً بشراً له فضائل البشرية، ونقاط ضعف البشرية)[455].

وهذا مما يدل على أن ترديد الشبهات حول النبي عليه السلام والسنة النبوية الشريفة؛ إنما هي دعوة استشراقية خطيرة، يراد من ورائها نقض الدين الحنيف.

***

(453) – انظر: حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، (1/128).

(454) – ما بعد ذهنية التحريم، صادق جلال العظم، ص (309).

(455) – المرجع السابق، ص (309-310).

المسألة السادسة: الموقف من شخص النبي صلى الله عليه وسلم

نسب الدكتور شحرور إلى النبي صلى الله عليه وسلم أموراً لا تليق به، من ذلك قوله مشككاً بأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم لسن قدوة لنساء المسلمين: يقول: "إن النبي صلى الله عليه وسلم في زيجاته لا يعتبر أسوة لنا أبدا، وكذلك زوجاته لا يعتبرن أسوة لنساء المسلمين (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) (الأحزاب: 32)، قال (نساء النبي) ليبين لنا أن هذا تعليم وليس تشريعا"(456).

وما ذهب إليه الدكتور شحرور بشأن أمهات المؤمنين غير صحيح، قال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6]، وهل يربي الولد إلا أمه؟ وهل يقتدي إلا بها؟ وإذا لم تقتد نساء المسلمين بزوجات النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين فبمن يقتدين؟، بالممثلات أم الفنانات أم ملكات الجمال؟!.

وينعت الدكتور شحرور النبي محمدا صلى الله عليه وسلم بالجهل، إذ إن "النبي صلى الله عليه وسلم كان يجهل القصص أيضا"(457).

وما عهدنا القرآن يصف النبي محمداً بالجهل، وإنما وصفه ربه: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: 1]، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]، والدكتور شحرور الذي ينكر الترادف في اللغة العربية؛ كان عليه أن يعلم أن هنالك فارقا بين الصيغتين: لا تدري، وتجهل، فهما لا تؤديان نفس المعنى، فيحترز من وصف النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يليق به.

وينكر الدكتور شحرور على الفقهاء والمتصوفة تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وجعله القدوة والمثل، والتأسي الكامل به، فيقول: "لقد وضع المتصوفة النبي صلى الله عليه وسلم في عالم المطلق من حيث الوجود، ووضعه الفقهاء في عالم المطلق من حيث التشريع، فحولوا بذلك الإسلام ورسول الله إلى خرافة من حيث الوجود، وإلى تحجر وتزمت من حيث التشريع"(458).

(456) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (602).

(457) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (76).

(458) - المرجع السابق، ص (572).

وهذا الكلام مخالف للحقيقة، فالنبي محمد عليه السلام قدوة المؤمنين في سيرته، ومرجعهم في سنته وأحكامه وتشريعاته بنص القرآن، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

وربما بالغ بعض المتصوفة في حبهم للنبي عليه السلام ووصفهم له، ولكن هذا لا يعني أن رسول الله صار خرافة، وأما بالنسبة للتشريع فالفقهاء على حق في اتباع السنة، وقد قدم الإمام أحمد وأبو حنيفة وكثير من الأئمة الحديث الضعيف على رأي الرجال، وحسبنا في هذا المجال قول البوصيري:[459]

دع ما ادعته النصارى في نبيهم

واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

فمبلغ العلـــم فيه أنه بشر

وأنه خير خلق الله كلهـــم

***

المسألة السابعة: ضوابط في التعامل مع السنة الشريفة

أولاً: السنة شارحة لكتاب الله عز وجل، وهي وحي مثله، ويجب التعامل معها بمنتهى الأدب والاحترام.

ثانياً: لا يجوز قبول الادعاء بأن بعض الأحاديث يرفضها العقل؛ لأننا لو قبلناه سينسحب هذا على بعض الآيات القرآنية، كالآيات التي تتحدث عن معجزات الأنبياء، ومعلوم أن المعجزات شيء استثنائي لا يوافق قوانين الكون، يحدثها الله تعالى نصرةً لرسله، وتصديقاً لهم، فلا يمكن أن تكون وفق نواميس الطبيعة، **وطالما أنَّ مَنْ أتانا بالقرآن والسنة هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد صدقناه في خبر القرآن، فهذا يلزمنا أن نصدقه في كل ما أخبر عنه في سنته الشريفة صلى الله عليه وسلم.**

---

(459) – القصائد البصيرية، ص (32-33).

ثالثاً: تمت مسألة عرض السنة على القرآن عند تدوين الحديث الشريف، وتم الفراغ منها، ولا ينبغي أن نترك العمل بالسنة؛ لنقوم بعرض السنة على القرآن في كل عصر ومصر، ضمن جدل لا ينتهي!

رابعاً: الصحيح من السنة النبوية لا ينبغي إعادة تصحيحه من جديد عبر العصور، وإلا سنبقى إلى يوم القيامة في دوامة، ولا شغل لنا إلا تصحيح السنة الصحيحة!.

خامساً: هنالك بعض الأحاديث الضعيفة يمكن تصحيحها، وهذا من شأن أهل الاختصاص، ولا ينبغي أن يكون هذا هو الشغل الشاغل للأمة بأسرها، ولكن يدركه المختصون به.

سادساً: لا يمكن أن يكون الواقع حجة على السنة أو القرآن الكريم، فالرسل عليهم السلام لم يأتوا إلا لتصحيح الواقع، لا للانجراف وراءه، كما يفعل المطبلون للواقع من الفلاسفة والشعراء والفنانين.

سابعاً: لا يمكن التعامل بمزاجية مع السنة، فنأخذ منها ما يعجبنا ونترك ما لا يتماشى مع أهوائنا، فالسنة المطهرة والقرآن الكريم يعملان معاً لتنويرنا وهدايتنا كما الشمس والقمر، ولا يمكن فصل أجزاء من الشمس عن قرصها المتلألئ الوضيء، ولا أجزاء من القمر عن وجهه المضيء، فإما أن يقبل المرء هذه الأجرام النيرة كما هي فينتفع بها، وإما أن يغمض عينيه فيعيش في حيرة وظلمة لا تنتهي.

***

المبحث الثالث: الموقف من الإجماع

أولاً: الإجماع عند علماء الأصول: (هو اتفاق مجتهدي أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، في عصر من العصور على حكم شرعي، في واقعة من الوقائع)(460).

ثانياً: والإجماع أحد مصادر الدين، وهو (حق مقطوع به في دين الله عز وجل، وأصل عظيم من أصول الدين، ومصدر من مصادر تشريعنا الخالد، بعد كتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولذلك كان على المسلم أن يعرف حتماً مسائله، ليعمل بها، وليس له أن يثني عطفه، ويزعم أنه يستطيع أن يتعداه ويعمل الرأي والفكر. قال عبد الله بن مسعود: إذا سئل أحدكم فلينظر في كتاب الله، فإن لم يجد ففي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يجد فلينظر فيما اجتمع عليه المسلمون، وإلا فليجتهد)(461).

ثالثاً: وقد أنكر الإجماع النظام وبعض الشيعة وبعض المعتزلة(462)، ونقل عن أحمد إنكاره، وقد أجاب حول حجيته الإمام ابن تيمية، حيث قال: (من ادعى الإجماع في الأمور الخفية، بمعنى أنه يعلم عدم التنازع، فقد قفا ما ليس له به علم، وهؤلاء الذين أنكر عليهم أحمد، وأما من احتج بالإجماع بمعنى عدم العلم بالمنازع فقد اتبع سبيل الأئمة، وهذا هو الإجماع الذي كانوا يحتجون به)(463).

رابعاً: أما الدكتور شحرور فقد رفض حجية الإجماع، فهو مفهوم لا يعتد به عنده، يقول: "إن المفهوم الموروث بأن الإجماع هو ما أجمع عليه السلف أو جمهور الفقهاء هو مفهوم وهمي"(464).

ويخطو خطوة أخرى، فيعتبر الإجماع مسئولاً عن الاستبداد، يقول: "لقد تم ترسيخ الاستبداد تحت اسم إجماع العلماء، فكان السبب الأساسي في منع تحويل التشريع إلى مؤسسة تشريعية، وفي القضاء على الشورى تحت شعار أن الشورى غير ملزمة للحاكم. وما زلنا نعيش هذه المأساة حتى يومنا هذا، فالسلطات التشريعية

(460) – موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، سعدي أبو جيب، ص (21).

(461) – المرجع السابق، (19/1).

(462) – المرجع السابق، (28/1).

(463) – المرجع السابق، (29/1).

(464) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (582).

(المجالس) التي تعتبر حديثة نسبياً على العرب والمسلمين، لم تأخذ حتى اليوم دورها الفعال في البلاد التي توجد فيها''[465].

ونسف الإجماع هو هدم لركن من أركان الدين الحنيف، فإذا هدمت الدراسات القرآنية، والسنة النبوية، وإجماع الأمة، ماذا يبقى من الإسلام؟ هل يعقل أن المسلمين لم يتفقوا على شيء من أحكام دينهم أو يجمعوا عليه منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واستمر ذلك حتى اليوم؟ وإذاً كيف استمر الدين، وتواصل الخلف مع السلف، إذا كانت هذه الأمة لا تجتمع على شيء؟! والأمة التي لا يجتمع فقهاؤها على شيء تستحق الفناء وليس البقاء إلى قيام الساعة، إن شبهة عدم وجود الإجماع لا دليل عليها.

ثم ما علاقة الإجماع في قضايا السياسة؟ هم أجمعوا على أمور تتصل بجوهر الدين وأحكامه، ويا ليته ساق دليلاً واحداً على ما يقول بدلاً من الاتهامات العشوائية!

خامساً: ويمكن أن يتم الإجماع اليوم عن طريق اختيار النخبة من فقهاء المسلمين في العالم ليجتهدوا في أمر ما، ولا يشترط أن يوافقهم كل من لبس عمامة على وجه الأرض أو حمل إجازة شرعية، **فقرار الأكثرية هو بمثابة الإجماع إذا تعذر جمع الكل،** والدول اليوم تتخذ قراراتها التشريعية تحت قبة البرلمان بناء على رأي الأكثرية وليس على الإجماع، وفي الحديث: (اتبعوا السواد الأعظم)[466].

والسواد الأعظم هو الأكثرية، ومن شذَّ عن الأكثرية ضاع وضيَّعَ، كما هو حال الخوارج الذين قادهم التطرف إلى الفتك واستحلال دماء الناس وأموالهم، مما يعني أن أكثرية أهل الإيمان غالباً ما تكون على حق.

***

(465) - في الدولة والمجتمع، ص (23).

(466) - ذكره البغوي في الحسان عن ابن عمر، انظر: مصابيح السنة، (1/40).

المبحث الرابع: الموقف من القياس

أولاً: القياس في اصطلاح الأصوليين والفقهاء: (هو إلحاق معلوم بمعلوم في الحق الشرعي إثباتاً أو نفياً للاشتراك في العلة)(467).

ثانياً: وقد رفض القياس النظام والقاساني والنهرواني وداود الظاهري وابن حزم، (وأثبته الجمهور وأكثر الفرق الإسلامية)(468)، (وقد استدل المانعون بآيات قرآنية بعيدة كل البعد عن الموضوع، منها قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، وقوله تعالى: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: 49]، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: 36]، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: 36]، ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12]. والجواب أن الواقع أيام الصحابة حدثت فيه قضايا لم ينص عليها القرآن ولا السنة، مثل قضية الجد، والأخ، والعول، والمبتوتة، وقول الزوج أنت علي حرام، وقضى فيها الصحابة بحكم الله، معتمدين على الاستنباط من الكتاب والسنة، ولا تزال الحوادث تتجدد، ونجد لها استنباطا من القرآن والسنة، بطريق القياس والاجتهاد، فالتشريع الإسلامي قابل للتطور، وهذا الجمود على ظواهر الآيات لا يتفق مع جوهر التشريع الإسلامي)(469).

ثالثاً: يرى الدكتور شحرور أن القياس باطل، يقول: "إن قياس الشاهد على الغائب هو قياس باطل ومجحف، فلا يصح أن نقيس أي مجتمع معاصر على المجتمع الذي عاش فيه النبي صلى الله عليه وسلم، وإلا فإننا نقع في الوهم، أما القياس الحقيقي فهو قياس الشاهد على الشاهد ضمن الحدود"(470).

---

(467) - المصفى في أصول الفقه، أحمد الوزير، ص (325).

(468) - المرجع السابق، ص (326-327).

(469) - المرجع السابق، ص (325).

(470) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (581).

وموقفه من القياس لا يسانده أي دليل علمي، فهو كلام إنشائي يعوزه الدليل والبرهان، والقياس في حقيقته محاكاة قضية لأخرى، وإلحاقها بها، والمحاكاة mimesis لا يمكن الاستغناء عنها أبداً في العلوم ولا في الفنون.

رابعاً: والأدب كما ذكر أرسطو هو محاكاة للواقع والطبيعة، "ويحصر أرسطو المحاكاة في الفنون، سواء كانت فنوناً جميلة كالموسيقى والرسم والشعر، أم فنوناً عملية نفعية كفن البناء والنجارة مثلاً، على حين يعمم أفلاطون المحاكاة في كل الموجودات"(471).

خامساً: والتربية للأطفال لا تكون إلا من طريق المحاكاة mimesis، والمسرح بحد ذاته محاكاة للواقع، فالمحاكاة mimesis لا غنى عنها إطلاقا لا في العلوم ولا الفنون، وهي أساس فكرة القياس، مما يعني أن القياس لا يمكن الاستغناء عنه البتة، وهو إحدى أدوات التفكير الهامة، وأسلوب عظيم لاستنباط الأحكام، فالحوادث يشبه بعضها بعضا، ومن هنا قالوا: (لا جديد تحت الشمس).

***

(471) - النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، ص(48).

المبحث الخامس: الموقف من التراث العلمي والفقه

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: الموقف من التراث

أولاً: التراث الإسلامي يمكن أن نعبر عنه بصور مختلفة، فقد يقال إن كل ما ورثناه عن أسلافنا هو تراث، ويدخل فيه الدين، وبعضهم يرفض وضع الدين ضمن التراث على أساس أن التراث فيه الحسن والقبيح، ويمكن أن ندع منه ما نريد، أو نأخذ منه ما نريد، بينما الدين ليس كذلك، فنحن ملزمون بالأخذ به، وهذا الرأي أوجه وأقرب، ولا مشاحة في الاصطلاح.

ثانياً: وقد عرف الدكتور شحرور التراث الإسلامي بقوله: "التراث: لقد تم تعريف التراث في مقدمة الكتاب على أنه النتاج المادي والفكري الذي ورثته مجموعة من الناس عن سلفها بحيث أن هذا النتاج لعب دوراً أساسياً في تكوين شخصية هذه المجموعة وهويتها، أي: في تكوين عقلها الباطن، وسلوكها الظاهر. وهذا الفهم للتراث يعني أن الجزء الأساسي من السلف الذي كون هذا النتاج هو في عداد الأموات"[472].

ويضيف: "فإذا كان القرآن ليس تراثا، فما هو التراث العربي الإسلامي؟ الجواب: التراث العربي الإسلامي هو تفاعل الناس مع القرآن ابتداء من النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وصدر الإسلام، مرورا بكل أنواع التفاسير على مر القرون، هذا النتاج الفكري والحضاري الهائل الناتج من هذا التفاعل هو التراث العربي الإسلامي"[473].

وهذه مغالطة كبيرة، فكلام الرسول صلى الله عليه وسلم ليس تفاعلاً مع القرآن كما سبق تقريره، وإنما هو وحي من الله، فوفق هذا التعريف لا يكون من التراث.

(472) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (208).

(473) - المرجع السابق، ص (209).

ثالثاً: والدكتور شحرور يستخف بالتراث العربي الإسلامي، فهو تراث ميت، صالح لزمانه فقط، وقد انتهت صلاحيته، وقد تقدم سابقاً قوله ينقد العلماء: "ماذا قدم السادة العلماء للناس؟ لقد تصدر العلماء المجالس والإذاعة والتلفزيون على أنهم علماء المسلمين وجلهم ناقل، وليس بمجتهد، أي إنهم قدموا لنا ماذا فهم السلف من القرآن، على أنه تفسير للقرآن، والواقع أنهم بذلك لم يقدموا ما يؤكد أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، بل قدموا تفاعل هؤلاء الناس مع القرآن وبالتالي قدموا الأرضية المعرفية التاريخية لهؤلاء الناس، ونحن في القرن العشرين، أي قدموا لنا تراثا إسلاميا ميتا"(474).

وهذا الكلام غير صحيح، وهو كلام عام عشوائي لم يتوصل إليه ببحث واستقراء، وفي هذا الكلام جناية على العلم والعلماء والتراث، وهو كلام رجل لم يقرأ التراث، ولم يعرف مزاياه وفضله، والمرء عدو ما يجهل!

رابعاً: يعترف الدكتور شحرور بأنه يدعو للقطيعة مع التراث العربي الإسلامي، ويطبق ذلك فيما يكتبه، يقول: "إن أخبار التراث عند علماء الأصول دليل ظني، والظن لا يغني من الحق شيئاً... **وكل ما ندعو إليه ونقوم به من كل ما أنتجنا من كتب هو القطيعة المعرفية مع التراث**"(475).

خامساً: ويستهزئ الدكتور شحرور بأتباع مدرسة التراث كما في قوله بعد أن ذكر أقسام الشهداء كما وردت في الحديث النبوي: "قد يعجب متعجب من قولنا، **وقد يستنكره عبيد التراث ومقدسوه،** زاعمين أن ما ذهبنا إليه سيقود بالضرورة إلى دخول أفراد الأمة كلها – برجالها ونسائها – في قائمة الشهداء، إذ لا يخلو الرجل من علم يطلبه، ومن رزق يسعى إليه، ومن مظلمة تلحق به في دمه أو في ماله أو في أهله أو في دينه ومعتقده أو مرض يصيبه، ولا تخلو المرأة من مولود تلده، ومن حيض تحيضه، ومن علم تحصله، ومن رزق تلتمسه، ومن مظلمة تلحق بها..." (476).

---

(474) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (209).

(475) - السنة الرسولية والسنة النبوية، ص (206).

(476) - تجفيف منابع الإرهاب، ص (61-62).

هذه هي منهجية الدكتور شحرور، أحكام عشوائية بالجملة، من دون استقراء ولا تمحيص، وهمز ولمز واستخفاف بالآخرين، وليست هذه بمنهجية موضوعية، ولا من أخلاق العلماء، فضلاً عن أن تكون أخلاق أهل القرآن الكريم!

***

المسألة الثانية: الموقف من الفقه

أولاً: وقف الدكتور شحرور موقفاً سلبياً من الفقه وعلومه، وعليه **فالعودة إلى تحكيم الشريعة عبث إذا كانت العودة تعني الاحتكام إلى هذا التراث الفقهي، يقول:** "لذا فإن الطرح الذي ينادي بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على أساس أن الإسلام هو الموروث من كتب الفقه، وعلى أساس أن حدود الله هي تشريع عيني، هو طرح في فراغ ووهم، لا يمكن أن يكتب له النجاح وهو من باب مضيعة الوقت والمال والأنفس، علما بأن الدولة بدأت تنفصل عن الدين بمفهومه الموروث، إن لم تنفصل كليا، حيث إن الحياة ومشاكلها لا ترحم أحدا، ولا تساير أحدا، وأعطتنا الحياة المعاصرة انطباعا بأن الإسلام لا يصلح لكل زمان ومكان، **وهذا غير صحيح فالإسلام يصلح لكل زمان ومكان بمفهومه الحقيقي الذي نقدمه**"[477].

ثانياً: والمشكلة أن الدكتور شحرور لا يعتد بجهود من سبقوه ولا فهمهم، ويشطبه كله، ويريد أن يقدم لنا فهماً للإسلام على طريقته، ويعتبر فهمه هو الفهم الصحيح، أليس اتباع السلف أولى من هذه الاجتهادات المتأرجحة اللامنهجية؟ لقد صدق ابن مسعود حين قال: (من كان مستناً، فليستن بمن مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة)[478].

ثالثاً: والنتيجة التي توصل إليها الدكتور شحرور أن هذا الفقه لا يواكب عصرنا حيث "يجب أن ننطلق في فهم أزمة الفقه الإسلامي الموروث والتفسير، والذي أصبح يشكل عبئا علينا حيث أصبح غير متناسب

(477) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (69).

(478) - انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، تحقيق الألباني، (67/1).

مع معلوماتنا وظروفنا في القرن العشرين، حيث إن الأزمة تنطلق من خطأ في المنهج لا من ضعف في اللغة العربية أو قلة في التقوى"[479].

والهجمة على الفقه غير منطقية، فليس ثمة دليل واحد يسوقه الدكتور شحرور حتى الآن ليثبت تخلف الفقه الإسلامي، بل هو يقرر أحكاما مسبقة من غير مقدمات ولا تحليل ولا استنتاجات علمية، فتخلف المسلمين وغيرهم من شعوب العالم الثالث يعود في أسبابه المباشرة إلى أسباب اقتصادية، وتكنولوجية، وسياسية بحتة، وليس إلى الفقه الإسلامي كما يزعم! فالدول الحديثة تقوم على الصناعة والتكنولوجيا والمعلومات، والدول الإسلامية في معظمها مازال اقتصادها يقوم على الزراعة وتصدير المواد الأولية، ولم تستطع أن تخطو خطوات واسعة باتجاه الثورة الصناعية التي قامت في اليابان والدول الغربية وغيرها. والحديث عن تجديد أصول الفقه .وكأنه مشكلة الأمة التي لا مشكلة لها سواها .قد ينتج لنا فقهاء جداً، ولكنه لن ينتج لنا علماء مثل أديسون، وأينشتاين، ولافوازييه، وديكارت، وغيرهم.

إن تخلفنا في العلوم البحتة هو السبب المباشر في أزمتنا المعاصرة، فهناك أكثر من أربعين دولة إسلامية، ولكن ليس فيها دولة واحدة مثل اليابان، وحين حاولت دولة ماليزيا أن تخطو في اتجاه الصناعة والتقدم العلمي تم تدمير اقتصادها!

رابعاً: ويعتبر الدكتور شحرور السنة النبوية فقهاً، ويعتبر المذاهب الفقهية صارت بديلاً عن النص، وأن الفقهاء يبررون بفتاويهم سلوك الأغنياء والحكام، وهي فتاوى تهضم حق الضعفاء والفقراء، يقول: "وأول من بدأ بالفقه وبالاجتهاد هو النبي صلى الله عليه وسلم وفقهه واجتهاده هو ما نسميه بالسنة النبوية. حيث أن التقيد بمذهب من المذاهب الفقهية ما هو إلا استبدال المذهب بالنص الأصلي حيث أصبح المذهب الفقهي فيما بعد هو الأساس الذي اختفى النص وراءه. وأصبح الفقه في شرح المذهب لا في شرح النص. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى جاءت الآية لتحذير الفقهاء من فتاوي التبرير، حيث أنهم يفتون لتبرير سلوك ما لشخص ما، بحيث أنهم يظهرون أن هذا السلوك هو عين الإسلام مع أن الإسلام خلاف ذلك، وهم يعلمون ذلك وما أكثرهم في تاريخنا حيث أن هذا التبرير يكون لشخص يتصف بالغنى

(479) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (579).

أو السلطة أو كليهما، إن المهضوم حقه هو الضعيف والفقير فهل هذا من باب الصدقة أو أن النص التشريعي أو القانوني هو مع القوي والغني؟؟"[480].

وهذا الكلام فيه مجموعة مغالطات، فالسنة ليست اجتهاداً بل هي تشريع قائم بنفسه إلى يوم القيامة، وهي المصدر الثاني لشريعة الله بعد كتاب الله عز وجل. والفقه ليس بديلاً عن القرآن بل هو مستنبط من الكتاب والسنة وخادم لهما. والفقه ليس مبرراً للسلطة، فهذا حكم عام بلا أدلة، وقد لاقى كثير من الفقهاء الضرب والأذى، فمات أبو حنيفة في السجن، وضُرب الإمام مالك، وسُجن الإمام أحمد وابتلي، واضطر الشافعي للهجرة من العراق إلى مصر... والفقهاء من بعد هؤلاء الأربعة المتقدمين، فيهم الربانيون الذين يقولون الحق، وفيهم من داهن السلطة، شأنهم شأن بقية العلماء وأفراد المجتمع، والتعميم في الحكم عليهم خطأ، واتهام الفقهاء من دون أدلة ليس من صفات البحث العلمي النزيه، ولا قيمة له ألبتة في البحث الموضوعي الشفاف.

خامساً: إن بعضنا يظن أن وجود أبي حنيفة جديد سيكون بيده مفاتيح حل الأزمات كلها، لأنه سيقدم لنا اجتهادات معاصرة تسمح لنا بالتحرر والانطلاق وراء الحياة، ومجاراة الأمم الأخرى في المدنية، والمسألة ليست كذلك، فنحن بحاجة إلى المعرفة العلمية المعاصرة بكل أقسامها وأنواعها، فما زال حظنا في العلم الحديث والبحث العلمي ضعيفاً واهناً.

ونحن بحاجة إلى الحديد الذي نوهت به إحدى سور القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25].

ونحن بحاجة إلى معرفة سبل استخدام هذا الحديد وتسخيره في حماية أنفسنا، كما كان نبي الله داود عليه السلام يصنع منه الدروع الحصينة، ويزود بها الناس ليحموا أنفسهم، فنحن بعصر ما عاد فيه للضعيف وجود، فضلاً من أن يكون له قيمة.

(480) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (182).

لقد كدنا نخسر دنيانا، ونتحول إلى أمة مقهورة مستضعفة... واليوم يريد بعض كتابنا أن نخسر ديننا أيضا حين ننتج أحكاما جديدة تسمح لنا بالتخلص من الحدود والقيود الشرعية، ليصبح كل شيء حلالاً، تحت ستار الحرية الفكرية، ومحاربة التشدد، والتجديد في الفقه والشريعة!

سادساً: بقيت مسألة إغلاق باب الاجتهاد، وهي مسألة ذهب إليها بعضهم في العصور المتأخرة، ولكن الجهابذة من العلماء والفقهاء يرون أن الاجتهاد قائم إلى قيام الساعة، وذلك إذا توافرت الشروط العلمية في المجتهد، وليس بأن نأتي بمن لا يعرفون شيئا عن المنهجيات العلمية لعلماء التفسير والحديث والفقه واللغة، ونقول لهم اجتهدوا في الدين تحت شعار تكامل المعرفة الدينية والدنيوية، وأسلمة المعارف الإنسانية، فهؤلاء يجب أن يتعلموا علوم الشرع أولاً، قبل أن يتقدموا للاجتهاد في الدين، ففاقد الشيء لا يعطيه، وهذه شريعة لها مكانتها وقدرها، ولها علماؤها ورجالها، وليست أداة تسلية ليلعب بها الرجال.

***

المبحث السادس: الموقف من السلفية والفرق الإسلامية

وفيه مسائل عدة:

المسألة الأولى: رفض منهج أهل السنة

يرفض الدكتور شحرور منهج أهل السنة والجماعة الاتباعي، ويحبذ مذهب المعتزلة، فقد قال منددا بأهل السنة ومنتصرا للمعتزلة: "تيار العقل وقد تمثل في المعتزلة، حيث إن الإسلام عندهم تفاعل مع معطيات العصر وتحدياته، وأنتج فكرا نيرا حرا نقديا، وقد انتهت المعركة مع الأسف بانتصار التيار الأول، وما زلنا نعيش مآسيها وخيبتها حتى يومنا هذا، حيث أصبح التيار الأول يسمي نفسه أهل السنة والجماعة، وانتصار التيار الأول قتل الفكر الحر النقدي عند الناس، مما أدى إلى استسلامهم، حيث استلم الفقهاء قيادة الناس تحت عنوان أهل السنة والجماعة، ومات الفكر النقدي، ومنذ ذلك الحين أصبح الفقه والسلطة توأمان بغض النظر عن ماهية هذه السلطة، وطنية أو غير وطنية، عربية أو غير عربية. هكذا يظهر لماذا كانت الحاجة الملحة إلى علم الحديث، حيث تم ظهور علم الحديث في خضم هذه المعركة، **حتى أصبحت السنة بمفهومها وتعريفها التقليدي الفقهي هي السيف المسلط على رأس كل فكر حر نير ونقدي،** وأصبح الظن عند المسلمين أن محمدا صلى الله عليه وسلم حل كل مشاكل الناس من وفاته إلى قيام الساعة"[481].

تعقيب ومناقشة

أولاً: إن الانتصار لفرقة دون أخرى هو منهج تجزيئي فئوي غير علمي، يفتت جسم الأمة المسلمة، كما أن تفسير نشأة علم الحديث بأسباب سياسية تعوزه الأدلة، وتشبيه السنة بالسيف المسلط على رؤوس المبدعين غير صحيح أبداً، فلم تكن السنة يوماً واحداً ضد الإبداع والحضارة والرقي والتقدم، ولكن نبذ السنة هو الذي جعل هذه الأمة تضيع وتهلك، ماذا نجد في السنة سوى الأمر بالخير والابتعاد عن الشر؟، ابتداء من لبس النعال الحسنة، ووصولا إلى أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر؟

---

(481) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (569).

ثانياً: إن سنة الرسول محمد .عليه الصلاة والسلام .تعلمنا النظام والترتيب في حياتنا، ومراعاة الأولويات في دعوتنا وديننا، والرحمة بالآخرين ابتداء من الإنسان، وحتى الجمادات، مروراً بالحيوانات والأشجار، وتعلمنا تقوية الإرادة بالصبر والصيام والجهاد، وحبس النفس عن شهواتها وملذاتها الدنيئة، وتعلمنا العدل في الحكم، والاعتدال في المواقف، والتعمق بالتفكير، والصدق في المعاملة.

وتعلمنا السنة أيضاً بأن إيذاء الذمي والمعاهد هو كإيذاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم شخصياً، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم سينتصف من المعتدي شخصيا يوم القيامة.

وتطلب من المسلم أن يكون شامة بين الناس، ومن الأسرة المسلمة أن تكون متميزة في سلوكها وتعاملها مع الجيران وغيرهم، ومن الأمة المسلمة أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأن تكون أمة قيادية ذات عزة وكرامة، لا تقبل العدوان، ولا تعتدي على أحد، وأن نأخذ بالشورى ولو كانت من طفل أو امرأة، وأن نعطي المرأة ما تستحق من كرامتها، فالجنة تحت أقدامها، حيث جاء في الحديث الشريف: (الجنة تحت أقدام الأمهات)[482]، والمرأة الصالحة هي خير ما يكنز المرء في دنياه، فأي عيب في سنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم؟

تلك هي السنة النبوية الكريمة التي توجه المسلم لكي يكون حسن العلاقة بالخالق من جهة، وبالخلق من جهة أخرى؟

ثالثاً: إن السيف المسلط على رؤوس الناس ليس هو السنة، ولكنه الاعتزال الذي كان يتستر بالعقل، ثم يزج الناس في السجون بدعوى خلق القرآن، ويطالب بعض أتباعه .ومنهم الدكتور شحرور .اليوم بأن يسحب القرآن من بين أيدي العلماء كما تقدم ذكر ذلك، هل هنالك إرهاب فكري ونفسي أشد من هذا الذي مارسه فكر الاعتزال الذي ينتصر له الدكتور شحرور؟

رابعاً: العقائد لا تُفرض بالسيف، ولم تكن السنة سيفاً مسلطاً على أحد، وفي هذا الصدد نذكر شهادة غوستاف لوبون للحرية الدينية عند العرب، حيث قال: "وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصارهم، أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العربُ المغلوبينَ أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعضُ الأقوامِ النصرانيةِ الإسلامَ، واتخذوا العربيةَ لغةً لهم؛ فذلك لما رأوا من عدل

(482) – قال المناوي في فيض القدير (362/3): "أخرجه النسائي وابن ماجة، وكذا أحمد والحاكم وصححه".

العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل.

وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عربَ الأندلس فضَّلَ هؤلاء القتلَ والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام. ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوبُ التي قهرت العرب مؤخراً، كالترك والمغول"(483).

خامساً: إن قضية تقديم العقل على النقل مطروحة من أيام المعتزلة، ونحن لا نرى إقحام العقل في تفاصيل قضايا الإيمان بالغيب، وصفات الله، والمتشابهات، لأن العقل محدود العلم، وما يجهله أكثر مما يعرفه، فلا ينبغي له أن يتدخل فيما يجهله، لأنه سيقود إلى نتائج غير سليمة. ونضرب لذلك مثلا: لو أن إنساناً قبل عصر الطيران قال إن البشر سيطيرون من شرق الأرض إلى غربها في يوم واحد، لاتهمه الناس بعقله، فالعقل لا يقول بإمكانية ذلك آنذاك، أما اليوم فمن أنكر ذلك فهو الذي يتهم بالخبل، فإذا كان العقل عرضة لتغيير أحكامه في أمور الدنيا تبعا لمتغيراتها بين الأمس واليوم، فهو أكثر عرضة لتغيير آرائه بالنسبة للدين، يؤكد هذا أن الله تعالى كلما بعث نبياً، وأصلح الناس، قام الناس بعد رحيل نبيهم بتغيير المنهج وتحريف الرسالة، وهم يعتمدون في ذلك على ما تكن به نفوسهم ويخطر في عقولهم، ولو أنهم التزموا بما أنزل الله إليهم ولم يحرفوا، أو يبدلوا، لبقي المنهج سليماً، وساد الإصلاح، فالعقل قد يضل، أو يتبع الهوى، وليست جميع العقول مستنيرة.

سادساً: إن ما يقبله عقل واحد من الناس قد يرفضه عقل آخر منهم، وأما إذا اتفق جميع العقلاء على رفض شيء فهذا من باب أولى أن يرفضه الدين، لذا نحن لا نرى وصاية للعقل على النص، بل نرى وصاية النص الصريح الصحيح على العقل، والحقيقة العلمية عندنا ليست تلك التي تؤيد الدين فقط، بل تلك التي يؤيدها الدين، لأننا نرى أن كل ما ثبت بالوحي هو الصواب المطلق، وهو حق اليقين، سواء أدركت عقولنا ذلك أم لم تدركه، وهذا هو المنهج الذي عليه جمهور الأمة، ومن تنكب عن هذا المنهج فقد ابتعد عن الصراط المستقيم.

---

(483) - حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص (127-128).

سابعاً: إمعان النظر التحليلي في التراث مطلوب، ولكن في المقدسات فيه نظر!، فأما بالنسبة للقرآن فلا مجال فيه، وأما السنة، فالصحيح منها لا ينبغي إعادة تصحيحه من جديد عبر العصور، وإلا سنبقى إلى يوم القيامة في دوامة، ولا شغل لنا إلا تصحيح السنة الصحيحة، ربما كانت هنالك بعض الأحاديث تحتاج إلى إعادة النظر في درجة صحتها، ولكن عدد هذه الأحاديث لا يتجاوز أصابع اليد، ولا ينبغي أن يكون هذا هو الشغل الشاغل للأمة بأسرها، ولكن يدركه المختصون به، وإنما ينطبق كلام الدكتور شحرور على الأحاديث الضعيفة، وأقوال بعض الصحابة لا أكثر.

***

المسألة الثانية: الهجوم على السلفية

ويضيف الدكتور شحرور منددا بالسلفية والفكر السلفي: "إذا نظرنا إلى الحضارة العربية الإسلامية في الوقت الحاضر نرى فيها عنصر الجذور متوفرا، ولكن لا يوجد ثمار لأنها جفت، ونضبت، فنحن الآن مستهلكون للسلع والأفكار، حتى إن أفكار التراث استهلكت ونضبت، ووصلنا في طرحنا لأفكار التراث إلى حد السذاجة في بعض الأحيان، وفي هذا المقام يجب علينا أن نميز بين مصطلحين يقع الالتباس بينهما: وهما الأصالة والسلفية، فالأصالة لها مفهوم إيجابي حي، أما السلفية فهي عكس ذلك تماما، السلفية كما نفهمها هي دعوة إلى اتباع خطى السلف بغض النظر عن مفهوم الزمان والمكان، أي إن هناك فترة تاريخية مزدهرة مرت على العرب، استطاعوا فيها حل مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، واستطاعوا أن يبنوا دولة قوية منيعة، استطاعت تحقيق العدالة بمفهومها النسبي التاريخي، وبالتالي فإن هؤلاء السلف هم النموذج، ويجب علينا أن نتبع خطاهم ونقلدهم، ولا نخرج عن نمطهم، **فالسلفي هو إنسان مقلد، إضافة إلى أنه أهمل الزمان والمكان، واغتال التاريخ وأسقط العقل.** ويعيش السلفي في القرن العشرين مقلدا القرن السابع، والتقليد مستحيل، لأن ظروف القرن السابع تختلف عن ظروف القرن العشرين، فمهما حاولنا الرجوع إلى القرن السابع لا يمكننا أن نفهمه كما فهمه أهله الذين عاشوه فعلا، لأننا نرجع إليه من خلال نص تاريخي فقط، ولهذا السبب وقع السلفي في فراغ فكري وصل إلى حد السذاجة، فقد ترك القرن العشرين عمداً، ليعجز في الوقت نفسه عن أن يعيش القرن السابع كما عاشه أهله، فوقع في شرك الغراب الذي أراد أن يقلد صوت البلبل، فلم يستطع، ثم أراد أن يرجع غراباً فنسي، فبقي في حالة عدم التعيين، فلا هو غراب ولا

هو بلبل، وهذا هو حال السلفيين، إن السلفية هروب مقنع من تحديات القرن العشرين، وهزيمة نكراء أمام هذه التحديات، وهي البحث عن الذات في فراغ، وليس في أرض الواقع، هذا فيما يتعلق بالسلفية الإسلامية، ولكن هناك نوعا آخر من السلفية نراه عند تيارات أخرى تطرح حلولا نظرية تعمل في فراغ وفق نموذج متحجر، طرح في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، واعتبرته مقدسا فلا خروج منه، إنها تيارات سلفية أخرى لا تعيش زمانها، ولا تتفاعل معه، وقد أثبتت الأحداث فشل هذا النموذج، وبالتالي لم يكتب لها النجاح، ولم تستطع تقديم حلول لمشاكل مجتمعها المعاصرة والملحة"[484].

تعقيب ومناقشة

أولاً: هذا كلام فيه مغالطات كثيرة، وهو كله غير مستقيم، فالسلفية ليست شكلاً أو إطاراً نعود إليه، وإنما هي محتوى ومنهج، بمعنى أوضح: السلفية ليست عودة إلى ركوب الخيل والجمال كما يصورها أعداؤها، ونبذ الركوب بالطائرة والسيارة مثلاً، وليست هي عودة إلى البداوة وترك المدنية، وإنما هي العودة إلى القيم الإسلامية الأصيلة من تقوى، وعدل، وتعاون، ومحبة، وإيثار، مما افتقده العالم اليوم، فتحول كثير من الناس إلى وحوش كاسرة، يأكل بعضهم بعضاً، ويضرب بعضهم رقاب بعض.

ثانياً: إن السلفية تعني العودة إلى أحكام الشريعة الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، في وقت انتشرت فيه مختلف الجرائم، وضاعت القيم والحرمات، ولم يستطع المشرعون بقوانينهم الوضعية مواجهة ذلك. وهي تعني العودة إلى مصادر الإسلام الأصيلة ونفي الدخيل والبدع، فهي عودة إلى رحيق المنبع الأول، ونبذ المشارب الآسنة، وهي عودة إلى وحدة الأمة بكافة أعراقها وقبائلها ودولها وأقاليمها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92].

ثالثاً: إن السلفية منهج قويم، وسلوك رشيد، وفكر مستنير، وليست هروباً من العصر وتحدياته، فهي اليوم صاحبة الإرادة الحرة، والفكر القويم في هذا العالم، ولذلك يخافها المستعمرون والطغاة وأعوانهم، ويجندون كل ما يملكون للحملة ضدها، وهي كالعود الذي يفوح طيبه كلما أحرقه الناس، ومن أراد مقارعة السلفية فليقابلها بالعقل والمنطق، والحجة بالحجة، فالأفكار عبر التاريخ كله لا تُقاوم بالسيف، لأن مقاومة

(484) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (34-35).

الفكر به هو إعلان عن العجز عن مواجهته بفكر مثله! وهذا بمثابة إعلان مبطن عن انتصار الفكر الذي يُوَاجه بالسيف.

رابعاً: والسلفية ليست فرقة سياسية، أو فرقة دينية ينتحلها بعض الغلاة، وإنما هي تفكير وسطي يستلهم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153].

وهي منهج يرفض التغيير والتبديل، عملاً بقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: 23].

وهي منهج أمة خيرة تبحث عن إقرار الخير والمعروف وإزالة الشر والمنكر في هذه الحياة، وتربط النفوس بخالقها عز وجل، فلا فضل لأحد على آخر، كما في قوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) [آل عمران: 110].

وهي منهج الوسطية والعدل في تبليغ الرسالة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

وهي منهج الوفاء بالعقود والعهود والعبودية لله عز وجل، والسلام في الأرض، ورفض العدوان، والتعاون في دروب الخير والفلاح، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 1-2].

فأي عيب بعد هذا كله فيمن التزم بدينه، ولم يعتد على أحد، وكان طيب الخلق مع الناس، ولم يغال في دينه، ولم يلعب في مفاهيم ودلالات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، أمثل هذا يُعاب؟ ولا يعاب من يريد تغيير الدين والتلاعب بأحكامه، أو من يهجر الدين أساساً؟!

خامساً: وأما حكاية الغراب الذي يريد أن يقلد صوت البلبل، فهي لا تتناسب مع المنهجية العلمية Method Scientific التي ينبغي أن تقوم على الحقائق، لا على الأساطير والخرافات والأوهام، وكان ينبغي على الدكتور شحرور أن يربأ بنفسه عن ذكر قصص رمزية في كتاب يزعم أنه يؤسس فيه لمنهجية علمية معرفية، بيد أنه تأسيس فوق الرمال!. وإذا كانت هذه القصة تنطبق على شيء، فهي تنطبق على العقلانيين أكثر من انطباقها على السلفيين، فلقد أرادوا تطوير الإسلام ليناسب الحضارة، فلم يتقبله أحد من رجال الحضارة بعد التطوير، وذلك يعود لسبب بسيط، وهو أن هذه الحضارة مادية لا تخضع لدين، ولا تؤمن إلا بالقيم الدنيوية والإنتاج المادي والفنون والأهواء الشيطانية، فلا يقبل أساطينها وصاية الدين من جديد بعد أن حطموا قيم الأديان جميعاً، وبالمقابل فالعقلانيون لا يستطيعون العودة للسلفية، بعد أن رفضوها، وشنوا حربهم عليها، فصاروا بحالة لا يحسدون عليها من فقدان التوازن، وضياع الهوية.

***

المسألة الثالثة: الهجوم على الصوفية والفقهاء

ولا ينسى الدكتور شحرور أن ينقد الصوفية والفقهاء معاً، فيقول: "وبعد ضرب المعتزلة الضربة الساحقة، كانت الساحة خالية من الناحية الفلسفية المعرفية، **فجاءت الصوفية لتملأ هذا الفراغ، بمادة هيولية غثة حولت الإسلام إلى دين خرافة، وتمائم وتعاويذ، وأوراد وأذكار،** فأصبح المسلم بين نارين: النار الأولى: تكبيل الفقهاء وتشرذمهم، وتحويل الإسلام إلى دين كنسي-بحت. والنار الثانية خرافية المعرفة. فعندما كانت مشاكل الإنسان المسلم عبارة عن مشاكل يومية يعيشها ويلمسها، فعوضا أن تعرفه بأسبابها الحقيقية (منهج البحث العلمي الموضوعي) حولتها إلى قوى غير مرئية، فقدمت الصوفية إلى السلطة إنسانا مقهورا ذليلا، إمعة جاهلا، قانعا بكل شيء، وهذه الأطروحة ما زالت حتى يومنا هذا، حتى أصبح الدعاء المشهور القديم الجديد هو: (اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا)، هذا الدعاء هو دعاء إنسان مفلس مستسلم، قانع بأن أمور قيادته خرجت من يديه إلى الأبد، وهذه الأطروحة شيطانية خادعة، فكلما حصلت مصيبة بالمسلمين يقول لنا مشايخنا: هذه ذنوبكم لأنكم ابتعدتم عن الله، كما لو كان المسلمون هم المذنبون الوحيدون في الأرض، وأصبح الدعاء السائد هو: (اللهمَّ إنا لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه) هذا الدعاء لإنسان مستسلم غير صحيح"(485).

(485) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (586-587).

تعقيب ومناقشة

أولاً: هذا افتراء على الصوفية بعد السلفية، وقد نسي الدكتور شحرور أن عمر المختار، وعبد القادر الجزائري، وعبد الكريم الخطابي، وكثيرون ممن قاوموا الاستعمار، كانوا من شيوخ الطرق الصوفية، وهذا يدحض شبهاته بأن الصوفية تخرج الإنسان مقهوراً ذليلاً.

وأما دعواه بشأن الفقهاء المتشرذمين كما يصفهم؛ فهي دعوى قاصرة بلا دليل، ويستطيع الإنسان أن يدعي ما يشاء، ولكن الأدلة هي التي تثبت صدق الدعوى أو عدمه، ثم هل من المنهجية العلمية Scientific Method التنابز بالألقاب النابية، التي يعف العلماء عن ذكرها، هل الدكتور شحرور هو في ميدان علم يريد الإصلاح، ويتبع الأسلوب العلمي Scientific Style، أم في ميدان قتال يريد رمي الآخرين بنباله في أي موضع جاءت لا يبالي؟.

وأما قوله: بأن "المسلمين ليسوا هم المذنبين الوحيدين على وجه الأرض"، فهذا صحيح، ولكن الله عاقب المسلمين يوم أحد وهم أشرف وأعظم من مسلمي اليوم لما خالفوا أمر نبيه صلى الله عليه وسلم، ولله سنته في تربية المؤمنين وعقابهم، فهو يعاقبهم في الدنيا ليعفو عنهم في الآخرة، وأما بالنسبة لعباده الكافرين فقد أجل لهم العذاب إلى الآخرة، ومتعهم متاعاً قليلاً في الدنيا، وأولى بالدكتور شحرور أن يبحث عن سنة الله في العذاب والعقاب لعباده بدلاً من هذه السخرية الباردة...!

ثانياً: **وقد كرر هذا الهجوم على الصوفية في مواضع عدة من كتبه، من ذلك قوله:**"وقد لعب التصوف دوراً هاماً في تدجين الناس وتهيئتهم لقبول كل شيء، وتحول الجهاد إلى جهاد النفس ضد الهوى، وأصبحت الحرية العامة متشرذمة فردية، وأصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوعاً من السخرية، تم حصره في المرأة قبل كل شيء، تأكيداً لذكورية المجتمع. وقد حقق الصوفية والفقهاء نوعاً من المصالحة الأبدية بين الناس وحكامهم، كائناً من كان الحاكم، وبغض النظر عن كيفية وصوله إلى الحكم، حتى إن مشروعية الحاكم، التي تكمن في طريقة وصوله إلى الحكم، وفي نوع صلاحياته المحدودة، أصبح أمراً غير قابل للبحث، وإذا ظهرت بعض أصوات الاحتجاج فالأجوبة جاهزة لإسكاتها: دعوا الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها، عليك بالسمع والطاعة للحاكم ولو أوجع ظهرك وأخذ مالك، هذه ذنوبكم لأنكم ابتعدتم عن الله، الطاعة لذي الشوكة والغلبة، اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا، الظالم سيف الله في الأرض ينتقم به ثم ينتقم منه. وهذه الأجوبة الجاهزة، وغيرها كثير، تغلغلت وترسخت في تراثنا الشعبي

والفصيح، بأشكال شتى وصور مختلفة، أبرزها الجبرية، فالعمر محتوم، والرزق مقسوم، ولا قيمة لما يفعله الإنسان بالغاً ما بلغ في زيادة رزقه، أو الهرب من مكتوبه المقدر على جبينه"[486].

ثالثاً: ولا ننكر أن ثمة ملاحظات على بعض طرق الصوفية واجتهادات بعض الفقهاء، ولكن كما نلاحظ أن الدكتور شحرور يطلق أحكاماً عامة، ولا يفصل ولا يستثني، ويشوه الفقه والتصوف والمجتمع الإسلامي بكلام لو قاله مستشرق لقامت الدنيا ولم تقعد، والبلية أن يقوله من يدعي الإسلام وأنه يريد تجديد الدين... **وشر البلية ما يضحك! ولكنه ضحك كالبكا كما قال المتنبي شاعر العربية العظيم ..** وحسبنا الله ونعم الوكيل!

***

ويحمل الدكتور شحرور الصوفية والفقهاء تبعات تخلف الأمة، يقول: "لقد استبدلت الصوفية، والفقه المتشرذم المتخلف، بالجامعات ومعاهد البحث العلمي، الزوايا والتكايا المليئة بمضيعة الوقت والخزعبلات، وحلقات الدرس المقتصرة على قراءة حاشية ابن عابدين والطهارة والنجاسة ومفسدات الوضوء، وعندما خرج العثمانيون من سوريا كانت هناك مدرسة واحدة، ومئات حلقات الذكر والنوبات والزوايا والتكايا. وليتني أرى من يذكر لي عالما واحدا في الرياضيات، أو في الفلك، أو الفيزياء، أو في بقية العلوم، ظهر خلال أربعة قرون من حكم الدولة العثمانية، وبالمقابل كان في كل بلد عشرات المشايخ من فقهاء ومتصوفة دورهم الأساسي تخدير الناس وإبعادهم عن مشاكلهم المباشرة، وأعدائهم الحقيقيين. فقد كانوا أعمدة السلطة ودعائمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الفاسدة، سواء عرفوا ذلك أو لم يعرفوا. **وما زال ورثة هؤلاء الناس يعيشون بيننا حتى يومنا هذا تحت أسماء شتى، يعيشون ويفقهون على المسلمين ما يسمى بالإسلام حسب زعمهم، ولم يعلموا أن وجودهم هو أحد المشاكل التي يعاني منها الإسلام**"[487].

تعقيب ومناقشة

أولاً: هذا الاتهام للعثمانيين غير سليم، نحن لا ننكر أن الأمة قد تدهورت في عهودها الأخيرة، ولكن ليس إلى هذا الحد الذي يصفه الكاتب، **والحكم في هذا هم المؤرخون وليسوا عامة الكتاب، والكتب التاريخية**

(486) - في الدولة والمجتمع، ص (259-260).

(487) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (587-588).

كثيرة بهذا الصدد، منها ما وضعه الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوي بعنوان: (الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها)[488]، وهو سجل حافل للدولة العثمانية ومنجزاتها، فالدولة التي عاشت خمسة قرون لا يحكم عليها بالتخلف بجرعة قلم! ولا يعقل أن تعيش وتستمر بلا علوم ولا علماء!.

ثانياً: وكذلك اتهامه للفقهاء والمتصوفة بأنهم أعمدة السلطة غير صحيح، فالعلاقة بين المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية في العالم الإسلامي علاقة فصام منذ نهاية عهد الخلافة الراشدة، ولقد (مثل هذا الفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية التربة الخصبة لأمراض الأمة اللاحقة)[489].

ثالثاً: وأما وصفه للمشايخ من علماء وفقهاء بأنهم يخدرون الناس، فهو اتهام خطير، كان قد ردده من قبل كارل ماركس حين قال: (الدين أفيون الشعوب)، متى خدر العلماء الناس؟ ومن أشعل الثورات تحت أقدام الاستعمار في البلدان الإسلامية؟ من هو أقدم الشهداء في فلسطين: أليس هو الشيخ عز الدين قسام من مدينة جبلة السورية؟

إن الحرب على العلماء هي حرب على الإسلام بحد ذاته، فهل يمثل هؤلاء إلا دور الأنبياء السابقين، أليسوا هم ورثة الأنبياء؟ وهل ميراثهم إلا دين محمد صلى الله عليه وسلم وهديه؟ فكيف يسمح الدكتور شحرور لنفسه أن يكون تجديده محصوراً في انتقاص العلماء، وثلم مناهجهم العلمية؟.

***

الهجوم على الشافعي:

للدكتور شحرور قدرة على توجيه اللوم للأمة كلها، فمن ذلك قوله: "المشكلة أنكم تقرؤون فلا تفهمون، وإن فهمتم تحرفون، وإلا فخبروني عن الإمام الشافعي حين أفتى بأن الولد الذي يحجب ميراث الأعمام ذكر، وأمامه قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم) النساء 11، هل كان الشافعي لا يعرف أن الولد قد يكون ذكراً وقد يكون أنثى؟ وهل قرأ قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن) فهل الوالدة ترضع الذكر فقط؟ وهل فعل الولادة يقع على الذكر ولا يقع على الأنثى؟ وأنه لو قصد الذكور حصراً

(488) – نشرته مكتبة الأنجلو المصرية، بأربعة أجزاء، عام 1984م.

(489) – أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، ص (48).

لخرجت الإناث من وصيته وهذا محال؟ .والجواب: لقد كان الشافعي يعرف ذلك كله، فهو فصيح من حيث النسب لكونه قرشياً وفصيحاً من حيث الثقافة لكونه يحفظ عشرة آلاف بيت من الشعر، لكنه فضل أن يداهن سلطانه العباسي المستبد أبا جعفر المنصور فكانت النتيجة أنه باع دينه بدنيا غيره، غير عابئ بأن تتسبب فتواه هذه بحرمان مليارات البنات من إرثهن منذ أن أصدرها إلى أن يرث الله الأرض وما عليها"(490).

تعقيب ومناقشة

أولاً: ولا شك أن الشافعي هو أعلم بالدين والسنة ولغة العرب من الدكتور شحرور وأمثاله، ولا عجب لمن أنكر السنة النبوية أن يقوم بتفسير القرآن وفق هواه، دون دراية بما يحمله هذا الكتاب المعجز في سوره وآياته من علاقات بين تراكيبه وألفاظه، ودون معرفة بمجازاته ومعانيه، ودون إلمام بما يؤازر كل نص فيه من نصوص أخرى في الموضوع ذاته.

ثانياً: لا شك أن الولد في الآيات القرآنية التي أوردها الدكتور شحرور يشمل الذكر والأنثى، ولكن الذي جعل الولد الذكر يحجب ميراث الأعمام دون الأنثى نصوص الشريعة نفسها، فبالأصل كان هنالك للذكر مثل حظ الأنثيين، قال تعالى: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا). (النساء: 11).

ثالثاً: في تصور أولي: إذا ترك المتوفى ولداً ذكراً فلا بد أن تكون حصته في الميراث أكثر مما لو ترك ولداً أنثى، والوراثة تكون بأحد أمور ثلاثة: النسب، والنكاح، والولاء.

رابعاً: وللتفصيل في كيفية توزيع الميراث ذكر البغوي بأنه: إِذَا مَاتَ مَيِّتٌ وَلَهُ مَالٌ فَيُبْدَأُ بِتَجْهِيزِهِ ثُمَّ بِقَضَاءِ دُيُونِهِ ثُمَّ بِإِنْفَاذِ وَصَايَاهُ فَمَا فَضَلَ يُقَسَّمُ بين الْوَرَثَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ مِنْهُمْ، مَنْ يَرِثُ بِالْفَرْضِ وَمِنْهُمْ مَنْ

(490) - تجفيف منابع الإرهاب، ص (83-84).

يَرِثُ بِالتَّعْصِيبِ[أي قرابة بجهة نسب وما في حكمه يقتضي الإرث بطريق التعصيب، والعصبة: كل وارث ليس له نصيب مقدر]، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرِثُ بِهِمَا جَمِيعًا، فَمَنْ يَرِثُ بِالنِّكَاحِ لَا يَرِثُ إِلَّا بِالْفَرْضِ، وَمَنْ يَرِثُ بِالْوَلَاءِ لَا يَرِثُ إِلَّا بالتعصيب، وأمّا مَنْ يَرِثُ بِالْقَرَابَةِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَرِثُ بِالْفَرْضِ كَالْبَنَاتِ وَالْأَخَوَاتِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْجَدَّاتِ، وَأَوْلَادِ الْأُمِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرِثُ بِالتَّعْصِيبِ كَالْبَنِينَ وَالْإِخْوَةِ وَبَنِي الإخوة والأعمام وبنيهم.

خامساً: وحددت الآيات الكريمة والسنة النبوية الشريفة حصة من ترك إناثاً لوحدهم من دون ذكر، فهن لا يحجبن ميراث العم، كما في الحديث الآتي:

عن جابر، قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد بن الربيع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله! هاتانِ ابنتا سعد بن الربيع، قُتلَ أبوهما معكَ يومَ أُحدٍ شهيداً، وإنَّ عمَّهما أخذَ مالَهما، ولمْ يدعْ لهما مالاً، ولا تُنكحانِ إلا ولهما مالٌ. قال: (يقضي الله في ذلك). فنزلتْ آيةُ الميراثِ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمِّهما، فقال: (أعطِ لابنتي سعدٍ الثلثين، وأعطِ أمَّهما الثمنَ، وما بقي فهو لك) (491).

سادساً: وتم تقديم الذكر على الأنثى في الميراث، فإذا كان الفرع الوارث ذكراً فهو أقرب إلى الميت من العم، ومن ثم كان أحقَّ بمال أبيه من عمِّهِ، كما ورد في الحديث الآتي: عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألحقوا الفرائضَ بأهلِها، فما بقي فهو لأولى رجلٍ ذكر) (492).

لاحظ: قال صلى الله عليه وسلم: (لأولى رجلٍ ذكر) ولم يذكر الأنثى هنا.

وعليه: فمن مجموع الحديثين؛ فإن الأنثى لا تحجب ميراث العم، ويحجبه الولد الذكر، والشافعي لم يخترع ديناً من عنده، بل هو متبع لسنة خير الأنام، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهيهات لمثلهِ أن يبيعَ دينه

---

(491) – رواه أحمد والترمذي، وأبو داود، وابن ماجة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (2/920).

(492) – متفق عليه. انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (2/917).

وانظر: موقع إسلام ويب، على الرابط:

https://www.islamweb.net/ar/fatwa/142221/

بدنيا غيره، فليس هذا من شيمة الشافعي الذي كان محل ثناء العلماء وتقديرهم، وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى.

***

المسألة الرابعة: الموقف من العلماء وأهل الإفتاء

يعترف الدكتور شحرور باستعدائه العلماء وأهل الفتوى، يقول في جملة من التساؤلات: ".. وأين الحكمة من استعداء شريحة تمثل الغالبية العظمى من الأمة الإسلامية، سنة وشيعة، بمؤسساتها الدينية ومجالس إفتائها بشعارات مثل: (فقهاء السلطان) و(كلاب جهنم) و(اسحبوا القرآن من أيدي العلماء قبل فوات الأوان) و(الهامانات)؟ وقد ظهر هذا واضحاً في الربيع العربي حيث جرى الاعتماد على ما أطلق عليه فقهاء السلطان والقهر والاستبداد الحديث النبوي لقهر ثورات هذا الربيع. تلك بعض التساؤلات التي كثيراً ما تواجهني في ندواتي ومقالاتي من قبل عقلاء يريدون أن يفهموا ما يجري حولهم، ويسعون للبحث عن أجوبة تزيل التناقض والفوضى الفكرية التي يتخبطون فيها جراء الخلط الحاصل في الموروث الفكري الإسلامي لدينا".

ويضيف منددا بالعلماء دون استثناء "أما السفهاء، جمع مفردها سفيه، وهو الطائش المتسرع الذي اجتمعت فيه نقيصتان: غياب الحلم وذهاب العلم... فهؤلاء ابتلاهم الله بحب الدنيا وعشق الشهرة وتقديس الآباء وتراثهم ... يأكلون خبز السلطان ويضربون بسيفه كل من تسول له نفسه الخروج عن طاعتهم وطاعة سلطانهم، يقرأون كتاب الله فلا يفهمونه، وإن فهموه لا يعملون به، وإن عملوا لا يحسنون العمل. يكفرون عباد الله على المنابر ويتهمونهم بالعمالة دون بينة. ويقدسون أولي الأمر بمنحهم شرعية سلطوية من خلال فتاويهم لإضفاء الصدقية على تصرفاتهم القمعية، باستعمال الأحاديث النبوية السياسية مثل: (اسمع وأطع للأمير ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك) لتبرير الاستبداد وقمع الناس. وسمعنا هذا الحديث وأمثاله في أكثر من بلد عربي لمواجهة مطالب الناس للحرية والكرامة. هؤلاء ما كانوا ليفقهوا قولنا

لأنهم هم الذين قال الله عز وجل عنهم في محكم تنزيله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7]"[493].

تعقيب ومناقشة

أولاً: هذا حكم بالجملة على علماء الدين، ووضع الجميع في سلة واحدة، علماً أن علماء الدين كبقية فئات المجتمع العربي؛ انقسموا إزاء الربيع العربي، فمنهم من كان في صف السلطة، ومنهم من كان في صف الثورات والشعوب.

ثانياً: موضوع الربيع العربي هو موضوع سياسي بامتياز، ولا بأس بموقفه وانحيازه للشعب العربي ضد الطغاة والجلادين، ولكن لا ينبغي للدكتور شحرور أن يعزف عليه ليستدر تعاطف الناس معه، ويبغض إليهم العلماء، فخلاف العلماء معه في طريقته ومنهجه في التعاطي مع الكتاب والسنة وعلومهما، وهو ليس خلافاً سياسياً في الأصل، وتحويله إلى خلاف سياسي هو حرف للبوصلة عن مسارها الحقيقي.

ثالثاً: كان على الدكتور شحرور أن يحترم الرأي الآخر، لا أن يأتي بآية نزلت وصفاً للمنافقين فيخرجها من سياقها، ويطلقها على ورثة الأنبياء لأنهم خالفوه في منهجه.

رابعاً: حديث (اسمع وأطع للأمير ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك)[494]، الذي ذكره الدكتور شحرور ولم يذكر من رواه؛ المقصود به عدم الخروج بالسيف على الحاكم حالة وقوع الظلم منه، لأن كل مظلوم لو خرج بالسيف لتحول المجتمع إلى غابة! ولكن لا يمنع هذا من أن يُطالبَ المظلومُ بحقه في المحاكم، وأن يقول كلمة الحق للحاكم، وأن ينصره الناس ليأخذ حقه، لا أنْ يخنع ويركع.

ويعضد هذا الذي قلناه حديث: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) قيل: كيف أنصره ظالماً؟ قال: (تحجزه عن الظلم؛ فإنَّ ذلك نصرُه)[495]. وحاشا للسنة النبوية أن تأمر بتضييع حقوق الناس وقبولهم للظلم، فهذا

(493) - السنة الرسولية والسنة النبوية، ص(204-205).

(494) - رواه مسلم عن حذيفة بنحو هذا اللفظ، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (3/1481).

(495) - رواه أحمد والبخاري والترمذي عن أنس، وروى مسلم معناه عن جابر، انظر: فيض القدير، للمناوي، (3/58-59).

افتراء ناشئ عن خلل في المنهج، وهو أخذ حديث بمفرده دون النظر إلى بقية الأحاديث الواردة في الباب نفسه.

خامساً: في مرحلة ما، ربما كان الدكتور شحرور نفسه هو من المطبلين للسلطان، وإلا فما معنى قوله: "لنضرب الآن مثالاً على ذلك: نقول: إن تعيين زيد بن عمرو رئيساً لجامعة دمشق هو من أمر السيد رئيس الجمهورية، أي لا بد ليصبح زيد بن عمرو رئيساً لجامعة دمشق من مرسوم يصدره السيد رئيس الجمهورية..."[496].

وكان يمكنه أن يقول أصدر الأمير أمراً بكذا، على طريقة النحاة واللغويين القدامى، ولكن ذكره لرئيس الجمهورية، ورئيس الجامعة التي كان يعمل فيها، ضمن كتاب يدور حول القرآن قد يكون فيه ما فيه!

ولما رأى الدكتور شحرور العالم كله يحارب الإرهاب، لما ارتكبه الإرهاب من جرائم يندى لها جبين الإنسانية، والإسلام والعروبة والأخلاق براء من الإرهاب وأهله، بل هم الضحية الأولى للإرهاب ... انتهز الموقف وركب الموجة ووضع كتابه (تجفيف منابع الإرهاب) وقدم نفسه رمزاً للاعتدال، في وقت يُسفه فيه علماءَ المسلمين وفقهاءهم، وحكامهم، وتاريخهم، وجهادهم، وشهداءهم... وإلى الله المشتكى!

المسألة الخامسة: الموقف من الحكام المسلمين

يرى الدكتور شحرور في حكام المسلمين "منذ ضعف الخلافة العباسية المدنية، ابتداء من عهد المعتصم والمتوكل" مجموعة فراعنة وقوارين، لا شرعية لهم، وكان دور الفقهاء إخضاع الناس لسلطتهم العسكرية، يقول: "لقد أخذ الحاكم في البلاد العربية والإسلامية **دور فرعون وقارون معاً، لأنه أولاً حاكم مستبد، وثانياً لأن كل أموال الدولة تحت تصرفه،** فكان أسوأ نموذج لاتحاد فرعون وقارون الريعي، الذي يجمع الكنوز ولا ينتج شيئاً، ورأسماله السلطة والعسكر في شخص واحد. ومنذ ضعف الخلافة العباسية المدنية، ابتداء من عهد المعتصم والمتوكل، انتقلت السلطة إلى العسكر مباشرة، فأصبحوا الحكام الحقيقيين لكل البلاد العربية والإسلامية، وتحولت الخلافة إلى منصب شكلي صرف يدعو إلى الرثاء. وأصبح لكل بلد

(496) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (109).

أميرها الخاص، هو فرعونها وهو قارونها، وكان الهامانات يبررون لهؤلاء الفراعنة والقوارين كل تصرفاتهم، حتى أصبحت الطاعة الشرعية واجبة لذي الشوكة، أي كل من استلم السلطة بالقوة طاعته واجبة. وصار ذلك جزءاً من الفقه الإسلامي"[497].

تعقيب ومناقشة

وهذا كلام عام اختلط فيه الحابل بالنابل، **واستعارة لقب الفراعنة لحكام المسلمين جميعهم فيه تلبيس على القارئ، وكأنهم قد خرجوا من الملة، وفيه تبرير للخروج عليهم، وكل هذا بأحكام جملية لا دليل عليها،** وليس ثمة تشويه للإسلام والمسلمين والتاريخ الإسلامي والمجتمعات الإسلامية أكثر من هذا، وهو ككلام الكهان، فيه كلمة صدق واحدة، ممزوجة بتسع وتسعين كذبة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

***

رأي الدكتور شحرور في العالم العربي الآن وحكامه

يقول: "لقد كان دور الهامان والمتصوفة ولا زال، صلة الوصل بين فرعون وقارون من جهة، وبين الناس من جهة أخرى، بدعوة الناس إلى الرضا بأوضاعهم، وإيجاد المصالحة الدائمة بينهم وبين فراعنتهم وقوارينهم ... **والعالم العربي الآن عالم ذو إنتاج يقل كثيراً عن إمكانياته الطبيعية والبشرية، عالم اندمج فراعنته بقوارينه،** لذا لا نرى أثراً إيجابياً يذكر للبرجوازية الوطنية المنتجة غير الريعية"[498].

ويقول الدكتور محمد شحرور أيضاً واصفاً المجتمع العربي بأنه مجتمع العبودية، يقول: "الحرية حتى هذه الساعة وعلى مر عصور التاريخ ليس لها وجود في الوعي الجمعي العربي والإسلامي. هناك سببان: الأول معرفي بحت، والثاني سياسي. فالسبب المعرفي هو أن كلمة الحرية لم ترد في كتاب الله إطلاقاً، بل كل ما ورد في كتاب الله عن الحرية هو أنها ضد الرق... وإذا انتقلنا إلى الحديث النبوي فنجد فيه كلمة العتق وهو معنى مقابل للرق، ولا نجد أي شيء عن الحرية، بل نجد فيه عكس ذلك كحديث حذيفة بن اليمان الذي يقول في آخره (اسمع وأطع الأمير ولو ضرب ظهرك وأخذ مالك) ... والأدبيات الإسلامية التراثية

(497) - في الدولة والمجتمع، ص (259).

(498) - المرجع السابق، ص (263).

وضعت طاعة أولي الأمر مع طاعة الله والرسول. وأبرزت مفهوماً تاريخياً مشوهاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهكذا نجد أن الجانب المعرفي للحرية مفقود في الأدبيات مما يؤكد أن الحرية كقيمة ضعيفة في الوجدان العربي الإسلامي، هذا إذا كانت موجودة في الأصل. وهذا يؤكد أننا بحاجة إلى إبداع نظري حديث لتأصيل الحرية في هذا الوجدان، لأن الحرية في أدبياتنا التراثية لم ترد إلا بمعناها ضد الرق فقط، ولم تتحدث أبداً عن الحريات الاجتماعية والسياسية وما شابه ذلك. وهو السبب الأول الذي تم فيه ترسيخ مفاهيم الاستبداد، والمؤسسة الوحيدة التي وصلتنا سالمة تاريخياً هي مؤسسة الاستبداد وعلى رأسها الاستبداد السياسي (فرعون) يتبعها مؤسسة الاستبداد الديني (هامان)" [499].

تعقيب ومناقشة

أولاً: نقول له: نعم العالم العربي. كما أكثر دول العالم. فيه فساد، ولكن فيه إيجابيات أيضاً، نسأل الله تعالى أن يصلح أحواله، ولكننا يجب أن لا نكفر أحداً، ولا نطلق أوصاف الكفر على المسلمين باستعارة ألفاظ مثل: فرعون، وقارون، وهامان، لنلمز بها الحكام والمسئولين بشكل عام، فالحكام كما المحكومين ليسوا سواء، فيهم الصالح والطالح.

ونقول في هذا الصدد: إنه لا بد لنا من أن نصلح أنفسنا ومجتمعاتنا بالرفق، من دون عنف ولا غلظة، ودعوات التغيير يجب أن تسير وفق أطر قانونية تجنباً للفوضى الاجتماعية، نسأل الله الهداية لنا، وللناس جميعاً، والاعتصام بكتابه عملاً بقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 103-104].

(499) - انظر: الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور، مفهوم الحرية في الإسلام، على الرابط:
https://shahrour.org/?p=1391

ثانياً: قيمة الحرية وإن لم ترد لفظاً في كتاب الله تعالى، لكنها من أعظم القيم الإسلامية التي عززها القرآن والحديث النبوي، **وهنا تكمن أهمية الترادف وتعدد طرائق التعبير في اللغة العربية، فعدم وجود اللفظ لا يقتضي عدم وجود معناه بلفظ رديف آخر.**

وإحساس العرب بالحرية ونفورهم من الظلم والاستبداد، والخنوع والاستعباد، جبلة فيهم، ولذلك كانوا يأنفون من وجود سلطة للدولة فوقهم تقيد حريتهم في الجاهلية، وهذا شعور قائم بأنفسهم إلى قيام الساعة، وذلك على الرغم من عمليات التهجين والتركيع التي مرت بها مجتمعاتهم عبر التاريخ كله!. ولما جاء الإسلام زادهم نزعة نحو الحرية، وذلك حين حرر العرب من العبودية للأصنام والطاغوت، فما عادوا يخضعون إلا لله الواحد القهار.

والأعراب منهم أشد توقاً للحرية من سكان المدن، ولعل ذلك بسبب نشأتهم وعيشهم في الصحراء التي لا تعرف القيود ولا الحدود، وحول هذا الموضوع يقول غوستاف لوبون: "إن الأعراب من سكان الجزيرة العرب وسورية وإفريقية يحبون الحرية حباً جماً لا يقدر الأوربي أن يتصوره، وهم يزدرون أبناء المدن ويعدونهم من الأرقاء لذلك، ويتضمن الارتباط في الأرض عندهم معنى توديع الحرية والخضوع لسيد، **ويرى الأعراب الذين لا يملكون سوى حريتهم أن هذه الحرية أغلى شيء،** وقد حافظوا عليها بتوالي الأجيال"(500).

ثالثاً: والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو سيد الأحرار، وخير من دعا لتحرير الناس من العبودية بكافة أشكالها؛ لتكون خالصة فقط لله الواحد الأحد، ويكفي أنه سوى بين العبيد وأسيادهم في شعائر دينه، ولم يستجب لزعماء قريش بطرد العبيد من مجلسه حتى يؤمنوا، ونزل عليه القرآن يؤكد ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 52-53].

فاتهام سنته صلى الله عليه وسلم بأنها ضد الحرية كذب فاضح.

(500) - حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص (73).

رابعاً: في تشبيه الحكام بفرعون والعلماء بهامان نبرة تكفيرية واضحة! فلا يصح أن تشبه كل حاكم مسلم بدر منه ظلم، بفرعون الذي أعلن الربوبية جهاراً نهاراً، وهمَّ بقتل نبي الله موسى عليه السلام... كما لا يصح تشبيه العلماء جميعاً بهامان...

لا شك بأن هنالك مآخذ وملاحظات على المؤسسة الدينية، ولكن هذا الكلام الذي يسوقه الدكتور شحرور في تشبيهها بهامان مبالغ فيه، وقد يبعث على التطرف والعنف والإرهاب، وذلك لأن النقد العنيف واللوم الشديد والتمرد على المؤسسة الدينية التقليدية: هو الذي ولَّدَ العنف والإرهاب، حيث صار حملة الشهادات الجامعية من: أطباء، ومهندسين، ومدرسين، وغيرهم، يتركون أعمالهم، وينخرطون في أعمال الإفتاء، بعد أن فقدوا الثقة بالعلماء، فتجدهم يفتون ويقضون وينفذون! وانهارت معظم إنجازات الدول العربية في مرحلة بعد الاستقلال، ووقع الناس في حروب داخلية أضعفت الحاكم والمحكوم، وأسعدت المتربصين بالأمة من الأعداء والدخلاء!

لا ننكر بأن المؤسسة الدينية التقليدية مقصرة، وهي بحاجة إلى إصلاح، شأنها في ذلك شأن بقية المؤسسات الرسمية والشعبية، لكن يجب أن لا نبالغ في ذمها وتثوير الناس ضدها، فهذا يؤدي إلى الفوضى، لذا يجب احترام المؤسسة الدينية، كما يجب عليها أن تكون أبوية حيادية، تُصلح بين الحاكم والمحكوم، ولا تنحاز لفئة ضد أخرى، عملاً بقوله تعالى: (فأصلحوا بينهما).

***

المبحث السابع: من اجتهادات الدكتور شحرور

وفيه مسائل عدة:

المسألة الأولى: في العقيدة

وصف الدكتور شحرور الله عز وجل بالحرية دون الديمقراطية، تعالى الله عن ذلك، يقول: "الديمقراطية: هي ممارسة الحرية من قبل مجموعة من الناس ضمن علاقات معينة، وفقاً لمرجعية معرفية وأخلاقية وجمالية وعرفية. فنقول: إن الله حر، ولكنه غير ديموقراطي، لأن ديمقراطيته تتطلب آلهة مثله لكي يمارس حريته بالاتفاق معها ضمن مرجعية ما"[501].

والحقُّ أنه لا ينبغي وصف الله إلا بما وصف به نفسه، قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16]، وأما وصف الحر فهو نقيض لوصف العبد، وهما وصفان للخلق دون الخالق، لأن الحر قد يصبح عبداً إذا استُرِقَّ بالحرب ونحوها، والعبد قد يصبح حراً بالعتق ونحوه، فهما صفتان قابلتان للتغيير، **والله تعالى فرد صمد، لا يتبدل ولا يتغير، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله،** فمن هذا الذي يستطيع أن يعطيه صفة الحرية أو ينزعها عنه؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً!.

والديمقراطية التي فتن بها الناس اليوم لا ينبغي أن تكون وحدها مقياساً للخير، فالمقياس هو العدل، والله من أسمائه العدل، وأما الديمقراطية برغم إيجابياتها الكثيرة، فهي تخضع للهوى، والابتزاز، وشراء الأصوات، وتسلط أرباب النفوذ، وقرار الأغلبية الذي ربما كان مضراً بمصالح الأقلية.

بيد أن الإسلام هو على عكس ذلك، حيث يريد أهله الخير للجميع، بل لقد قاتلوا الطغاة مضحين بدمائهم وأموالهم من أجل أن ينعم الناس بالخير الذي ينعم به المسلمون في ظل دين بارئهم عز وجل، في حين أن بعض الأنظمة الديمقراطية تستعين بالديكتاتوريين في مناطق كثيرة من العالم حماية لمصالحها، غير عابئة بصرخات الشعوب، واستغاثات الأرامل والأيتام، من فتك هؤلاء!.

***

(501) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (438).

المسألة الثانية في الفكر الإسلامي: معنى حاكمية الله تعالى

يشرح الدكتور شحرور مصطلح حاكمية الله، فيقول: "ولكي يطمئن الله المؤمنين بأنه وليهم، وأن الذي يؤمن بالطغيان له أولياء من دون الله، فقد استعمل مصطلح الكافرين في قوله: (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) والكفر هنا، كفر بالحرية. ثم أتبع ذلك بمثال مهم جداً، جاء بعد قوله تعالى: (ألم تر ..) الذي يربط المثال بالموضوعين قبله، الطغيان والإكراه في الدين، وذلك ليؤكد أن أشد أنواع الطغيان وأبرزها وضوحاً هو الطغيان السلطوي، الذي تمارس فيه السلطة الطغيان العقائدي، فيقود بالضرورة إلى إلغاء حرية الاختيار، الذي يؤدي بالضرورة أيضاً إلى إلغاء الشورى، وأعلى مستوى لهذه الظاهرة هو المستوى السلطوي السياسي، لذا جاء المثال سلطوياً بحتاً. في قوله تعالى: (أن آته الله الملك ..) فالطغيان السلطوي، كما عند فرعون، يقود بالضرورة إلى: 1. طلب الطاعة المطلقة (ما علمت لكم من إله غيري). 2. الملكية المطلقة لمقدرات البلد والناس (أنا ربكم الأعلى). 3. الفردية المطلقة (لا يشرك في حكمه أحداً). 4. التصرف المطلق (فعال لما يريد). 5. علوه عن المحاسبة والمساءلة (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون). فقد نسب تعالى هذه الصفات إلى نفسه، ونفاها عن غيره نفياً قاطعاً، ليعلمنا أن معنى (لا إله إلا الله) ليست حاكمية الله في كل صغيرة وكبيرة من حياة الناس، التي تؤدي بالضرورة إلى الطغيان الفردي أو الجماعي، ولكنها تعني أنه لا طاعة مطلقة لغير الله كائناً من كان، وأنه لا ملكية مطلقة لمقدرات العباد والبلاد لغير الله كائناً من كان، وتعني أن الذي يفعل ما يريد هو الله حصراً، أما غير الله فيخضع للحساب والمساءلة كائناً من كان. وبما أن فرعون تجاوز حده فادعى لنفسه هذه الصفات التي تخص الله تعالى وحده، والتي أطلقت عليه اسم الظاهرة الفرعونية، فقد قال الله لموسى عندما أرسله إلى فرعون (اذهب إلى فرعون إنه طغى) . طه 24، النازعات 17، . (قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) . طه 45، وجاء الطغيان في الخطاب إلى موسى، وإلى موسى وهارون معاً، ليبين أن مكافحة الطغيان من مهمات الرسالة، ومن مهمات النبوة أيضاً، وأن السكوت عن الطغيان كفر بالحرية، وكفر بـ (لا إكراه في الدين). أما رد فعل الطغاة في الحياة الدنيا، عندما يتم تحديهم في ربوبيتهم وألوهيتهم، فهو زيادة الطغيان، كما في قوله تعالى: (.. وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً، فلا تأس على

القوم الكافرين) . المائدة 68 . ولهذا فإن الله لا يهديهم، ويستهزئ بهم، ويمدهم في طغيانهم، لأنهم نسبوا صفات الله الخمس المذكورة أعلاه إلى أنفسهم، وأنكروا الإيمان بالله واليوم الآخر"(502).

ويضيف: "فإذا فهمنا أن حاكمية الله، هي في عدم نسب هذه الصفات الخمس لغير الله كائناً من كان، نكون قد وضعنا أيدينا على النقطة الجوهر في الطروحات السياسية، أما إذا فهمنا أن حاكمية الله تعني حجاب المرأة، والسواك، ولبس الجلابية، ومنع الموسيقى والغناء، وعمل المرأة، وأمرنا أو منعنا هذه الأمور تحت شعار حاكمية الله، وفرضناها على الناس بحجة أن الله سخرنا لذلك، وأننا نفعله ابتغاء مرضاته، نكون قد وقعنا في فخ الطاغوت. فحاكمية الله هذه، تقود بالضرورة إلى الإكراه، وإلى سلب حرية الاختيار من الناس"(503).

ويضيف: "إن طرح حاكمية الله بالشكل الذي أوردته، وطرح الشرع الإسلامي كحدود لله، وكتشريع مدني إنساني ضمن حدود الله، سيقبل به حتى الملحد، وسيشعر بحرج شديد في الوقوف ضده، وسيخلق المناخ النظري العقائدي الإسلامي للديموقراطية والتعددية الحزبية وحرية التعبير عن الرأي"(504).

تعقيب ومناقشة

أولاً: ما ذكره عند قوله تعالى: (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) وهو قوله: "والكفر هنا، كفر بالحرية".. هذا الكلام صرف للآية عن معناها الحقيقي، وسياقها لا يقتضي ذلك، فالإيمان بالله هو من جهة عبودية من وجه لخالق السماوات والأرض، ومن جهة أخرى حرية بالتحرر والفكاك من أغلال العبودية لغيره من شجر وحجر وتمثال وبشر. والمقصود بالكفر هنا الكفر بالطاغوت، أي بالآلهة والأرباب المزيفة، وهي كل ما عبد سوى الله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256]، فمن لم يكفر بالطاغوت صار الطاغوت وليه، يضله ويرديه، ولذلك قال تعالى في الآية التي تلي هذه الآية مباشرة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ

(502) - في الدولة والمجتمع، ص (349-351).

(503) - المرجع السابق، ص (351).

(504) - المرجع السابق، ص (355).

كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 257]. **فالكفر هو بالطاغوت، وليس بالحرية، وسيكون من مقتضى الإيمان بالطاغوت فقد العقل، والحرية، والكرامة الإنسانية، والقيم النبيلة.**

ثانياً: قوله: " فقد نسب تعالى هذه الصفات إلى نفسه، ونفاها عن غيره نفياً قاطعاً، ليعلمنا أن معنى (لا إله إلا الله) ليست حاكمية الله في كل صغيرة وكبيرة من حياة الناس، التي تؤدي بالضرورة إلى الطغيان الفردي أو الجماعي".

الصفات الخمسة التي ذكرها الدكتور شحرور هي من مقتضى حاكمية الله تعالى، وهي صفات صحيحة، ولكنها ليست شاملة لمقتضيات الحاكمية لله عز وجل كلها. **فمن مقتضى حاكمية الله تعالى: توحيده، وإفراده بالعبادة، وإفراده بالتشريع أيضاً.**

وقوله: " معنى (لا إله إلا الله) ليست حاكمية الله في كل صغيرة وكبيرة من حياة الناس". هذا كلام فيه تفصيل، فإذا كان يعني تنظيم أمور المدن والعمران والتعليم، فنعم، وإن كان يعني الأحوال الشخصية والحلال والحرام، فكلامه باطل، لأن الله سيحاسب على مثقال الذرة، وهذا يعني أنه سيتدخل في كل شيء نعمله، فإما نؤجر وإما أن نعاقب.

ثالثاً: قوله: " ليبين أن مكافحة الطغيان من مهمات الرسالة، ومن مهمات النبوة أيضاً، وأن السكوت عن الطغيان كفر بالحرية".

نعم إن مكافحة الطغيان من مهمات الرسالة، ولكن السكوت عليه ليس كفراً بالحرية وحدها، فقد يكون كفراً بالله إذا رضي الإنسان به، وقد يكون معذوراً إذا كان مؤمناً بالسر ولم تكن له طاقة بمقاومته، كما هو حال مؤمن آل فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: 28].

رابعاً: قوله: "أما إذا فهمنا أن حاكمية الله تعني حجاب المرأة، والسواك، ولبس الجلابية، ومنع الموسيقى والغناء ...". الأمور التي ذكرها ليست من جوهر العقيدة، ولكنها تتعلق بسلوك المؤمن، وهي أمور شرعية، فلا داعي لمحاربتها حتى لو لم تكن هي من جوهر الدين، والاعتقاد بها لا يعني أن المرء وقع في فخ الطاغوت. بسبب أن هذه الأمور تقود بالضرورة إلى الإكراه، وإلى سلب حرية الاختيار من الناس

كما يظن الدكتور شحرور، فالاختيار أساساً مكانه في القلب، وهذه الأشياء يعملها المسلم راضياً مرضياً، وما علمنا أن المسلمين عبر تاريخهم كله فرضوا لبس الجلابية، واستخدام السواك، ومنعوا المرأة من العمل كما يدعي! وبالنسبة للغناء والموسيقى فالكلام فيهما طويل، وفيه تفصيل، وبعض العلماء أباحوهما بشروط، وليست حاكمية الله أساساً تبحث عن مثل هذه الأولويات، فأولويات الشريعة وحاكمية الله منها هي حفظ الضروريات الخمس، وهي مقاصدُ التشريع الإسلامي، وأكثرُ الأشياء أهميةً في في حياةِ الإنسان، وهذه هي:(الدينُ والعقلُ والنفسُ والعرضُ والمالُ)[505]. وحفظُ الدين يكون بحراستهِ من الشركِ والبدع والخرافات.. وحفظُ العقلِ بحمايته من الخمرِ والمخدرات.. وحفظُ النفسِ بتحريم القتلِ والانتحار والإجهاضِ.. وحفظ العرض بتحريم الزنا والشذوذِ الجنسي والإباحية، وما يفضي إلى ذلك.. وحفظ المال بصونهِ من طرقِ الكسب غير المشروع، والإنفاقِ في المعاصي...

ولو لم تأتِ الشريعةُ إلا لحفظِ هذه المقاصدِ الخمسة لكفى بذلك مبرراً لاتباعها.

خامساً: قوله: "إن طرح حاكمية الله بالشكل الذي أوردته، وطرح الشرع الإسلامي كحدود لله، وكتشريع مدني إنساني ضمن حدود الله، سيقبل به حتى الملحد". هذا كلام غير صحيح، فالملحد حسم خياراته، واتخذ إلهه هواه، ولن يرضا بالشريعة مهما حاولت أن تعدل فيها لتلائم هواه، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان: 43].

***

(505)- قسم الإمام الشاطبي مقاصد الشريعة إلى:

ضروريات لابد منها لقيام مصالح الدين والدنيا وهي خمسة (حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، ... قالوا: إنها مراعاة في كل ملة).

حاجيات، يحتاجها الناس للتوسعة ورفع الضيق المؤدي إلى الحرج والمشقة، مثل الرخص في العبادات، وهي داخلة أيضاً في العادات، والمعاملات، والجنايات.

تحسينات، وهي الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات، ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق.

انظر: الموافقات، شرح عبد الله دراز، ص (222-223)، دار الكتب العلمية، بيرؤوت، 2009م.

المسألة الثالثة: تكفير المسلمين وأسلمة الكافرين

يقول الدكتور شحرور في مقال نشره على صفحته تحت عنوان: من هم أمة "لا إله إلا الله؟"[506]:

"اعتدنا كشعوب عربية "مسلمة" على اعتبار أن كل من لا يشاركنا إسلامنا هو "كافر بالله" ومصيره "جهنم وبئس المصير"، ونظرنا إلى الشعوب الأخرى بتناقض، ما بين شعور الكثيرين بالدونية تجاه الغربي "المتحضر"، وشعور بالفوقية تجاه غيره، لكن هذا لا يمنع أن كليهما سيحظى بعذاب الله وسخطه وسيجد نتيجة عمله في الآخرة "هباءً منثورا"، وإذا كانت الدول المتقدمة تنعم بالرخاء والسعادة فلأن الله "يمدهم في طغيانهم يعمهون"، و"لهم الدنيا ولنا الآخرة" لأننا أتباع "لا إله إلا الله"، ولأن الدنيا دار فانية والآخرة دار البقاء فنحن لا نطلب السعادة في الدنيا، ونرضى الشقاء فيها، ونسخر في قرارة أنفسنا من طموحهم وعلمهم، على أساس أن الله سخرهم لنا لينتجوا ونستهلك حصيلة علومهم. لكن نظرة فاحصة للتنزيل الحكيم تدحض كل هذه المسلمات، ما عدا أن من يتخذ من "لا إله إلا الله" شعاراً سيحظى برضى الله في الدنيا والآخرة، ونحن كأمة محمد (ص) رفعناه شعاراً لكننا لم نطبقه فعلاً، بل على العكس جعلنا لله شركاء في الوحدانية والثبات، فالله واحد وكل ماعداه متعدد، والله ثابت وكل ما عداه متغير، والتاريخ يسير إلى الأمام ونحن نريد أن نعيده إلى الوراء، وننتصر إلى الآبائية فنشرك به سبحانه، **والأنكى من هذا أن شركنا جماعي كمجتمعات لا كأفراد**، لذلك تأخذ مجتمعاتنا بشكل عام صبغة اللون الواحد فلا تقبل الآخر المختلف، لا دينياً ولا عقائدياً ولا رأي آخر ولا سواه، ويتكىء الاستبدادان الديني والسياسي أحدهما على الثاني، ليحولا المجتمع إلى قروي ذي شكل واحد، والقرى هالكة أو معذبة شئنا ذلك أم أبينا (وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً) (الإسراء 58)، فكل مجتمع أحادي متخلف يحمل بذور فنائه، في داخله أو من خارجه، وهذا قانون تاريخي، لن يتغير ولن يتبدل، ولا يحابي أحد، سواء دعونا الله حتى قيام الساعة، كما أنه لن يغير قانون تعاقب الليل والنهار، ولا قانون الجاذبية الأرضية بالصلاة والدعاء، لا سيما أنه منحنا بموجب نفخة الروح ما يمكننا من تسخير قوانين الوجود لخدمتنا عبر القضاء فيها، وقطعت الإنسانية أشواطاً في مجالات متعددة فأضاءت الليل بالكهرباء، واستفادت من قوانين الفيزياء لتوليد الطاقة، وغيرها من

(506) – انظر موقع الدكتور شحرور على الرابط:

http://shahrour.org/?p=14280

الأمثلة التي لا مجال لذكرها هنا، وكذلك استطاعت الوصول إلى نماذج من المجتمعات المدنية التي يتعايش فيها الناس على اختلافهم وتنوعهم وفق قانون يحكم حقوقهم وواجباتهم، وتحترم فيه اختلافاتهم، ومهمة الأنبياء والرسل كانت إلغاء الأحادية لغير الله تدريجياً (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشرينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ) (البقرة 213) وصولاً إلى عصر المدن الذي دشنه الرسول محمد (ص) بقفزة تاريخية ومعرفية نوعية، عندما أسس دولته في يثرب وأطلق عليها مسمى "المدينة" وفق تفاعل أول لما حمله من رسالة ونبوة، نقل من خلاله المجتمع إلى عصر المساواة، فوضع أسس إلغاء الرق، وتحرير المرأة ومساواتها بالرجل، وقبول الآخر المختلف على قاعدة رئيسية هي (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) (الكافرون 6). ولطالما طرح القراء سؤالاً هنا: "وماذا عن بني قريظة؟" فنقول إن صحت الحادثة هم قد نقضوا عهودهم، والرسول عاقبهم وفق شريعتهم أولاً ومنطق عصره ثانياً، فلا يتصيدن أحد مثل الحادثة ليجعلها حجة على الإسلام فيما يتغاضى عن إنجازات كبيرة لم تعرفها الإنسانية إلا منذ قرون فقط. فإذا نظرنا إلى المجتمعات المتقدمة اليوم نرى أنها تعيش في ظل "لا إله إلا الله" سواء لاحظت ذلك أم لم تلاحظ، فالحريات فيها مصانة، والقيم الأخلاقية أساس التعامل بين الناس، والقانون فوق الجميع، والتطور مستمر، وكل إنسان يتقرب إلى الله بالطريقة التي يراها مناسبة، وقد لا يؤمن أصلاً، لكن حسابه كفرد على الله في الآخرة(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة 62)، وهذه المجتمعات تتقدم علمياً ومعرفياً وتثبت جدارتها بالخلافة على الأرض، ولذلك يكافؤها الله في الدنيا جماعياً بالرفاهية والسعادة. بينما مجتمعات الثبات والأحادية ترزح تحت الطغيان وتقبل أحاديته وتستكين لها، فيدمرها شيئاً فشيئاً، ليعم البؤس على الأخضر واليابس، ويذهب الصالح والطالح دونما رحمة لأحد، ويكون هذا عقاباً جماعياً، لن يسلم منه الطغاة لو بعد حين. من هنا فإن مقولة "لهم الدنيا ولنا الآخرة" خاطئة، فالدنيا للمجتمعات التي تقبل التعددية وتنتشر فيها المساواة ولا تضع أحداً فوق المساءلة، والآخرة لمن عمل صالحاً من هؤلاء أو أولئك، أما الحل بالنسبة لنا كمجتمعات فهو في غرس التعددية في العقل الجمعي للناس بحيث يحافظوا عليها تطبيقاً لمشيئة الله في الاختلاف (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) (هود 118)".

تعقيب ومناقشة

أولاً: كأن الدكتور شحرور قد انتهى كاتباً تكفيرياً، وليس كاتباً إصلاحياً.

ثانياً: إن فتح الباب لأي شخص بأن يقول في الدين كل ما يعنُّ على باله سيخلق فوضى دينية، تدمر حياتنا الثقافية والاجتماعية.

ثالثاً: إن كل تطرف في اتجاه ما، سيسبب تطرفاً مضاداً له، وانتشار فكرٍ مثل فكر الدكتور شحرور عبر وسائل الإعلام التي يقول فيها ما يشاء، بدعوى التحرر والتطوير والقضاء على التطرف، سيسبب تطرفاً مضاداً، ويخلق مزيداً من الأزمات في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وذلك وفقاً لقانون نيوتن، وهو قانون معروف في علم الفيزياء، يقول القانون: "لكل فعلٍ ردُّ فعلٍ، يساويه في الشدة، ويعاكسه في الاتجاه".

إن القضاء على التطرف يكون بتشجيع الحوار الموضوعي والبحث العلمي وفتح المجال لأهل العلم والرأي كي يتصدوا له، فالعلماء هم ورثة الأنبياء، وهم حملة مشاعل الهداية والتنوير والاعتدال عبر التاريخ كله، **ولدينا في مرجعية الأزهر الشريف بمصر العزيزة، ومرجعية جامع الزيتونة بتونس الخضراء، ومرجعية علماء بلاد الحرمين الشريفين، ما يكفينا في جمع الأمة على البر والتقوى، والاعتدال والوحدة الإسلامية.**

رابعاً: إن الدكتور شحرور يقوم بقلب المفاهيم فيسمي الليل نهاراً، والنهار ليلاً، وقلب الحقائق من أخطر الأمور في حياة الناس.

خامساً: إننا أمة تقبل التعددية، بدليل أن سورة الفاتحة قسمت الناس ثلاثة أقسام: (أنعمت عليهم) وهم الذين عرفوا الحق واتبعوه، و(المغضوب عليهم) وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، و(الضالين) وهم الذين لم يعرفوا الحق ولم يتبعوه، **وهذا تقسيم حضاري، يقوم على المعرفة والسلوك، لا على العرق، أو الحدود الجغرافية، مما تعارف عليه الناس.**

وأما في الواقع فوجود دور العبادة لغير المسلمين والمنتشرة في كل بلاد المسلمين. ما عدا بلاد الحرمين الشريفين حيث جميع أهلها مسلمون. يدل هذا على قبول الآخر، وهذا شاهد من التاريخ والواقع. فلا حاجة للتنظير الأجوف والافتراء بأن المسلمين يرفضون الآخر.

سادساً: نحن لم نشرك بالله كأمة ولا كأفراد، وما قاله دكتور شحرور تنظير بارد!، فنحن أمة لسنا لوناً واحداً، بل فينا من كل الأقليات والأديان والألوان، ولسنا ثابتين! بل نتغير ونتفاعل في هذا العالم، شأننا

شأن غيرنا من البشر، أما تمسكنا بالعقيدة الإسلامية، فلا يعني أننا نشارك الله بالثبات، وكذلك رفضنا للردة لا يعني أننا لا نقبل التغير، ولو سألت كل صاحب دين في هذا العالم أن يترك دينه لرفض ذلك، **فالأديان جزء من هوية وثقافة الأفراد والمجتمعات الإنسانية**، ولا صلة للتمسك بها أو تركها بموضوع الشرك بالله كما يفهمه الدكتور شحرور.

سابعاً: إن من يظن بأن فكر الدكتور شحرور، سيكون بديلاً عن فكر التشدد أو المدارس الإسلامية التقليدية، أو سيكون نداً له، هو واهم، وذلك لأن دراسات الدكتور شحرور ليست قائمة على أسس سليمة، ومنهجية علمية مستقيمة، ومن تتبع كلامه، سيجد فيه تطرفاً مضاداً للمدارس الإسلامية التقليدية، وهو يحمل نفس رؤية أصحاب المشاريع الكبرى في نظرته إلى الحكام، وأنهم طواغيت، يقول: (بينما مجتمعات الثبات والأحادية ترزح تحت الطغيان وتقبل أحاديته وتستكين لها، فيدمرها شيئاً فشيئاً، ليعم البؤس على الأخضر واليابس، ويذهب الصالح والطالح دونما رحمة لأحد، ويكون هذا عقاباً جماعياً، لن يسلم منه الطغاة لو بعد حين).

فلا ينبغي التعويل على هذا الفكر والزغردة له، كبديل عن ما يسمونه فكر التكلس والتطرف، لأنه في النهاية سينقلب على المجتمع وثقافته، والأمة برمتها، كما انقلب قبله كثير من أصحاب الجماعات المتطرفة، الذين تربوا في مدارس بلادهم، وتحت أعين مجتمعهم، فبدلاً من أن يحملوا الورد ومشاريع الإصلاح، حملوا السيف ومشاريع الهدم والدم!.

إن تحصين الأمة والبلاد والعباد يكون بإشاعة أجواء من العدل والحريات والتسامح، ونبذ الكيد والحقد والدسائس والكراهية من النفوس والمجتمعات، وينبغي ترك علماء الدين وأهل الفكر يتناقشون ويتشاورون ويتجادلون فيما بينهم، دون نصرة طرفٍ ضد آخر، وذلك كما فعل المأمون حين انتصر للمعتزلة، ثم جاء المتوكل فيما بعد وانتصر للسنة، وكان جديراً بأولئك الخلفاء أن ينأوا بأنفسهم عن لجة الخصام والجدل العلمي!، فالأفكار لا تقوم بالسيف، ولا تُقاوم بالسيف، ولئن قامت به فستموت بعد حين!

***

المسألة الرابعة: عدم التمييز بين الجهاد والإرهاب والتزكية

أولاً: في البداية نذكر بأن الإسلام نظام كامل: بمعنى أنه: نظام روحي وتعبدي وسياسي واقتصادي واجتماعي ورياضي، فهو كل كامل متكامل، وأحكامه تشمل الدين والدولة والحياة، والسلم والحرب مما يعتري الحياة البشرية في أطوار مختلفة، وقد نظم الإسلام شئونهما.

وعليه فالجهاد في سبيل الله تعالى هو نظام الدفاع، وشئون الأمن العام، والحرب وتوابعها في النظام الإسلامي، وهو منوط بولي الأمر (الحاكم)، وليس من شئون الأفراد يقومون به كالصلاة مثلاً.

والجهاد يختلف عن الإرهاب الذي هو ترويع الآمنين وسفك دمائهم بغير حق، فالإرهاب عمل المجرمين السفاحين، وحكم أصحابه القتل، لأنهم محاربون للمجتمع والسلم الاجتماعي، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 33].

ولكل دولة نظام دفاعي خاص بها، وهو أمر تحكمه النظم والمبادئ والمعايير والضرورات والأخطار المحيطة بكل دولة.

ثانياً: يقرر الدكتور شحرور بأن الدفاع عن النفس حق مشروع، يقول: "إننا نفهم أن المدافع عن وطنه وأرضه وماله وأهله وعقيدته في وجه عدوان يقع على واحدة منها، هو دفاع مشروع سواء قتل أم لم يقتل، ونفهم أن الخارج للدعوة إلى دين الله – رجلاً كان أم امرأة – له الجنة سواء قتل أم لم يقتل شرط أن تكون دعوته هذه في سبيل الله. وأن الساعي في طلب العلم أو في رزقه ورزق عياله مأجور سواء قتل أم لم يقتل، شرط أن يكون سعيه هذا في سبيل الله، وأن المرأة في حيضها ونفاسها لها أجر سواء ماتت أثناء الحيض والنفاس أم لم تمت، وأن الرافض للظلم سواء وقع عليه أم على غيره، والمدافع عن حرية الاختيار في وجه القمع والإكراه، له الجنة قتل أم لم يقتل، شرط أن يكون رفضه ودفاعه في سبيل الله"(507).

ثالثاً: وبعد هذا التقرير يمزج الدكتور شحرور بين من يدافع عن أرضه كحماس . التي تعتبرها بعض الدول العظمى منظمة إرهابية، في حين تعتبرها الجمهورية العربية السورية حركة مقاومة، وكذلك تعتبرها

(507) – تجفيف منابع الإرهاب، ص (71).

كثير من الدول العربية والأجنبية. وبين من يعتدي على الآخرين حول العالم في عمليات إرهابية كالقاعدة، وهو تناقض صارخ مع ما قرره أولاً، وخلط للأمور وتلبيس بعضها ببعض، يقول: "ونسأل الآن منظمة مثل حماس أو القاعدة: هل إذا طلبنا منكم أن تدعوا شهداءكم تفهمون أننا نسأل أن تدعوا الشيخ أحمد ياسين والدكتور الرنتيسي، وأن تدعوا منفذي ما أطلقتم عليه غزوة نيويورك؟(4) وإن قلنا لكم أن تستشهدوا رجلين، تفهمون إرسال رجلين في عملية انتحارية والتي تسمونها استشهادية؟ ما هذا الافتراء على الله ورسوله؟؟؟"[508].

رابعاً: ويتكئ الدكتور شحرور على حديث ضعيف. مع أنه لا يعترف بالسنة وحياً!. ليقرر من خلاله بأن الجهاد جهادين: جهاد النفس وجهاد العدو[509]، ثم يحمل بعد ذلك على الفقهاء الذين حصروا الجهاد بقتال العدو، يقول: "لقد رأينا كيف قسّم النبي (ص) الجهاد إلى جهادين، في رواية صاحب كنز العمال، جهاد أصغر هو القتال، وجهاد أكبر هو جهاد النفس ومغالبة الهوى. ورأينا كيف جرى طمس الجهاد الأكبر عند السادة الفقهاء حين وضعوا للجهاد معنى اصطلاحياً انتهوا معه إلى القول: الجهاد في الاصطلاح يعني: قتال الكفار لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله (انظر شرح القسطلاني لصحيح البخاري ج 5 ص 30) وإلى القول: إنما الجهاد هو القتال في سبيل الله. الذي نجده مكرراً ومكرساً في جميع مؤلفاتهم تحت عنوان: الدعوة إلى الإسلام واجبة بالجهاد الابتدائي. فكانت النتيجة أن تحول الجهاد إلى غزو والقتال إلى قتل بعد ولادة جهاد جديد هو الجهاد الابتدائي وهو يعني أن يبدأ المسلمون بالقتال وهذا ما فعله تنظيم القاعدة في ما يسميها غزوة نيويورك، إذ مارس الجهاد الابتدائي حيث بدأ بالهجوم على اليهود والنصارى حسب ما يزعم. وأصبح الجهاد عنده غزواً. إنه من العجيب أن يسمي أصحاب التراث حروب الرسول بأنها غزوات، مع أنها كانت كلها دفاعية، حتى غزوة تبوك. والغزو دائماً له معنى سلبي، ولا يحمل أي معنى إيجابي. فنقول إن هتلر غزا أوربا ولا نقول حارب. ونقول فرنسا قاومت الغزو الهتلري، ونفهم لماذا سميت غزوات لأن القبائل العربية في الجاهلية كانت تغزو بعضها بعضاً، فارتبطت الحرب أو العنف عندهم بالغزو"[510].

---

(508) – المرجع السابق، ص (72).

(509) – في الحديث الذي رواه الخطابي والديلمي والبيهقي في كتاب الزهد عن جابر: (قدمتم خيرَ مَقدمٍ، وقدمتم من الجهاد الأصغرِ إلى الجهاد الأكبرِ: مجاهدةِ العبد هواه). انظر: الجامع الصغير، للسيوطي، (4/511).

(510) – تجفيف منابع الإرهاب، ص (76).

ولا شك أن تسمية جهاد النفس جهاد هو للتشابه بينها بين العدو، فالنفس أمارة بالسوء، فينبغي جهادها أي بذل الجهد في مقاومة أهوائها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: 40-41]. وكل ما فيه بذل جهد فهو جهاد بالمعنى اللغوي، فإذا كان في طاعة الله فهو جهاد شرعي، وإذا كان في غير ذلك فهو جهاد العصاة، كما قال جميل:

يقولون جاهد يا جميل بغزوةٍ

وأي جهاد غيرهن أريـد

وأما الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام؛ فهو جهاد العدو، والمحتل الغاصب، ونحو ذلك.

(تنبيه)

يلاحظ هنا تناقض الدكتور شحرور، فقد سبق أن مر معنا قوله: [في المبحث السادس من هذا الفصل: الموقف من السلفية والفرق الإسلامية، عند المسألة الثالثة]: "وقد لعب التصوف دوراً هاماً في تدجين الناس وتهيئتهم لقبول كل شيء، وتحول الجهاد إلى جهاد النفس ضد الهوى..."[511].

فهو هناك كان يرفض اعتبار جهاد الهوى جهاداً، وهنا عاد فاعتبره جهاداً! ومن كثر كلامُه كثر لغطه!.

خامساً: ويلاحظ هنا خلطه الجهاد بالإرهاب! فقد أدانت الدول العربية والإسلامية والمنظمات الإسلامية والعلماء والمفتون جميعاً أحداث 11 سبتمبر، وهو يصر على أن يجعلها من ثمرات الجهاد، ويلصقها بالمسلمين، حيث قال: "فكانت النتيجة أن تحول الجهاد إلى غزو والقتال إلى قتل بعد ولادة جهاد جديد هو الجهاد الابتدائي وهو يعني أن يبدأ المسلمون بالقتال وهذا ما فعله تنظيم القاعدة في ما يسميها غزوة نيويورك"!.

وما فعله ما يسمى بتنظيم القاعدة منكر، لا هو جهاد، ولا علاقة له بالفقهاء وفقه الجهاد، كما أقر بذلك فقهاء الإسلام المعاصرون[512].

---

(511) - في الدولة والمجتمع، ص (259-260).

سادساً: ولكن خلط الأوراق ببعضها هو ديدن الدكتور شحرور! حيث انطلق بعد ذلك ليستنكر تسمية حروب الرسول صلى الله عليه وسلم بالغزوات، لأنها كلها دفاعية!! فقد قال: " إنه من العجيب أن يسمي أصحاب التراث حروب الرسول بأنها غزوات، مع أنها كانت كلها دفاعية، حتى غزوة تبوك. والغزو دائماً له معنى سلبي".

سابعاً: يرى الدكتور شحرور أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ حين عقد الشورى مع ولاته الأربعة بعد كتاب الأشتر إليه، وهم: معاوية، وابن أبي سرح، وسعيد بن العاص، وعبد الله بين عامر، قد مال إلى رأي الأخير، ومنه جاء مفهوم الجهاد والشهيد، يقول: "يبقى أخيراً أن نقف عند رأي عبد الله بن عامر والي البصرة، الذي يتلخص في ثلاث نقاط: 1. قطع الأعطيات عن المعارضين بحيث تشغلهم الفاقة عما هم فيه، وبحيث يدفعهم ضيق العيش إلى الانخراط في صفوف المرتزقة طمعاً بالغنائم والمسلوبات. 2. الرمي بهم إلى الثغور، أي تسييرهم لقتال الأعداء في الخطوط الأمامية، وهذا ما أشار إليه الأشتر في رسالته إلى

---

(512) – جاء في موقع سبق: واس- الرياض :أكدت هيئة كبار العلماء، أن الإرهاب يُعَدّ جريمة نكراء، وظلماً وعدواناً تأباه الشريعة والفطرة بصُوَره وأشكاله كافة، ومرتكبه مستحق للعقوبات الزاجرة الرادعة، عملاً بنصوص الشريعة الإسلامية، ومقتضيات حفظ سلطانها، وتحريم الخروج على ولي الأمر. جاء ذلك في بيان أصدرته الهيئة اليوم، في ختام دورتها الثمانين التي عُقدت بمدينة الرياض؛ بدء من 19/ 11/ 1435هـ.

ومما جاء في البيان: "وصفت فيه الإرهاب باعتباره: جريمة تستهدف الإفساد بزعزعة الأمن والجناية على الأنفس والممتلكات الخاصة والعامة؛ كنسف المساكن والمدارس والمستشفيات والمصانع والجسور، ونسف الطائرات أو خطفها، والموارد العامة للدولة كأنابيب النفط والغاز، ونحو ذلك من أعمال الإفساد والتخريب المحرمة شرعاً".

"والإرهاب بهذا التوصيف على النقيض من مقاصد هذا الدين العظيم الذي جاء رحمة للعالمين، ولما فيه صلاح البشر في العاجل والآجل؛ حيث جاءت شريعته بعمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها".

"هذا وإن الإرهاب يُعَرّض مصالح الأمة لأعظم الأخطار، ومن زعم أنه من الجهاد فهو جاهل ضال؛ فليس من الجهاد في سبيل الله في شيء، والإسلام بريء من هذا الفكر الضال المنحرف بما جره على بعض البلدان من سفك للدماء وتفجير للمساكن والمركبات والمرافق العامة والخاصة، وهو محض إفساد وإجرام تأباه الشريعة والفطرة كما في عموم قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: 204 – 206].

انظر نص البيان كاملاً في موقع سبق، 17 سبتمبر 2014، على الرابط:

https://sabq.org/iolgde

عثمان المذكورة آنفاً. وفكرة تسيير المعارضين إلى الخطوط الأمامية، على أمل أن يقتلوا هناك، فكرة شائعة عند العديد من الملوك والحكام. فبعض المفسرين الإسلاميين اعتمد في تفسيره رواية توراتية تزعم أن داود (ع) أرسل أوربا قائد جيوشه إلى الخطوط الأمامية مع الأعداء ليقتل، كي يستولي داود بعده على زوجته الجميلة. وسواء صحت الرواية أم لم تصح (والأرجح عندنا أنها مفتراة) فالفكرة كانت موجودة شائعة كما ذكرنا. 3. التجمير في المغازي. والتجمير – كما يقول الزمخشري في أساس البلاغة – هو حبس الأمير الغزاة في الثغر وفي نحر العدو فلا يقتلهم. ويبدو أن رأي عبد الله بن عامر، بنقاطه الثلاث، أصبح عقيدة سياسية أموية بدءاً من عثمان بن عفان وانتهاء بصقر قريش عبد الرحمن الداخل، مروراً بسلاطين الأسرة السفيانية وأمراء الأسرة المروانية، يستطيع المتأمل معها أن يفهم **كيف ولماذا تحول الجهاد – خدمة لهذه العقيدة السياسية – إلى غزو، وتحول الشهيد إلى عسكري يسقط في أرض المعركة دفاعاً عن النظام الحاكم، وتحولت الدعوة للهدى من حكمة وموعظة وحوار بالتي هي أحسن إلى حملات مسلحة لسلب الأموال ونهب الممتلكات وهتك الأعراض**، ولا علاقة لها بالمنهج الإلهي المتمثل بعبارة (في سبيل الله) لا من قريب ولا من بعيد وحتى يومنا هذا عندما تريد الدولة المستبدة إبعاد شخص ما لا تريد تصفيته جسدياً فإنها تعينه بالسلك الدبلوماسي ليعيش بعيداً في المنفى"(513).

وما قاله الدكتور شحرور هو افتراء على الجهاد والمجاهدين الفاتحين الأوائل، ويكفي هنا **أن نذكر كلمة لغوستاف لوبون يدحض فيها الشبهات حول الفاتحين العرب، يقول:** "وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصارهم، أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العربُ المغلوبينَ أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعضُ الأقوامِ النصرانيةِ الإسلامَ، واتخذوا العربيةَ لغةً لهم؛ **فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل**. وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عربَ الأندلس فضَّلَ هؤلاء القتلَ والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام. ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوبُ التي قهرت العرب مؤخراً، كالترك والمغول"(514).

(513) - تجفيف منابع الإرهاب، ص (82-83).

(514) - حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص (127-128).

ثامناً: ويعلن الدكتور شحرور أخيراً دعوته إلى تعطيل الجهاد وفق المفهوم الشرعي، وينفي أن يكون الشهيد هو شهيد المعركة، ساخراً من اتباع المسلمين لسلفهم الأول، ويصفهم بأنه غبار على أحذية السلف، ويشبه نفسه مع مخالفيه تشبيهاً ضمنياً بموقف سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه، يقول: "سيصيح بي عبدة التراث وأهله مستنكرين: أنت تدعو إلى تعطيل الجهاد وتركه. وسأجيب **بكل هدوء: نعم إنني أدعو إلى ترك وتعطيل الجهاد الفقهي الذي رفع رايته فقهاء عصور الاستبداد، وأدعو إلى ترك الجهاد العثماني الذي تحول إلى سنجق يهدد به الخليفة خصومه من الدول الأخرى**، لكنني أدعو بالمقابل إلى التمسك بالجهاد الذي أمر به الله ورسوله، وإلا فخبروني عن رجل يطالب بدفن زوجته في مقابر الشهداء لأنها توفيت بالنفاس، وعن زوجة تطالب بحصة زوجها من الامتيازات والمكاسب التي يغدقها الحكام على الشهداء لأنه مات في طلب رزقه ورزق عياله أو مات مبطونا، أيجوز عندكم أم لا يجوز؟. سيعود المستنكرون إلى الصياح إذ لا يتقنون سواه: ألا يسعك ما وسع الأمة على مدى ثلاثة عشر قرناً؟ وسأجيب مرة أخرى بكل هدوء: وهل وسع إبراهيم الخليل أن يعبد الأصنام وقد وسع ذلك قومه كلهم؟ المشكلة أنكم تعانون من عقدة نقص هي الدونية، وترون أنفسكم غباراً على أحذية السلف، أما نحن فقد كرّمنا تعالى بالسمع والبصر والفؤاد لنسمع ونرى ونفهم ولا نقبل أن نكون غباراً على حذاء أحد. والمشكلة أننا نستشهد على ما نقول بالله وبكتاب الله، وأنت تستشهدون على ما تقولون بالسيوطي وبالدهلوي وبابن عابدين، وشتان ما بين شهادة شهيدنا وشهادة شاهدكم، فالأولى حضورية قطعية والثانية غيابية ظنية، والظن – كما يقرر سبحانه في آية النجم 28 – لا يغني من الحق شيئاً"[515].

وما قاله الدكتور شحرور حول الجهاد والشهداء باطل بنصوص الكتاب والسنة، والإجماع، وشهادة المنصفين من المؤرخين، فهو يحرف معنى الجهاد والشهيد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: 10-13].

(515) – تجفيف منابع الإرهاب، ص (83).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. [التوبة: 111].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73].

والآيات كثيرة في هذا الباب وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة.

والدكتور شحرور إضافة لتشويهه للجهاد والشهادة في سبيل الله تعالى، هو أيضاً يشوه تاريخ الإسلام، ويفتري على الدولة الأموية(516) والفاتحين والخلفاء، وكلامه الباطل هذا لا يحتاج رداً، فقد قال المتنبي:

وليس يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهارُ إلى دليلِ

ويكفي بني أمية ما سطره شعراء العروبة في مجدها، وعلى رأسهم قصائد أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله تعالى!

***

(516) - يقول الدكتور علي الصلابي في كتابه: (الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار) نشر دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1426هـ/ 2005م. (12/1) الآتي: "إن من فضائل الدولة الأموية في عهد معاوية وعبد الملك وبنيه الوليد وسليمان الفتوحات الواسعة التي تمت على أيديهم والتي امتدت ديار الإسلام نتيجة ذلك بين الصين في الشرق وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا في الغرب وكان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى الجهاد ويشهدون القتال وكان الصحابة وكبار التابعين من ضمن تلك الجيوش، فحركة الفتوحات أشرفت عليها الدولة وتفاعل معها المجتمع الإسلامي بكافة ألوانه من العلماء والفقهاء والتجار والزهاد والعباد، وتحركت تلك الجيوش في المشارق والمغارب، كان الفاتحون لتلك الشعوب المترامية الأطراف قد جاؤوها بالعدل والإحسان ومطالب الروح ومطالب البدن، وجاءوا إليهم بدين الإسلام الذي يقرّر الإنسانية بمعناها الصحيح في هذه الأرض لذلك كان الإسلام سريع المدخل إلى نفوسهم، لطيف التخلل في الأفكار، قوي التأثير على الألباب والعقول وجاء الفاتحون لتلك الشعوب بالحقائق التي سعد بها أصحاب محمد وأسعدوا بها تلك الأمم... لقد كانت الفتوحات الكبرى في عهد معاوية والدولة الأموية دليلاً ملموساً على حيوية الأمة وتفاعلها مع دين الله وحرصها على هداية الشعوب.

المسألة الخامسة: أسلوب التغيير

قال الدكتور شحرور: "وعندما يضرب المستبد بالعنف فعلى الطرف الآخر الصبر وعدم الرد إذا كان لا يستطيع ذلك، تطبيقاً لآيات الجهاد وعدم إلقاء النفس بالتهلكة (البقرة 195، 88، 20 التوبة 41، الحجرات 15). إن خلق مثل هذا التيار سيقتضي عدداً من الضحايا (الشهداء) وكثيراً من التضحيات، ثم يأتي بعد ذلك العنف السياسي لتأسيس دولة تقوم على الشورى وحرية الإختيار. والمجموعة التي ستخلق هذا التيار، وتتحمل التضحيات، هي الطليعة، التي ستتحول مع تطور النضال والعمل إلى أحزاب. لهذا، لا يمكننا أن نطلق صفة الثورية على أي حزب أو طليعة، بالمفهوم المطروح أعلاه، إلا عندما تكون خارج السلطة، إذ لا يوجد في السلطة شيء اسمه حزب ثوري أو طليعة ثورية. وإذا وجد، كان فيه مقتل السلطة ذاتها، لأن الثورة والثورية ستحل محل الدستور والقانون، وسيحكمان الناس بدون استثناء. فالهدف الأساسي من الثورة أصلاً، ترسيخ دستور يضمن البنية الديموقراطية، وحرية التعبير، وحرية الأحزاب. والقانون يتم تشريعه من خلال المجالس الشورية، مع وجود سلطة أساسية رابعة مضمونه في الدستور، هي سلطة الصحافة (الرأي والرأي الآخر)، بالإضافة إلى السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية"[517].

تعقيب ومناقشة

أولاً: قول الدكتور شحرور: "وعندما يضرب المستبد بالعنف فعلى الطرف الآخر الصبر وعدم الرد إذا كان لا يستطيع ذلك". يلاحظ أنه اشترط الصبر وعدم الرد إذا لم يكن هنالك استطاعة، فهل إذا كانت هنالك استطاعة يجوز الرد؟.

ثانياً: قول الدكتور شحرور "إن خلق مثل هذا التيار سيقتضي عدداً من الضحايا (الشهداء) وكثيراً من التضحيات". هذا كلام صحيح، فالتضحية هي طريق الوصول للهدف، وكما قال شوقي:

وما نيلُ المطالبِ بالتمني

ولكنْ تُخذُ الدنيا غِلابـا

---

(517) - في الدولة والمجتمع، ص (355-356).

ثالثاً: قول الدكتور شحرور: "ثم يأتي بعد ذلك العنف السياسي لتأسيس دولة تقوم على الشورى وحرية الإختيار. والمجموعة التي ستخلق هذا التيار، وتتحمل التضحيات، هي الطليعة". هذا كلام يحتاج توضيح، ما هو القصد بعبارة "العنف السياسي"؟ وهل هو عنف من السلطة ضد ما سماه الطليعة؟ أم عنف متبادل؟ وهل العنف مشروع في التغيير؟.

نحن نعتقد أن هناك شرطين ينبغي أن يلتزم بهما دعاة الإصلاح والتغيير: **الأول: رفض عقلية الإقصاء والإلغاء، والتهميش والتكفير.**

والثاني: رفض أساليب العنف والإرهاب.

رابعاً: قول الدكتور شحرور: "إذ لا يوجد في السلطة شيء اسمه حزب ثوري أو طليعة ثورية. وإذا وجد، كان فيه مقتل السلطة ذاتها". هذا كلام صحيح، ورافعوا الرايات الثورية وهم في قمة السلطة مخادعون، يأكلون ولا يشبعون، ويستغلون الكلمات والشعارات الجميلة في نهب الثروات والاستمتاع بالملذات.

خامساً: قول الدكتور شحرور: "فالهدف الأساسي من الثورة أصلاً، ترسيخ دستور يضمن البنية الديموقراطية، وحرية التعبير، وحرية الأحزاب". هذا كلام من يطلب الدنيا بكفاحه، ويعشق الوصول إلى السلطة، والإسلام جوهر رسالته نشر التوحيد، سواء كنتَ في السلطة أم خارجها، ومن جملة أهدافه: نشر العدالة والمحبة والحرية والمساواة بين الناس بأي أسلوب أمكن ذلك.

***

المسألة السادسة: الروح

يرى الدكتور شحرور أن الروح لا علاقة لها بالحياة! يقول: "إن الظن بأن الروح هي سر الحياة هو الذي أبعد الناس عن المفهوم الحقيقي للروح والذي جاء في آيات الكتاب، فإذا كانت الروح هي سر الحياة فهذا يعني أن البقر والأفاعي والسمك وكل الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات لها روح! وهذا غير صحيح لأن الله سبحانه وتعالى نفخ الروح في آدم ولم يقل: إنه نفخ الروح في بقية المخلوقات. إن أزمة سوء فهم معنى الروح هي التي أوقعت المسلمين في شرك عدم البحث عن أصل الحياة وأصل الإنسان والأنواع على الأرض، ظناً منهم أن الروح سر الحياة، وهي من اختصاص رب العالمين. لذا لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن أصل الحياة، وذلك ناتج عن خطأ في فهم الآية: (ويسألونك عن الروح

قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) (الإسراء 85). علماً بأن آيات خلق البشر عندي هو العالم الكبير تشارلز داروين. فهل يبحث عن الحقيقة في أصل الإنسان. والقرآن أورد حقيقة أصل الإنسان، فيجب أن يتطابقا إن كان داروين على حق. وأعتقد أن نظريته في أصل البشر في هيكلها العام صحيحة لأنها تنطبق على تأويل آيات الخلق. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو ما معنى قوله تعالى: (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)؟؟ ولقد ظن الكثير أن الإجابة هي الروح أمر لا يخصهم ولا علاقة لهم به لأن معلوماتهم قليلة، فاستنتج السلف أنه لا بحث في شأن الروح وأنها سر الحياة. هكذا كانت الأرضية المعرفية السائدة، وقد كان موقفهم هذا مقنعاً لهم ولمعاصريهم. أما الأمر بالنسبة لنا فهو غير ذلك. لننته الآن من أن الروح ليست سر الحياة وأن الموت والحياة هما من قوانين الوجود المادي الموضوعي خارج الوعي الإنساني وكلاهما من قوانين الخلق: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً.. الآية) (الملك 2)"[518].

تعقيب ومناقشة

أولاً: يخالف مفهوم الدكتور شحرور للروح مفهوم الأديان جميعاً. وهو ينكر دور الروح وأنها سر الحياة[519]، ولعل هذا بسبب تأثره بلوثة العصر المادية!

ثانياً: ويتناقض قوله مع ما ورد في صريح السنة النبوية الشريفة، من ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق : (إن خلْقَ أحدكم يُجمعُ في بطن أمه أربعين يوماً نطفةً، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعثُ اللهُ إليه ملكاً بأربعِ كلماتٍ: فيكتبُ عملَهُ، وأجلَه، ورزقَه، وشقيٌّ أو سعيد، **ثم يُنفخُ فيه الروحُ،** فوالذي لا إله غيره إنَّ أحدَكم ليعملُ بعملِ أهلِ الجنةِ، حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعملِ أهلِ النارِ فيدخلُها.

---

(518) – الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (106-107).

(519) – انظر أيضاً في هذا الخصوص ما ذكره في كتابه: القصص القرآني قراءة معاصرة، مدخل إلى القصص وقصة آدم، الباب الثاني: قصة آدم، الفصل الأول. حيث حاول أن يوفق بين نظرية دارون والقرآن الكريم. وانظر: الفصل الثاني أيضاً وفيه تحدث عن الروح والنفس.

وإنَّ أحدَكم ليعملُ بعملِ أهل النار حتى ما يكونُ بينه وبينَها إلا ذراعٌ، فيسبقُ عليه الكتابُ، فيعملُ بعملِ أهلِ الجنةِ فيدخلها)(520).

ثالثاً: ونظرية دارون لا تتناسب مع ما ورد في الكتب المقدسة، وهي محل شك لدى كثير من العلماء، وليس ثمة أدلة قطعية على ثبوتها، وقد تقدم ذلك.

رابعاً: ونظرية دارون تفسر أصل الأنواع ونشوئها وارتقائها، ولكن ماذا عن التكاثر داخل النوع الواحد؟ كيف ينتج المولود من نطفة لا قيمة لها؟!

خامساً: الحياة والروح والنفس، ونحو ذلك من المصطلحات، هي مما قُتل بحثاً لدى العلماء المسلمين، وبخاصة لدى ابن سينا (ت303هـ)، والإمام الغزالي (ت505هـ)، ويكفي أن نُذَكِّر هنا بكتابين:

الأول: كتاب: (الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص)، للدكتور عبد الكريم العثمان، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.

والثاني: كتاب: (نحو تأصيل إسلامي لمفهومي التربية وأهدافها)، لبدرية صالح الميمان، دار عالم الكتب، الرياض.

فلم تكن هذه المصطلحات ملتبسة عليهم، واتهام العلماء بعدم التمييز بين هذه المصطلحات هو الجهل المركب.

***

(520) - متفق عليه، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (31/1).

المبحث الثامن: من فقه الدكتور شحرور

يهدف الدكتور شحرور إلى صناعة إسلام جديد، يكون أكثر المحرم في ديننا بالأمس حلالاً فيه اليوم، هذه هي قضية التجديد برمتها، فهي تهدف إلى إعادة صياغة أحكام الإسلام، لكي يتجرد المسلمون من دينهم، يقول: "إن الإسلام في شكله المعاصر المطروح في هذا الكتاب، يختلف تماما عن إسلام القرن السابع الميلادي، أقول نعم في المظهر لا في المحتوى"[521].

إنه إسلام بلا سنة نبوية، ولا كتب تفسير، ولا فقه إسلامي، وفي هذا المبحث مسائل عدة نقدمها كأمثلة لاجتهاداته:

المسألة الأولى: الموقف من الفنون

يقول الدكتور شحرور: "إن الموقف الذي يمنع الغناء يعتبر موقفا غير إسلامي، والفنون والشهوات هي من الدين الإسلامي، وهي بطبيعتها حنيفية غير مستقيمة، أي خاضعة للتطور مع تطور المعارف ووسائل الإنتاج الإنسانية"[522].

إن موقف الإسلام من الفنون محدد وواضح في تعاليمه، فلا هو يبيحها بلا ضوابط، ولا هو يحرمها مطلقاً، بل ذلك يعود إلى طبيعة كل فن وموقف الدين منه، ففن الخط، أو الشعر، يختلف عن فن النحت أو الرقص مثلا، فهناك فنون ترتقي بالعقل والحس الإنساني، وهذه فنون إيجابية تخدم الأمة، وهناك فنون تثير الغرائز البهيمية، وتحرك المشاعر الحيوانية، وهذه فنون سلبية ينبغي تجنبها، وقد حاول الأستاذ محمد قطب أن يرسم ملامح الفن الإسلامي في كتابه (منهج الفن الإسلامي).

ومن الظلم للدين الحنيف، وللمسلمين أيضا، اتهامهم أنهم ضد الفنون كلها، وتلك آثارهم في الأندلس وغيرها شاهدة على مدى تقدم الفن العمراني والهندسي إبان الحضارة الإسلامية.

---

(521) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (730).

(522) - المرجع السابق، ص (672).

ومن الكتب التي تحدثت عن الفنون الإسلامية:

.في الفنون الإسلامية، زكي محمد حسن.

.الفنون الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي، أ. د. أحمد عبد الرزاق أحمد.

.فقه العمران، د. خالد العزب. الدار المصرية اللبنانية.

***

المسألة الثانية: أحكام الطلاق

يقول الدكتور شحرور: ‘‘أما في حال الطلاق الكامل من الرجل للمرأة فلا يحق له ردها إلا بعد أن تنكح زوجا آخر، وقد أسيء استعمال هذه القاعدة من قبل بعض الفقهاء المتخلفين، علما بأنها قاعدة عظيمة جدا، وذلك لتبيان أن الطلاق عملية جدية جدا وليست مجرد انفصالات مؤقتة’’[523].

ويضيف الدكتور شحرور بعد وصفه للفقهاء بالتخلف.وكأنه لم يقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11]: ‘‘يحق للرجل والمرأة على حد سواء طلب الطلاق، لذا فإن الطلاق الشفهي يعتبر من اللغو، فإذا قال الرجل لزوجه أنت طالق، فهذا من باب اللغو ولا ينظر إليه بأي جدية، الطلاق بين الرجل والمرأة لا يكون إلا عن طريق القضاء حصرا’’[524].

فهو بهذا يحلل للمطلقة أن تعيش مع زوجها بالحرام، طالما أن الطلاق لم يكن رسمياً في المحكمة!

***

المسألة الثالثة: العلاقات الاجتماعية

يقول الدكتور شحرور: ‘‘إذا كان الرجل يتكلم إلى المرأة أو العكس، وهم في موقف غير محرج؛ فعليه أن ينظر إليها وتنظر إليه، ولا يوجد حرج ومنع في ذلك’’[525].

---

(523) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (627).

(524) - المرجع السابق، ص (626).

(525) - المرجع السابق، ص (605).

وكأن الدكتور شحرور يجهل ما يورثه النظر من أثر في القلب، ولم يسمع بقول العرب: **النظر بريد الزنا.** ولا بقول الشاعر:

كلُّ الحـوادث مبدأها من النظر

ومعظمُ النارِ من مُستصغرِ الشررِ

كم نظرةٍ فتكتْ في قلبِ صاحبها

فتكَ السـهامِ بلا قوسٍ ولا وترِ

ويبين الدكتور شحرور حد العورة قائلا: "الحد الأدنى من اللباس للرجل هو تغطية الفرج فقط (حدود الله)، وجاءت في قوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: 30]"[526].

ويبيح للبنت أن تخرج عارية أمام أبيها، فيقول: "قد يقول البعض: هذا يعني أن المرأة المؤمنة يحق لها أن تظهر عارية تماما أمام هؤلاء المذكورين أعلاه. يقصد المحارم المسموح بإبداء الزينة أمامهم. والمذكورين في نص الآية. أقول: نعم يجوز إن حصل ذلك عَرَضَاً، فإذا تحرجوا من ذلك فهو من باب العيب والحياء: (العرف)، وليس من باب الحرام والحلال، لأنه شملهم مع الزوج. أي إذا شاهد والد ابنته عارية فلا يقول لها: هذا حرام، ولكنه يقول لها هذا عيب. ووضع هؤلاء المحارم مع الزوج لأنها غالبا تعيش معهم، فعلى المرأة المؤمنة أن لا تحرج من هؤلاء"[527].

وهل لمثل هذه الفتاوى الخطيرة فائدة إلا في تمزيق الحياء داخل الأسر المسلمة؟.

وليس العري من الزينة في شيء، بل اللباس هو الزينة، ألا ترى أن الناس عند الشطآن لا تستطيع أن تفرقهم، فإذا ارتدى كل منهم ثوب عمله، تزيَّنَ به وميزته عن غيره، فالضابط الذي يضع على كتفه بعض النجوم والشارات، والموظف الذي يلبس الثياب الرسمية، والزعيم الذي يظهر أمام جنوده بزينته، وفريق الكرة يتزين بالملابس الرياضية ... كل هؤلاء تميزهم من ملابسهم الجميلة، فالملابس زينة، وقد أمر الله

(526) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (605).

(527) - المرجع السابق، ص (607).

بلبسها عند المساجد، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31]، وكانوا في الجاهلية يطوفون عراة، فنهاهم الله عن ذلك.

إن العري هو الوضع الطبيعي للحيوانات، أما بني آدم فقد كرمهم الله بالملابس التي تزينهم وتسترهم وتحميهم، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 26].

ومن ظن أن العري هو الزينة فهو إما مراهق تلعب به أهواء الصبا، أو مخرف لا يدري ماذا يقول، وحسبنا الله ونعم الوكيل!.

***

المسألة الرابعة: الحجاب

الحجاب عند الدكتور شحرور أمر شخصي، وهو عادة، وليس فرضاً، ولا يختزل الدين به، يقول: "ونحن نقول، إن حجاب المرأة من الأمور الشخصية التي تقررها المرأة بنفسها ولنفسها دون ضغط أو إكراه أو إغراء أو تخويف، ودون إفراط أو تفريط. ونقول، إن التنزيل الحكيم الذي نزل على عبد الله ورسوله الخاتم إلى الناس كافة، لا يجوز اختزاله بالنسبة للمرأة في حجابها، ونسمي المرأة السافرة التي وضعت حجاباً بأنها "رجعت إلى دينها"، ونقيم لها الاحتفالات الترسيمية الخاصة بهذه العودة إلى الدين، وكأنها كانت خارجه. وأعتبر هذا الاختزال إهانة كبيرة للإسلام من جهة ولكرامة المرأة من جهة أخرى، حين نحصر هذا الدين الشامل العظيم في قطعة قماش، ليصبح معه حجاب المرأة حجاب عقل لا حجاب شرع. ونقتطف فيما يلي بعض المعلومات التاريخية القديمة من مخطوط "تاريخ الحجاب" – حسين العودات – دار الأهالي.." (528).

ويضيف: "طالبت الديانة اليهودية المرأة بلبس الحجاب، وعزلتها في المعابد في الرواق أو خلف الرجال. فعلت الديانة المسيحية مثل اليهودية، لكن الحجاب عندها اقتصر على الصلاة فقط، إذا لا يليق بالمرأة أن تصلي وهي حاسرة غير مغطاة.

---

(528) – في الدولة والمجتمع، ص (327).

فرض الإسلام الحجاب على نساء الرسول (ص) فقط، ولم يشر صراحة إلى فرضه على نساء المسلمين، بل طالبهن بضرب الخمار على جيوبهن، وأن يدنين عليهم من جلابيبهن. والخمار والجلباب ليس الحجاب. فضرب الخمار على الجيوب هو الحد الأدنى للباس الداخلي للمرأة أما الجلباب فهو اللباس الخارجي وتحكمه الأعراف المحلية والمجتمعية.

ونقول، ثمة أمور كثيرة، حبذا لو نعطيها هذا الاهتمام وهذه الأهمية، كالكذب والنميمة والغش وعقوق الوالدين والحنث باليمين، وتضييع العمر فيما لا ينفع الناس، ونعالجها بنفس الحماس الذي نعالج به الحجاب، الذي ليس بالأساس من أركان الإسلام الخمسة، أو العشرة، أو المئة. لنذكر أننا حين نقول عن المرأة التي تبدأ بوضع الحجاب أنها "رجعت إلى دينها"، فهذا أمر له ذيول خطيرة، أحدها أنه سيأتي يوم يفرض فيه الحجاب بالقهر والقوة من قبل الدولة، بحجة إرجاع النساء إلى دينهن. وثانيها أننا نعتبره مؤشراً رئيسياً للصحوة الإسلامية، في حين أنه في حقيقة الأمر مؤشر على استمرار الغفوة الإسلامية، وإلهاء المسلمين بأمور لا تفيدهم لا في دينهم ولا في دنياهم"[529].

فالدكتور شحرور ينكر فريضة الحجاب على المؤمنات، وكأن المفسرين، والمحدثين، والفقهاء، واليهود، والنصارى، والسنة، والشيعة، والفرق كلها هي على باطل حين تحجب نساءها، وكذلك واقع المسلمين المنقول جيلاً بعد جيل، كل هذا لا أصل له في الشريعة، والدكتور شحرور هو الذي فطن لهذا! وفسر ضرب الخمار على الجيوب باللباس الداخلي للمرأة... حقاً لقد هزلت!

***

المسألة الخامسة: عقوبة السحاق واللواط

قال الدكتور شحرور في هذا الصدد: "وكذلك آية النساء 15 ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ التي تتحدث عن فاحشة تتعلق بالنساء، هي ظاهرة السحاق، فقد جعل سبحانه الشكل فيها أهم من المضمون حتى كاد أن يلغيه، واشترط لها شهادة أربعة كالزنا تماماً، إلا أنه اشترط هنا أن يكون الشهداء (منكم)، مما لم يشترطه في إثبات الزنا، أي أن اعتراف المرأة التي مارست السحاق غير مقبول ولا يؤخذ به،

(529) - في الدولة والمجتمع، ص (328-329).

لأن الجريمة جريمة نسائية بحتة، والمرأة يمكن أن تخضع للتهديد بسهولة. أما في آية النساء 16 ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً﴾ فهي تتحدث عن لواط بين ذكرين بدلالة مثنى المذكر، فقد جعل المضمون مفتوحاً (فآذوهما) وترك تحديد عين الأذى للمجتمع، وترك الشكل مفتوحاً فلم يشترط الشهود، أي أن المجتمع هو الذي يحدد الشكل والمضمون (الإيذاء) الذي تندرج تحته كل أنواع العقوبات ما عدا القتل والقصاص"[530].

تعقيب ومناقشة

أولاً: قوله: "اعتراف المرأة التي مارست السحاق غير مقبول ولا يؤخذ به، لأن الجريمة جريمة نسائية بحتة". هذا كلام غير صحيح، فكيف يقبل اعترافها في الزنا وتحاسب عليه، ولا يقبل في السحاق؟ والجريمة جريمة، سواء نسائية كانت أو ذكورية، فلماذا ينحاز الدكتور شحرور للنساء دوماً؟.

ثانياً: قوله: "فقد جعل سبحانه الشكل فيها أهم من المضمون حتى كاد أن يلغيه". الشريعة لم تلغ عقوبة السحاق ولا كادت أن تلغيها، ففي الحديث: (سحاقُ النساءِ بينهنَّ زنا) رواه الطبراني[531]. فهو زنا في الإثم والحرمة، ولكن ليس فيه حد الزنا، وإنما التعزير[532].

ثالثاً: قوله عن اللواط: "فقد جعل المضمون مفتوحاً (فآذوهما) وترك تحديد عين الأذى للمجتمع". هذا الكلام غير صحيح، ففي الحديث: (مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ)[533].

وللفقهاء اختلاف وتفاصيل حول هذه العقوبة، فمنهم من رأى عقوبته أغلظ من عقوبة الزاني، ومنهم من رأى أنه يعاقب عقوبة الزاني، وذهب أبو حنيفة إلى أن عقوبته التعزير. والعقوبات الشرعية يقررها النخبة من المجتمع كالقضاة والعلماء، وليس عامة المجتمع.

***

(530) – في الدولة والمجتمع، ص (313-314).

(531) – انظر: الجامع الصغير، للسيوطي، (103/4).

(532) – انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، (103/4).

(533) – رواه الترمذي وابن ماجة عن ابن عباس رضي الله عنهما، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1063/2).

المسألة السادسة: عقوبة الزنا للمحصن

يرى الدكتور شحرور أن عقوبة الرجم كانت موجودة في التوراة والإنجيل، وأن القرآن نسخ تلك العقوبة، واكتفى بالجلد، يقول: "إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان" (العهد القديم، سفر التشريع، الآية 22) ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة﴾ النور 2. هذان حكمان مختلفان في موضوع واحد هو الزنا. الأول في التوراة والثاني في التنزيل الحكيم، نسخ الله تعالى الرجم في الأول وأتى بالجلد في الثاني، والثاني خير من الأول. من المفيد هنا أن نقف عند عبارة مشهورة في أناجيل النصارى للسيد المسيح (ع) حول مسألة الرجم يقول فيها "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر". فرغم هذا الغلو في التسامح والغفران إلا أن المسيح (ع) لم يخرج بعبارته مطلقاً عن دوره التشريعي الذي وصفه تعالى بقوله ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ آل عمران 50. والذي لا يختلف أبداً عن الدور التشريعي لمحمد (ص) كما وصفه تعالى بقوله ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ الأعراف 157. الطريف أن علماءنا الأفاضل اليوم تركوا كتاب ربهم الذي لا يأتيه الريب من بين يديه ولا من خلفه إلى كتب أخبار وأحاديث آحاد، وزعموا أن الرجم هو عقوبة الزنا، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[534].

تعقيب ومناقشة

أولاً: من الظلم المساواة في العقوبة بين المحصن وغير المحصن، فيكون لكل واحد منهما له 100 جلدة عند الوقوع بالفاحشة.

إن من طبيعة الشريعة أن تخفف على الناس وتجد لهم العذر، فمثلاً السارق إذا كان محتاجاً لقوته لا تقطع يده، أما إذا كان مكتفياً فتُقطع، تماماً كالحال عند الفاحشة، فالمتزوج عنده سبيل الحلال، فيقام عليه حد الرجم، والأعزب يُخفف عنه إلى الجلد، أما أن تكون العقوبة واحدة للاثنين فهذا ظلم، وهيهات أن يظلم ربك أحداً.

(534) - تجفيف منابع الإرهاب، ص (61-62).

ثانياً: الواقع التاريخي للإسلام يشهد بتطبيق الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده لعقوبة الرجم، ولو لم تكن موجودة لكان هذا ظلماً للعباد وافتراءً على الله تعالى. فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (إن الله تعالى بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزلَ الله تعالى عليه آيةَ الرجمِ، رجمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ورجمْنا بعدَه، والرجمُ في كتابِ الله حقٌّ على من زنى إذا أُحصنَ من الرجالِ والنساءِ، إذا قامت البينة، أو كان الحَبَلُ، أو الاعتراف) [535].

ثالثاً: ثبت بالنقل الصحيح أن الرجم كان موجوداً في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يقبل بهذا فرقة الخوارج المارقة من الدين، وهم من أهل النار، فمن أحب أن يقلدهم في دينهم وأن يكون خارجياً مثلهم على الأمة المسلمة فله الحق في ذلك، فقد قيل: لكل ساقطة لاقطة!

رابعاً: أعلم الناس بالدين من جاء به، ومن صدقه من أبناء قومه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: 33]. ومن زعم أنه أعلم بدين محمدٍ صلى الله عليه وسلم من محمد وأصحابه فهو مفتري! حاله حال من زعم أنه أعلم بالولد من أمه.

***

(535) - متفق عليه، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (2/1056-1057).

المبحث التاسع: ملاحظات علمية مختلفة

الملاحظة (1): حول تغيير المفاهيم

قال الدكتور شحرور: "فقرة أخيرة أختم بها ردي على الردود وأصحابها ، أقتبسها من كتاب "اغتيال العقل" لبرهان غليون ص 361 : (إن كل ثورة فكرية تبدأ من تحرير المفاهيم من سياقاتها الماضية، ودمجها في سياقات وإشكاليات جديدة، فتتخلص من مدلولاتها السابقة المرتبطة بخبرة زائلة ، وتصبح مركزاً لبلورة وتخزين خبرة جديدة .

فليس هناك مفاهيم أو مقومات ثابتة المعنى وأبدية، إنما تأخذ دلالات ومعاني جديدة ومتجددة ، كلياً أو جزئياً ، حسب المناخ الاجتماعي الذي يحيط بها ، والحقل المعرفي التي توظف فيه والمنظومة الفكرية التي تستوعبها ، وتجدد الأفكار والمفاهيم نابع من تجدد الإشكاليات والمسائل النظرية)"[536].

تعقيب ومناقشة

هذا كلام قد ينطبق على بعض العلوم، والعادات، والتقاليد، وبعض المفاهيم والمصطلحات، ولكن بالنسبة للمفاهيم القرآنية الثابتة فيستحيل تحققه.

وهذا اعتراف خطير لهدف الدراسات المعاصرة للدكتور شحرور، فهو يريد من ورائها تغيير مفاهيم ومصطلحات الدين الإسلامي، ودون ذلك خرط القتاد...

لن يستطيع أي باحثٍ متمرسٍ قدير، مهما أوتي من قوة العقل، وسعة الثقافة، وفصاحة اللسان، وحسن البيان، ولا الآلاف من أمثاله ولو اجتمعوا لذلك، أن يزحزحوا من معاني القرآن ودلالات ألفاظه، عما وضعه علماؤنا السابقون، وذلك وفق فهم السلف الصالح الطاهر، فإن من حفظ الألفاظ من الزيادة والنقصان، سيحفظ معانيها من التزوير والبهتان، وذلك قائم إلى يوم الدين.

إن هذه المحاولات مجرد زبد سينتهي، وفقاً لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17].

---

(536) - في الدولة والمجتمع، ص (46).

وسيحفظ الله دينه لفظاً ومعنى وتفسيراً ودلالة من عبث العابثين، وخوض الخائضين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

***

الملاحظة (2): حول الاستبداد ومسألة الترادف

كثيراً ما يعيد الدكتور شحرور الكلام مراراً وتكراراً حول قضية الترادف، ويضخمها حتى يجعلها قطب الدين والعلم، ويرجع إليها أسباب التخلف الحضاري، يقول: "لقد انتصرت مدرسة الترادف تحت ظل الاستبداد، على مدرسة عدم الترادف، حيث تؤدي الثانية إلى دراسة التنزيل دراسة دقيقة، وتشير إلى الفروق بين الكتاب والقرآن والذكر، وبين الحكم والحكمة، وبين الإمام المبين واللوح المحفوظ، وبين الرسالة والنبوة. وتقود إلى فهم أفضل للتنزيل وفهم أفضل لمسائل القضاء والقدر والحرية والشورى والتشريع، وتؤدي إلى الأخذ بيد مدرسة الرأي وترك مدرسة الحديث، لهذا نرى سيبويه وابن خلدون يقولان بالترادف، فيؤخذان كمراجع أهم من ثعلب وأبي علي الفارسي"[537].

تعقيب ومناقشة

أولاً: إن قضية إنكار الترادف أو إثباته لا علاقة لها بالسياسة ولا بالاستبداد الذي يدعيه الدكتور شحرور، فالترادف هو حقيقة لغوية وفق جمهور اللغويين القدامى والمعاصرين، وقد سبقت مناقشتها فيما تقدم، ونعيد هنا قول الدكتور إبراهيم أنيس. الذي ذكرناه سابقاً. في هذا الصدد: **"يجمع المحدثون من علماء اللغات على إمكان وقوع الترادف في أي لغة من لغات البشر، بل إن الواقع المشاهد أن كل لغة تشمل على بعض تلك الكلمات المترادفة. ولكنهم يشترطون شروطاً معينة لا بد من تحققها حتى يمكن أن يقال إن بين الكلمتين ترادفاً"**[538].

(537) - في الدولة والمجتمع، ص (29-30).

(538) - في اللهجات العربية، ص(178).

ثانياً: مسألة أن يكون للشيء اسمين مختلفين لا يعني تعدد المسمى، فالمسمى واحد، ونفي الترادف وفق فهم الدكتور شحرور يقتضي عكس ذلك! فالكتاب عنده غير القرآن، وهذا يدل على عدم فهم لغة العرب!

ويحسن في هذا الصدد أن نذكر ما قاله الدميري: (قال ابن خالويه: للأسد خمسمائة اسم وصفة، وزاد عليه علي بن قاسم بن جعفر اللغوي مائة وثلاثين اسماً... وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى)[539].

فكثرة الأسماء لا تدل على تعدد المسمى، وإنما على شرف المسمى، وإلا وجب أن يكون لدينا خمسمائة حيوان غير الأسد، لأنه لا ترادف في اللغة كما يدعي، وهذا مستحيل!

لا شك أن أسماء الأسد مختلفة فيما بينها في المعاني، والألفاظ، والاشتقاق الصرفي، ولكنها متفقة جميعاً في الدلالة على مسمى واحد، وكائن واحد وهو الأسد.

ثالثاً: الترادف مسألة من مسائل اللغة، وقضية من قضاياها[540]، والدكتور شحرور يبالغ في شأنه حتى يجعله أهم مسائل اللغة وقضاياها، وهذا غير صحيح إطلاقاً.

رابعاً: الدكتور شحرور يحتاج إلى الترادف ويقر به عملياً وإن أنكره نظرياً، وكمثال على ذلك تفسيره كلمة السبيل بالطريق والمنهج، يقول: "وكلمة (السبيل) هي الطريق والمنهج، سواء أكانت طريق خير ومنهج فلاح أم غير ذلك فأما بالمعنى المباشر للطريق فكما في قوله تعالى: (واتخذ سبيله في البحر عجبا) الكهف

---

(539) – حياة الحيوان الكبرى (1/2-3).

(540)– للمزيد حول الترادف راجع الكتب والمقالات الآتية:

ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه، للأصمعي (ت217هـ)، تحقيق ماجد حسن الذهبي، دار الفكر، دمشق.

الألفاظ المترادفة المتقاربة المعنى، للرماني (ت296هـ)، تحقيق فتح الله المصري، دار الوفاء.

جوهر الألفاظ: لقدامة بن جعفر (ت337هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، 2011م.

المكنز الكبير: معجم شامل للمجالات والمترادفات، والمتضادات، للدكتور: أحمد مختار عمر، شركة سطور.

أسرار الترادف في القرآن الكريم، لعلي اليمني دردير.

وراجع أيضاً: رسالة الماجستير للشريف بو شارب، في جامعة محمد لمين دباغين، في الجزائر، وهي بعنوان: ظاهرة الترادف والاشتراك اللفظي في كتابي الفروق اللغوية، وفقه اللغة .دراسة لسانية تداولية.عام 2015-2016م.

ومقال أمثلة على الترادف في اللغة العربية، للدكتور سيد مصطفى أبو طالب، في موقع الألوكة، على الرابط:

https://www.alukah.net/literature_language/0/120062/

ومقال الترادف في اللغة العربية، بقلم أبي عيسى، في شبكة الفصيح على الرابط:

http://www.alfaseeh.com/vb/showthread.php?t=31476

63، وأما بمعنى الطريقة والمنهج فكما في قوله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) النحل 125"[541].

وطالما أن السبيل هي الطريق والمنهج، فلماذا استخدم الله الطريق في مواضع، والسبيل في مواضع أخرى؟!، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا، إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: 168-169].

وفق منهج الدكتور شحرور: الطريق شيء والسبيل شيء آخر، فلماذا جعلهما شيئاً واحداً؟ فإما أنه يخالف مذهبه في إنكاره للترادف نظرياً، ويثبته عملياً مضطراً له، أو أنه يكتب ويقرر، ولا يدري ولا يعي ما يقوله ويقرره!.

خامساً: المعول عليه في اللغة هو النظم وليس الكلمة الواحدة، فما بال الدكتور شحرور يجري وراء المفردات بمعزل عن معنى النظم الكلي ووحدة النص؟!

سادساً: أعلن الدكتور شحرور انحيازه التام لمدرسة الرأي ضد مدرسة السنة النبوية، وهذا يدل على عدم فهمه لمدرسة الرأي، فمدرسة الرأي لم تنكر السنة أصلاً، وإنما توسعت في الاعتماد على الأصول العقلية، ووضعت ضوابط للأخذ بالحديث، ومن يطلع على كتب المعتزلة، كالجاحظ والقاضي عبد الجبار والزمخشري، يجدها مليئة بالأحاديث النبوية والآثار السلفية.

***

الملاحظة (3): الصدق والجمال وصدق الخبر

قال الدكتور شحرور: "اللغة حاملة للفكر الإنساني ، لكن الفكر الإنساني يمكن أن يكون صادقاً، ويمكن أن يكون كاذباً، وهذا يعني أن توفر الرباط المنطقي، وصحة الشكل اللغوي في النص لا يعني بالضرورة أنه حقيقي، وجمال التركيب اللغوي ومتانته في النص لا يعني بالضرورة أنه صادق. لذا قالت العرب إن "أجمل الشعر أكذبه". وهذه الحقيقة أكدها التنزيل الحكيم في وصفه للشعراء بأنهم (يقولون ما لا يفعلون)، فهم يستعملون تراكيب لغوية خيالية غير قابلة للتحقق في عالم الواقع ، كقول الشاعر :

---

(541) - تجفيف منابع الإرهاب، ص (73).

وصرت إذا أصابتني سهامٌ

تكسرت النصال على النصال

فالصورة البلاغية والخيال المجنح في الشعر هو الذي يجعل منه كاذباً لا يمت إلى عالم الحقيقة بصلة، ومن هنا لا يمكن الاقتصار على إعجاز التنزيل بالقول أنه استعمل مختلف أدوات وأساليب البلاغة والبيان التي عرفها العرب، بل يجب بالإضافة إلى ذلك الإيمان بأن الخبر القرآن صادق وحقيقي، ومن هذا المنطلق الأساسي شرحت الناسخ والمنسوخ في الآية 106 من سورة البقرة. ولما كانت البلاغة هي إيصال ما يريده المتكلم إلى السامع ، ولو بالإشارة دون كلام، فقد صح أن نقول إن التنزيل الحكيم استعمل أعلى مستويات البلاغة التي لا يمكن تجاوزها أو الاتيان بمثلها في أداء المعنى وتوصيله إلى السامع. لقد كان يعنيني كثيراً صدق الخبر في النص القرآني، وواقعية التشريع في آيات الأحكام أكثر مما يعنيني جمال التركيب والصياغة ولا أشك أنه يعني أيضاً أصحاب الردود، لكنهم كانوا يعنون به من حيث الشكل وسلامة العقيدة وليس تطبيقاً عملياً على الآيات. فالقول بالنسخ في التنزيل، يقتضي وجوباً وجود الناسخ والمنسوخ ويقتضي أن يكون الناسخ مثل المنسوخ أو خيراً منه في نفس مجاله وموضوعه ، لكنني لم أجده صدقاً وحقاً كذلك. ولتحقيق الصدق في الخبر القرآني، فقد قلت بأن النسخ ليس في الرسالة الواحدة، بل في الرسالات على مدى مسيرة التاريخ والتطور، ولم يعد يهمني هل قال أحد من قبل بذلك أم لا، وهل ينطبق ما وصلت إليه مع إجماع العلماء أم لا، ومع إجماع الجمهور أم لا، فصدق الخبر الإلهي عندي أهم من تصديق المراجع كائناً من كان مؤلفها"[542].

تعقيب ومناقشة

أولاً: قال الدكتور شحرور: "لذا قالت العرب إن "أجمل الشعر أكذبه ". وهذه الحقيقة أكدها التنزيل الحكيم في وصفه للشعراء بأنهم (يقولون ما لا يفعلون)".

(542) - في الدولة والمجتمع، ص (36-37).

نعم، لقد قالت العرب: (خير الشعر أكذبه)، ولكنها قالت أيضاً: (خير الشعر أصدقه) [543]، فهنالك مذهبان في الموقف النقدي من قضية الصدق والكذب في الشعر، والدكتور شحرور كعادته يطرح نصف الحقيقة، ويترك نصفها الآخر أو يخبئه، وهذا تدليس على الناس.

ثانياً: ينبغي فهم معنى القولين، وليس أحد أولى من شيخ البلاغة عبد القاهر في توضيح ذلك، فقد قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في شرح قولهم: (خير الشعر أصدقه): "وأما من قال في معارضة هذا القول: (خير الشعر أصدقه) كما قال:

وإن أحسن بيت أنت قائله

بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب به الفضل، وموعظة تروّض جماح الهوى، وتبعث على التقوى، وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال، وقد يُنحى بها نحو الصدق في مدح الرجال، كما قيل: كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه. والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشعر".

وشرح الشيخ عبد القاهر قولهم: (خير الشعر أكذبه) فقال: : " وكيف دار الأمر فإنهم لم يقولوا: (خير الشعر أكذبه) وهم يريدون كلاما غُفْلاً ساذجاً يكذب فيه صاحبه ويفرط ، نحو أن يصف الحارس بأوصاف الخليفة ، ويقول للبائس المسكين إنك أمير العراقين ، ولكن ما فيه صنعة يتعمَّل لها، وتدقيق في المعاني يحتاج معه إلى فطنة لطيفة، وفهم ثاقب، وغوص شديد، والله الموفق للصواب" [544].

وقد فضل الشيخ عبد القاهر مذهب الصدق في الشعر، فقال: "والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه، وتفخيم قدره وتعظيمه، وما كان العقل ناصره،

---

(543) - انظر: كتاب أسرار البلاغة، للجرجاني، تحقيق هـ. ريتر، ص(249-250).

(544) - كتاب أسرار البلاغة، ص(253).

والتحقيق شاهده، فهو العزيز جانبه، المنيع مناكبه، وقد قيل: الباطل مخصوم وإن قضي له، والحق مُفْلِجٌ وإن قضي عليه"(545).

ثالثاً: القرآن ليس ضد الشعر، بل لقد مدح الله تعالى البيان، واعتبره من نعم الله على الإنسان، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 1-4]. والشعر كعمل فني مرغوب مطلوب، فبه تُعرف معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد سبق أن ذكرنا قول الشيخ عبد القاهر في حكم الشعر وأهميته: "إذا كنا نعلم أن الجهة التي قامت منها الحجة بالقرآن وظهرت، وبانت وبهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تَقصر عنه قوى البشر، ومنتهياً إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان مُحالاً أن يعرف كونه كذلك، إلا من عَرَفَ الشعر الذي هو ديوان العرب، وعُنوان الأدب، والذي لا يُشك أنه كان ميدان القوم إذا تَجَارَوْا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قصب الرهان، ثم بحث عن العِلل التي بها كان التباينُ في الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض، كانَ الصادُّ عن ذلك صاداً عنْ أنْ تُعرفَ حُجة اللهِ تعالى، وكان مَثَلُه مَثَلَ من يتصدى للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتابَ الله تعالى ويقوموا به، ويتلوه، ويُقرِئوه، ويصنعُ في الجملة صنيعاً يؤدي إلى أنْ يَقلَّ حُفَّاظُهُ والقائمون به، والمقرئون له"(546).

وإنما يُذم الشعر ويحمد بحسب غرض قائله، لا من حيث لغته ومادته، وفي هذا السياق قال النبي صلى الله عليه وسلم عندما سئل عن الشعر: (هو كلامٌ، فحسنُهُ حسنٌ، وقبيحُهُ قبيحٌ)(547).

رابعاً: وقوله تعالى عن الشعراء: (يقولون ما لا يفعلون). لا علاقة له بقول العرب: "أجمل الشعر أكذبه"، فالكذب المقصود بكلام العرب هو الكذب الفني، بمعنى المبالغة في الخيال، إلى حد الغلو والإغراق، كقول المتنبي(548):

ذبتُ من الشوقِ فلو زُجَّ بي
في مُقلة النائـمِ لم ينتبه
وكانَ لي فيما مضى خاتمٌ
فالآنَ لو شئتُ تمنطقتُ به

(545) - المصدر السابق، ص(251).

(546) - كتاب دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ص(8-9)، مكتبة الخانجي، القاهرة،

(547) - رواه الدراقطني، عن عائشة رضي الله عنها، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1355/3).

(548) – من شواهد الغلو والإغراق كما ذكر ابن رشيق في العمدة، تحقيق د. مفيد قميحة، (290/2).

فأن يذوب الإنسان لدرجة أنه لو أُدخلَ في عين النائم لم يصح النائم، وأنه يستطيع التمنطق بخاتمه من شدة نحوله وذوبانه ... فهذه بلا شك مبالغة كبيرة، وهذا هو الكذب الفني المسموح به في الشعر والأدب، والذي عنته العرب بقولها: (خير الشعر أكذبه). وكان عبد القاهر قد شرحه، ولم يقصدوا به الكذب بمعنى مخالفة الواقع، كأن نقول للبخيل: أنت كريم، وللقبيح: أنت جميل، فهذا مرفوض في الشعر كما في النثر على حد سواء! ولكن الدكتور شحرور فهم عكس ذلك، وربط بين الآية الكريمة التي هي ذم لشعراء المشركين، وليست ذماً للشعر، وبين قول العرب (خير الشعر أكذبه)، والكذب كما قلنا هو المبالغة في الوصف وليس مخالفة الواقع، والمبالغة في الوصف وقع بها الشعراء جميعاً من كل الملل والأديان، وليست مذمومة بحد ذاتها، ولكن الدكتور شحرور يُقحم نفسه فيما لا يُحسنه، وكأنه لا يفهم كلام العرب!.

كما أنه يذكر الآيات مجتزأة، وهي قوله تعالى عن الشعراء: (يقولون ما لا يفعلون)، علماً أن الآية استثنت شعراء المؤمنين، فهم بفضل الله يقولون ويفعلون، ولكنه لعدم منهجيته يقتطع حتى كلام الرب عز وجل، وهذا هو سياق الآيات في ذكر الشعراء: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 224-227].

خامساً: قول الدكتور شحرور: " فالصورة البلاغية والخيال المجنح في الشعر هو الذي يجعل منه كاذباً لا يمت إلى عالم الحقيقة بصلة". **هذا كلام باطل، فالشعر والأدب هو صدى حديث النفس الناشئ من تجليات الواقع،** فالغزل ناشئ عن رؤية امرأة جميلة، والوصف ناتج عن رؤية منظر مثير، والمديح ناتج عن الإعجاب بشخصية ما أو التأثر بها...

وليس كل الشعر كاذباً، وليس الكذب في الشعر هو مناقضة الواقع كما فهمه الدكتور شحرور، وإنما قصدوا به ما فيه زيادة صنعة وتعمل وتدقيق في المعاني كما ذكر الشيخ عبد القاهر، ومن المؤسف أن الدكتور شحرور صار يدلي برأيه في العلوم كلها، ونسي أن عهد العالم الموسوعي قد ولى، هذا إذا كان الباحث متقناً للعلوم، فكيف إذا كان لا يجيدها ويريد أن يفتي فيها جميعاً؟!

سادساً: قوله: "وجمال التركيب اللغوي ومتانته في النص لا يعني بالضرورة أنه صادق". هذا قد يكون صحيحاً في غير القرآن، ولكن في القرآن فباطل، لأن القرآن بلغ حد الإعجاز، فجماله الخالد دليل صدقه، وما هو إلا كما قال الشاعر:[549]

يزيدك وجهه حسناً

إذا ما زدتّه نظرا

سابعاً: قوله: "ومن هنا لا يمكن الاقتصار على إعجاز التنزيل بالقول أنه استعمل مختلف أدوات وأساليب البلاغة والبيان التي عرفها العرب، بل يجب بالإضافة إلى ذلك الإيمان بأن الخبر القرآن صادق وحقيقي".

نقول: القرآن بلغ فيه جماله حد الإعجاز، وكونه تحدى العرب فلم يأتوا بمثله، ولا بمثل عشر سور منه، ولا حتى بمثل سورة منه، فهذا دليل إعجازه وصدقه وأنه من عند الله، وإما إثبات صدقه من خلال التشريع، والإخبار بالغيوب، والعلوم الحديثة، فهذا شيء جيد، ولكنه ليس هو جوهر قضية الإعجاز، فالعرب أمة أمية، لم يكونوا يعرفون علم القانون، ولا يستكشفون الغيوب، ولا يعرفون الرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب والهندسة والفلك...، وعندما تحداهم الله بالقرآن الكريم إنما تحداهم بلغتهم التي يتقنونها، ولم يتحدهم بشيء خارج عن طاقتهم، أو لا يعرفونه، مثل: العلوم والغيوب والتشريعات ونحو ذلك.

سادساً: قوله: "فالقول بالنسخ في التنزيل، يقتضي وجوباً وجود الناسخ والمنسوخ ويقتضي أن يكون الناسخ مثل المنسوخ أو خيراً منه في نفس مجاله وموضوعه، لكنني لم أجده صدقاً وحقاً كذلك".

نقول النسخ هو إلغاء، فهنالك آيات ألغاها ربنا، يعني أنه نزلها لفترة معينة، أو لغرض معين، ثم نسخها، وطالما أنها حُذفت فأنت لن تجدها، فمن العبث أن تبحث عنها، ولا داعي لتأويلك بأنه نسخ بين الشرائع، فالله تعالى ذكر النسخ في الآيات، وأنت تريد إلغاءه وتحويله إلى نسخ في الشرائع، وكأنك تتعامل مع قطعة كيك! لا مع كتاب كريم أنزله الله تعالى من فوق سبع سماوات!

***

(549) – البيت لأبي نواس، انظر: مختارات البارودي، (210/4).

الملاحظة (4): حول لغة القرآن الكريم

يقول الدكتور شحرور: "لو تفحصنا كتاباً في الطب أو في الهندسة ، بأية لغة من لغات الدنيا، نرى أن ظاهرة الترادف غير موجودة ، فإذا اختلفت خلية عن خلية أخرى ولو اختلافاً بسيطاً جداً ، نجد المؤلف يعطيها اسماً جديداً لتمييزها، وإذا اختلف حد مجهول في الرياضيات عن حد آخر، ولو اختلافاً تافهاً جداً، رأينا المؤلف يعطيها أرقاماً مميزة عن بعضها (س1 ، س2 ، س 3)، وذلك تحقيقاً للدقة العلمية ، فكيف نقبل هذا من البشر في العلوم ونثني عليه ونصفه بالدقة العلمية، ونصر من جانب آخر، على أن كل السينات واحدة في كتاب الله، الذي يصف الكون بمخلوقاته وقوانينه، وأن العهود عنده هي المواثيق وهي العقود وهي الإيمان، وأن الرسول هو النبي وهو الرجل وهو البشر وهو الإنسان، وأن الكتاب هو الرسالة وهو الذكر وهو القرآن وهو الفرقان!! كيف يمكن أن يكون المخلوق في تعابيره أدق من الخالق في تنزيله؟"[550].

تعقيب ومناقشة

أولاً: إن لغة القرآن لغة أدبية عالية، واللغة الأدبية العالية تتنوع فيها العبارات والأساليب، ويصاغ فيها الخبر أو القصة بطرق متعددة وسياقات مختلفة، ويتشكل المعنى الواحد بصور مختلفة وألفاظ وتعابير متباينة.

ثانياً: وهي لغة موجهة إلى العرب جميعاً في شتى أماكنهم ومختلف قبائلهم، فجاءت محتوية على بعض لهجاتهم[551].

ثالثاً: وهي لغة موجهة بعد ذلك إلى العالم كله، فوقع فيها غير المعرب كما رجحه بعض العلماء، قال السيوطي: "وأقوى ما رأيته للوقوع وهو اختياري ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل قال: (في القرآن من كل لسان). وروي مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه. فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب. ثم رأيت ابن النقيب صرح بذلك فقال: من خصائص القرآن على سائر كتب الله تعالى المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم، ولم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم، والقرآن احتوى على جميع

---

(550) - في الدولة والمجتمع، ص (37).

(551) - انظر: الإتقان في علوم القرآن، (1/175-178).

لغات العرب، وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير. انتهى. - وأيضا فالنبي صلى الله عليه وسلم مرسل إلى كل أمة، وقد قال تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) فلا بد وأن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم وإن كان أصله بلغة قومه هو"[552].

وليس وجود بعض الكلمات المعربة في القرآن مما ينفي عروبته، كما أن أحدنا لو نطق ببعض الكلمات الأجنبية خلال حديثه بالعربية، فهذا لا يعني أنه صار أعجمياً، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان أعجمياً وعربياً في آن واحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44].

خامساً: عندما تُعَرَّبُ الكلمة تصبح عربية، فمن قال إن كل ما في القرآن من الألفاظ هي عربية فقوله صحيح، ومن قال إنها أعجمية باعتبار أصولها، فقوله صحيح أيضاً، قال السيوطي: "وقال أبو عبيد القاسم بن سلام بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء والمنع عن أهل العربية: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعا، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب فعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال: إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق. ومال إلى هذا القول الجواليقي وابن الجوزي وآخرون"[553].

سادساً: واللغة العربية هي لغة تعبدية، فلا بد أن تأتي في صور مختلفة من الألفاظ والصور، والظلال، والأساليب، والمعاني، وذلك لتشد القلوب وتأسر العقول بجمالها، فلا تسأمها من كثرة التلاوة والتكرار في الصلاة، والأذكار آناء الليل وأطراف النهار.

سابعاً: قيمة اللفظة يحددها موقعها في النص، وعادة ما نأخذ المعنى الكلي والإجمالي للنص بعد فهم مغزاه وتتبع ألفاظه وعباراته، فالنظم هو الذي يتحكم في مواقع الألفاظ، وليس العكس، والدكتور شحرور يجري غالباً وراء الألفاظ دون المعنى العام للنص.

(552) - الإتقان في علوم القرآن، (1/178-179).

(553) - المصدر السابق، (1/179-180).

ثامناً: وأما اللغة العلمية، فليست قائمة على الجمال ولا الأدب، ولا هي معجزة ولا تعبدية، ولا يكرر الإنسان قراءتها دوماً، ولا يرتلها ولا يجودها، فلا بد أن تكون لغة محددة، وتكون كما قال الدكتور شحرور بلا ترادف، "فإذا اختلفت خلية عن خلية أخرى ولو اختلافاً بسيطاً جداً ، نجد المؤلف يعطيها اسماً جديداً لتمييزها". فوظيفة لغة المختبر غير وظيفة لغة مسرح الحياة، وطريقة العمل في المختبر غير طريقة العمل في غيره، وهذا لا يعني بحال من الأحوال أن البشر أدق في لغتهم العلمية من خالقهم عز وجل، ومن اعتقد خلاف ذلك؛ فهو لا يعرف الفرق بين العلم والأدب والفن والدين والحياة، ومقتضيات كل منها في المنهج واللغة والأداء.

***

الملاحظة (5): حديث عن البلاغة

قال الدكتور شحرور: "قلنا سابقاً: إن البلاغة في القول والفصاحة في الكلام ... فعندما ننظر إلى جمال الكلمة يجب أن ننطلق إلى ما يلي: إلى الألفاظ والبنية النحوية وذلك في ربط الألفاظ بعضها ببعض وهدفها خدمة المعاني، وأن المعاني هي المالكة سياستها، وعندما ينسى القائل أنه يقول ليبين فهذه ليست لغة وإنما هراء"(554).

وقال الدكتور شحرور في موضع آخر: "لقد اعتمد أصحاب الردود. الذين ردوا عليه. النظرية البنيوية في اللغة . ففصلوا الشكل عن المضمون، واعتبروا المحمول بعيداً عن الموضوع ومسلوخاً عنه ، وارتكزوا على الجانب النحوي في اللغة تاركين جانب البلاغة والإبلاغ ، ولا غرابة في ذلك ، فمرتكزهم هذا استمرار لظاهرة تاريخية بدأها الفقهاء والمتصوفة .

لكن اللغة ليست مجرد علاقات داخلية قائمة بذاتها ولذاتها ، كالذرة مثلاً، التي تقوم منفصلة عن الإنسان ببروتوناتها والكتروناتها وأوتارها الفائقة ، إذ أن للغة وظيفة إبلاغية بين متكلم وسامع ، وثمة علاقة تلازمية بين المحمول في اللغة والموضوع ، إذا تركناها أو أهملناها ، يصبح الخبر عبثاً لا معنى له . وإذا أنكرنا دور السامع في صياغة المعاني ، نتجت لدينا نصوص لغوية منفصلة عن المجتمع ولا علاقة لها

(554) - الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ص (666).

بالواقع، والتقعيد والإعراب وضبط الشكل، إن كان يعين على فهم النص، إلا أنه لا يقيم فهماً مطلقاً بذاته"[555].

تعقيب ومناقشة

أولاً: يُلاحظ أن الدكتور شحرور يقرر أموراً في البلاغة والنقد ووظيفة اللغة من تلقاء نفسه. وكأنه مرجع فيها! . دون العودة إلى أي مصدر في هذه العلوم، وهذا يوقعه في الخلط والخطأ، فالفصاحة والبلاغة عند علماء البلاغة مصطلحان مختلفان، إذ الفصاحة هي صفة للفظ المفرد وللكلام والمتكلم، وأما البلاغة فهي صفة للكلام والمتكلم دون اللفظ المفرد، وهنالك شروط وضعها العلماء لاستخدام كل مصطلح منهما[556].

وجمال الكلمة لا علاقة له بربط الألفاظ بعضها ببعض، فهذا هو جمال النظم، والبلاغة لا ترجع للفظ أو معنى، وإنما إلى النظم.

ووظيفة اللغة هي البيان، ولكن قد يقتضي الإبداع الأدبي من الكاتب أو الأديب استعمال الغموض الفني في بعض المواضع، فهذا مما يزيد الأسلوب جمالاً، وليس هراء كما وصفه الدكتور شحرور، يقول الشيخ عبد القاهر في توضيح المراد بالبيان، وأنه قد يقتضي شيئاً من الغموض: "فإنما أرادوا بقولهم (ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك) أن يجتهد المتكلم في ترتيب اللفظ وتهذيبه وصيانته من كل ما أخلَّ بالدلالة، وعاقَ دون الإبانة، ولم يريدوا أن خير الكلام ما كان غُفْلاً مثلَ ما يتراجعه الصبيان، ويتكلم به العامة في السوق، هذا. وليس إذا كان الكلام في غاية البيان وعلى أبلغ ما يكون في الوضوح أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفاً، فإن المعاني الشريفة اللطيفة لا بد فيها من بناء ثان على أول، وردِّ تالٍ إلى سابق"[557].

ثانياً: قوله " ففصلوا الشكل عن المضمون ": هذا كلام جيد، فلا يمكن فصل الشكل عن المضمون.

ثالثاً: قوله: " وارتكزوا على الجانب النحوي في اللغة تاركين جانب البلاغة والإبلاغ ، ولا غرابة في ذلك ، فمرتكزهم هذا استمرار لظاهرة تاريخية بدأها الفقهاء والمتصوفة".

---

(555) - في الدولة والمجتمع، ص (41-42).

(556) - انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، شرح د. محمد عبد المنعم خفاجي، (2/72-83)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الخامسة، 1403هـ/ 1983م.

(557) - كتاب أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتر، ص(132-133).

هذا كلام يحتاج إلى إثبات، فالفقهاء[558] كان لهم دور غير مباشر في صناعة علم البلاغة، والبلاغة لا تقوم إلا على علم النحو أولاً. وأما الصوفية فقد انصرفوا لعلم الباطن، وأكثرهم لا يد مباشرة لهم. كفرقة. في تطوير العلوم.

رابعاً: قوله: ‟للغة وظيفة إبلاغية بين متكلم وسامع ، وثمة علاقة تلازمية بين المحمول في اللغة والموضوع". هذا هو الراجح ، ومن اللغويين من لا يرى ذلك.

***

الملاحظة (6): استخدام أسماء الجاهلية التي بدلها النبي عليه الصلاة والسلام

استخدم الدكتور شحرور اسم يثرب بدلاً من المدينة ، يقول: ‟أين مصداقية هذه الرسالة، لا في مكة ويثرب فقط، بل في طوكيو وباريس ومونتريال..." [559]. والملاحظ أنه يستخدم تسمية الجاهلية للمدينة النبوية، قال تعالى يصف بعض المنافقين وقد استخدموا اسم يثرب: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: 13].

وأما اسم المدينة فقد استخدمه رب العالمين، قال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: 60]، وحري بالباحث أن يستخدم ألفاظ القرآن ويتأدب بآدابه، ولا سيما إذا كان يتحدث عنه.

***

الملاحظة (7): أخطاء في ترتيب الآيات

ذكر الدكتور شحرور بعض الآيات وفيها خطأ بالترتيب، فقد قال: ‟ونقف مع صفحات هذا الكتاب أمام مفهوم جديد لحاكمية الله، مخالف للفهم السائد لآياته تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك

---

(558) – مما يثبت ذلك أنه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية –جامعة الحسن الثاني– بالمحمدية كانت هنالك أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان "أثر التكامل المعرفي بين اصول الفقه والبلاغة في التفسير" للطالب الباحث عبد الله بن رقية، شعبة الدراسات الإسلامية.

(559) – نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي فقه المرأة، ص(22).

هم الظالمون.. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) وذلك بشرح معانيها كما وردت في سياق آيات التنزيل الحكيم"[560]. والصواب في ترتيب الآيات أن تكون آية (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) أولاً، وهذا سياق الآيات وترتيبها في المصحف الشريف: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ٤٦وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 44-47].

***

الملاحظة (8): أرقام فلكية ومجازر وهمية

يقول الدكتور شحرور: "فإذا نظرنا في إحصائية جرائم بلد ما عدد سكانه خمسة ملايين: 1 – نجد عدد جرائم القتل قليلاً، فهناك أيام لا تحصل فيها ولا جريمة قتل. 2 – نجد عدد جرائم السرقة في اليوم الواحد أكثر من جرائم القتل. 3 – فهل يمكن أن نتصور كم واقعة زنا تحصل يومياً في هذا البلد، إنها لا شك أكبر بكثير من جرائم القتل والسرقة مجتمعة. فإذا عممنا هذه النظرة على العالم كله، بعدد سكانه البالغ خمسة مليارات تقريباً، نستنتج أن هناك حوالي 100 مليون عملية جنسية تحصل يومياً، منها، إذا أحسنّا الظن، 25 مليون عملية غير شرعية (زنا)، فإذا افترضنا أن نصف أبطال هذه العمليات محصنين، فهذا يعني أن لدينا يومياً 25 مليون حكم إعدام و25 مليون حكم جلد، ونصف المحكومين بها ذكور، ونصفه إناث. فإذا عرفنا إلى جانب ذلك كله أن عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية خلال ست سنوات كان 50 مليون إنسان، أي بمعدل 25 ألف يومياً، لأدركنا بوضوح أية مجازر جماعية تحصل، لو طبقنا المضمون في جرم الزنا وتغاضينا عن الشكل أو تساهلنا فيه. وتصوروا معنا ماذا يحدث لو أن الله تعالى

(560) – في الدولة والمجتمع، ص (371).

نص في تنزيله على مضمون عقوبة الزنا، وترك تحديد الشكل لأهواء البشر، وإلى أية حالة وحشية تصل المجتمعات، حتى لتعتبر محاكم التفتيش بجانبها قطعة حلوى. من هنا نفهم رحمة الله بعباده حين جعل الشكل أهم من المضمون، ونص على الشكل حرفياً، ولم يتركه الحنيفية والمجتمع والتشريع الإنساني، كما فعل بالسرقة أو الرشوة"(561).

تعقيب ومناقشة

أولاً: هذه الأرقام وهمية غير حقيقة(562)، لا تستند إلى إحصائية رسمية ولا منطق رياضي! فكيف لامرئ بلا استبانات ولا برنامج إحصاء أن يحصر عدد الزناة في العالم؟! ومن يستحق الرجم منهم ومن يستحق الجلد؟!.

ثانياً: قوله: "25 مليون عملية غير شرعية (زنا)". هنا أخطأ في الرقم، وينبغي أن يكون رقمه 50 مليون، لأنه قال بعده: "فهذا يعني أن لدينا يومياً 25 مليون حكم إعدام و25 مليون حكم جلد". ويبدو أن بسبب ذكره أرقاماً كبيرة، فقد التبس عليه الحساب!

ثالثاً: لماذا سوء الظن بالناس؟، هل نصف من يمارسون الجنس هم زناة كما زعم؟ ومن أين له معرفة هذه التفاصيل؟ لقد سبق الشعراء في تخيلاته!

رابعاً: والمجازر التي تحدث عنها الدكتور شحرور وهمية أيضاً غير حقيقية، والمسلمون ليسوا مكلفين بأن يقيموا حدود العقوبات التي شرعها الله لهم على غيرهم من الناس، إلا في حالة إذا اعتنق الآخرون الإسلام.

خامساً: وكل أمة تطبق دينها على نفسها، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

(561) - في الدولة والمجتمع، ص (312-313).

(562) - انظر أيضاً إحصاءه لعدد من يدخل الجنة والنار من النساء والرجال في عام 2000م!! وذلك في كتابه: نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي فقه المرأة، ص (159-160).

الملاحظة (9): أهمية التواضع

في كتابه تجفيف منابع الإرهاب كتب الدكتور شحرور قبل المقدمة ثلاثة أقوال في صفحة كالآتي:

"من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. أبو بكر الصديق.

اقرؤوا كتاب الله بكل جرأة وبدون وسيط، لا تخافوا منه، ولا تخافوا عليه، فإن الله لا ينهزم. المؤلف.

من الحماقة أن تعتقد أنك ستحصل على نتائج مختلفة وأنت تكرر الشيء نفسه. آينشتاين"[563].

تعقيب ومناقشة

أولاً: يلاحظ في عنوان الكتاب انتهازية المؤلف، فهو يبحث عن الموضوع الذي يروج في الإعلام ليكتب فيه من زاوية يتقبلها الإعلام، بغض النظر عن أهمية الموضوع العلمية، فطالما أن الإرهاب شغل الإعلام الشاغل، فليكتب المؤلف عنه، فالكتابة صارت وفق متطلبات السوق!

ثانياً: هل من التواضع في شيء أن يحشر كلامه بين أبي بكر الصديق وأينشتاين، فمن ناحية التاريخ فقد ماتا قبله، ومن ناحية العلم فهما أعلم منه، وكان ينبغي أن يؤخر كلامه بعدهما، إلا إذا كان يعتبر نفسه نداً لهما.

ثالثاً: طالما أنه يدعونا لقراءة القرآن بدون وسيط، فلماذا ألف لنا عشرة كتب (وما زال يؤلف) ليفهمنا كتاب ربنا، لو بدأ بنفسه فأراحنا، وأراح نفسه من هذه الوسائط التي يخترعها، لتكون بديلاً عن التفاسير بكل أنواعها.

رابعاً: قوله: (إن الله لا يهزم) صحيح، ولكنه قد يُؤذى مع رسوله صلى الله عليه وسلم، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: 57].

ومن صور إيذاء الله تعالى ورسوله: تحريف كلام الله تعالى، أو تفسيره بما لا تعرفه العرب ولا يوجد في لغتهم، ووضع إسفين بين الكتاب والسنة، وإنكار السنة، أو التشكيك بها وبرجالها، وتشويه عصر الصحابة، وتكذيب علماء الدين، والتلاعب بأحكام الميراث، وإنكار الحجاب، والحدود، والاستهزاء بالفقه والفقهاء، واللامنهجية في التعامل مع الكتاب والسنة!

***

(563) - تجفيف منابع الإرهاب، ص (7).

الملاحظة (10): نقد ابن كثير بغير حق

نقد الدكتور شحرور الإمامَ ابن كثير واعتبر كلامه مضحكاً، وقال: "... فلا تقول كلاماً مضحكاً ... فمثلاً عندما أقرأ في تفسير ابن كثير حديثاً واهي السند يقول فيه: كانت سورة الأحزاب مثل طول البقرة، ثم نسخ منها ما نسخ!! فهل يمكن أن ينزل الله سورة من أربعين صفحة ثم ينسخ منها خمساً وثلاثين صفحة؟؟"[564].

تعقيب ومناقشة

الجواب: إن العلماء لم يكتموا شيئاً، ذكروا الحديث الصحيح والضعيف والموضوع، ووضعوا مصنفات لكل قسم، وهذا منهج لا يعيبه إلا إذا تطفل على العلم من ليس من أهله، والرواية لهذا الحديث ضعيفة ولا يحتج بها.

والتضعيف له طريقان: إما الرواية وإما الدراية، وقد يجتمعان معاً، وهذه الرواية ضعيفة في سندها وفي معناها، وذكرها مع إسنادها يعفي مسئولية من ذكرها، وعلماء الحديث يقولون: (من أسند لك فقد أحالك) بمعنى برئت ذمته .. وكانت هذه طريقتهم في التأليف.

على أن ابن كثير ذكر رواية أخرى للحديث للنسائي عن عاصم بن أبي النجود، وقال: "وهذا إسناد حسن، وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن، ثم نسخ فيها لفظه وحكمه أيضاً، والله أعلم"[565].

وإذا كان الدكتور شحرور لا يقبل هذه الرواية، وابن كثير وغيره من العلماء يقبلونها، **فلا يليق أن يجعل فهمه هو الصواب ويلغي فهم الآخرين**، ففي العلم هناك حجة تقابلها حجة، فابن كثير قدم رواية أنكرها الدكتور شحرور اعتماداً على عقله فقط، وعقله ليس هو ممثلاً للعقل الجمعي للأمة، وما يقبله عقل واحد من الناس قد يرفضه عقل آخر منهم، وأما إذا اتفق جميع العقلاء على رفض شيء، فهذا من باب أولى أن يرفضه الدين وأهل العلم.

---

(564) - في الدولة والمجتمع، ص (320).

(565) - انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق سامي محمد سلامة، (375/6).

ونحن لا نرى صراعاً بين العقل والنص، بل نرى تكاملاً بينهما، فالنص: كضوء الشمس، قادم من السماء ليساعدنا على الرؤية ويدفئنا، والعقل: هو كالعين التي تستقبل هذا الضوء، ولا يمكن الاستفادة من أحدهما بمعزل عن صاحبه، والنص الصريح الصحيح نور للعقل.

والعقل بعدما سلم بصحة القرآن، وما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسانيد صحيحة، ينبغي عليه أن يقبل النص كما هو أولاً، ثم يحاول فهمه، فليست العقول واحدة في قدراتها الفكرية، وما استغلق فهمه على واحد، قد يفتح الله به على آخر (وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم).

وكتب الجاحظ، وابن قتيبة، ومعمر بن المثنى، والفراء، والزمخشري وابن تيمية... كلها اجتهدت في دفع الإشكالات بين العقل والنص، لأنهما لا بد أن يتفقا، وذلك لأن من خلق العقل هو من أنزل النص، فالمصدر واحد، فمن سارع إلى إنكار النص قبل أن يفهمه، فقد كذب بالحق لما جاءه، والعياذ بالله من ذلك.

ونُنوه أخيراً إلى أن ابن كثير والرواة ليسوا بمعصومين، وليس وقوع أمر لا يتقبله عقل القارئ مدعاة إلى شطب الكتاب كله، لأننا لو اتبعنا هذا المنهج لم نبق كتاباً غير كتاب الله! فأي كتاب لا يخلو من خطأ أو ملاحظة؟!.

ولا ينبغي أن يكون ديدن الباحث الموضوعي هو التفتيش عن أخطاء الآخرين فقط، وإسقاطهم، فتتبع الزلات وحدها دون ذكر الإيجابيات يهدم صرح العلم والبحث العلمي، وما من عالم إلا قال ورَدَّ، ورُدَّ عليه، والمعصوم هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

أخيراً: إن تفسير ابن كثير موضوع للعلماء، وليس للعامة، فالعامة يكفيهم بعض التفاسير المختصرة.

***

الملاحظة (11): الإحالات

الإحالات عند الدكتور شحرور قد تأتي أحياناً من دون أرقام الصفحات، أوبدون ذكر بيانات النشر بشكل دقيق[566].

****

(566) – انظر: في الدولة والمجتمع، ص (259). في الحاشيتين الأولى والثانية إحالة إلى كتابين: من دون ذكر أرقام الصفحات وبيانات نشر الكتابين.

نتائج الفصل الثالث

1. في المبحث الأول: الموقف من القرآن الكريم وعلومه: يرى الدكتور شحرور أنه لا بد من البحث والتنقيب في القرآن الكريم، وتجاوز منهج الصحابة الذي يقف مع بعض آيات القرآن موقف التفويض! وهذا منهج مخالف لما عليه الأمة.
2. يؤكد الدكتور شحرور على أن التأويلات الجديدة التي أتى بها ليست نهائية، ولا هي بملزمة للأجيال القادمة، فمعنى ذلك أنها لا ترتكز إلى قواعد منهجية ثابتة.
3. من طبيعة الإسلام حفظه من التغيير والتبديل، لأن الحنيفية متوافقة مع الفطرة، والفطرة لا تتغير.
4. إن اتهام أكابر الصحابة بعدم فهم القرآن وهجرانه، وجعلهم مع الكافرين في مستوى واحد، هو اتهام باطل.
5. يرى الدكتور شحرور ضرورة سحب القرآن من أيدي العلماء، وهذا أسلوب إرهابي في التعامل مع الآخرين.
6. تبين في استعراض نماذج من الاجتهادات التفسيرية الحديثة، أن الدكتور شحرور ليس لديه منهج علمي صحيح في التفسير، ولا يجيد فهم المأثور ولا المنقول، **لذلك فهو يفسر القرآن حسب هواه كيفما اتفق!**
7. يتجاهل الدكتور شحرور كثيراً من علوم اللغة وخصائصها، وهذا الكلام الذي يسوقه معتمداً على فهمه للقرآن، يتجاهل فيه كثيراً مما في لغة القرآن من مجازات وكنايات وألوان بديعية وتعبيرية، ويهمل أكثر مسائل علم المعاني.
8. لم يعتمد الدكتور شحرور المظان الأصلية للبلاغة وعلم الأسلوب مراجعاً له، وكيف يعتمدها وهو يحارب عبدة التراث كما يسميهم.
9. الخلاف بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقومه كان على كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وليس على قضية الحرية.
10. **ما ذكره الدكتور شحرور بأن بعض الكتاب معجز دون بعضه الآخر! والمعجز في الكتاب هو قسم النبوة، وليس أم الكتاب! كل هذا الكلام باطل بالحجة والبرهان العلمي الصحيح.**
11. يتهم الدكتور شحرور المفسرين بعدم فهم القرآن الكريم، وإرساله الأحكام بالجملة يدل على عدم دقتها وبطلان صحتها.

12. لدى الدكتور شحرور مغالطات صريحة تدل على عدم معرفته بكتب التفسير.

13. في المبحث الثاني: الموقف من السنة النبوية وعلومها: رفض الدكتور شحرور التعريفات التقليدية للسنة، وابتكر تعريفا جديداً للسنة!

14. ينكر الدكتور شحرور كل حديث من السنة لا يوافق هوى النفس!

15. يجنح الدكتور شحرور إلى ضرب السنة بعضها ببعض، وهذا عكس منهج علماء السلف في التوفيق بين الروايات المتعارضة.

16. يتهجم الدكتور شحرور أحياناً على الصحابة، ومنهجه يخالف القرآن الكريم الذي أثنى على الصحابة .رضي الله عنهم .وزكاهم.

17. ما ذكره بأن المسلمين عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم حين دونوا حديثه ..هذا كلام باطل.

18. يحرص الدكتور شحرور على ضرب السنة بالواقع، وكذلك يحرص على ضربها بالقرآن الكريم تمهيداً لإسقاطها.

19. إذا حاكمنا السنة إلى الواقع، فبعد مدة سنأتي ونحاكم القرآن إلى الواقع، ونحن كمسلمين مرجعيتنا القرآن والسنة، نأبى هكذا محاكمات، وإنما نحاكم الواقع إلى القرآن والسنة وليس العكس!.

20. قام بالتشكيك في رواة السنة والغرض منه إسقاطها.

21. تشكيكه بالصحيحين . لو جاز ذلك . يكون بنقد منهجهما بأسلوب علمي، لا باستعراض بهلواني لبعض الأحاديث، والحكم من خلالها على كل ما ورد في الصحيحين.

22. قول الدكتور شحرور عن العلماء: "أنهم هم الهادمون الطاعنون المسيئون". هذا كلام خارج عن أدب الدعوة وأخلاق الإسلام.

23. ما يراه الدكتور شحرور من أن معظم السنة ليست وحياً، وإنما هي اجتهاد من النبي صلى الله عليه وسلم، هي رؤية باطلة، لا يقرها شرع، ولا نقل، ولا عقل!.

24. أنكر الدكتور شحرور على الفقهاء والمتصوفة تعظيم النبي . صلى الله عليه وسلم . وجعله القدوة والمثل! واتهمهم بأنهم حولوا رسول الله إلى خرافة!

25. تمت مسألة عرض السنة على القرآن عند تدوين الحديث الشريف، وتم الفراغ منها، ولا ينبغي أن نترك العمل بالسنة لنقوم بعرض السنة على القرآن في كل عصر ومصر، ضمن جدل لا ينتهي!

26. لا يمكن التعامل بمزاجية مع السنة، فنأخذ منها ما يعجبنا ونترك ما لا يتماشى مع أهوائنا، فالسنة والقرآن يعملان معاً لتنويرنا وهدايتنا كما الشمس والقمر.

27. في المبحث الثالث: الموقف من الإجماع: رفض الدكتور شحرور حجية الإجماع، فهو مفهوم لا يعتد به عنده، وموقفه من الإجماع باطل كما أثبتنا.

28. في المبحث الرابع: الموقف من القياس: يرى الدكتور شحرور أن القياس باطل، وموقفه من القياس لا يسانده أي دليل علمي، فهو كلام إنشائي يعوزه الدليل والبرهان.

29. في المبحث الخامس: الموقف من التراث العلمي والسلف الصالح: وجدنا أن الدكتور شحرور يستخف بالتراث العربي الإسلامي الذي هو مفخرة الأمة، فهو يراه تراثاً ميتاً، صالحاً لزمانه فقط، وقد انتهت صلاحيته! ويدعو للقطيعة معه.

30. إن الهجمة على الفقه غير منطقية، فليس ثمة دليل واحد يسوقه الدكتور شحرور حتى الآن ليثبت تخلف الفقه الإسلامي، بل هو يقرر أحكاماً مسبقة من غير مقدمات، ولا تحليل، ولا استنتاجات علمية قويمة!.

31. في المبحث السادس: الموقف من السلفية والفرق الإسلامية: وجدنا الدكتور شحرور يرفض منهج أهل السنة والجماعة الاتباعي، ويحبذ مذهب المعتزلة.

32. إن السيف المسلط على رؤوس الناس ليس هو السنة، ولكنه الاعتزال الذي كان يتستر بالعقل، ثم يزج الناس في السجون بدعوى خلق القرآن.

33. لا يجب إقحام العقل في تفاصيل قضايا الإيمان بالغيب، وصفات الله، والآيات المتشابهات.

34. لا نرى وصاية للعقل على النص، بل نرى أن النص الصريح الصحيح نور للعقل، ومرشد له، والحقيقة العلمية عندنا ليست تلك التي تؤيد الدين فقط، بل تلك التي يؤيدها الدين.

35. في هجوم الدكتور شحرور على السلفية مغالطات كثيرة، فالسلفية ليست شكلاً أو إطاراً نعود إليه، وإنما هي محتوى ومنهج.

36. إن السلفية تعني العودة إلى أحكام الشريعة الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير

37. لا ننكر أن ثمة ملاحظات على بعض طرق الصوفية، واجتهادات الفقهاء، ولكن الدكتور شحرور يطلق أحكاماً عامة، ولا يُفَصِّل ولا يستثني، ويشوه الفقه، والتصوف، والمجتمع الإسلامي، بكلامٍ لو قاله مستشرق لقامت الدنيا ولم تقعد!

38. اتهام الدكتور شحرور للعثمانيين، ولصق التخلف بهم غير سليم، ونحن لا ننكر أن الأمة قد تدهورت في عهودها الأخيرة، ولكن ليس إلى هذا الحد الذي يصفه الكاتب.

39. **وصف الدكتور شحرور للمشايخ من علماء وفقهاء بأنهم يخدرون الناس، هو اتهام خطير كان قد ردده من قبل كارل ماركس حين قال: (الدين أفيون الشعوب).**

40. الإمام الشافعي هو أعلم بالدين والسنة ولغة العرب من الدكتور شحرور وأمثاله.

41. يهاجم الدكتور شحرور علماء المسلمين، ويتهمهم بالنفاق للسلطة، وأنهم ضد آمال الشعوب، بدون وجه حق.

42. **يرى الدكتور شحرور في حكام المسلمين "منذ ضعف الخلافة العباسية المدنية، ابتداء من عهد المعتصم والمتوكل" مجموعة فراعنة وقوارين، لا شرعية لهم، وكان دور الفقهاء إخضاع الناس لسلطتهم العسكرية.**

43. الإسلام عزز قيمة الحرية في المجتمعات الإسلامية، وليس كما زعم الدكتور شحرور بأن الحديث النبوي وقف ضد قيمة الحرية.

44. في تشبيه الحكام بفرعون، والعلماء بهامان، نبرة تكفيرية واضحة! ويجب أن لا نكفر أحداً، ولا نطلق أوصاف الكفر على المسلمين باستعارة ألفاظ مثل: فرعون وقارون وهامان، وذلك لنلمز بها الحكام والمسئولين بشكل عام.

45. في المبحث السابع: من اجتهادات الدكتور شحرور: وصف الدكتور شحرور الله عز وجل بالحرية دون الديمقراطية، تعالى الله عن ذلك!.

46. ما ذهب إليه الدكتور شحرور بأن مصطلح الكافرين في قوله: (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) المقصود به الكفر بالحرية، هو تحريف صريح لا وجه له.

47. ما ذهب إليه الدكتور شحرور من تكفير المسلمين وأسلمة الكافرين باطل! وكأن الدكتور شحرور انتهى كاتباً تكفيرياً، وليس كاتباً إصلاحياً.

48. إن كل تطرف يسبب تطرفاً مضاداً، وتشجيع مثل فكر الدكتور شحرور سيسبب تطرفاً مضاداً، ويخلق مزيداً من الأزمات في مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

49. إن الدكتور شحرور يقوم بقلب المفاهيم فيسمي الليل نهاراً، والنهار ليلاً، وقلب الحقائق من أخطر الأمور في حياة الناس.

50. خلط الدكتور شحرور بين الجهاد والإرهاب وتزكية النفس، ورفض إطلاق صفة المجاهد على الغازي في سبيل الله، ورفض إطلاق صفة الشهيد على من سقط في أرض المعركة!.

51. **شوه الدكتور شحرور دولة بني أمية، ونسب إليها الزور والبهتان والعيوب، ولم يذكر لها حسنة واحدة قط! وهذا يدل على تحيزه، واتخاذه نتائج مسبقة، وبعده عن الموضوعية!**

52. أعلن الدكتور شحرور أخيراً دعوته إلى تعطيل الجهاد وفق المفهوم الشرعي، مخالفاً لكل ما أقره العلماء والفقهاء ورجال القانون في هذا الخصوص!

53. يُنَظِّر الدكتور شحرور بصورة غير مباشرة للتغيير عن طريق العنف السياسي، يقول: "ثم يأتي بعد ذلك العنف السياسي لتأسيس دولة تقوم على الشورى وحرية الإختيار. والمجموعة التي ستخلق هذا التيار، وتتحمل التضحيات، هي الطليعة".

54. ينكر الدكتور شحرور دور الروح، وأنها سر الحياة، ولعل هذا بسبب تأثره بلوثة العصر المادية!.

55. في المبحث الثامن: من فقه الدكتور شحرور: يبيح الدكتور شحرور الغناء والموسيقى بلا ضوابط.

56. الطلاق عند الدكتور شحرور يكون في المحكمة، وأما الطلاق الشفهي يعتبر من اللغو، وهو بهذا يحلل للمطلقة أن تعيش مع زوجها بالحرام!

57. ما أباحه من تبادل النظرات المحرمة، بين الرجل عندما يتكلم إلى المرأة، أو العكس، هو تحليل للحرام!

58. الحد الأدنى من اللباس للرجل عند الدكتور شحرور هو تغطية الفرج فقط، وقد أباح للبنت أن تخرج عارية أمام أبيها! وكل هذا محرم في الشريعة الإسلامية.

59. ما ذهب إليه الدكتور شحرور بأن الحجاب أمر شخصي، وهو عادة، وليس فرضاً، غير صحيح، وكلامه تشجيع على الانفلات من الآداب والعادات الإسلامية الثابتة.

60. أنكر الدكتور شحرور عقوبة الرجم للمحصن، وذلك كما فعل قبله الخوارج، وخفف عقوبة اللواط، وهذا مما يغري بعض الناس بالفواحش المحرمة.

61. في المبحث التاسع: أخطاء علمية: اعترف الدكتور شحرور بهدف خطير لدراساته المعاصرة، فهو يريد من ورائها تغيير مفاهيم ومصطلحات الدين الإسلامي، وليس له ذلك ولا لغيره.

62. إن قضية إنكار الترادف، أو إثباته، لا علاقة لها بالسياسة، ولا بالاستبداد الذي يدعيه الدكتور شحرور.

63. هنالك تشوش لدى الدكتور شحرور في فهم العلاقات بين الصدق والجمال وصدق الخبر، ولديه التباس في فهم بعض القضايا البلاغية والنقدية.

64. يجهل الدكتور شحرور الفروق الكثيرة بين اللغة الأدبية واللغة العلمية، ويصدر أحكاماً بناءً على تصوره الخاطئ!.

65. يستخدم الدكتور شحرور اسم يثرب بدلاً من المدينة، وهي تسمية من عصر الجاهلية للمدينة النبوية، استخدمها المنافقون كما ذكر الله تعالى ذلك عنهم.

66. لا توجد دقة ومراجعة للآيات الكريمة التي يستشهد بها الدكتور شحرور، فقد ذكر بعض الآيات وفيها خطأ بالترتيب!

67. **يطلق الدكتور شحرور أرقاماً فلكية يحصر فيها عدد الزناة في العالم**، ومن يستحق الرجم منهم، ومن يستحق الجلد! ويتصور وجود مجازر وهمية عقب هذه الأرقام! وهي لا تستند إلى إحصائية رسمية ولا منطق رياضي! فكيف لامرئ بلا استبانات ولا برنامج إحصاء أن يحدد تلك الأرقام؟!.

68. **يرى الدكتور شحرور نفسه في مفام كبار العلماء! ويشبه نفسه بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام!**

69. وجه نقداً شديداً لابن كثير من دون وجه حق، ومع عدم إحاطته بعلم الرواية ولا الدراية.

70. الإحالات عند الدكتور شحرور قد تأتي من دون أرقام الصفحات أوبيانات النشر.

الخاتمــــــــة
موجز ونتائج وتوصيات

موجز البحث

تكون هذا البحث من: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة.

في المقدمة تحدثنا عن أهمية التجديد، وضرورته، وذكرنا أن التجديديين وقعوا في مشاكل عدة، وذكرت سبب تأليف البحث، وخطته، والمنهج المتبع.

وجاء بعدها تمهيـد حول المنهجية العلمية وقواعد البحث العلمي

تحدثنا فيه عن ضرورة الإلمام بقواعد العلوم، واحترام أهل الاختصاص، واحترام قواعد البحث العلمي، والموضوعية، وأن تكون النتائج طبيعية، وليست نتائج مسبقة للبحث، وأن هناك إطاراً محدداً للتجديد، وضرورة احترام النصوص المقدسة، وتحديد الغرض من التأليف، وبعض الملاحظات والأخطاء المنهجية الشائعة في البحث العلمي.

وفي الفصل الأول: دراسة منهج الدكتور شحرور

تناولنا فيه مبحثين:

المبحث الأول: منهج الدكتور شحرور الذي ذكره في: (الكتاب والقرآن قراءة معاصرة). وضم مسألتين:

المسألة الأولى: الموقف من المنهجيات العربية والإسلامية التاريخية والسائدة.

والمسألة الثانية: منهج جديد للتعامل مع القرآن.

وأما المبحث الثاني فكان حول منهج الدكتور شحرور الذي ذكره واعتمده في موقعه الشخصي على شبكة الإنترنت، وقد عرضنا ما قاله عن النّظام المعرفي المتبع، وعناصره هي: أولاً: الإيمانيات. ثانياً: الأوّليّات. ثالثاً: اللغويّات. رابعاً: المنهج الفكري. خامساً: أسس التشريع المعاصر. وناقشنا كلامه فقرة فقرة، وذكرنا أهم الملاحظات، وأعقبنا ذلك بنتائج الفصل الأول.

وفي الفصل الثاني: مصطلحات الدكتور شحرور كما ذكرها في موقعه على شبكة الإنترنت

وقد تناولنا فيه تلك المصطلحات واحداً تلو الآخر، وعرضنا ما عليها من ملاحظات، ثم ذكرنا عقبها نتائج الفصل الثاني.

وفي الفصل الثالث: دراسة محتوى فكر الدكتور شحرور

وفيه تسعة مباحث، تناولنا فيها الموقف من القرآن الكريم وعلومه، والموقف من السنة النبوية وعلومها، والموقف من الإجماع، والموقف من القياس، والموقف من التراث العلمي والفقه، والموقف من السلفية والفرق الإسلامية، ودرسنا بعض اجتهادات الدكتور شحرور، وشيئاً من فقهه، وعرضنا بعض الأخطاء العلمية التي وجدناها في كتبه، وأعقبنا ذلك بنتائج الفصل الثالث.

***

نتائج البحث بإيجاز وفق فصوله

توصلنا من خلال هذا البحث إلى نتائج كثيرة، والنتائج التفصيلية مذكورة عقب كل فصل، ولكن نوجز هنا أهمها:

في الفصل الأول:

يطلق الدكتور شحرور كثيراً من التعميمات والأحكام العشوائية، بدون أدلة صحيحة، ولا استقراء تام، ولا بحث علمي موضوعي.

وقد رأينا أن أنسب المناهج لدراسة القرآن هو المنهج الوصفي، وهو الذي يدرس النص القرآني في البيئة التي نزل فيها، والفترة التي نزل فيها.

والنص القرآني المقدس ثابت الشكل والمحتوى. والبنيوية لم تقد إلى نتائج صحيحة ولا يصح تطبيقها على القرآن، وكذلك منهج التفكيكية، والحداثة.

والترادف موجود في اللغات كلها، ومنها العربية، ولولاه لما كانت صناعة المعاجم قائمة. ولفظ القرآن ليس مرادفاً للفظ الكتاب، ولكن دلالتهما واحدة، والمقصود بها ما بين دفتي المصحف، وقد اضطر الدكتور شحرور في بعض المواضع لإثبات الترادف بشكل عملي، وإن أنكره نظرياً.

لم أجد في (الكتاب والقرآن) كله بيتاً واحداً لشاعر من شعراء العصر الجاهلي!.

ولم يحترم الدكتور شحرور عقول المسلمين، ولا عواطفهم، حين وصفهم بأنهم حولوا رسول الله إلى خرافة! وقد قام بجمع الشبه القديمة حول الصحابة، ورددها من جديد، كطعنه بأبي هريرة. وتهجم على علماء المسلمين وفرقهم المختلفة، وهو لا يقيم وزناً لمن يخالفه، ويتناقض في أحكامه.

ولديه غبش في معرفة علم اللغة الحديث واللسانيات، بدليل إنكاره للترادف، ونسبة ذلك لعلماء اللسانيات، بينما ذكر الدكتور إبراهيم أنيس بأن معظم علماء اللغة المعاصرين يثبتون الترادف.

ولدى الدكتور شحرور اضطراب في المنهج. وما يُسمى اكتشافاً جديداً للنص القرآني إنما يراد منه نسف المفاهيم الأساسية للقرآن، تحت ذريعة التطور والتجديد.

وفي الفصل الثاني:

وجدنا أن معظم هذه المصطلحات مبتورة التعاريف، مشوهة لا تنطبق على كل الآيات التي ترد فيها، وبعضها ذات معان غريبة عجيبة، ترفضها معاجم اللغة العربية، ويأباها سياق الآيات الكريمة التي وردت فيها، وهي . أي المصطلحات . غير مرتبة أبجدياً أو هجائياً، كما أنها لا تشمل كل المصطلحات القرآنية، وهي بحاجة إلى مراجعة دقيقة وشاملة، واستقراء تام لأماكن وجودها في الكتاب العزيز، وتحقيق علمي لمعانيها واستخداماتها، مع توثيق ذلك من المعاجم المعتمدة للغة العربية.

وفي الفصل الثالث:

يرى الدكتور شحرور أنه لا بد من البحث والتنقيب في القرآن الكريم، وتجاوز منهج الصحابة الذي يقف مع بعض آيات القرآن موقف التفويض! وأن التأويلات الجديدة التي أتى بها ليست نهائية، ولا هي بملزمة للأجيال القادمة، فمعنى ذلك أنها لا ترتكز إلى قواعد منهجية ثابتة.

وقد اتهم أكابر الصحابة بعدم فهم القرآن وهجرانه، ويرى الدكتور شحرورضرورة سحب القرآن من أيدي العلماء، وتبين في استعراض نماذج من الاجتهادات التفسيرية الحديثة: أن الدكتور شحرور ليس لديه منهج علمي صحيح في التفسير، ولا يجيد فهم المأثور، ولا المنقول، لذلك فهو يفسر القرآن حسب هواه كيفما اتفق!.

وهو يتجاهل كثيراً من علوم اللغة وخصائصها، ولم يعتمد المظان الأصلية للبلاغة وعلم الأسلوب، وذهب إلى أن بعض الكتاب معجز، دون بعضه الآخر! واتهم المفسرين بعدم فهم القرآن الكريم، ولا شك أن إرساله الأحكام بالجملة يدل على عدم دقتها، وبطلان صحتها. كما أن لديه مغالطات صريحة، تدل على عدم معرفته بكتب التفسير.

وقد ذكر الدكتور شحرور تعريفاً جديداً للسنة! وهو ينكر كل حديث من السنة لا يوافق هوى النفس! ويجنح إلى ضرب السنة بعضها ببعض، ويغمز بالصحابة، ومنهج الدكتور شحرور يخالف القرآن الكريم الذي أثنى على الصحابة .رضي الله عنهم.وزكاهم.

ويحرص الدكتور شحرور على ضرب السنة بالواقع، وكذلك يحرص على ضربها بالقرآن الكريم، تمهيداً لإسقاطها. وقام بالتشكيك برواة السنة، كما شكك بالصحيحين، وهو يرى أن معظم السنة ليست وحياً، وإنما هي اجتهاد من النبي صلى الله عليه وسلم.

ورفض الدكتور شحرور حجية الإجماع، فهو مفهوم لا يعتد به عنده، ويرى أيضاً أن القياس باطل.

يستخف الدكتور شحرور بالتراث العربي الإسلامي الذي هو مفخرة الأمة، فهو يراه تراثاً ميتاً، صالحاً لزمانه فقط، وقد انتهت صلاحيته! ويدعو للقطيعة معه.

ويدعي تخلف الفقه الإسلامي، بلا أدلة، ويرفض منهج أهل السنة والجماعة الاتباعي، ويحبذ مذهب المعتزلة.

ويكيل الدكتور شحرور التهم للعثمانيين، ويلصق بهم التخلف، ويصف الدكتور شحرور المشايخ من علماء وفقهاء بأنهم يخدرون الناس، ويهاجم الإمام الشافعي، ويهاجم العلماء ويتهمهم بالنفاق للسلطات الحاكمة، ويرى الدكتور شحرور في حكام المسلمين وعلمائهم عبر التاريخ مجموعة فراعنة وقوارين، لا شرعية لهم، وكان دور الفقهاء إخضاع الناس لسلطتهم العسكرية.

وصف الدكتور شحرور الله عز وجل بالحرية دون الديمقراطية، تعالى الله عن ذلك، وذهب الدكتور شحرور إلى أن مصطلح الكافرين المقصود به الكفر بالحرية، وهو تحريف صريح، لا وجه له.

وما صنعه الدكتور شحرور من تكفير المسلمين، وأسلمة الكافرين، باطل! وقد انتهى الدكتور شحرور إلى حالة يكاد يكون فيها كاتباً تكفيرياً، وليس كاتباً إصلاحياً تنويرياً.

يخلط الدكتور شحرور بين الجهاد، والإرهاب، وتزكية النفس، ورفض إطلاق صفة المجاهد على الغازي في سبيل الله، وكذلك صفة الشهيد على من سقط في أرض المعركة! وشوه الدكتور شحرور دولة بني أمية، ونسب إليها الزور والبهتان والعيوب، ويُنَظِّر الدكتور شحرور للتغيير السياسي.

ينكر الدكتور شحرور دور الروح، وأنها سر الحياة، ولعل هذا بسبب تأثره بلوثة العصر المادية! ويبيح الدكتور شحرور الغناء والموسيقى، بلا ضوابط.

والطلاق عند الدكتور شحرور يكون في المحكمة، وأما الطلاق الشفهي فيعتبره من اللغو! والحد الأدنى من اللباس للرجل عند الدكتور شحرور هو تغطية الفرج فقط، **وقد أباح للبنت أن تخرج عارية أمام أبيها!** والحجاب أمر شخصي، وهو عنده عادة، وليس فرضاً.

وقد أنكر الدكتور شحرور عقوبة الرجم للمحصن، وخفف عقوبة اللواط، وهذا مما يغري بعض الناس بالفواحش المحرمة.

وقد اعترف الدكتور شحرور بهدف خطير لدراساته المعاصرة، فهو يريد من ورائها تغيير مفاهيم ومصطلحات الدين الإسلامي.

توصلنا أيضاً إلى أن قضية إنكار الترادف أو إثباته لا علاقة لها بالسياسة، ولا بالاستبداد الذي يدعيه الدكتور شحرور.

ولحظنا أن هنالك تشوشاً لدى الدكتور شحرور في فهم العلاقات بين الصدق والجمال وصدق الخبر، ولديه التباس في فهم بعض القضايا البلاغية والنقدية. وهو يجهل الفروق الكثيرة بين اللغة الأدبية واللغة العلمية.

لا توجد دقة ومراجعة للآيات الكريمة التي يستشهد بها الدكتور شحرور.

يطلق الدكتور شحرور أرقاماً فلكية يحصر فيها عدد الزناة في العالم، ومن يستحق الرجم منهم ومن يستحق الجلد؟ ويتصور مجازر وهمية عقب هذه الأرقام!.

يرى الدكتور شحرور نفسه في مقام كبار العلماء، بين أبي بكر الصديق، وأينشتاين! ويشبه موقفه بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام مع قومه! اللهم إنا نسألك اللطف والسلامة!

***

النتائج العامة للبحث

1. تشكل هذه الأفكار الخطيرة التي يطرحها الدكتور شحرور تغييراً جذرياً لقواعد الدين الإسلامي الحنيف، ومصادره، وسبل مفهمه، ومقاصده!.

2. **لم يعتمد الدكتور شحرور منهجاً موضوعياً مستقيماً في البحث والاستقراء، والتحليل والاستنتاج، فجاءت نتائج بحوثه مضطربة مشوشة، وذلك لتناقض المقدمات التي انطلق منها.**

3. لم يراع الدكتور شحرور قواعد البحث العلمي، شكلاً من حيث: التوثيق، وتبيان فرضيات البحث، وأسئلته، وحدوده، والدراسات السابقة، ومراجعه ... إلخ.

4. **كما أنه لم يراع الموضوعية في البحث، فهو يهاجم العلماء، ويستخدم التعابير والألفاظ النابية في سابقة خطيرة في البحث العلمي.**

5. ضرب الدكتور شحرور عرض الحائط بقواعد وعلوم اللغة العربية، وفسر كثيراً من المصطلحات القرآنية وفق هواه، **وخالف أبا علي الفارسي، وابن فارس، والجرجاني، وأصحاب المعاجم، ولم يعتمد نظرية لغوية صحيحة في تفسير النصوص الأدبية!**

6. أكثر علماء اللغة المحدثين يثبتون الترادف، والكاتب ليس له معرفة عميقة بعلم اللغة الحديث كما أثبتنا بالأدلة، وهو يُدلس على العامة وغير المختصين بأنه يعتمد المنهج اللغوي الحديث!.

7. **معرفة الدكتور شحرور وأمثاله بالتراث الإسلامي ضعيفة أساساً، والمرء عدو ما يجهل، ولذلك نجد لديه جرأة عجيبة ضد الفقهاء، والعلماء، والمفسرين، والأمة بأسرها.**

8. وقد ولدت مشاعر الثورة والتجديد إحساساً بتضخم الذات عند الدكتور شحرور، واعتداداً بآرائه فقط، فهو يضع نفسه بين أبي بكر الصديق وأينشتاين، ويشبه نفسه مع خصومه بموقف سيدنا إبراهيم مع قومه!

9. وكانت مجمل آرائه نتيجة لتأثره بالثقافات الوافدة، وبخاصة من الاتحاد السوفيتي.

10. أسقط الدكتور شحرور مكانة السنة النبوية، فجاء بمشروع ناقص، لأن السنة لا غنى عنها في أي مشروع إسلامي.

11. **إن معظم اجتهادات وتجديدات الدكتور شحرور وأمثاله لا تخدم الدين، ولا قضايا الأمة، وهي تزرع الشقاق بين المسلمين! وتحقق أحلام أعدائهم في إضعافهم فكرياً، وغزوهم والاستيلاء على مقدراتهم.**

12. التبديل والتغيير في أصول الدين هو بمثابة اختراع دين جديد! وهو من أخطر ما يواجه الأديان، واتباع المحرفين وتقليدهم من أسباب الزيغ والضلال.

13. الطبيب أو المهندس لا تخوله رتبته العلمية في تخصصه أن يتكلم في تخصص آخر لم يلم فيه، وكذلك رجل الدين لا تخوله دراسته أن يتكلم بالعلوم التجريبية المعاصرة، لذا يجب على كل باحث احترام التخصصات العلمية الأخرى، وأن يتكلم بما يجيده فقط.

14. إن ثقافة طالب العلم في الكليات العلمية (طب، هندسة، علوم ...) في أمور اللغة والدين والآداب تتوقف مدرسياً في نهاية المرحلة الثانوية العامة وقبل دخوله للجامعة! وثقافة الثانوية العامة لا تخوله الخوض في علوم: التفسير، والحديث، واللغة، والبلاغة، والتاريخ، والعقيدة، والسيرة، والفقه، والفتوى، والاجتماع، والحضارة، **لكي يتحدث فيها جميعاً، وينقد علماءها.**

15. **وكذلك ثقافة طالب العلم في الكليات الأدبية** (اللغات، والآداب، والتربية، والشريعة، والفلسفة...) تتوقف مدرسياً في نهاية المرحلة الثانوية العامة (أو في نهاية الأول ثانوي) ، وذلك قبل دخوله للجامعة ، وثقافة الثانوية العامة لا تخوله الخوض في علوم: الطب، والهندسة، والفلك، والرياضيات، والفيزياء، والعلوم، والبرمجيات، وغير ذلك.

16. ويمكن للإنسان أن يستكمل تحصيله في العلوم الأخرى من غير تخصصه، بالمطالعة والبحث الدؤوب، لكن هذا لا يخوله أن يصبح متحدثاً رسمياً حولها، وأن يكتب ويؤلف فيها، إلا بعد عرض نتاجه على المتخصصين لإبداء رأيهم فيما يكتبه، وإلا وصلنا إلى فوضى علمية لا أول لها ولا آخر!

17. **وإذا أصر إنسان أن يخوض في كل العلوم دون امتلاك أدواتها، والعودة إلى مرجعياتها، فهذا هو الجهل المركب!** وربما جاء بآراء متهافتة لا وزن لها في ميزان أهل العلم، ولا تساوي قيمتها قيمة الورق الذي كتبت عليه!.

18. كان للعلماء حساسية كبيرة تجاه الرأي[567]، هذا إذا كان الرأي قائماً على الاجتهاد الشرعي في حالة عدم وجود نص، فكيف إذا كان قائماً على مجرد الهوى والتحريف؟ قال بعض العلماء: (ما تكلف فيه السلف فالسكوت عنه جفاء، وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف)[568].

19. على أن التكلف والرأي قد يجعلان المرء يشعر بالزهو والفرح، ويظن بنفسه القدرة على التجديد حيث عجز الآخرون، وكل هذا وهم لا حقيقة له، والعاقل من عرف قدر نفسه، ولم تزل به قدمه، قال الإمام الغزالي: **(قال ابن عباس رضي الله عنهما: الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها)**[569].

20. **الموقف الخاطئ ليس في رفض النص المقدس مطلقاً فقط، بل هو يشمل أيضاً قبول النص ظاهرياً، ثم التلاعب بمحتواه، إما بتحريف الألفاظ، وهذا عمل الأغبياء، أو بتحريف الدلالات والمعاني مع بقاء الألفاظ كما هي، وهذا عمل الدهاة، ويتم ذلك بإعطاء النص مدلولاً يغاير ما تعرفه لغة العرب،** أو ما تعارف عليه الناس في السلف الأول. وفي الحالتين: فالتحريف باب للفتنة، وسبيل للفساد والإفساد في الأرض!

21. **المنهج السليم في فهم الدين الحنيف يقوم على الاتباع، وليس الابتداع،** قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64].

***

(567) – انظر: الحوار بين جعفر الصادق وأبي حنيفة في مناقب أبي حنيفة، للموفق أحمد المكي، (1/115–118، 148).

(568) – إحياء علوم الدين، (1/106)، دار الخير.

(569) – المصدر السابق، (1/106).

أهم التوصيات

أولاً: ينبغي للمرء أن لا يخوض في شيء لا يتقنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36].

ثانياً: يجب أن تكون هنالك مرجعيات علمية معتمدة في كل علم وفن، يُرجع إليها عند الاختلاف.

ثالثاً: ينبغي أخذ العلوم الدينية والإنسانية عن مراجعها الثقات، وليس من أي حاطب ليل، ولا من أي كتبٍ كانت، وإنما من الكتب المنهجية الصحيحة الموثوقة في كل فن، ولا تكون الكتب بمعزل عن أصحابها إذا كانوا أحياء(570)، وإذا كان صاحب الكتاب متوفى؛ قُرئ كتابه على شيخٍ، أو أستاذ متخصص في تدريس هذا الكتاب، فالعلم إسناد ومتون، وليس بقراءة الكتب وحدها يصير المرء عالماً، كما لا يصير من قرأ كتب الطب طبيباً، ولا من قرأ كتب الهندسة مهندساً، إلا بعد أن يمر في الجامعات، ويُمتحن فيها، وتجيزه تلك الجامعات. **وينبغي توخي الحذر أيضاً في أخذ المعلومات المتخصصة من غير مظانها الأصلية، كالصحف والمجلات ووسائل الإعلام.**

رابعاً: على مراكز البحوث والجامعات أن تبذل مزيداً من الاهتمام في تطوير مناهج البحث العلمي، وتشجيع البحث الأصيل، والباحثين المبدعين.

خامساً: ينبغي إعداد جيل من الباحثين يجمع بين ثقافة التراث، وثقافة العصر الحديث.

سادساً: كل امرئٍ حر بأفكاره، أما تسويق الدجل والضلال لإحداث فوضى دينية وفكرية، باسم البحث العلمي، والتجديد، فهذا لا ينبغي، لأن فيه خداعاً وتلبيساً على العامة.

---

(570) – في هذا الصدد نذكر ما قاله أبو حيان النحوي المشهور :

يَظُنُّ الْغُمْر أَنَّ الْكُتْبَ تَهْدِي / أَخَا فَهْـمٍ لإدراكِ الْعُلُومِ

وَمَا يَدْرِي الْجَهُولُ بأَنَّ فِيْها / غوامضَ حَيَّرَتْ عَقْل الْفَهِيْمِ

إِذَا رُمْتَ الْعُلُومَ بِغَيْرِ شَيْخٍ / ضَلَلْتَ عَنِ الْصّراطِ الْمُسْتَقِيْمِ

وَتَلْتَبِسُ الأمورُ عَلَيْكَ حَتَّى / تكونَ أَضَّلَ مِنْ تُوْمَا الْحَكِيْمِ

سابعاً: ينبغي أن يُحاسبَ نفسَهُ كلُّ من سوَّقَ الدجلَ والخرافة والتحريف والتزوير باسم التجديد في الدين، أو البحث العلمي، فأفحش الكذب أن تخدع القارئ الذي يحسن الظن فيك كمؤلف، وأنت تدس له السمَّ بالعسل.

ثامناً: على رجال العلم والقلم والبيان أن يقولوا كلمتهم في التلبيس والتزوير، الذي يلبس ثياب العلم زوراً وبهتاناً.

والله الموفق.

****

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: الكتب

1. اتجاهات تجديدية متطرفة في الفكر الإسلامي المعاصر، د. محمد رفعت زنجير، منار للنشر والتوزيع بدمشق ومؤسسة علوم القرآن ببيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2001م.
2. الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، شركة مصطفى بابي الحلبي بمصر، الطبعة الرابعة، 1398هـ/ 1978م. وطبعة دار الفكر، بيروت، 1416هـ/ 1996م.
3. إحياء علوم الدين، علق عليه جمال محمود، ومحمد سيد، (1/59-60)، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1420هـ/ 1999م. وطبعة دار الخير، دمشق، الطبعة الأولى، 1411هـ/1990م.
4. الأسس الجمالية في النقد العربي، ص(250)، دار الفكر العربي، الطبعة الثالثة، 1974م.
5. أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أبو سليمان، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، 1412هـ/1992م.
6. أساس البلاغة للزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت.
7. الإسلام والإيمان . منظومة القيم، د. محمد شحرور، توزيع الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 1996م.
8. أصول البحث العلمي ومناهجه، د. أحمد بدر، المكتبة الأكاديمية.
9. أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1406هـ/ 1986م.
10. الإكسير في علم التفسير، للطوفي، تحقيق د. عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة.
11. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين درويش، دار اليمامة، الطبعة السادسة، 1419هـ/1999م.
12. الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزِرِكْلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1989م.
13. الأعمال النثرية الكاملة، نزار قباني، منشورات نزار قباني، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.

14. الإنسان ذلك المخلوق العجيب، د. سمير يحيى الجمال، مكتبة المدبولي، القاهرة.
15. الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، شرح د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الخامسة، 1403هـ/ 1983م.
16. البحث العلمي في العلوم السلوكية، جودت شاكر محمود، مكتبة الانجلو- المصرية عام 2007.
17. البداية والنهاية، لابن كثير، بتحقيق د. أحمد أبو ملحم مع آخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ/1985م.
18. البحر المحيط، لأبي حيان، بعناية زهير جعيد، دار الفكر، 1412هـ/1992م.
19. بردة المديح المباركة، للبوصيري، مكتبة محمد المهايني، دمشق.
20. بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود، شوقي عبد الناصر، الطبعة الثالثة.
21. البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة.
22. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، للألوسي، شرح محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت.
23. البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الرابعة، 1395هـ/ 1975م.
24. تاريخ آداب العرب، للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1394هـ/ 1974م.
25. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1971م.
26. تجفيف منابع الإرهاب، الدكتور محمد شحرور، توزيع الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2008م.
27. التحريف المعاصر في الدين تسلل في الأنفاق بعد السقوط في الأعماق، عبد الرحمن الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1418هـ/1997م.
28. تفسير الجلالين، للمحلي والسيوطي، طبعة مؤسسة الريان.
29. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق سامي محمد سلامة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، 1420هـ/ 1999م. وطبعة دار الخير، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م.
30. التلخيص في علوم البلاغة، للقزويني، شرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي.
31. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، دار الفكر، بيروت.

32. جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر، بيروت، 1420هـ/ 2000م.

33. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت.

34. جامع الدروس العربية، للغلاييني، المكتبة العصرية، صيدا، الطبعة 33، 1417هـ/ 1997م.

35. الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، للسيوطي، دار الفكر، دون ذكر لتاريخ النشر ومكانه.

36. حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، دار المعرفة، بيروت.

37. حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مكتبة الأسرة 2000، بإشراف د. سمير سرحان، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

38. حياة الحيوان الكبرى، كمال الدين الدميري، دار الفكر بيروت. د. ت.

39. الخصائص، لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الرابعة.

40. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق د. أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1406هـ / 1986م.

41. دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1980م.

42. الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، د. علي الصلابي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1426هـ/ 2005م.

43. الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، نشرته مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1984م.

44. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، 1983م.

45. رسالة الغفران، تحقيق: د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، الطبعة السابعة.

46. روح المعاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1405هـ/1985م.

47. سراج البرية في معرفة بعض الأخطاء الشائعة في اللغة والأساليب والبحوث والتحقيقات العلمية، د. محمد رفعت زنجير، نشر المنتدى الإسلامي بالشارقة، الطبعة الأولى، 1435هـ/ 2014م.
48. السنة الرسولية والسنة النبوية، د. محمد شحرور، دار الساقي، بيروت، 2012م.
49. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثانية، 1398هـ/1978م.
50. سيدنا محمد رسول الله، شمائله الحميدة وخصاله المجيدة، عبد الله سراج الدين، مطابع الأصيل، حلب، الطبعة الرابعة 1405هـ /1985م.
51. شرح الطحاوية، صدر الدين علي بن أبي العز الحنفي، تحقيق أحمد شاكر، نشر وزارة الشئون الإسلامية والدعوة والإرشاد، الرياض، 1418هـ.
52. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن، للطيبي، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، 1425هـ / 2004م.
53. شرح عقود الجمان في المعاني والبيان، جلال الدين السيوطي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1358هـ/ 1939م.
54. شروح التلخيص (عروس الأفراح)، للسبكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر. د. ت.
55. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، علق عليه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1418هـ/ 1997م.
56. علم اللغة، علي عبد الواحد الوافي، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة التاسعة، 2004م.
57. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د. محمود السعران، دار الفكر العربي.
58. علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، 1404هـ/ 1984م..
59. علم نفس النمو الطفولة والمراهقة، د. علي فالح الهنداوي، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات، الطبعة السادسة، 1427هـ/ 2007م.

60. العمدة في صناعة الشعر ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1983م.
61. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، اعتنى به أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، 1426هـ/ 2005م.
62. الفروق اللغوية، حققه محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة.
63. في الأدب الإسلامي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة.
64. في الدولة والمجتمع، الدكتور محمد شحرور، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
65. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي، دار المعرفة، بيروت.
66. في اللهجات العربية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثامنة، 1992م.
67. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1407هـ/ 1987م.
68. القصائد البصيرية، منشورات المكتبة العصرية.
69. قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون دِيوي، حياة وآراء أعاظم رجال الفلسفة في العالم، وِلْ دْيورانت، ترجمة د. فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط4، 1402هـ/ 1982م.
70. القصص القرآني قراءة معاصرة، مدخل إلى القصص وقصة آدم، د. محمد شحرور، دار الساقي، بيروت، 2010م.
71. قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د. محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، بيروت، 1404هـ/ 1984م.
72. الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس محمد بن يزيد، المعروف بالمبرد النحوي، (ت285هـ). مكتبة المعارف، بيروت، د.ت.
73. كتاب أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتر، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1403هـ/ 1983م.
74. كتاب الأمالي، أبو علي القالي، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1407ه/1987م.

75. كتاب الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1388هـ/1969م.
76. كتاب دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة،
77. الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، الدكتور المهندس محمد شحرور، توزيع الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الثانية، 1990م.
78. كتاب الكبائر، للذهبي، علق عليه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة الفرقان، عجمان، الطبعة الثانية، 1424هـ/ 2003م.
79. الكتاب، سيبويه؛ تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة 1408هـ/ 1988م.
80. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود ابن عمر الزمخشري، صححه مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، 1406هـ/ 1986م.
81. كشف الظنون، لحاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
82. كيف تكتب بحثاً أو رسالة، للدكتور أحمد شلبي. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة السادسة، 1968م.
83. اللزوميات، لأبي العلاء المعري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1406هـ/ 1986م.
84. لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط1، 1410هـ/1990م.
85. ما بعد ذهنية التحريم، صادق جلال العظم، دار المدى، دمشق، الطبعة الأولى، 1997م.
86. مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم النجدي، الطبعة الأولى، 1398هـ.
87. مختارات البارودي، من شعر بني أمية وبني العباس، للشاعر الكبير محمود سامي باشا البارودي، نشره الأستاذ إبراهيم أمين فُودَه، ضمن مشروع المكتبة الجامعة، رقم (2)، مكة المكرمة، ط1، 1404هـ/1984م.
88. مدخل لفهم اللسانيات، روبرت مارتان، ترجمة د. عبد القادر مهيري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م.

89. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للقاري، المكتبة الإمدادية، باكستان.

90. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مع آخرين، المكتبة العصرية، صيدا، 1986م.

91. مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة. 1985/1405.

92. مصابيح السنة، للبغوي، إشراف إبراهيم رمضان، دار القلم، بيروت.

93. المصفى في أصول الفقه، أحمد الوزير، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ/1996م.

94. معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، ضبطه محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ/ 1988م.

95. المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م.

96. معجم روائع الحكمة والأقوال الخالدة، بإشراف د. روحي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 2001م.

97. المعجم الفلسفي، د. مصطفى حسيبة، دار أسامة، عمان، الطبعة الأولى، 2009م.

98. معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ/ 1979م.

99. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، مراجعة د. إبراهيم أنيس، وآخرون، إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، 1985م.

100. المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

101. مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، 1424هـ/ 2004م.

102. مناقب أبي حنيفة، للموفق أحمد المكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1401هـ/1981م.

103. مناهج البحث العلمي، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثالثة، 1977م.

104. مناهج النقد الأدبي الحديث رؤية إسلامية، د. وليد قصاب، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 2009م.

105. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

106. الموافقات، للشاطبي، شرح عبد الله دراز، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009م.

107. موجز تاريخ النقد الأدبي، فيرنون هول، ترجمة: د. محمود شكري مصطفى، وعبد الرحيم جبر. مكتبة الإمارات، العين، الطبعة الثانية، 1982م.
108. الموجز في مراجع التراجم والبلدان والمصنفات وتعريفات العلوم، د. محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1406هـ/1985م.
109. موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، سعدي أبو جيب، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر.
110. موسوعة الفلسفة، د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1984م.
111. نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي فقه المرأة، الدكتور محمد شحرور، توزيع الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 2000م.
112. النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، د. أحمد كمال زكي، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م.
113. النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة.
114. النظرية المادية في المعرفة، لروجيه غارودي، تعريب إبراهيم قريط، دار دمشق، دمشق.
115. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تحقيق محمد عبد الكريم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ/ 1987م.
116. الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، مكتبة دار الشرق، بيروت، الطبعة الثالثة.

ثانياً: الدوريات

مراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم إحدى وجوه إعجازه، د. محمد رفعت زنجير، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد 59 شهر كانون الأول، 2004م.

ثالثاً: المواقع الإلكترونية

1. مصادر الإمام عبد القاهر في بلاغته (رسالة ماجستير في جامعة أم القرى 1407هـ)، هند جميل نايته، ص(442). الرسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة وموجودة على الرابط: https://bit.ly/2T4Uf5f

2. التفكيك منهج خطير في التفسير، د. وليد قصاب، موقع الألوكة، انظر الرابط: https://bit.ly/2GHMVr9

3. مقال: (قاعدة لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان)، د. أشرف عبد الرحمن، موقع الألوكة، انظر الرابط: https://bit.ly/2Kg1CnS

4. دليل المصطلحات الواردة في التنزيل الحكيم، د. شحرور، الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور، انظر الرابط: https://shahrour.org/?page_id=12

5. المنهج المتبع في التعامل مع التنزيل الحكيم وفق القراءة المعاصرة، د. شحرور، الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور، انظر الرابط: https://shahrour.org/?page_id=3

6. مفهوم الحرية في الإسلام، الموقع الرسمي للدكتور محمد شحرور، انظر الرابط: https://shahrour.org/?p=1391

7. من هم أمة لا إله إلا الله، د. شحرور، الموقع الرسمي للدكتور شحرور، انظر الرابط: http://shahrour.org/?p=14280

8. فتوى: كتابة الحديث وتدوينه، موقع إسلام ويب، على الرابط: https://bit.ly/2KnaeI2

9. بيان هيئة كبار علماء السعودية في إدانة الإرهاب، موقع سبق، 17 سبتمبر 2014، على الرابط: https://sabq.org/iolgde

10. الوصايا العشر، موقع المعرفة، على الرابط: https://bit.ly/2KdsowS

11. الجزء الأول: عوامل القومية/ ساطع الحصري، موقع الصوت العربي الحر، على الرابط: https://bit.ly/2YP3MTi

12. ماهي الناصية؟ موقع موضوع، على الرابط: https://bit.ly/2OVuZQr

13. تجميعة 50 كتاباً عن الحجاب، وخطر التبرج والسفور، ملتقى أهل الحديث، على الرابط: https://bit.ly/2KANR1V

****

الفهـــــــرس

الإهــداء 5

المقدمة 7

تمهيـــد حول المنهجية العلمية وقواعد البحث العلمي 19

أولاً: الإلمام بقواعد العلوم واحترام أهل الاختصاص 19

ثانيا: احترام قواعد البحث العلمي 20

ثالثاً: الموضوعية 20

رابعاً: نتائج طبيعية وليست نتائج مسبقة للبحث 20

خامساً: إطار محدد للتجديد 21

سادساً: احترام النصوص المقدسة 21

سابعاً: الغرض من التأليف 22

ثامناً: ملاحظات وأخطاء منهجية شائعة في البحث العلمي 23

الفصل الأول: دراسة منهج الدكتور شحرور 27

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منهج الدكتور شحرور الذي ذكره في: (الكتاب والقرآن قراءة معاصرة). 27

المسألة الأولى: الموقف من المنهجيات العربية والإسلامية التاريخية والسائدة 27

المسألة الثانية: منهج جديد للتعامل مع القرآن 29

المبحث الثاني: منهج الدكتور شحرور الذي ذكره واعتمده في موقعه الشخصي على شبكة الإنترنت 50

النّظام المعرفي المتبع 60

أولاً: الإيمانيات 62

ثانياً: الأوّليّات 77

ثالثاً: اللغويّات 79

رابعاً: المنهج الفكري 97

خامساً: أسس التشريع المعاصر 120

نتائج الفصل الأول 167

الفصل الثاني: مصطلحات الدكتور شحرور كما ذكرها في موقعه على شبكة الإنترنت 171

نتائج الفصل الثاني 297

الفصل الثالث: دراسة محتوى فكر الدكتور شحرور 299

وفيه تسعة مباحث:

المبحث الأول: الموقف من القرآن الكريم وعلومه 301

المسألة الأولى: أحكام عامة 301

المسألة الثانية: نماذج من الاجتهادات التفسيرية الحديثة 305

المسألة الثالثة: قضية الإعجاز القرآني 321

المسألة الرابعة: الموقف من علم التفسير وكتبه 324

المبحث الثاني: الموقف من السنة النبوية وعلومها 327

المسألة الأولى: تعريف السنة 327

المسألة الثانية: التكذيب بالأحاديث الصحيحة 327

المسألة الثالثة: التشكيك في رواة السنة والغرض منه 333

المسألة الرابعة: التشكيك في الصحيحين 336

المسألة الخامسة: الموقف من علوم الحديث 338

المسألة السادسة: الموقف من شخص النبي صلى الله عليه وسلم 341
المسألة السابعة: ضوابط في التعامل مع السنة الشريفة 342
المبحث الثالث: الموقف من الإجماع 344
المبحث الرابع: الموقف من القياس 346
المبحث الخامس: الموقف من التراث العلمي والفقه 348
المسألة الأولى: الموقف من التراث 348
المسألة الثانية: الموقف من الفقه 350
المبحث السادس: الموقف من السلفية والفرق الإسلامية 354
المسألة الأولى: رفض منهج أهل السنة 354
المسألة الثانية: الهجوم على السلفية 357
المسألة الثالثة: الهجوم على الصوفية والفقهاء 360
المسألة الرابعة: الموقف من العلماء وأهل الإفتاء 366
المسألة الخامسة: الموقف من الحكام المسلمين 368
المبحث السابع: من اجتهادات الدكتور شحرور 373
المسألة الأولى: في العقيدة 373
المسألة الثانية في الفكر الإسلامي: معنى حاكمية الله تعالى 374
المسألة الثالثة: تكفير المسلمين وأسلمة الكافرين 378
المسألة الرابعة: عدم التمييز بين الجهاد والإرهاب والتزكية 382
المسألة الخامسة: أسلوب التغيير 389
المسألة السادسة: الروح 390
المبحث الثامن: من فقه الدكتور شحرور 393
المسألة الأولى: الموقف من الفنون 393
المسألة الثانية: أحكام الطلاق 394
المسألة الثالثة: العلاقات الاجتماعية 394
396

المسألة الرابعة: الحجاب 397
المسألة الخامسة: عقوبة السحاق واللواط 399
المسألة السادسة: عقوبة الزنا للمحصن 401
المبحث التاسع: ملاحظات علمية مختلفة 401
الملاحظة (1): حول تغيير المفاهيم 402
الملاحظة (2): حول الاستبداد ومسألة الترادف 404
الملاحظة (3): الصدق والجمال وصدق الخبر 410
الملاحظة (4): حول لغة القرآن الكريم 412
الملاحظة (5): حديث عن البلاغة 414
الملاحظة (6): استخدام أسماء الجاهلية التي بدلها النبي عليه الصلاة والسلام 414
الملاحظة (7): أخطاء في ترتيب الآيات 415
الملاحظة (8): أرقام فلكية ومجازر وهمية 417
الملاحظة (9): أهمية التواضع 418
الملاحظة (10): نقد ابن كثير بغير حق 419
الملاحظة (11): الإحالات 420
نتائج الفصل الثالث

الخاتمة 427
فهرس المصادر والمراجع 438

تم الكتاب

والحمد لله رب العالمين

من آثار المؤلف

1. أهمية الإيمان وآثاره في بناء الفرد والمجتمع، مكتبة الثقافة بمكة،1409هـ / 1989م. وقد قدم له الشيخ السيد سابق، والدكتور عبد الله علوان.

2. في ظلال اليرموك، مسرحية ضمن سلسلة مسرحيات تاريخية هادفة، قرظها الدكتور عوض الله الداروتي، ، ونوهت بها مجلة التجديد (ماليزيا)، ومجلة إسلامية المعرفة (أمريكا)، ومجلة الأدب الإسلامي بالرياض. ماليزيا 1997م. وصدرت الطبعة الثانية، عن دار المنار بدمشق، ودار القرآن الكريم بيروت 2001 م.

3. الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، ضمن سلسلة مسرحيات تاريخية هادفة، وقرظها الأستاذ الدكتور مجاهد مصطفى بهجت، ونوهت بها مجلة التجديد (ماليزيا)، ومجلة إسلامية المعرفة (أمريكا)، ومجلة الأدب الإسلامي بالرياض. ماليزيا 1997م. وصدرت الطبعة الثانية، عن دار المنار بدمشق، ودار القرآن الكريم بيروت 2001م.

4. الإمام الطيبي حياته وجهوده العلمية، نشر دار (FAJAR ULUNG SDN.BHD) ماليزيا1998م. وقدم له الشيخ علي الطنطاوي، والأستاذ الدكتور عبد اللطيف خليف نائب مدير جامعة الأزهر الشريف.

5. فتح الجليل للعبد الذليل، للسيوطي، (تحقيق) نشر دار (FAJAR ULUNG SDN.BHD) ماليزيا1998م. وقرظه الأستاذ الدكتور عبد القهار العاني، رئيس قسم الدراسات القرآنية والحديثية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وتم طبعه للمرة الثانية بمؤسسة الريان، بيروت، 2002م، وطبعته بعد ذلك دار اقرأ دمشق، 2002م.

6. اتجاهات تجديدية متطرفة في الفكر الإسلامي المعاصر، عن دار المنار بدمشق، ودار القرآن الكريم بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ / 2001م.

7. فن التشبيه في الشعر العباسي ، دراسة تحليلية للعوامل المؤثرة في صور التشبيه في العصر العباسي، وتطور تلك الصور وقيمتها الأسلوبية من خلال مختارات البارودي، (رسالة الدكتوراة) دار إقرأ، دمشق، ودار الأمان، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 1423هـ / 2002م.

8. الاتجاه المعاكس في الأدب العربي، دار قتيبة، دمشق، 2003م.

9. من وحي الحياة، دار اقرأ، دمشق 2006م.

10. مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن الكريم، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي، الطبعة الأولى، 1428هـ/2007م.

11. دراسات في البيان النبوي، يشمل مناقشة موضوعات علم البيان في الحديث النبوي الشريف من خلال شرح الإمام الحسين لطيبي على مشكاة المصابيح والمسمى بكتاب الكاشف عن حقائق السنن (رسالة الماجستير)، دار اقرأ، دمشق، الطبعة الأولى، 1428هـ/2007م

12. سلسلة دراسات حضارية استراتيجية، **صدر منها (4) أجزاء** عن دار اقرأ ودار التوفيق بدمشق وبيروت 2003م.

13. الاختلاط ، دار اقرأ، دمشق، 2009.

14. سورة الكوثر الإعجاز النفسي والبلاغي، (بالمشاركة مع د. عمر الكبيسي) دار اقرأ، دمشق، الطبعة الأولى، 2009.

15. دراسات في الإعجاز الخالد، دار اقرأ، دمشق، الطبعة الأولى، 2010.

16. ديناميكية القرآن، أحد وجوه إعجازه، دار اقرأ، دمشق، الطبعة الأولى، 2010.

17. سبائك الذهب في فضائل العرب، دار اقرأ، دمشق، الطبعة الأولى، 2011. وطبعته مرة أخرى نور للنشر، ديوتشلاند، ألمانيا، 2017.

18. الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شورى أم وصاية، دار اقرأ، الطبعة الأولى، دمشق.، 2011 .

19. أكبر الكبائر الشرك بالله، دار اقرأ، دمشق، الطبعة الأولى، 2011 .

20. في لجة التصوف، دار اقرأ، دمشق،الطبعة الأولى، 2014 .

21. سراج البرية في معرفة بعض الأخطاء الشائعة في اللغة والأساليب والبحوث والتحقيقات العلمية، المنتدى الإسلامي في الشارقة، الطبعة الأولى، 1435هـ/ 2014م.

22. دراسات في البلاغة النبوية الشريفة، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، دبي، الطبعة الأولى، 1436هـ/2015م.

23. دراسات منهجية من فيض الأصلين الكتاب والسنة، كتاب إلكتروني منشور في موقع الألوكة على الرابط: /http://www.alukah.net/library/0/106270

24. لغة الجسد في الشعر العربي، قراءة أدبية بلاغية نقدية، نور للنشر، ديوتشلاند، ألمانيا، 2017م. (في الأصل بحث محكم).

وأغلب هذه الكتب منشورة أيضا على الشبكة العنكبوتية في مواقع متعددة.

والحمد اللّٰه تعالى أولاً وآخراً

اللهم لك الحمد ولك الشكر كما ينبغي

لجلال وجهك وعظيم سلطانك